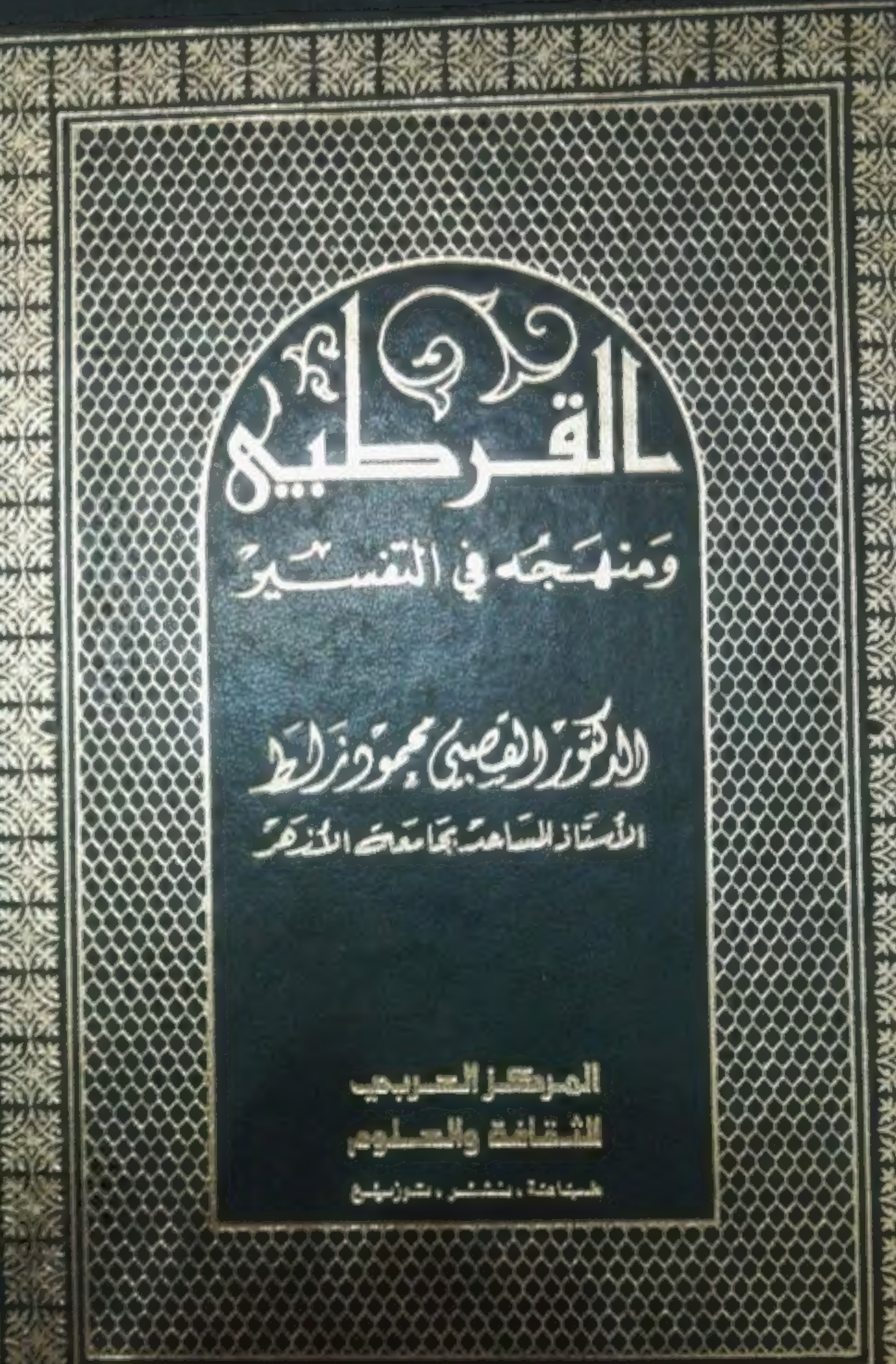

القرطبي
ومنهجه في التفسير
الدكتور القصبي محمود زلط
الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر
المركز العربي
للثقافة والعلوم
طباعة . نشر . توزيع

القرطبي

ومنهجه في التفسير

تأليف

الدكتور القصبي محمود زلط
الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر

GAZİANTEP ÜNİVERSİTESİ
İLAHİYAT FAKÜLTESİ
İsmail YILMAZ
Kütüphanesi



جميع الحقوق محفوظة

المركز العربي
للثقافة والعلوم

طباعة . نشر . توزيع

ص. ب: ٥٧٣٩ ـ ١٤ بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله سيد الخلق أجمعين.

« وبعد » .

فإن القرآن مأدبة[1] لا يشبع منها القراء والدارسون مهما تناولوا منها وأطالوا الجلوس حولها . بل كلما تناولوا واقتطفوا من ثمارها تفتحت شهيتهم وتجددت عندهم الرغبة فى الاستزادة . ولا عجب فالقرآن مأدبة الله وكلامه الذى لا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد . ومن هنا كثرت الدراسات حول كتاب الله وتشعبت على مر العصور فظهر من العلماء من تناول إعرابه وظهر منهم تناول أحكامه وظهر منهم من تناول أسباب نزوله ، وظهر منهم من تناول تفسيره .

وفى القرن السابع الهجرى نبغ فى التفسير عدد من المفسرين كان من بينهم « أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح القرطبي » ولقد اخترته لرسالتى لأننى أعجبت بالقرطبي منذ كنت طالبا : أعجبنى فيه أنه لا يتناول فى تفسيره مسألة علمية . ولا يطرق بحثا ولا يعقد مناقشة إلا أجاد فى كل ذلك ووفق . وأعجبنى فيه أن مسائله وبحوثه ومناقشاته — فى كثير من الأحيان —

---

(١) مأدبة بالضم: الصنيع يصنعه الانسان فيدعو إليه الناس فكأن القرآن صنيع صنعه الله عز وجل للناس لهم فيه خير ومنافع .
انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٥ وما بعدها .

لا تخرج بتفسيره إلى حد الاستطراد الممل ، بل تنير الطريق لمن يريد أن يستكشف ألفاظ القرآن ويعرف معانيها . وكنت كلما تقدمت بى السن ألمس هذه الحقيقة وأحس أن الكتاب موسوعة علمية رائعة . فلما وفقنى الله فى الدراسات العليا ، وآن لى أن أكتب بحثا قفز إلى ذهنى ذلك الإعجاب الذى شب معى « بالقرطبى » فلم أتردد أن يكون موضوع هذه الرسالة « القرطبى ومنهجه فى التفسير » ومما قوى ذلك فى نفسى أنى وجدت هذا الموضوع بكرا لم يتناوله أحد ولم يكتب عنه باحث .

ولقد قسمت هذه الرسالة إلى ثلاثة أبواب وخاتمة . أما الباب الأول فقد جعلته لدراسة « القرطبى وبيئته » ويتكون هـــذا الباب من خمسة فصول . ترجمت فى الفصل الأول « للقرطبى » وشيوخه ، وفى الفصل الثانى تحدثت عن أخلاق القرطبى وثقافته ، وفى الفصل الثالث تحدثت عن عقيدته ، وفى الفصل الرابع تناولت الحركة العلمية فى عصر « القرطـــبى » ثم تناولت فى الفصل الخامس الأحوال السياسية فى عصره أيضاً .

وأما الباب الثانى : فقد عقدته لبيان المصادر التى اعتمد عليها القرطبى فى تفسيره ، ولدراسة منهجه ، والأسس التى قام عليها ذلك المنهج ، ثم لبيان القيمة العلمية لتفسيره وتأثر المفسرين به ، وجاء هذا الباب فى « أحـــد عشر فصلا » .

تحدثت فى الفصل الأول عن مصادره ، وفى الفصل الثانى تحدثت عن موقف « القرطبى » من قضية التفسير المأثور والتفسير بالرأى ، ثم تحدثت عن منهجه فى التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين .

وفى الفصل الثالث بينت موقف القرطبي من القراءات الشاذة والمتواترة وطريقته فى كل منهما ، وفى الفصل الرابع تناولت بعض المباحث اللغوية التى استخدمها القرطبي فى تفسيره وبينت أنه أبرز كثيراً من مسائل النحويين وآرائهم، واعتمد عليها فى توضيح الآيات ، ثم تحدثت عن استشهاده بالشعر فى مجال النحو والألفاظ الغريبة ، وبينت موقفه من الشعر المصنوع والمجهول الذى لا يعرف قائله. وأخيراً تحدثت عن استشهاده بالحديث فى هذا المجال وموقفه من هذه القضية .

وفى الفصل الخامس تناولت موقف القرطبي من البلاغة وبينت أنه كان لا يتوسع فى الأسرار البلاغية.

وفى الفصل السادس تحدثت عن التفسير الرمزى ، وموقفه من التفسير الرمزى الذى استعملته الصوفية ، وموقفه من التفسير الرمزى الذى استعملته الباطنية ! ثم تحدثت عن أشهر مصادره من التفسير الصوفى .

وفى الفصل السابع تناولت الأحكام فى تفسير القرطبي — فتحدثت عن موقف القرطبي من الفقه المالكى ، ومن الفقه المقارن ، ثم من الفقه المبنى على أحاديث الخلاف — وبينت أن القرطبي لم يتعصب لمذهبه ولم يلتو بأدلة الخصم . بل كان يناصر ما يراه حقا ، وفى الفصل الثامن بينت أن القرطبي أبرز فى تفسيره كثيرا من قواعـــد الأصول ولكنه لم يتوسع فيها توسع الأصوليين ، بل عرض لها فى صورة تساعد على فهم الأحكام وتوضيحها .

وفى الفصل التاسع تحدثت عن منهج القرطبي فى الحديث، فتناولت موقفه من تخريج الأحاديث ، وموقفه من تصحيح الأحاديث وتضعيفها، وموقفه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة .

وفى الفصل العاشر تحدثت عن موقف القرطبى من الاسرائيليات .

وفى الفصل الحادى عشر تناولت القيمة العلمية لتفسير القرطبى وتأثر المفسرين به .

أما الباب الثالث والأخير : فقد عقدته لبيان مدى تأثر القرطبى بالقاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية ، وناقشت ما أثير حول هذه القضية .

وأما الخاتمة فقد ذكرت فيها ما توصلت إليه من نتائج ، وما ناقشته من آراء وأثرته من احتمالات .

ولعلى أكون قد قدمت بهذا البحث المتواضع للمكتبة الإسلامية شيئا جديداً .. وأسال الله تبارك وتعالى أن ينفع به ، وأن يغفر لى خطئى وتقصيرى إنه أهل التقوى وأهل المغفرة .

د . القصبى محمود زلط

الفصل الأول

نشأة القرطبي وشيوخه

لم تشر المراجع التاريخية إلى السنة التي ولد فيها « أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح[1] .. الأنصاري الخزرجي القرطبي » ولكنها تتفق جميعا على السنة التي مات فيها ، بل وتحدد يوم وفاته وأنه كان ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ هـ ، ولقد بحثت كثيرا في كتب التراجم والطبقات علي أعثر على ترجمة مفصلة له حتى أكون منها حلقة كاملة عن حياته ولكنني وجدتها لا تشير إلى أسرته ولا تترجم لأبيه ولا تتتبع صاحبنا في مراحل حياته بل لم تلق إلا بصيصا من ضوء على حياته كلها لا يمكن أن أنفذ من خلاله إلى تكوين هذه الحلقة .

وكنت أسائل نفسي : هل نشأ القرطبي في بيت عز ونعمة أم في بيت فقر ومتربة؟ وهل نشأ في كنف أبويه أم تربى يتيما أشرف عليه في يتمه بعض أقاربه ؟

وعلى فرض أن القرطبي نشأ في كنف أبويه . فهل كان أبوه من العلماء فأشرف بنفسه على تربيته في السنين الأولى من حياته وسقاه من معينه ووجهه هذه الوجهة العلمية أم كان من العامة فأسلمه إلى الأساتذة والمعلمين ؟ ؟

كنت أسائل نفسي كل هذه التساؤلات فأتابع البحث ولكني أعود بخفي حنين . وبينما أنا أقرأ في تفسيره وقع لي فيه عند قوله تعالى « ولا تحسبن

---

(١) فرح بفتح الفاء وسكون الراء وحاء مهملة .

الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون[1] » أنه قال فى المسألة الخامسة :

« العدو إذا صبح قوما فى منازلهم ولم يعلموا به فقتل منهم ، فهل يكون حكمه حكم قتيل المعترك أو حكم سائر الموتى . وهذه المسألة وقعت عندنا بقرطبة أعادها الله . أغار العدو — قصمه الله — صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وستمائة والناس فى أجرانهم على غفلة فقتل وأسر وكان من جملة من قتل والدى رحمه الله. فسألت شيخنا المقرىء الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبى حجة فقال : غسله وصل عليه فإن أباك لم يقتل فى المعترك بين الصفين . ثم سألت شيخنا ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أبى فقال : إن حكمه حكم القتل فى المعترك . ثم سألت قاضى الجماعة أبا الحسن على بن قطرال وحوله جماعة من الفقهاء فقالوا : غسله وكفنه وصل عليه، ففعلت .ثم بعد ذلك وقفت على المسألة فى « التبصرة لأبى الحسن اللخمى » وغيرها ولو كان ذلك قبل ذلك ما غسلته وكنت دفنته بدمه فى ثيابه[2] .

وأقوى ما يؤخذ من هذا النص أن « القرطبى » نشأ فى كنف أبيه ورعايته وأن أباه كان يشتغل بالزراعة وكان يباشر حصاد أحد المحاصيل يوم قتل مع غيره من المسلمين على يد النصارى بقرطبة سنة ٦٢٧ هـ .

ولقد كانت « قرطبة » فى ذلك الوقت تدين بالطاعة لزعيمها « محمد بن يوسف بن هود » « ت سنة ٦٣٥ هـ » الذى استطاع أن يخلع طاعة الموحدين

---

(١) آل عمران آية ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٢٧٢ دار الكاتب العربى .

وأن يدعو لنفسه منذ سنة ٦٢٥ هـ فبايعته « مرسية وماردة وبطليوس وقرطبة » ورأى النصارى فى « ابن هود » عندما توالت طاعة القواعد الأندلسية له خطرا يهددهم فأكثروا من الغزوات على أملاكه حتى يحطموا قوته قبل أن تستفحل ، فاستولى ألفونسو التاسع ملك « ليون » على « ماردة وبطليوس » سنة ٦٢٧ هـ وخرج ابنه فرناندو الثالث فى نفس السنة من « قشتالة » بقواته واتجه جنوبا حتى « فحص غرناطة » وهو أينما سار يخرب القرى وينسف الزروع ويسبي القرية . فلعل الغارة التى أشار إليهـــا القرطبى كانت على يد القشتاليين عندما اتجهوا إلى الجنوب فإن قرطبة تتاخم حدودهم وتقع فى طريقهم [١].

وأن هذا النص رغم أنه أعطانا شيئا فإن الغموض لا يزال يـكتنف حياة « القرطبى » ، ولـكننى أستطيع أن أقول أن القرطبى — ولد فى عصر الموحدين فإذا فرضنا أنه ولد فى الحلقة الأخيرة من القرن السادس الهجرى أو قبل ذلك بقليل ، فإنه يـكون قد ولد فى عهد الخليفة « يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن » « ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ » .

وعندما بلغ القرطبى من العمر حدا يسمح له بتلقى التعليم تعلم العربية والشعر إلى جانب تعلمه القرآن . وهذه طريقة فى التعليم انفرد بهـــا أهل

---

(١) راجع (الاحاطة فى أخبار غرناطة) للسان الدين بن الخطيب ح ٢ ص ٩٢ . وانظر عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس للاستاذ محمد عبد الله عنان ص ٣٩٩ وما بعدها . وانظر خريطة تبين تفـكك الدولة الموحدية والدول التى قامت مـكانها فى نفس المرجع ص ٥٦٩ وخريطة تبين انهيار الاندلس وماكسبته للمالك الاسبانية النصرانية ص ٤٩١ . وأن القرطبى بموقفه الصريح — من أن قتيل الـكفار الذى أخذ على غرة لا يغسل — يتفق مع كثير من الفقهاء والائمة .

الأندلس وهم فى هذا يخالفون سائر الأمصار الإسلامية الأخرى حيث يتعلم الصبيان القرآن وحده أولا دون سائر العلوم .

ولقد انتقد طريقة الأندلسيين القاضى « أبو بكر بن العربى » « ت ٥٤٣ هـ » ودعا إلى تعليم الصبيان اللغة والشعر أولا ثم القرآن الكريم لأنه بهذا يسهل عليهم القرآن .

وامتدح « ابن خلدون » طريقة « ابن العربى » ولكنه عاد فبين أن الصبى إذا اقتصر على اللغة والشعر حتى يكبر قد يحول بينه وبين تعلم القرآن حائل أو تكثر عليه مشاغل الحياة فينقطع عن العلم وهنا يفوته تعلم القرآن(١) .

ثم واصل « القرطبى » تعليمه وترقى فيه فتنقل بين حلقات العلم فى قرطبة إلى أن غادرها، ولقد كانت حلقات العلم منتشرة بجميع المدن الأندلسية وكانت المساجد أماكن هذه الحلقات وتطالعنا « كتب التراجم » بمجموعة من الأساتذة تصدروا للتدريس فى المساجد ،وعلى سبيل المثال فى ترجمة« عبد الله ابن باديس بن عبد الله بن باديس اليحصبى » فبين ابن « الأبار » أنه نشأ فى بلنسية(٢) ». وكانت له رحلات علمية إلى « إشبيلية(٣) وإلى فاس(٤) » التقى فيها بكثير من العلماء وأخذ عنهم ثم عاد إلى بلنسية وتصدر للتدريس

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٣٨ .

(٢) بلنسية : بفتح الباء واللام وسكون النون وكسر السين وفتح الياء . مدينة مشهورة بالاندلس تقع شرق قرطبة .

(٣) إشبيلية : بكسر الهمزة وسكون الشين وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة مدينة عظيمة بالاندلس غربى قرطبة .

(٤) فاس : بالسين المهملة مدينة مشهورة من مدن المغرب .

بالمسجد الجامع وكانت وفاته فى شعبان سنة ٦٢٢ هـ(١).

ويبدو أنه إلى جانب هذه الحلقات كان يوجد بعض المعاهد العلمية وكلاهما يشبه التعليم الجامعى، ولذلك لم يظهرا فى المدن . أما القرى فكان يقتصر فيها على المدارس التى تشبه التعليم الابتدائى والثانوى فى عصرنا ، وكان هذا أيضا إلى جانب الحلقات والمعاهد فى مدن الأندلس: يقول صاحب « الإسلام والحضارة العربية » .

« أنشأ الأندلسيون فى كل ناحية المدارس وخزائن الكتب وأقاموا فى العواصم الجامعات التى كانت وحدها مواطن العلم فى أوربا زمنا طويلا »(٢).

ويؤيد الدكتور « جودت الركابى » ذلك فيقول : « وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس وكانت المعاهد الأندلسية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف ومقصد الطلاب من كل فج »(٣).

ويشير القرطبى إلى بعض شيوخه الذين تلقى عليهم بقرطبة فى حادثة مقتل أبيه ويبدو أنه فى هذا الوقت لم يكن قد استكمل دراسته فانه أخذ يسأل ويستفتى . ولكنه أخذ السير وتابعه فى هذا الطريق . فقد كانت للأندلسيين عزيمة وثابة تحفزهم على ذلك فى صبر وجلد ، فقد سئل أحد الأندلسيين عن كلمة لغوية فعجز عن معناها أمام من يخجل بحضرته فأقسم أن يقيد رجليه

---

(١) انظر (التكملة) لابى عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعى الشهير بابن الابرح ج٢ ص٦١٣

(٢) الاسلام والحضارة العربية للاستاذ محمد كرد على ص ٢٦٠ ج ١

(٣) فى الادب الاندلسى للدكتور جودت الركابى ص ٥٧

بقيد حديد ولا ينزعه حتى يحفظ (الغريب المصنف)[١] فاتفق أن دخلت عليه أمه فى تلك الحال فارتاعت فقال :

ريعت عجوزى أن رأتنى لابسا   حلق الحديد ومثل ذاك يروع

قالت جننت فقلت بل هى همة   هى عنصر العلياء واليتبوع

سن الفرزدق سنة فتبعتها   إنى لمحاسن الكرام تبوع[٢]

وقريب من هذا ما حكى عن (ابن حزم) فإنه لم ينصرف إلى الفقه انصرافا كليا فى صدر حياته بل كان يدرس الحديث والأدب والأخبار وبعض العلوم العقلية والفلسفية ومع ذلك كان يناظر فيه ويجادل ولقد نقل « الذهبى » فى « تذكرة الحفاظ » عن بعض معاصريه أنه قال : بينا نحن ببلنسية ندرس المذهب — أى مذهب مالك — إذا بأبى حزم يسمعنا ويتعجب ، ثم سأل الحاضرين عن شيء من الفقه أجيب عنه فاعترض فيه . فقال له بعض الحاضرين : هذا ليس من منتحلاتك . فتأثر ودخل منزله فاعتكف فيه فترة ، وما كان بعد أشهر حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر فيه أحسن مناظرة . قال فيها : أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب[٣].

وبهذه العزيمة القوية أخذ القرطبى يشق طريق العلم ويسير فى دروبه، ومن هنا وقعت له المسألة التى استفتى فيها شيوخه ، فى كتاب « التبصرة » وغيرها.

والنص السابق يوضح لنا أن من جملة شيوخه الذين تتلمذ عليهم بقرطبة :

---

(١) كتاب لغوى « لابى عبيد القاسم بن سلام » المتوفى سنة ٢٢٢ ه

(٢) نفح الطيب « للمقرى » ج ٢ ص ٢٨٦ ، والفرزدق هو الذى سن ذلك حيث قيد رجليه وأقسم ألا ينزعهما حتى يحفظ القرآن الكريم .

(٣) « ابن حزم » لاستاذنا الشيخ محمد أبوزهرة ص ٣٥

« أبو جعفر أحمد ، المعروف بأبى حجة » ، « وربيع بن عبد الرحمن بن أحمد ابن ربيع بن أبى » أما الأول فهو : أحمد بن محمد بن القيسى ويعرف بابن أبى حجة لا بأبى حجة . — فلعل التحريف وقع من النساخ — وهو من أهل قرطبة امتدحه ابن الأبار بأنه كان عالما بالعربية وعلوم القرآن ، ثم ذكر له عدة مؤلفات وبين أن له اختصارا على الصحيحين . ولما سقطت « قرطبة» فى أيدى النصارى سنة ٦٣٣ هـ غادرها إلى « إشبيلية » وسكن بها حينا ثم اتجه إلى ميورقة[١] فأسرته الروم وامتحن بالتعذيب وتوفى على أثر ذلك بميورقة سنة ٦٤٣ هـ[٢].

ولقد تهيأ لهذا الشيخ جملة من الاساتذة الاجلاء منهم : «أبو القاسم خلف ابن بشكوال »[٣] المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وله نحو خمسين تأليفا فى أنواع مختلفة.

ومنهم «ابن مضاء أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء» المتوفى سنة ٥٩٢ هـ كان من أهل قرطبة وكان بارعا فى القراءات والحديث عارفا بالفقه والأصول متقدما فى علم الكلام والعربية وصفه «صاحب الديباج[٤] » فقال: « كان كريم الأخلاق حسن اللقاء جميل العشرة لم ينطو قط على إحنة لمسلم عفيف ، اللسان صادق اللهجة نزيه الهمة كامل المروءة حسن المشاركة فى العلوم على تفاريعها ».

---

(١) ميورقة : بالفتح ثم الضم وسكون الواو والراء جزيرة ، فى شرق الاندلس . أنظر معجم البلدان .

(٢) عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ،القسم الثانى ص ٦٧٥ نقلا عن التكملة لابن الابار وانظر ابن الجوزى المحدث . رسالة دكتوراه للزميل « أبو العلا على أبو العلا » نسخة خطية بمكتبة أصول الدين .

(٣) ضبط هذه الكلمة بعض المؤرخين بضم الباء والكاف وضبطها بعضهم بفتح الباء وضم الكاف وادعى « ابن فرحون » أن « ابن خلكان » ضبطهما بضم الباء والكاف ولكن « ابن خلكان » ضبطها بفتح الباء وضم الكاف . انظر الديباج المذهب لابن فرحون ص ١١٤ وانظر التكملة « لابن الابار » ص ٥٣ ج ١ وانظر « وفيات الاعيان » لابن خلكان ج ٢ ص ١٤ .

(٤) الديباج المذهب ص ٤٧ وما بعدها .

أما الشيخ الثانى فهو : « ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن ابن ربيع الأشعرى » من أهل قرطبة وقاضيها يكنى أبا سليمان يقول عنه « ابن الأبار » « وكان رجلا صالحا عدلا فى أحكامه نبيه القدر والبيت » ثم بين أنه كانت له مشاركة فى علم الحديث وتحدث بعد ذلك عن خروجه من قرطبة فقال « وخرج من وطنه لما استولى الروم عليه يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال سنة ٦٣٣ هـ فنزل إشبيلية وبها توفى فيما بلغنى على إثر ذلك »(١).

ولقد توفرت لهذا الشيخ أيضا جملة من الاساتذة المعدودين فى العلم والفضل منهم : « أبو محمد بن حوط الله » وهو عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر حوط الله الأنصارى » برز فى الحديث والفقه والقراءات والنحو والأدب والشعر . وكان من العلماء العاملين سنيا مجانبا لأهل البدع والأهواء وتوفى سنة ٦١٢ هـ بغرناطة وأصله من بلنسية ثم نقل إلى «مالقة» ودفن بها .(٢)

ولم تشر المراجع التى ترجمت القرطبى إلى هذين الشيخين .

وفى قوله تعالى « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » ذكر « القرطبى » أقوال بعض الصحابة بسند أحد شيوخه فقال فى المسألة الأولى :

ولما نزلت هذه الآية بادر أبو الدحداح إلى التصدق بماله ابتغاء ثواب ربه» ثم قال :

---

(١) التكملة لابن الابار ١ ص ٦٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ح ٢ ص ٥٠٦ وما بعدها وانظر الديباج ص ١٤٢ وعصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٥٧ .

« أخبرنا الشيخ الفقيه الامام المحدث القاضي أبو عامر يحيى ب
أحمد بن منيع الأشعرى نسبا ومذهبا بقرطبة أعادها الله فى ربيع الآخ
وعشرين وستمائة قراءة منى عليه قال : أخبرنا أبى إجازة قال قرأ
بكر عبد العزيز بن خلف ابن مدين الأزدى عن أبى عبد الله
عنها عليه قال حدثنا أبو الحسن على بن مهران قال حدثنا أبو الح
عبد الله بن زكريا بن حيوة النيسابورى سنة ست وستين وثلاثمائة
أبو زكريا يحيى بن زكريا قال حدثنا محمد بن معاوية بن صالح قال ح
ابن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن

لما نزلت « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » قال « أبو
يارسول الله أو إن الله تعالى يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحد
أرنى يدك . قال : فناوله . قال : فإنى أقرضت الله حائطا فيه ستمائة
يمشى حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعياله فناداها : يا أم الدح
لبيك ، قال : اخرجى فقد أقرضت ربى عز وجل حائطا فيه ستمائة نخ

فى هذا النص يذكر القرطبى أحد شيوخه ويذكر أنه أخبره
منه عليه — بسبب نزول الآية . والقراءة طريق من طرق الرواية
أنها رواية صحيحة سواء كنت أنت القارئ أو غيرك وأنت تسم
فى كتاب أو من حفظ أو كان الشيخ يحفظ ما يقرأ عليه أو يمسك أم
المحدثين يسمون القراءة « عرضا » لأن القارئ يعرض ما يقرؤه
كما يعرض القرآن على إمامه .

(١) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٣٧ آية ٢٤٥ من سورة البقرة .

واختلف العلماء فى القراءة والسماع أيهما أقوى؟ فذهب فريق إلى التسوية بينهما وذهب فريق آخر إلى ترجيح السماع على القراءة وهذا مذهب الجمهور. أما المذهب الثالث فهو ترجيح القراءة على السماع.

وشرط بعض المحدثين وبعض الظاهرية فى صحة الرواية بالقراءة بإقرار الشيخ عند تمام السماع بأنه كما قرىء عليه ، والصحيح أن هذا شرط غير لازم كما قال جمهور المحدثين والفقهاء، ولقد أنكر مالك رضى الله عنه على من طلب منه التصريح بالإقرار ولم يجبه إلى طلبه.

قال يحيى بن عبد الله بن بكير : لما عرضنا الموطأ على مالك بن أنس رحمه الله قال له رجل من المغرب : يا أبا عبد الله أحدث به عنك ؟ قال: نعم، قال: حدثنا مالك ؟ قال: نعم أما رأيتنى فرغت نفسى لكم وسمعت عرضكم، وأقمت سقطة وزلة ، فمن حدثكم غيرى ؟ نعم حدثوا به عنى وقولوا حدثنا مالك.

ومن صيغ القراءة : « أخبرنا » ولكن هذا اللفظ إذا استعمل مطلقا فهو من صيغ السماع فإذا استعمل فى الرواية بالقراءة فالأحوط أن يستعمل مقيدا . كأن يقول الراوى : أخبرنا بقراءتى أو قراءة عليه وأنا أسمع[1] وهذا يتفق مع ما ذكره القرطبى، أما الشيخ الذى ذكر أنه قرأ عليه فإن المراجع لم تذكره فى جملة شيوخه ، ولم أعثر على ترجمة بهذا الاسم وإنما وقع لى فى كتاب « الديباج المذهب » ترجمة لشيخ يسمى « يحيى بن عبد الرحيم بن أحمد بن

---

(١) راجع « الالماع للقاضى عياض » بتحقيق الاستاذ سيد صقر ص ٧٠ وما بعدها ومعرفة السنن والآثار للبيهقى بتحقيق الاستاذ سيد صقر ص ٥٨ وتدريب الراوى للسيوطى ص ١٣١ وفهرست ابن خير ص ١٣ .

ربيع الأشعرى » ويكنى « أبا عامر » قال : « ابن فرحون » فى ترجمته : العالم الجليل المحدث الحافظ واحد عصره وفريد دهره ، كان رحمه الله تعالى عالما من أعلام الأندلس ناصرا للسنة رادعا لأهل الأهواء متكلما دقيق النظر سديد البحث سهل للناظرة شديد التواضع ، ثم ذكر صاحب الديباج « أنه ولى قضاء الجماعة بقرطبة وغرناطة » وذكر جملة من شيوخه ، وأنه حدث عن والده العالم المحدث أبى الحسين عبد الرحيم بن ربيع ، وشك فى وفاته فقال « وتوفى سنة سبع أو ثمان وثلاثين وستمائة » .

ووقع لى فى « التكملة » « لابن الأبار » ترجمة لشيخ يسمى « يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن ابن ربيع الأشعرى القرطبى » ويكنى أيضاً « بأبى عامر » قال ابن الأبار وهو يتحدث عنه « سمع من أبيه أبى الحسين » وكان إماما فى علم الكلام وأصول الفقه نوظر عليه فى كتب أبى المعالى الجوينى : « الشامل والارشاد » وغير ذلك ثم قال .. وولى قضاء بلده إلى أن أخذها الروم فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة فخرج منها فولى قضاء غرناطة وتوفى بمالقة مصروفا بفالج أصابه وأقعده سنة ٦٤٠ هـ وقيل توفى فى ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وستمائة وولد سنة ٥٥٣ هـ .

ونقل صاحب « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » عن ابن الأبار أكثر ما ذكره فى ترجمة هذا الشيخ(١)

ويبدو أن « ابن فرحون » « صاحب الديباج » قد ذكر سهوا أن والد هذا الشيخ يسمى « عبد الرحيم » والأصح أن والده يسمى « عبد الرحمن »(٢)

---

(١) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، على هامش الديباج المذهب ص ٢٥٥

(٢) انظر فى ترجمة والد هذا الشيخ « التكملة » ج ٢ ص ٥٧٦

وعلى كل فإن بين ترجمة هذا الشيخ وبين ما ذكره « القرطبي » تشابها كبيرا فقد قال القرطبي :

« أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام المحدث القاضي أبو عامر يحيى بن عامر بن أحمد بن منيع الأشعرى » فلعل الشيخ الذى ترجمت له هو ما عناه القرطبي وأنه « يحيى بن عبد الرحمن » لا « يحيى بن عامر » وأن التحريف وقع من النساخ كما وقع فى لفظ « منيع » فالأصح أنه « ربيع » فلقد ذكر محقق تفسير القرطبي أن كثيرا من النسخ الخطية يوجد بها « ربيع » بالراء لا بالميم ، ويبدو أن هذا الشيخ شقيق شيخ القرطبي السابق ذكره وهو « ربيع بن عبد الرحمن ابن أحمد بن ربيع بن أبى » فلقد قال « ابن الأبار » فى ترجمة « عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع » « من أهل قرطبة ويعرف بابن أبى » ونرى القرطبي ينسب شيخه « ربيع ابن عبد الرحمن » إلى هذه الشهرة كما تقدم . وهنا يجمل بى أن أرجح أن هذا الشيخ الذى ترجمت له : هو ما عنـاه القرطبي ، وأن والده يسمى « عبد الرحمن بن أحمد ابن ربيع » وأن عبد الرحمن هذا هو الشجرة التى تفرع منها ربيع ، ويحيى فتتلمذ عليهما القرطبي .

ومن الواضح أنه تتلمذ على كل هؤلاء الشيوخ بقرطبة ، وإلى جانب ذلك تتلمذ القرطبي على ما أنتجته قرائح العلماء من مؤلفات فى العلوم الدينية ، وعلوم اللغة والنحو والتاريخ والأدب . ونحن إذا تصفحنا « فهرسة ابن خير » وشيوخ ابن عطية ورسالة ابن حزم وتذييلها » طالعنا عدد هائل من هـذه المؤلفات ، واستطعنا أيضاً أن نضع أيدينا على نوعية الثقافة التى كانت شائعة بالأندلس ، لا فى ذلك العصر وحده بل وفى أكثر عصور المسلمين هناك . وأن هـذه الثقافة كانت تتجه إلى العلوم الدينية ، وعلوم اللغة والنحو والتاريخ والأدب .

واستمر القرطبي يدرس ويدرس إلى أن قدم إلى مصر وهو على درجة كبيرة من الثقافة والعلم . يقول الدكتور « أحمد أحمد بدوى » فى مجلة الرسالة فى مقال له عن القرطبي : « ولد بقرطبة من بلاد الأندلس ، وتلقى بها ثقافة واسعة فى الفقه ، والنحو ، والقراءات . . . . ودرس البلاغة وعلوم القرآن واللغة ... ثم قدم إلى مصر » .

ومن حقنا أن نتساءل: متى قدم القرطبي إلى مصر ؟

لم تشر كتب التراجم والطبقات أدنى إشارة يمكن على ضوئها أن نجيب على هذا التساؤل . ولقد قال الدكتور «أحمد بدوى» فى مقاله الذى أشرت إليه سابقا « ثم قدم — أى القرطبي — إلى مصر ، ولست أدرى متى قدم إلى مصر » .(1)

ولكن قد وقع لى فى تفسير القرطبي عند قوله تعالى « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » وقع لى أن القرطبي يقول فى تفسير هذه الآية : « عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت سورة «تبت يدا أبى لهب» أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفى يدها فهر — أى حجر — وهى تقول :

مذمما عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

والنبي ﷺ قاعد فى المسجد ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك ، قال رسول الله

---

(1) الرسالة عدد رقم ٨٥٨ لسنة ١٩٤٩ ص ١٧٠٣ .

ﷺ . « إنها لن تراني » وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال ، وقرأ : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، أخبرت أن صاحبك هجاني ، فقال : لا ورب هذا البيت ما هجاك . قال : فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها . ثم أخذ القرطبي يذكر بعض الآيات التي اعتصم بها رسول الله ﷺ من المشركين ثم قال :

« قلت ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا ، وذلك أني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه ، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ، فعبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر : هذا ديبله(١) يعنون شيطانا . وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك(٢) » .

وهذا النص يوضح لنا أن القرطبي هرب أمام العدو ونجاه الله . ولم يحدد لنا القرطبي تاريخ هذه الحادثة . وحاولت كثيرا أن أقف على حصن يسمى « منثور » ومتى وقع في يد الأعداء . وفي أي سنة أغار العدو عليه ؟ فلم أعثر على شيء من ذلك . وأخيرا وجدت دائرة المعارف البريطانية تتحدث عن حصن يقع شمال شرق مدينة قرطبة يسمى « مونتورو » Montoro ولكنها لم تقدم لنا شيئا تاريخيا عنه (٣) .

---

(١) لفظة فرنسية معناها جني ، ولعله كذلك في لغة اللاتين .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٦٩ وما بعدها .

(3) Encyc lopaedia Brittannica vd . 25 , Atlas, mop No' 47 . (Andalusia)

وكذلك قال القاموس الجغرافى العالمى إلا أنه تحدث عن عدد السكان وعن الفواكه التى تزرع بهذا البلد، ولم يقدم لنا أيضا شيئا تاريخيا عنه (١).

ولعل هذا الحصن هو ما عناه القرطبى غير أنه يبقى أمامنا كثير من التساؤلات. متى سقط هذا الحصن، ومتى أغار العدو عليه، ولماذا ذهب إليه القرطبى؟ كل هذه التساؤلات لا أستطيع أن أفصل القول فى الإجابة عنها. وكل ما أستطيع أن أقوله أن أغلب الحصون التى تقع حول قرطبة استولى النصارى الأسبانيون عليها، وذلك ليسهل عليهم اسقاط قرطبة. فلعل هذا الحصن قد سقط مع هذه الحصون فى سنة ٦٣٢ هـ. أو قبل ذلك بقليل (٢).

ولقد كان القرطبى داخل هذا الحصن أثناء حصار النصارى له لأمر ما. لمقابلة بعض الشيوخ والتلقى عنهم، أو لقضاء حاجة، أو لزيارة قريب. أو نحو ذلك. ولما أراد أن يخرج أثناء الحصار تعقبه بعض الأعداء، فنجاه الله وعاد إلى قرطبة سالما. وعندما سقطت قرطبة فى يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ٦٣٣ هـ، غادر أهلها مدينتهم العزيزة بقلوب تفيض حزنا وألما، وغادرها معهم صاحبنا «أبو عبدالله القرطبى» لكن إلى أين توجه القرطبى بعد أن غادر قرطبة؟ هل قدم إلى الديار المصرية مباشرة أم ذهب إلى إشبيلية واستقر بها إلى أن سقطت هى الأخرى فى سنة ٦٤٦ هـ؟ أم ذهب إلى بلنسية أو غيرها من القواعد الأندلسية؟ لا نستطيع أن نحدد ذلك، وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن القرطبى قدم إلى الاسكندرية بعد خروجه من الأندلس عامة، وأقام بها فترة من الزمن قبل أن يستقر بالصعيد.

---

(1) Grand dictionnaire de Geographie universelle ancienne et moderne. Paris. vol. 3- P- 860 -

(٢) انظر «سقوط قرطبة» فى كتاب «عصر المرابطين والموحدين» القسم الثانى ص ٤١١.

وذلك لأن الاسكندرية تقع فى طريق من يقصد صعيد مصر أو يقصد القاهرة من الأندلسيين . ســواء جاءوا عن طريق البر أو عن طريق البحر . (١)

ونستطيع أيضاً نقول إن القرطبي جاء إلى الاسكندرية قبـل سنة ٦٤٨ ه . وذلك لأن المراجع التاريخية تبين أنه تتلمـذ على الأمام المحدث أبو محمـد عبد الوهاب بن رواج ، وكانت وفاة هذا الشيخ فى ١٨ ذى القعدة سنة ٦٤٨ ه .

ولقد تلقى القرطبي أثناء مقامه بالاسكندرية ألوانا من الثقافة الإسلامية بعض الشيوخ الذين تخرجوا فى مدرسة الطرطوشى وابن عوف والحافظ فإن المراجع التاريخية تضع أيدينا على أنه فى أواخر القرن الخامس الهجرى وحوالى سنة ٤٩٠ ه قدم الاسكندرية عالم علماء الأندلس وفقيه من أكبر فقهاء المالـكية ذلـكم هو « أبو بـكر الطرطوشى محمد بن الوليد المتوفى سنة ٥٢٠ ه » ولقد وصفه صاحب الديباج بقوله « وكان إماما عالما عاملا زاهدا ورعا دينا متواضعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا باليسير منها وتقدم فى الفقه مذهبا وخلافا » .

وكانت الإسكندرية عند قدوم « الطرطوشى » تعيش حالة رهب وخوف ، والشعائر الدينية معطلة ، وعلماؤها مضطهدون لا يستطيعون الجهر بالعلم ، لأن الغالبية العظمى منهم يتبعون المذهب المالـكى ، والمذهب الشيعى

---

(١) الطريق من الأندلس إلى الاسكندرية بحراً . عن طريق البحر الأبيض وبرا بحذاء الساحل الشمالى إلى الاسكندرية ثم يسير المسافر فى النيل إلى القاهرة ثم إلى الصعيد الأعلى حتى مدينة قوص ومن أراد الحج يسير فى الصحراء الشرقية متجها شرقا صوب عيـذاب على شاطئ البحر الأحمر ومن عيذاب يركب المراكب إلى جدة ثم إلى مكة فالمدينة.

هو المذهب الرسمي للدولة في ذلك الوقت . ولكن الطرطوشي لم يخف من الفاطميين ولم يرهب جانبهم فبدأ يدرس وينشر العلم على مذهب مالك (١) .

ومن تلامذة الطرطوشي : « الطاهر بن عوف اسماعيل بن مكي المتوفى سنة ٥٨١ هـ » . قال السيوطي « إنه تفقه على أبي بكر الطرطوشي وسمع منه وتخرج به الأصحاب » وبين صاحب الديباج أنه جمع مع العلم الورع والزهد وكثرة العبادة والتواضع ونزاهة النفس .

وابن عوف أول أستاذ لأول مدرسة عرفتها الإسكندرية نسبت إليه فسميت بالمدرسة العوفية . وكانت علوم الشريعة مواد الدراسة بها .

كذلك من تلامذة الطرطوشي : « الحافظ السلفي وهو أبو الطاهر أحمد ابن محمد بن ابراهيم سلفة الأصبهاني الشافعي المتوفى سنة ٥٧٦ هـ » . أصله من أصبهان ورحل كثيراً في طلب العلم ثم قدم الاسكندرية سنة ٥١١ هـ فتتلمذ على الطرطوشي تسع سنوات ، وكان السلفي من أئمة الحديث والفقه واللغة،درس بمساجد الاسكندرية أكثر من عشرين سنة ، فقصده العلماء من المشرق والمغرب وتزاحم عليه الناس ، فابتنى له « أبو الحسن على بن السلار » مدرسة في سنة ٥٤٦ هـ عرفت هذه المدرسة باسم المدرسة السلفية ، وظل يدرس بها حتى آخر لحظة من حياته . قال السبكي« ولم يزل يقرأ عليه الحديث إلى أن غربت الشمس من يوم وفاته وهو يرد على القارىء اللحن الخفي » وصلى يوم الجمعة الصبح عند انفجار الفجر وتوفى عقيبه فجأة . ووافق هذا اليوم الخامس من شهر ربيع الأول»

---

(١) انظر الديباج المذهب ص ٢٧٦ طبع السعادة وانظر أعلام الاسكندرية للدكتور جمال الدين الشيال ص ٧٠ .

ويقدم لنا السلفي في معجمه أنه كان إلى جانب تدريس الحديث يقوم بتدريس الفقه والتفسير والتاريخ . ولقد وصفه «ابن خلكان» بكلمة جامعة فقال بعد أن تحدث عن قدومه إلى الاسكندرية « وقصده الناس من الأماكن البعيدة وسمعوا عليه وانتفعوا به ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله[1]» .

في هذا الجو العلمي وفي تلك البيئة الثقافية تخرج أكثر شيوخ القرطبي الذين تتلمذ عليهم بمصر، فكان لذلك أثره في حياته العلمية، ومن هؤلاء الشيوخ الذين تخرجوا في مدرسة الاسكندرية :

« ابن رواج » كان من أئمة الحديث والفقه . قال الذهبي في مفتتح ترجمته «الشيخ الإمام المحدث مسند الاسكندرية رشيد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن رواج واسمه ظافر بن علي ابن فتوح الأزدي الإسكندراني المالكي . ولد سنة أربع وخمسين وخمسمائة» ثم بين الذهبي أنه من خريجي مدرسة السلفي وابن عوف فقال « كتب لنفسه فأكثر عن السلفي وسمع من أبي الطاهر بن عوف » ثم عاد فامتدحه بقوله « وكان فقيها فطنا دينا متواضعا صحيح السماع انقطع بموته شيء كثير، وكانت وفاته سنة ثمان وأربعين وستمائة في الثامن عشر من ذي القعدة[2] » .

---

(١) وفيات الاعيان ج١ص ٨٧ وأعلام الاسكندرية. ويلاحظ أن الدكتور الشيال قد ذكر ابن « ابن السلار » قد بنى له مدرسته سنة ٥٤٤ هـ، ولكن « ابن خلكان» حدد تلك السنة بأنها سنة ٥٤٦ هـ وسلفة نسبة إلى جده ابراهيم سلفة . بكسر السين وفتح اللام والفاء وفي آخره الهاء وهو لفظ عجمي معناه بالعربي ثلاث شفاه لان شفته الواحدة كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين غير الاخرى الاصلية .

(٢) سير أعلام النبلاء .

ومنهم « ابن الجبزى »[1] وهو العلامة بهاء الدين أبو الحسن على بن هبة الله ابن سلامة ابن المسلم بن أحمد بن على اللخمى المصرى الشافعى . كان من أعلام الحديث والفقه والقراءات . وكانت له رحلات علمية التقى فيها بكثير من العلماء وأخذ عنهم ، فسمع بدمشق من أبى القاسم بن عساكر[2] صحيح البخارى ، وقرأ القراءات العشر على ابن عصرون[3] كما درس عليه الفقه وأخذ عنه الوسيط والوجيز للواحدى ،وكان ذلك بالشام ، وسمع الحديث ببغداد عن شهدة الكاتبة[4] ثم عاد إلى وطنه فتتلمذ بالاسكندرية على السلفى وابن عوف، وبمصر على ابن برى النحوى .

ولقد امتدح الذهبي مشيخته فى الحديث . وبين أنه تلقى الحديث على أكابر المحدثين وفضلائهم ....

ولقد امتدحه المؤرخون وأثنوا على أخلاقه وعلمه فقال السبكى « وكان الفقيه بهاء الدين خطيب الجامع بالقاهرة ومدرس الديار المصرية وشيخها ورئيس العلماء بها، درس وأفتى دهرا ، وكان كبير القدر رفيع الجاه وافر الحرمة معظما عند الخاص والعام » .

ووصفه الذهبي بأنه شيخ الديار المصرية وأنه كان مسدد الفتاوى وافر الجلالة مسند زمانه . وأثنى عليه أستاذه ابن أبى عصرون وألبسه الطيلسان

---

(١) الجبزى نسبة إلى الجبز وهو الشجر والمعروف بضم الجيم وفتح الميم المشددة وسكون الياء .

(٢) هو أبو القاسم على بن أبى محمد بن هبة الله بن عبد الله المتوفى سنة ٥٧١ هـ

(٣) هو عبد الله بن محمد بن هبة الله بن على بن أبى عصرون المتوفى سنة ٥٨٥ هـ .

(٤) هى شهدة بنت أبى نصر بن عمر الابرى نسبة إلى الابرة توفيت سنة ٥٧٤ هـ

تشريفا له على أقرانه، حدث بذلك ابن الجميزى فقال «ألبسنى شيخى ابن أبى عصرون الطيلسان وشرفنى على الأقران، وكتب لى بخطه : لما ثبت عندى علم الولد الفقيه الإمام بهاء الدين أبى الحسن على ابن أبى الفضائل وفقه الله تعالى، ودينه وعدالته رأيت تمييزه من بين أبناء جنسه وتشريفه بالطيلسان والله يرزقه القيام بحقه» . وكانت وفاته يوم الخميس الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وأربعين وستمائة . ووصف بعض العلماء جنازته فقال : حضرت دفنه وكان مشهداً عظيما قل أن يشهدمثله .وكان هناك قارىء يعرف بابن أبى البركات حسن الصوت جيد القراءة فقرأ عند قبر الفقيه بهاء الدين بعد تسوية التراب عليه « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » الآيات التى فى سورة الزخرف . وقرأ بالشاذ فى قوله « وإنه لعلم للساعة » بفتح العين واللام ، والله لكأن الآيات نزلت فيه لما مثله الناس من أن موت العلماء من أعلام الساعة وأشراطها فبكى الناس كثيرا وكثيرا(١) .

وإذا كان ابن الجميزى من أعلام الحديث والفقه والقراءات وكانت له مشاركة فى التفسير كما يؤخذ من كلام المؤرخين . فإن القرطبى قد أخذ عنه ونهل من علمه ، لكن هل تتلمذ القرطبى عليه فى الفقه .

إن ابن الجميزى كان شافعى المذهب، وكان القرطبى مالكياً ، ومع هذا فمن الجائز أن القرطبى تتلمذ عليه فى فقه الشافعية ، فالطرطوشى وهو الفقيه المالكى عندما دخل بغداد تتلمذ على كثير من فقهاء الشافعية(٢) .

---

(١) راجع فى ترجمة ابن الجميزى سير أعلام النبلاء للذهبى ج ١٣ ب لوحة ٢٨٤ . طبقات السبكى ج ٥ ص١٢٧، شذرات الذهب لابن العماد ج ٥ ص ٢٤٦، ويلاحظ أن السبكى جعل وفاته فى الرابع عشر من ذى الحجة سنة ٦٤٩ هـ مع أن كل المؤرخين جعلوا وفاته فى الرابع والعشرين من هذا الشهر .

(٢) انظر أعلام الاسكندرية ص ٦٠ .

ويبين المقرى أن خواص الفقهاء بالأندلس لم يقتصروا على دراسة مذهب مالك بل كانوا يدرسون سائر المذاهب[1] وعلى هذا فلا يستبعد تلمذة القرطبي لابن الجبزى فى الفقه الشافعى .

ومنهم : « أبو العباس أحمد بن عمر بن ابراهيم المالكى القرطبي » ، ولد بقرطبة وسمع الكثير هناك ، ثم قدم الاسكندرية فأقام بها و تتلمذ على شيوخها. وبعد أن استوى عوده تولى تدريس الحديث والفقه . فطار صيته وانتفع الناس به . وهو وإن لم يتتلمذ على السلفى وابن عوف . فإنه عاش فى تلك البيئة الثقافية التى أوجدتها مدرسة ابن عوف والسلفى بالاسكندرية . قال صاحب الشذرات فى ترجمته : « وكان من كبار الأئمة » . وقال صاحب النفح عنه « وكان بارعا فى الفقه والعربية، عارفا بالحديث» ووصفه تلميذه شرف الدين الدمياطى فقال : « وكان إماما عالما جامعا لمعرفة الحديث والفقه والعربية وغيرها » . أما صاحب الديباج فقد قال فى حقه « كان يشار إليه بالبلاغة والعلم والتقدم فى علم الحديث ، وأخذ عنه الناس من أهل المشرق والمغرب » . ومن مؤلفاته : المفهم فى شرح مسلم . ولقد امتدح المقرى هذا الكتاب فقال : « وهو من أجل الكتب ويكفيه شرفا اعتماد الإمام النووى رحمه الله فى كثير من المواضع ، وفيه أشياء حسنة مفيدة » .

وأخطأ صاحب معجم المؤلفين عندما نسب إليه كتاب « التذكرة » . فإن « التذكرة » ليست من مؤلفاته وإنما هى من مؤلفات صاحبنا « أبو عبد الله القرطبي » . وتوفى أبـــو العباس القرطبي فى رابع ذى القعدة سنة

---

(١) انظر نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ ، ولعل « ابن الجبزى » هو صاحب كتاب التبصرة .

٦٥٦ هـ[1]، وكانت ولادته سنة ٥٧٨ هـ كذلك كان من شيوخ القرطبي: «الحسن البكري» — ٥٧٤ — ٦٥٦ هـ وهو الحسن ابن محمد بن محمد بن عمروك التيمي النيسابوري ثم الدمشقي أبو علي صدر الدين البكري . ولد بدمشق وكان كثير الرحلات في طلب العلم حتى أطلق عليه المؤرخون «الرحال». فقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء»، وفي «تذكرة الحفاظ» في صدر ترجمته الشيخ الإمام المحدث المفيد الرحال « وكذلك قال السيوطي في : طبقات الحفاظ » كما بين المؤرخون أن «البكري» كان له اشتغال بالتاريخ وأنه شرع في عمل ذيل لتاريخ ابن عساكر، ولقد اتهم البكري بالمجون والتخليط . قال الذهبي في حقه : « وليس هو بالقوي، ضعفه عمر بن الحاجب فقال : كان إماما عالما اسنا فصيحا، مليح الشكل، أحد الرحالين ، إلا أنه كان كثير التعاوي » عنده مداعبة ومجون، داخل الأمراء وجدد مظالم . سألت الحافظ ابن عبد الواحد عنه فقال : بلغني أنه كان يقرأ على الشيوخ فإذا أتى على كلمة مشكلة، تركها ولم يبينها وسألت الزكي البرزالي عنه فقال: كان كثير التخليط . ثم أصيب هذا الشيخ بالفالج في أخريات حياته، وكان قد صلح حاله ، فتحول إلى مصر ومات بها في ذي الحجة سنة ٦٥٦ هـ[2] .

وإني لا أدري هل صلحت أحواله من الناحية الأخلاقيه والعلمية أم من الناحية الأخلاقية فقط ؟ إن تعليق الذهبي على وصف البكري، ووصف ابن

---

(١) راجع في ترجمة أبي العباس القرطبي الديباج المذهب ص ٦٨ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥ ومرآة الجنان اليافعي ج ٤ ص ١٣٨ والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٢١٣ وشذرات الذهب ج ٥ ص ٢٧٣ ومعجم المؤلفين ج ٢ ص ٢٧ والاعلام ج ١ ص ١٧٨ وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٤ ، شجرة النور الزكية .

(٢) راجع في ترجمة البكري سير أعلام النبلاء ١٣ ب ، تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٤ ودول الاسلام للذهبي ج ٢ ص ١٢٣ ، الاعلام ج ٢ ص ٢٣٢ .

الحاجب له يدلنا على أنه قد صلح حاله من الناحيتين الأخلاقية وا
قد عقب بقوله « قلت ثم فى الآخر صلح حاله وابتلى بالفالج قبل مو
ثم تحول فى آخر عمره إلى مصر فمات بهـــا فى ذى الحجة سنة ست
وستمائه » كما يدلنا أيضا على أنه لم يقدم إلى مصر إلا بعد أن صـ
ولعل عبارة السيوطى توضح لنا ذلك أكثر، فإنه قد قال : « وكان
أحد الرحالين ، وجدد مظالم ثم فى الآخر صلح حاله وحصل له فالج فـ
مصر فمات بها فى آخر ذى الحجة سنة ٦٦٥ هـ » .

فتلمذة القرطبي عليه كانت إذن بعد صلاح أحواله من الناحيتين
على أن القرطبي قـــد تتلمذ على شيخه أبى العباس القرطبي » و
بالإسكندرية . وإن كان هذا الظن يتبدد أمام عبارة شرف الدين الد
قد قال فى حق شيخه أبى العباس القرطبي « أخذت عنه وأجاز لى
رحمه الله تعالى ، وحدث بالإسكندرية وغيرها » ويتبدد أيضا أما
الذهبي من تراجم فى كتابه « تاريخ الإسلام » لتلاميذ ابن رواج ،
عبارات كثيرة تدلنا على أن ابن رواج حدث بغير الإسكندرية ،
ترجمة « إبراهيم بن يحيى بن يوسف بن طرخان الفقيه برهان الدين
العسقلانى الحنبلي المعروف فى مصر بالقزاوى ، ٦٢٣ — ٦٩٩ هـ » .

يقول الذهبي فى ترجمته « ولد بغزة . . واشتغل بالقاهرة وسمـ
عبدالوهاب بن رواج[1] » ولكننى رغم هذا أقول لعل القرطبي لم :
الإسكندرية من وقت أن نزل بها إلى أن غادرها متجها إلى الصعيـ
تلك المدة التقى بشيخيه وأخذ عنهما ، وإذا كان لهذين الشيخين رحلا

(١) تاريخ الاسلام، حوادث سنة ٦٩٦، ورقة ٢١٦

الديار المصرية بقصد التدريس ونشر العلم ، فإنها كانت رحلات قصيرة يعودان بعدها إلى الإسكندرية مقامهما ومستقرهما . فإن المراجع كلها تبين أن أبا «أبا العباس القرطبي» كان نزيل الاسكندرية ، وأن « ابن رواج » كان اسكندريا والله أعلم . كما أن أغلب الظن عندى أن القرطبي تتلمذ على « ابن الجميزى والبكرى » بالقاهرة قبل أن يذهب إلى الصعيد ، فإن القاهرة تقع فى طريق من يريد السفر إلى الصعيد من الإسكندرية ، فلعل القرطبي بعد خروجه من الإسكندرية وبعد وصوله إلى القاهرة مكث بها فترة ليلتقى بشيوخها وعلمائها ، فالتقى « بابن الجميزى والبكرى » ، ويقوى هذا الظن عندى أن « ابن الجميزى » كما يقول « السبكى » كان خطيب الجامع بالقاهرة ، وأن « البكرى » قدم فى أخريات حياته إلى القاهرة واستوطنها بعد طول تجول ، وما كان لشيخ مريض بالفالج أن يتنقل بعد أن حط رحاله واستقر ، والله أعلم .

• • •

هؤلاء هم شيوخ القرطبي الذين التقى بهم وأخذ عنهم ، شيوخ برزوا فى نواح متعددة من فقه وحديث وتفسير وقراءات ولغة وأدب ، فانعكس ذلك على القرطبي وكان له أثر كبير فى نضجه وتكوينه ، ولقد أشارت كتب الطبقات إلى هؤلاء الشيوخ وهى تترجم للقرطبى فقال الداودى « سمع من ابن رواج ومن ابن الجميزى ، والشيخ أبى العباس أحمد بن عمر القرطبى شارح مسلم بعضه وأبى على الحسن بن محمد البكرى الحافظ » وقال ابن فرحون مختصرا هذا العدد « سمع من الشيخ أبى العباس أحمـــد بن عمر القرطبى مؤلف المفهم فى شرح صحيح مسلم بعض هذا الشرح ، وحدث عن أبى الحسن بن محمد بن محمد البكرى » أما صاحب النفح ، فإنه وإن اختصر هذا العدد لكنه أتى بشيخ لم يذكره غيره فقال « سمع من الشيخ أبى العباس أحمد بن عمر القرطبى

صاحب المفهم فى شرح مسلم بعض هذا الشرح ، وحدث عن أبى الحسن على ابن محمد بن على بن حفص اليحصبى وعن الحافظ أبى على الحسن بن محمد بن محمد البكرى وغيرها ، ولم أعثر على ترجمة لأبى الحسن اليحصبى .

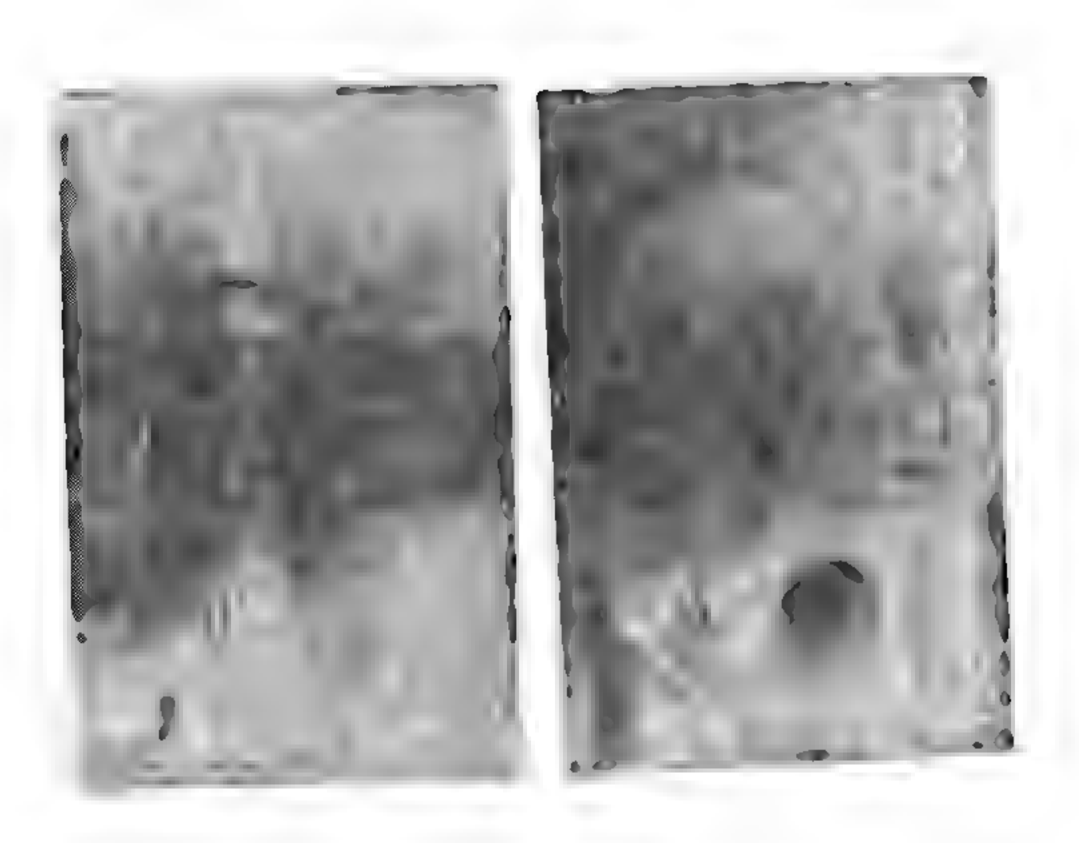
وبعد هذا ، وبعد أن استقر القرطبى بالإسكندرية فترة من الزمان ، وبعد أن استقر بمصر أيضا فترة لا ندرى مقدارها بعد هذا خرج القرطبي من مصر القاهرة ، واتجه إلى (منية بنى خصيب[1]) — المنيا — واستقر بها إلى أن توفى سنة ٦٧١ ﻫ فى ليلة الاثنين التاسع من شوال . ولا أدرى لماذا اختار القرطبى المنيا مسكنا له ومستقرا[2] .

والقرطبى قبر يزار ويتبرك به « بالمنيا » بشرق النيل . وقد تم فى سنة ١٩٧١ م بناء مسجد كبير يحمل اسم القرطبى . بمكان يسمى « أرض سلطان بالمنيا » ويضم هذا المسجد ضريحا نقلت رفات القرطبى إليه من الضريح القديم ، ولقد قمت بتصوير قبره القديم ، وتصوير مسجده وضريحه الجديدين .

---

(١) منية بضم الميم وسكون النون وياء مفتوحة وهاء مدينة مشهورة بالصعيد الادنى تقع فى شمال أسيوط . وهى نسبة لرجل يسمى « الخصيب أو ابن الخصيب » وكان حاكما لها من قبل بعض الخلفاء العباسيين ، ولهذا قيل فى تسميتها منية بنى الخصيب و منية أبى الخصيب . الخطط التوفيقية ح ١٦ ص ٥١ .

(٢) راجع فى ترجمة القرطبى « طبقات الداودى » ص ٢١٣ ، تاريخ الاسلام وادث سنة ٦٧١ ميلادية ، وطبقات المفسرين ترجمة رقم ٨٨ للسيوطى ، شذرات الذهب ح ٥ ص ٣٢٥ الديباج المذهب ص ٣١٧ ، ونفح الطيب ح ٢ ص ٤٢٨ ، والاعلام ح ٦ ص ٢١٧ ، معجم المؤلفين ح ٨ ص ٢٤٠ ، وهدية العارفين ح ٢ ص ٢٢٩ ، شجرة النور الزكية .



القبر القديم

مسجد القرطبي وبجواره ضريحه الجديد

الفصل الثاني

اخلاقه وثقافته

لقد أثنى المؤرخون على القرطبي وامتدحوه من الناحية الاخلاقية فوصفه الداودي بقوله: « كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة، وتصنيف » ثم عبر الداودي عن عدم تكلفه فقال: « وكان طارح التكلف يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية » وأجمع كل من كتب عنه على ذلك.

وإني أحب أن أقف هنا قليلا لأقول . . إن زهد القرطبي ليس معناه أنه قد حرم الطيبات على نفسه وعاش كما يعيش بعض المتصوفين . لا ،لم يكن زهد القرطبي من هذا النوع . وانما كان بمعنى أنه لم يجعل تحصيل الطيبات واللذات هدفا وغاية له في حياته . فالشيخ قد انحصر تفكيره في الآخرة فلم يجعل الدنيا سلطانا عليه، وفرق بين من يأكل ليعيش وبين من يعيش ليأكل .

وإذا كان بعض المتصوفة قد فهم أن التمتع بالطيبات ينافي الزهد فإن القرطبي قد هاجمهم في تفسيره ولم يرتض هذا المسلك فقال في قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »(١).

---

(١) آية ٨٧ من سورة المائدة .

قال علماؤنا رحمة الله عليهم فى هذه الآية وما شابهها والأحاديث الواردة فى معناها ، ردا على غلاة المتزهدين وعلى أهل البطالة من المتصوفين إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه وحاد عن تحقيقه . قال الطبرى : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شىء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح إذا خاف على نفسه بإحلال ذلك بها بعض العنف والمشقة . ولذلك رد النبي ﷺ التبتل على ابن مظعون(1). فثبت أنه لا فضل فى ترك شىء مما أحله الله لعباده وأن الفضل والبر إنما هو فى فعل ما ندب عباده إليه وعمل به رسول الله ﷺ وسنه لأمته واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون. إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ ، فإذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله .وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذرا من عارض الحاجة إلى النساء . قال الطبرى : فإن ظن ظان أن الخير فى غير الذى قلنا لما فى لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة فقد ظن خطأ وذلك أن الأولى بالإنسان إصلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها ولا شىء أضر للجسم من المطاعم الرديئة لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدواته التى جعلها الله سبباً إلى طاعته »(2)

وفى قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

---

(1) أخرجه البخارى عن سعد بن أبى وقاص ج ص 155 كتاب النكاح باب « ما يكره من التبتل والخصاء » — انظر البخارى ح 3 ص 155 بحاشية السندى طبع العثمانية .

(2) تفسير القرطبى ح 6 ص 262 .

بين أن الآية تدل على لباس الرفيع من الثياب والتجمل بهـا عند لقاء الناس ومزاورة الإخوان. ثم قال بعد أن استدل ببعض الأحاديث على ذلك « فأين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من الكتان والصوف من الثياب ويقول: ولباس التقوى ذلك خير. هيهات أترى من ذكرنا — يقصد رسول ﷺ والصحابة — تركوا لباس التقوى. لا والله بل هم أهل التقوى، وأولو المعرفة والنهى وغيرهم أهل دعوى وقلوبهم خالية من التقوى .. .. ثم استعرض القرطبي موقف ابن الجوزى، ممن يؤثر لباس الخشن والمرقعات. ثم عقب في النهاية بقوله:

قلت وقد كره بعض الصوفية أكل الطيبات واحتج بقول عمر رضى الله عنه « إياكم واللحم فإن له ضراوة(١) كضراوة الخمر » والجواب أن هذا من عمر قول خرج على من خشى منه إيثار التنعم فى الدنيا والمداومة على الشهوات وشفاء النفس من اللذات ونسيان الآخرة والاقبال على الدنيا، ولذلك كان يكتب عمر إلى عماله « إياكم والتنعم وزى أهل العجم واخشو شنوا » ولم يرد رضى الله عنه تحريم شىء أحله الله ولا تحظير ما أباحه الله تبارك اسمه وقول الله عز وجل « أولى ما امتثل واعتمد عليه »(٢).

وبهذا كله يتضح ما أردت أن أقوله عن زهد القرطبى لكن هل ماذكره القرطبي من أن التجمل بالثياب عند لقاء الناس لا ينافى الزهد وأن لباس المرقعات إنما هو مسلك المتزهدين. هل هذا يتفق مع ما ذكره المؤرخون عنه

---

(١) أى أنه قد يصيب الانسان من أكله شره وشهوة إليه لا يستطيع التخلص منها كما تفعل الخمر بشاربيها.

(٢) تفسير القرطبى ج ٧ ص ١٩٦ وما بعدها آية ٣٢ من سورة الاعراف.

من أنه كان طارح التكلف يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية ؟؟ وماذا تعنى هذه العبارة وهل عدم عناية الرجل بمظهره عمل يمدح عليه ؟؟

لقد حيرتنى هذه العبارة مع مافهمته من موقف القرطبى فى الآيتين السابقتين. ولكنى وقفت على نص يزيل هذا الغموض والحيرة . يقول « المقرى »: «وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم، ومنهم من لايكون عنده ما يقوته يومه فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها » .(١)

فهذا النص يصور لنا الأندلسى رجلا يبالغ فى العناية بمظهره مبالغة تجعله يطوى النهار صائماً وعارياً فى بيته ولا يخرج على الناس بهيئة مستقبحة .

أما القرطبى فقد ملكت عليه الآخرة أقطار نفسه فكان يعنى بمظهره ولكنه لم يكن يبالغ فى ذلك على هذه الصورة كما هى عادة الأندلسيين ومن هنا قال المؤرخون عنه « وكان طارح التكلف » فهذه العبارة — فى أغلب ظنى — لا تعطى سوى ذلك ولا تعطى أبداً أنه كان رث الهيئة مهلهل الثياب، فإن هذا ليس من الدين فى شىء كما تقدم .

وإن موقف القرطبى من الزهد لا يخالف موقف علماء المتصوفة بل يتفق معه فقد نقل عن « أيوب السختيانى » وهو من هو فى منزلته ومكانته علما وزهدا — أنه قال لتلاميذه : « الزهـــد فى الدنيا ثلاثة أشياء أحبها إلى الله وأعلاها عند الله وأعظمها ثوابا عند الله تعالى ، الزهد فى عبادة من عبد من دون الله من كل ملك وصنم وحجر ووثن . ثم الزهد فيما حرم الله تعالى —

---

(١) نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٠٤ .

ثم يقبل على أصحابه ويقول أما زهدكم هذا يا معشر القراء فهو والله أخسه عند الله الزهد فى حلال الله عز وجل » (١) .

وإذا كان المؤرخون قد وصفوا القرطبي بالورع فقد يقول قائل : كيف يتفق هذا مع ما نقل عنه من أنه أباح أكل جوائز الملوك والأمراء وأن الورع يقتضى ترك ذلك ؟؟

إن الإفتاء بجواز قبول هدايا الملوك والأمراء شيء آخر غير ما نحن بصدده على أن « ابن عبد البر القرطبي » الذى نقل القرطبي — صاحبنا — عنه هذه الفتوى قد بين أن قبول الهدايا نفسه لا ينافى الورع وإذا كان القرطبي قد ارتضى هذه الفتوى فلا حرج عليه . يقول المقرى فى كتابه « نفح الطيب » نقلا عن القرطبي فى كتابه « قمع الحرص بالزهد والقناعة » « روينا أن الإمام أبا عمر بن عبد البر بلغه وهو « بشاطبة » أن أقواماً عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه فقال :

قل لمن ينكر أكلى لطعام الأمراء

أنت من جهلك هذا فى محل السفهاء

لان الاقتداء بالصالحين من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى من المسلمين من السلف الماضى هو ملاك الدين . فقد كان زيد بن ثابت — وكان من الراسخين فى العلم — يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد، وكان ابن عمر مع ورعه وفضله يقبل هدايا صهره المختار بن عبيد ويأكل طعامه ويقبل جوائزه . وقال عبد الله بن مسعود وكان قد ملىء علما لرجل سأله : إن لى جارا يعمل بالربا ولا يجتنب فى مكسبه الحرام

---

(١) الفخر الرازى ومنهجه فى التفسير للشيخ العمارى ص ٨٨ .

يدعونى إلى طعامه أفأجيبه ؟ قال: نعم لك المهنأ وعليه المأثم ما لم تعلم الشيء بعينه حراما . وكان الشعبي، وهو من كبار التابعين وعلمائهم، يؤدب بنى عبد الملك ابن مروان ويقبل جوائزه ويأكل طعامه .

وكان إبراهيم النخعى وسائر علماء الكوفة والحسن البصرى مع زهده وورعه وسائر علماء البصرة وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان والفقهاء السبعة بالمدينة(١) حاشا سعيد بن المسيب يقبلون جوائز السلطان، وكان ابن شهاب يقبلها ويتقلب فى جوائزهم وكانت أكثر كسبه . . . . . وكان مالك وأبو يوسف والشافعى وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء وكان سفيان الثورى مع ورعه وفضله يقول : جوائز السلاطين أحب لى من صلة الإخوان لأن الاخوان يمنون والسلطان لا يمن. ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير . . . . ثم يقول : وما أعلم من علماء التابعين أحداً تورع عن جوائز السلطان إلا سعيد بن المسيب بالمدينة ومحمد بن سيرين بالبصرة وهما قد ذهبا مثلا فى التورع . . ويبالغ ابن عبد البر فى فتواه — التى ارتضاها القرطبى — فى ذم من عاب عليه فيقول : والزهد فى الدنيا من أفضل الفضائل ولا يحل لمن وفقه الله تعالى وزهد فيها أن يحرم ما أباح الله تعالى منها، والعجب من أهل زماننا يعيبون الشبهات وهم يستحلون ، الحرمات ومثالهم عندى كالذين سألوا عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما عن المحرم يقتل القراد . . . . فقال للسائلين له: من أنتم؟ فقالوا: من أهل الكوفة . فقال: تسألونى عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما .

---

(١) الفقهاء السبعة هم : سعيد بن المسيب المتوفى سنة ٩٣ هـ ، عروة بن الزبير بن العوام المتوفى سنة ٩٤ هـ ، أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث المتوفى سنة ٩٤ هـ ، القاسم بن محمد ابن أبى بكر المتوفى سنة ١٠٨ هـ ، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود المتوفى سنة ٩٨ هـ ، سليمان بن يسار المتوفى سنة ١٠٠ هـ ، خارجة بن زيد بن ثابت المتوفى سنة ١٠٠ هـ .

وكما أثنى المؤرخون على أخلاقه أثنوا على ثقافته الواسعة ، فقال عنه الذهبي « إمام متفنن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله » وبعد أن ذكر بعض مؤلفاته قال: « وله أشياء أخرى تدل على إمامته وذكائه » .

وقال عنه ابن العماد : « كان إماماً علما من الغواصين على معانى الحديث حسن التصنيف جيد النقل » .

ونقل صاحب النفح عن ابن شاكر الكتبي أنه قال في حقه « كان شيخا فاضلا وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفرة علمه » .

وغضب بعض تلامذته من ترجمة « الكتبي » له وعلق عليها بقوله : « قد أجحف المصنف في ترجمته جدا وكان متفننا متبحرا في العلم ».

وحاول بعض التلامذة أن يدافع عن الكتبي بأن الذهبي قد وفاه حقه في تاريخ الإسلام وأنه لا داعي لمهاجمة الكتبي فقال « مشاحة شيخنا للمصنف في هذه العبارة مالها فائدة فإن « الذهبي » قال في تاريخ الإسلام « العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح ، الامام القرطبي إمام متفنن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله » .

ولكن ذلك الدفاع لم يعجب تلميذا ثالثا فانتقد الذهبي والكتبي مما ورد ذلك الدفاع فقال : « إذا كان الذهبي ترجمه بما ذكرت وهو والله فوق ذلك فكيف تقول أن مشاحة شيخك لا فائدة فيها وتسيء الأدب معه وتقول أن كلامه لا فائدة فيه فالله يستر عليك » .

ويبدو أن هذا التعليق المثبت في أحد مؤلفات « الكتبي » [1] على

---

(١) لعل هذا الكتاب هو : « عيون التواريخ » ويوجد منه الجزء الثانى عشر والجزء العشرون فى مجلدين خطيين برقم ٦ ١٣٧ تاريخ تيمور . ولقد بحثت عنهما كثيراً فقيل لى أنهما يصوران .

هامش ترجمة القرطبي كان لتلامذة أخذوا عن القرطبي ولمسوا عقله وفضله وذكاءه ومكانته العلمية فكانت شهادة رؤية ومعاينة دلت على ثقافة القرطبي الواسعة .

وأغلب ظني أن هؤلاء التلاميذ لم يوقعوا أثر ما كتبوه فكثيراً ما شاهدت في الكتب المخطوطة زيادات وتهميشات خالية من التوقيع والإمضاء . ولاشك أن القرطبي تتلمذ عليه أضعاف هذا العدد ولكن المؤرخين سكتوا فلم يتكلم منهم أحد . وبهذا بقيت التلمذة عليه سجلا مطويا لا يعلمه إلا الله .

نعم قد أشار كلهم إلى أنه أجاز لولده « شهاب الدين أبي العباس أحمد » .

ووقعت لي ترجمة لشيخ يسمى : « أبا العباس أحمد بن فرح الاشبيلي » قال صاحب طبقات الشافعية عنه : « ولد سنة خمس وعشرين وستمائة وأسره العدو ونجاه الله تعالى » .

ولم يبين لنا كيف ولا متى أسر ؟ ولقد أوضح « ابن شاكر الكتبي » بعض ذلك فقال : « وأسره العدو سنة ست وأربعين وستمائة » .

وهذا التاريخ هو التاريخ الذى سقطت فيه إشبيلية في يد النصارى القشتاليين عندما حاصروها بقيادة « فرناندو الثالث » ملك قشتالة[١] . ولكننا نتساءل: هل وقع الشيخ فى الأسر بعد أن سقطت المدينة ؟ هذا ما لا يمكن أن يحدث . وإذا كانت أشبيلية قد فتحت أبوابها للمحاصرين فأى وجه لاستعمال العنف والقوة مع أهلها الذين رفعوا راية الأمان ؟ ؟

---

(١) قشتالة بالفتح إقليم عظيم بالأندلس .

وفوق هذا فإن المراجع التاريخية قد أثبتت أن آلافا كثيرة من سكان أشبيلية خرجوا بعد سقوطها فى أمن وطمأنينة بل أثبتت المراجع :

أن ملك قشتالة كان يسرح سريات من فرسانه لتأمين المهاجرين حتى لا يتعرضوا لأى اعتداء . إذن فتى وقع « ابن فرح » فى الأسر ؟

يبدو أنه وقع فى الأسر أثناء حصار النصارى لأشبيلية قبل أن تسقط ولقد بدأ هذا الحصار فى جماد الأولى سنة ٦٤٥ ﻫ أغسطس سنة ١٢٤٧ م . واستمر خمسة عشر شهرا ولما طال الحصار و نفدت الأقوات وبدأ شبح الجوع يخيم على المدينة اضطر الأشبيليون إلى التسليم فى ٥ شعبان سنة ٦٤٦ ﻫ ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م [١] .

فلعل أبا العباس أراد أن يخرج من أشبيلية أثناء حصارها فوقع أسيراً فى يد الأعداء ثم نجاه الله، ويقوى هذا أن بعض المراجع أثبتت : « أنه وقع فى الأسر بتاريخ ٢٩ أبريل سنة ١٢٤٨ م[٢] » فإذا كانت المدينة قد سقطت فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م . فإن هذا لا يدع مجالا للشك فى أنه : وقع فى الأسر قبل أن تسقط المدينة وقبل أن يسلمها الاشبيليون ، وبعد أن نجاه الله تعالى من أيدى الأعداء ذهب إلى مصر فتتلمذ على كبار شيوخها . ثم ذهب إلى دمشق واستقر بها . ونبغ فى الحديث، يقول المؤرخون: « وأخذ يدرس بالجامع الأموى لما كانت له من المكانة فى هذا العلم ولقد عرضت عليه مشيخة دار الحديث النورية [٣] فأباها . وكانت وفاته فى التاسع من جمادى الآخرة سنة ٦٩٩ ﻫ »

---

(١) راجع سقوط « أشبيلية » فى عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٤٦٥ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) نسبة إلى مؤسسها « نور الدين محمود » المتوفى سنة ٥٦٩ ﻫ . وراجع فى ترجمة ابن فرح « طبقات السبكى ج ٥ ص ١٢ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ج ٢ وتذكرة الحفاظ ترجمة رقم ٤٦٧ الجزء الرابع طبقة ٢١ .

ولقد استلفتت نظرى هذه الترجمة فوقفت عندها وقلت فى نفسى : لم لا يكون صاحبها هو ولد « القرطبي المفسر » وتابعت البحث على أعثر على خيط يزيل هذا الشك فوجدت، دائرة « المعارف الاسلامية » تبين : أن مثل ما وقع فى نفسى قاله « السيوطى » فى كتابه « طبقات المفسرين » ثم وجدت « دائرة المعارف » تخطىء « السيوطى » فى ذلك، تقول الدائرة : « وذكر السيوطى خطأ فى كتابه طبقات المفسرين رقم ٨٨[1] : ان ابن فرح هو ابن مصنف الكتاب المشهور « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » وكتاب التفسير الكبير المسمى « جامع أحكام القرآن » محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح المالكى القرطبي المتوفى فى التاسع من شوال عام ٦٧١ هـ ٢٩ أبريل ١٢٧٣ م » ورجعت إلى كتاب « طبقات المفسرين » « للسيوطى » فلم أجد أثراً لهذا القول. بل وجدت السيوطى فى الترجمة رقم ٨٨ يتحدث عن القرطبي صاحب « التذكرة » و « جامع أحكام القرآن » ولم يذكر ما نقلته دائرة المعارف عنه فقلت لعل هذا القول فى غير « طبقات المفسرين » من مؤلفات السيوطى فبحثت فى « طبقات الحفاظ » وفى « ذيل تذكرة الحفاظ » وفى « حسن المحاضرة » فلم أر « للسيوطى » هذا القول .

وعلى كل فإن تخطئة دائرة المعارف « للسيوطى » دعوى بلا دليل . ومن هنا فإن هذا الاحتمال الذى وقع فى نفسى والذى نسبته دائرة المعارف للسيوطى ـ على فرض أنه قاله ـ لا يزال قائما . وقد يقول قائل : كيف يتفق ذلك مع أن « ابن فرح » هذا « إشبيلى » أما أبوه فهو « قرطبي » ؟

---

(١) أى ترجمة رقم ٨٨ .

الأمر فى ذلك سهل . فلعل « القرطبي » عندما خرج من قرطبة استقر بأشبيلية إلى أن سقطت فنشأ ولده فى أشبيلية فنسب إليها . ويقوى ذلك أن عمره يوم انتقل مع أبيه من قرطبة إلى أشبيلية — إذا صح أنه أبوه وأنهما انتقلا معاً إليها — كان : ثمانية أعوام . فقد حدد « السبكى » فى طبقاته سنة ميلاده فقال « ولد سنة خمس وعشرين وستمائة » ومن المعلوم أن قرطبة سقطت فى سنة ٦٣٣ هـ .

وقد يقول قائل آخر : كيف يتفق ذلك مع أن «القرطبي» المفسر أنصارى خزرجى أى أنه : ينتسب إلى الخزارجة(١) الذين سكنوا الأندلس أما ابن فرح فيقال له : « اللخمى »(٢) أى أنه : ينتسب إلى « لخم بن عدى » وشتان بين النسبتين ؟ ؟

هذا كلام قوى . ولكن لم لا يرد على ذلك : بأن كثيرا من سكان أشبيلية ينتسب إلى لخم بن عدى . فلعل « ابن فرح » نسب إلى هذه النسبة خطأ .

وعلى كل أيضاً : فإنى لا أجزم بأن « ابن فرح » ولد « القرطبي » المفسر وإنما أثرت احتمالا وقع فى نفسى وجدته منسوبا إلى أحد العلماء ولعل بعض الباحثين ممن يأتون بعدنا يكشف حقيقة ذلك .

وإذا كانت التلمذة على « القرطبي » رمزاً لثقافته وعلمه فإن ما أتعجب من

---

(١) ينسب الخزرج إلى سعد بن عبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن الخزرج الذين سكنوا الاندلس « أبو عبادة بن عبد الله بن ماء السماء » صاحب الموشحات انظر : فتح الطيب ج ١ص ١٣٦ .

(٢) اللخمى بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وبعدها ميم نسبة إلى « لخم بن عدى » واسمه مالك وهو أخو جذام واسم جذام عمرو بن عدى وكانا قد تشاجرا فلخم عمر مالكا أى لطمه فضرب مالك عمرا بمدية فجذم يده ، أى قطعها فسمى مالك لخما وسمى عمرو جذاما لهذا السبب « انظر وفيات الاعيان » ج ١ ترجمة رقم ٦٥ .

مؤلفات دال على هذا بصورة أقوى وأعمق . فلقد ألف القرطبى كتابا كبيرا فى التفسير وضع له اسما ينفسه وبين الدافع الذى حدا به إلى تأليفه فقال فى مقدمته : فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذى استقل بالسنة والفرض ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض رأيت أن أشتغل به مدى عمرى وأستفرغ فيه منتى[1] بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا يتضمن نكتا من التفسير واللغات والإعراب والقراءات والرد على أهل الزيغ والضلالات وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات جامعا بين معانيهما ومبينا ما أشكل منهما . بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف . وعملته تذكرة لنفسى وذخيرة ليوم رمسى . وعملا صالحا بعد موتى . قال الله تعالى « ينبأ الإنسان يومئذ[2] بما قدم وأخر » . . . وقال رسول الله صلى عليه وسلم « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث . صدقة جارية أو علم ينتفع به . أو ولد صالح يدعو له[3] » ثم قال . . . . . . « وسميته « بالجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان » جعله الله خالصا لوجهه وأن ينفعنى به ووالدى ومن أراده بمنه إنه سميع الدعاء » .

ولكن متى بدأ القرطبي فى تأليف هذا التفسير ؟ ؟

إننى استبعد أن « القرطبي » بدأ تأليف تفسيره بقرطبة فإن حادثة مقتل أبيه توضح أنه لم يكن قد استوى عوده بعد . ولعله بدأ فى تأليفه بعد ذلك عندما خرج من قرطبة ثم أكمله عندما استقر بالصعيد ، ويقوى ذلك أنه قال

---

(١) المنة هى القوة ، وهى من الاضداد إذ تطلق على الضعف أيضا .

(٢) آية ١٣ من سورة القيامة .

(٣) الحديث أخرجه مسلم « فى كتاب الوصية » عن أبى هريرة باب « ما يلحق الانسان من الثواب بعد وفاته » ح ٥ ص ٨٢ طبع التحرير .

فى حادثة مقتل أبيه: « وهذه المسألة وقعت عندنا بقرطبة أعادها الله » فهو يحكى هذه الحادثة بعيدا عن قرطبة ويطلب من الله أن يعيدها .

وقد ذكر المؤرخون « القرطبى » غير كتابه « الجامع لأحكام القرآن » عدة مؤلفات منها : « التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة » وهو كتاب مطبوع متداول تناول فيه « القرطبى » الموت وأحوال الموتى والقيامة والجنة والنار . ونقل كل ذلك كما يقول : « من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة » وعقب « القرطبى » على كل باب بفصل أو فصول ذكر فيه ما يحتاج إليه من بيان غريب أوفقه فى حديث أو إيضاح مشكل لتكمل فائدته(١)

ولقد اختصر هذا الكتاب « الإمام عبد الوهاب الشعرانى » المتوفى سنة ٩٧٣ هـ واختصاره مطبوع متداول ولقد شكك بعض العلماء فى نسبة هذا المختصر إلى الإمام الشعرانى ويبدو أنه كذلك . فإن صاحب « كشف الظنون » عندما تحدث عن « تذكرة القرطبى » قال « وهى مختصرة لبعض العلماء(٢)» وعندما تحـــدث عن الكتب التى تحمل اسم « مختصر » لم يذكر للامام الشعرانى شيئاً منها . ومنها كتاب « التذكار فى أفضل الأذكار » وهو كتاب مطبوع متداول .

بين القرطبى فى مقدمته : أن قـراءة القرآن أفضل الأعمال وأسنى المقامات والأحوال وأشرف الأذكار والأقوال . وهذا هو السبب الذى دفعه

---

(١) راجع هذه الحادثة فى تفسير القرطبى ص ٢٧٢ وفى فصل « نشأة القرطبى » من الرسالة .

(٢) مقدمة كتاب التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة مطابع مدكور وأولاده صححه وعلق عليه أحمد مرسى .

(٣) كشف الظنون ج ١ ص ٢٧٥

إلى تأليف هذا الكتاب . يوضح « القرطبي » ذلك ويسرد بعض أبواب الكتاب باختصار فيقول : « فرأيت أن أكتب في ذلك كتابا وجيزا يحتوى على فضل القرآن وقارئه ومستمعه والعامل به وحرمته وحرمة القرآن وكيفية تلاوته والبكاء عنده ... ، وذم من قرأه رياء وعجبا ، إلى غير ذلك مما يضمنه الكتاب » .

ثم يوضح « القرطبي » أن مقصده الأول كان : في تخريج أربعين حديثا نبوية ولكنه لما وجد كثيرا من العلماء قد سبقوه إلى ذلك اتجه إلى وضع هذا الكتاب وجعله في أربعين بابا . يقول القرطبي :

« وكان المقصد الأول تخريج أربعين حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم لما رواه يحيى بن عبد الله بن بكير قال : حدثنا مالك بن أنس عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضى الله عنه . قال: قال رسول الله صلى عليه وسلم : « من حفظ على أمتي أربعين حديثا من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة » قال أبو عمر : هذا أحسن إسناد جاء به هذا الحديث ولكنه غير محفوظ ولا يعرف من حديث مالك[1] . وقال أبو على بن السكن وليس يروى هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت . ثم عقب القرطبي بقوله :

قلت : ولكنه من أجلها[2] بادر طلاب الخير الراغبون في اكتساب

(١) وما رواه عن مالك فقد أخطأ عليه وأضاف ما ليس من روايته إليه . وتمام كلام ابن عبد البر « في جامع بيان العلم » ولم يبين علته ولا سبب ضعفه . وعلته : أنه من رواية « يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم العسقلانى » وهو كذاب اتهمه « الذهبى » فى الميزان « والحافظ على لسانه » بوضع أحاديث . منها : هذا الحديث انظر تعليق « العلامة السيد أحمد بن محمد بن الصديق الغمارى » ص ٣ فى كتاب « التذكار فى أفضل الاذكار » .

(١) اى من أجل تخريج الاربعين حديثا . وما ورد فى فضلها رغم ضعفه .

الأجر إلى تخريجها فرأيت من سبق من أئمتنا العلماء والسادة الفضلاء رضوان الله عليهم قد خرجوا من ذلك كثيراً في العبادات وفضل الجهاد وقضاء الحاجات وفضل الصلاة على النبي ﷺ ، إلى غير ذلك من الترغيب والترهيب ، والأحاديث المسلسلات . فاستخرت الله سبحانه في ذلك وسألته التيسير على في ذلك . فيسر لي تخريج أربعين بابا في فضل كتابه العزيز وقارئه ومستمعه والعامل به وسميته : كتاب « التذكار في أفضل الأذكار »(١) .

ومنها : الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى(٢) .

ومنها : شرح التقصي(٣) ولم أعثر على هذين الكتابين .

ومنها : الاعلام بما في دين النصارى من المفاسد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام . ولقد أشار «البغدادي» إلى هذا الكتاب « في هدية العارفين »

---

(١) انظر مقدمة « التذكار » طبع الخانجي .

(٢) قال صاحب « كشف الظنون » عن هذا الكتاب بعد أن نسبه إلى القرطبي ذكر في أوله واحدا وأربعين فصلا في ذكر ما يتعلق بها من الاحكام وذكر بعد تمام شرح أسماء الله الحسنى أربعة أجزاء رد على المجسمة وأصحاب التشبيه . . . وهذا الشرح كبير ومفيد . كشف الظنون ح ٢ ص ١٥

(٣) شرح التقصي لابن عبد البر القرطبي كتاب يسمى «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» ولقد اختصره ابن عبد الله في كتاب سماه « التقصي في الحديث النبوي » .

وذكر كارل بروكلمان : أن القرطبي قد اختصر كتاب التمهيد . فلعله أيضاً قد شرح كتاب التقصي لابن عبد البر وسماه شرح التقصي .

أنظر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ح ٣ ص ٢٧٦ دار المعارف .

وحدد كارل بروكلمان مكان هـذا الـكتاب فذكر فى كتـابه « تاريخ الأدب العربى » أنه يوجد منه نسختان خطيتان بمكتبة « كوبريلى » بتركيا تحت رقم ٧٩٤ — ٨١٤ .

ومنها : « قمع الحرص بالزهد والقناعة » ولقد ذكر « كارل بروكلمان » أنه يوجد من هذا الـكتاب نسخة خطية « ببرلين » تحت رقم ٨٧٨٧ ونسخة بمكتبة « الفاتح » باستنبول برقم ٢٧٣٧ .

وذكر كارل بروكلمان القرطبي عدة مؤلفات أخرى :

ومنها : رسالة فى ألقاب الحديث . وبين أنها توجد بمكتبة « الجزائر » برقم ٢٧٧ .

ومنها : الأقضية . وقال « كارل بوركلمان » عند ذكر هذا الـكتاب : انظر فهرس مكتبة « آصيفيا » ج ١ ص ٦٥٨ . . وهذه المكتبة « بحيدر آباد بالهند » .

ومنها : المصباح « فى الجمع بين الأفعال والصحاح » وهو كتاب لغوى . اختصر فيه القرطبي كتاب « الأفعال » لأبى القاسم على ابن جعفر بن القطاع المتوفى سنة ٥١٥ هـ . وكتاب « الصحاح » للجوهرى ويوجد « بمكتبة بريل بليدن » بهولندا برقم ٢٨٣[1] .

ولقد أشار القرطبي فى تفسيره إلى مؤلفات لم أعثر عليها ولم أرها منسوبة إليه عند أحد من المؤرخين . ومن هذه المؤلفات :

---

(1) GAL I 415 GALS I 738

« المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس » ولقد أشار « القرطبي » إلى هذا الكتاب في قوله تعالى : « فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه » في المسألة الثامنة [١] ، وقوله تعالى « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » يقول القرطبي : وسئل سفيان عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر ، وأنعم على الآخر فشكر فقال : كلاهما سواء ، لأن الله تعالى أثنى على عبدين ، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحداً ، فقال في وصف أيوب : « نعم العبد أنه أواب » وقال في وصف سليمان : « نعم العبد إنه أواب » وناقش القرطبي بعض العلماء الذين لا يرتضون هذا القول ، وأشار إلى بعض تآليفه فقال :

قلت : وقد رد هذا الكلام صاحب « القوت » واستدل بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغنى وذكر كلاما كثيراً أسند به كلامه ، وقد ذكرنا ، في غير هذا الموضع من كتاب « منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد » وخفى عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده ، وإنما ابتلى بذهاب ماله وولده وعظيم الداء في جسده ، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتحنوا وفتنوا . فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة فخرج منه كما دخل فيه وما تغير منه حال ولا مقال ، فقد اجتمع [٢] مع أيوب في المعنى المقصود ، وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضا . وبهذا الاعتبار يكون الغنى الشاكر والفقير الصابر سواء وهو كما قال سفيان [٣] .

وفي قوله تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٣ ص ٩ آية ٢٠٣ من سورة البقرة .

(٢) الضمير يعود على سليمان عليه السلام .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢١٥ وما بعدها آية ٤٤ من سورة « ص »

شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » بين أن هذا التسبيح على الحقيقة . ثم تعرض لمعجزات رسول الله ﷺ الحسية ، فذكر بعضاً منها ثم قال وقد أتينا على جملة منها فى «اللمع اللؤلؤية فى شرح العشرينات النبوية » (١)

ولعلنا بهذا نكون قد كشفنا شيئاً من أخلاق القرطبى وثقافته ، ذلكم الرجل الذى قال عنه الذهبى فى تاريخ الإسلام : « إمام متفنن متبحر فى العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله »(٢).

---

(١) تفسير القرطبى ح ١٠ ص ٢٦٨ آية ٤٤ من سورة الاسراء .

(٢) راجع فى ترجمة القرطبى : طبقات المفسرين « للداودى » نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٦٨ تاريخ ، طبقات المفسرين « ترجمة رقم ٨٨ » تاريخ الاسلام للذهبى « نسخة خطية ، حوادث سنة ٦٧١ ص ١٦٦ ، شذرات الذهب « لابن العماد » ح ٥ ص ٣٣٥ ، معجم المؤلفين « لكحالة » ح ٨ ص ٢٤٠ ، هدية العارفين « البغدادى » ح ٢ ص ١٢٩ ، الديباج المذهب « لابن فرحون » ص ٣١٧ ، نفح الطيب « للمقرى » ح ٢ ص ٤٢٨ ، الاعلام « للزركلى » ح ٦ ص ٢١٧ .

الفصل الثالث

عقيدة القرطبي

ذهب بعض المؤرخين إلى « إن أن عقيدة أهل المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي سنية سلفية » وأن الأمر استمر على ذلك إلى أن جاء « محمد بن تومرت » مؤسس دولة الموحدين فنقلهم إلى الأشعرية حيث رحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه مذهب الشيخ « أبي الحسن » ومتأخري أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة ، وتخريجه على ما عرف في كلام العرب من فنون مجازاتها وضروب بلاغاتها مما يوافق عليه النقل والشرع ويسلمه العقل والطبع . وعندما عاد دعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة وجزم بتضليل من خالفها بل بتكفيره وسمى أتباعه « الموحدين » تعريضاً بأن من خالف طريقته ليس بموحد ، وجعل ذلك ذريعة إلى الانتزاء على ملك المغرب لكنه ما أتى بطريقة الأشعرية خالصة بل مزجها بشيء من الخارجية والشيعية حسبما يعلم ذلك بإمعان النظر في أقواله وأحوال خلفائه من بعده (1) وتابعه على ذلك بعض الباحثين المحدثين (2) .

ومع هذا فإن كتب التراجم والطبقات قد ترجمت لعدد كبير من علماء

(1، 2) الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي ج 1 ص 126 وما بعدها . ولعله يقصد من عبارته الأخيرة أن ابن تومرت ادعى عصمة الإمام في مذهبه الكلامي كما ادعته الشيعة من قبل وأنه كفر مخالفيه كما كفرهم الخوارج أيضا . راجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبكارل بروكلمان ج 1 ص 191 ، والدعوة الموحدية ص 304 وما بعدها للدكتور عبد الله علام . وانظر (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) لآدم متز تعريب أبو ريدة ج 1 ص 340 .

الأندلس والمغرب اعتنقوا المذهب الأشعرى قبل دولة الموحدين التى قامت فى أوائل القرن السادس تقريبا .

ومن هؤلاء « ابن أبى زيد القيروانى » المتوفى سنة ٣٨٦ ﻫ . فقد توفى قبل أن يخرج « ابن تومرت » إلى الحياة بنحو قرن من الزمان وكان أشعريا يدافع عن مذهب الأشاعرة ضد المعتزلة بصدق وإيمان وله رسالة فى الرد عليهم، فقد ذكر ابن عساكر أن « ابن أبى زيد » كتب هذه الرسالة جوابا « لعلى ابن أحمد بن اسماعيل البغدادى المعتزلى » حين ذكر « أبا الحسن الأشعرى » رضى الله عنه ونسبه إلى ما هو برىء منه مما جرت عادة المعتزلة باستعمال مثله فى حقه . فقال « ابن أبى زيد » فى حق « أبى الحسن » « هو رجل مشهور أنه يرد على أهل البدع وعلى القدرية والجهمية متمسك بالسنن » (١) .

ومنهم القاضى « أبو الوليد سليمان بن خلف الأندلسى الباجى » : وأشعريته لا يستطيع ان ينكرها أحد، وقد توفى سنة ٤٩٦ وقبل أن يقوم «ابن تومرت» بدعوته . وذكر « ابن خير » فى فهرسة شيوخه مجموعة من كتب الأشاعرة كانت متداولة فى الأندلس قبل ظهور « ابن تومرت » وتلقاها « ابن خير » عن شيوخه وكذلك فعل « ابن عطية » (٢) .

وقد ترجم « ابن الفرضى » فى كتابه « علماء الأندلس » لعدد من العلماء اعتنقوا مذهب المعتزلة ومن هؤلاء :

---

(١) رسالة « منهج ابن عطية للفسر » للزميل عبد الوهاب فايد ص ٢٠٢ والجهمية فرقة تقول بالجبر وتنسب إلى الجهم بن صفوان المتوفى سنة ١٢٨ .

(٢) راجع فهرسة ابن خير ص ٢٥٥، وشيوخ ابن عطية، نسخة مصورة بدار الكتب رقم ٢٦٤٩١ لوحة ٢٥ ترجمة أبو محمد عبد الوهاب ابن أبي غالب القيرواني .

« محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح » (ت سنة ٣١٩ هـ) كان من أهل قرطبة ورحل إلى المشرق ثم عاد إلى بلده، يقول ابن الفرضى : فأظهر نسكا وورعا واغتر الناس بظاهره فاختلفوا إليه وسمعوا منه ثم ظهر الناس على سوء معتقده وقبح مذهبه فانقبض من كان له إدراك وعلم وتمادى فى صحته آخرون غلب عليهم الجهل فدانوا بنحلته » .

ومنهم « يحيى بن يحيى » المعروف « بابن السمينة » من أهل قرطبة ، يقول ابن الفرضى « رحل إلى المشرق فمال إلى الاعتزال وكان يعلن بالاستطاعة، وتوفى سنة ٣١٥ هـ » .

ومنهم « منذر بن سعيد » (ت سنة ٣٥٥ هـ) (١) ولقد هاجمه القرطبى فى قوله تعالى « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » حيث استدل بقوله « أعدت الكافرين » على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة خلافا للمبتدعة فى قولهم : أنها لم تخلق حتى الآن، ثم قال : وهو القول الذى سقط فيه « منذر بن سعيد البلوطى » الأندلسى . ثم قوى القرطبى مذهب أهل السنة ببعض ما روى فى هذا من أحاديث .

ويؤيد ذلك « ابن حزم » الظاهرى فيقول فى رسالته وهو يتحدث عن علم الكلام : وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ولا اختلفت فيها النحل فقل لذلك تصرفهم فى هذا الباب ، فهى على كل حال غير عرية عنه، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال نظار على أصوله ولهم

---

(١) علماء الاندلس ح ٢ ص ٢٩

فيه تأليف. ثم ذكر ابن حزم بعض من اعتنق هذا المبدأ ومنهم « منذر بن سعيد، يحيى بن السمينة ، ومحمد بن نجيح » (١) .

ويعقب أستاذنا الشيخ « محمد أبو زهرة » على كلام « ابن حزم » فيقول: « وتبين من هذا أن الأندلس كان فيها المذهب المعتزلى وقد كان أهل الأندلس كأهل المشرق يأخذون بمذهب « أبى الحسن » الأشعرى فى مناهجه وفى آرائه فى العقائد، وقد انتهى ابن حزم إلى مخالفة الفريقين »(٢) . ولو قورن ذلك بما قاله « السلاوى » ومن تابعه فان التناقض يبدو واضحاً جلياً ، ولكن لعل مقصد « السلاوى » أن عامة الأندلسيين كانوا يدينون بمذهب السلف لأنه أقرب لعقولهم إلى أن جاء « ابن تومرت » فنقلهم إلى الأشعرية . أما الفقهاء والعلماء فقد اعتنقوا مذهب الأشعرى ودافعوا عنه وضيقوا الخناق على المعتزلة حتى تواروا عن أعين الناس باعتزالهم . فدعوة « ابن تومرت » لم تؤثر — على ما أعتقد — فى عقيدة العلماء والفقهاء وإنما أفسحت المجال للأشعرية فى نفوس غيرهم من السكان . فلو لم تظهر دعوة « ابن تومرت » ولو لم ينشأ القرطبى بعد استقرار دولة الموحدين لنشأ سنيا أشعريا ينتصر لمذهب « أبى الحسن الأشعرى » وعقيدته ضد المعتزلة وغيرهم ، ولسنا فى حاجة إلى سرد كثير من الأدلة لبيان عقيدة القرطبى وأنه كان يدين بمذهب الأشعرى ويعتنقه ويدافع عنه ، ويكفينى بعرض بعض النماذج من تفسيره توضح أشعريته :

فى قوله تعالى « قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم » بين أن الهداية والاضلال من خلق الله وهاجم مذهب المعتزلة ودعواهم فى أن الغواية ليست من الله لأن ذلك يتنافى مع عدله . فقال :

---

(١) انظر رسالة ابن حزم فى نفح الطيب ح ٢ ص ١٢٦

(٢) ابن حزم ص ١١٧

« مذهب أهل السنة أن الله أضله وخلق فيه الكفر ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى وهو الحقيقة فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له صادر عن إرادته تعالى . ثم قال : « وخالف الإمامية (١) والقدرية (٢) وغيرهما شيخهم إبليس الذي طاوعوه في كل ما زينه لهم ولم يطاوعوه في هذه المسألة ويقولون : أخطأ إبليس وهو أهل الخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه — تعالى الله عن ذلك — فيقال لهم : « وإبليس وإن كان أهلا الخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » (٣)

وقد روى أن طاوسا جاءه رجل في المسجد الحرام وكان متهما بالقدر وكان من الفقهاء الكبار فجلس إليه فقال طاوس: تقوم أو تقام ؟ فقيل لطاوس تقول هذا لرجل فقيه ؟ فقال : إبليس كان أفقه ، يقول إبليس : فبما أغويتني وهذا يقول أنا أغوى نفسي (٤) .

وفي قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا » (٥) دافع القرطبي عن مذهب أهل السنة وهاجم المعتزلة فبين أن معنى الإضلال الغواية واستدل بالآية على مذهبه فقال :

---

(١) الامامية فرقة من فرق الشيعة ، نسبة إلى الامام علي ، لانهم ركزوا كثيرا من تعاليمهم حوله وكانت لهم آراء تقرب من آراء المعتزلة .

(٢) تلقب المعتزلة بالقدرية ، لانهم ينسبون أفعال العباد إلى قدرتهم .

(٣) آية ٣٤ من سورة هود .

(٤) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٧٥ آية ١٦ من سورة الاعراف .

(٥) آية ١٢٥ من سورة الانعام .

« وهذا رد على القدرية . ونظير هذه الآية من السنة قوله عليه السلام « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين[١] » . أخرجه الصحيحان ، ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر وتنويره . والدين العبادات كما قال : « إن الدين عند الله الاسلام » ودليل خطابه أن من لم يرد الله به خيرا ضيق صدره وأبعد فهمه فلم يفقهه،والله أعلم . وروى أن عبد الله ابن مسعود قال: يارسول الله ،وهل ينشرح الصدر ؟ فقال « نعم يدخل القلب نور » فقال : وهل لذلك من علامة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت[٢] قبل نزول الموت[٣] .

ولقد بنى المعتزلة مذهبهم فى أن الله لا يخلق أفعال العباد ولا يريد المعاصى على قاعدة العدل . وهى إحدى قواعدهم أو أصولهم التى نادوا بها . ولقد أشار إلى هذه الأصول أبو الحسن الخياط فى كتابه « الانتصار » فقال : « وليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة :التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإذا كانت فى الانسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلى[٤] »

---

(١) الحديث أخرجه البخارى عن معاوية فى باب العلم . ح ١ ص ١٦ انظر متن البخارى بحاشية السندى وفتح المهدى بشرح مختصر الزبيدى ح ١ ص ٩٢

(٢) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن مسعود . انظر المغنى عن حمل الاسفار فى الاسفار فى تخريج ما فى الاحياء من الاخبار على هامش إحياء علوم الدين للغزالى ح ١ ص ٧٧

(٣) تفسير القرطبى ح ٧ ص ٨١

(٤) نقل هذا النص الزميل عبد الوهاب فايد من كتاب الانتصار ص ١٢٦ فى رسالته ص ٢٠ وانظر « نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام » الدكتور « على سامى النشار » ح ١ ص ٤٨٤ وما بعدها .

ونرى أن القرطبي من خلال تفسيره يحاول أن يبطل ما تمسك به المعتزلة من حجج في تقرير قاعدة العدل . فإذا قالت المعتزلة : إن الله تبارك وتعالى قد وصف نفسه بالعدل فقال : « وما ربك بظلام للعبيد[١] » وقال : « إن الله لا يظلم الناس شيئا[٢] » وكيف يتحقق العدل مع أن الله سبحانه — في مذهب أهل السنة — يعاقب على ما أراده وفعله ؟ نرى القرطبي يبطل أدلتهم ويهاجمهم ويتضح ذلك :

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فإنه قد بين أن الآية تقتضي النص على خلق الله تعالى الكفر والايمان . حيث إن الله يحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذي أمره به فلا يكتسبه إذا لم يقدره عليه بل أقدره على ضده وهو الكفر .. أما المؤمن فإنه يحول بينه وبين الكفر ثم يقول : « فبان بهذا النص أن الله تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خيرها وشرها » ويظهر القرطبي عدل الله سبحانه فيقول : « وكان فعل الله تعالى ذلك عدلا فيمن أضله وخذله إذ لم يمنعهم حقا وجب عليه فتزول صفة العدل وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم عليه[٣] »

وإذا قالت المعتزلة كيف يناط بالعبد تكليف وهو لا يخلق أفعاله ؟؟

بين القرطبي من خلال تفسيره أن مناط التكليف هو الكسب .

ففي قوله تعالى « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم »

---

(١) آية ٤٦ من سورة الشورى .
(٢) آية ٤٤ من سورة يونس .
(٣) تفسير القرطبي ح ٧ ص ٣٩٠ آية ٣٤ من سورة الانفال

الآية . قال : « فى هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك ، إن كان خيرا فبفضله ، وإن كان شرا فبعدله ، وهذا مذهب أهل السنة . والآى فى القرآن بهذا المعنى كثيرة ، فالعبد مكتسب لأفعاله على معنى أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعشة مثلا وذلك التمكن هو مناط التكليف[1] » .

وإن قالت كيف يأمر الله بما لا يريده وكيف ينهى عما يريده نرى القرطبى يتعرض للفرق بين الإرادة والأمر كما هو مذهب أهل السنة . ففى قوله تعالى « ويتخذ منكم شهداء » يقول: قوله تعالى « ويتخذ منكم شهداء» دليل على أن الإرادة غير الأمر كما يقول أهل السنة فان الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين، حمزة وأصحابه وأراد قتلهم، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأراده فواقعه آدم . ولكنه أمر إبليس بالسجود ولم يرده فامتنع منه ، وعنه وقعت الإشارة بقوله « ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم[2] » .

وإن كان قد أمر جميعهم بالجهاد، ولكنه خلق الكسل والأسباب القاطعة عن المسير فقعدوا[3] .

وبنى المعتزلة على قاعدة الوعد والوعيد — بمعنى أن وعد الله ووعيده لا يتخلفان — أموراً : منها أن مرتكب الكبيرة لاتناله شفاعة الرسول ﷺ إذا مات ولم يتب : وأبرز القرطبى مذهب أهل السنة فى الشفاعة وانتصر له وهاجم المعتزلة . وبين أن الخلود فى النار ليس مصير مرتكب الكبيرة إذا

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ١٢٩ آية ١٣٤ من سورة البقرة .

(٢) آية ٤٦ من سورة التوبة

(٣) تفسير القرطبى ج ٢ ص٢١٩ آية ١٤٠ من سورة آل عمران.

مات ولم يتب ، فقال فى قوله تعالى « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً » الآية . .

« مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق وأنكرها المعتزلة وخلدوا المؤمنين المذنبين الذين دخلوا النار في العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين ، هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين » وقد تمسك القاضي ـ « أبو بكر الطيب » ـ عليهم فى الرد بشيئين أحدهما : الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقى هذه الأخبار بالقبول ، ولم يبد من أحد منهم فى عصر من الأعصار نكير. فظهور روايتها وإطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة . . . . فان قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هذه الأخبار مثل قوله تعالى « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » (1) قالوا وأصحاب الكبائر ظالمون وقال « من يعمل سوءاً يجز به » (2) « ولا يقبل منها شفاعة » قلنا ليست هذه الآيات عامة فى كل ظالم ، والعموم لا صيغة له فلا تعم هذه الآيات كل من يعمل سوءاً وكل نفس ، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة فى ذلك . وأيضاً فان الله تعالى أثبت شفاعة لأقوام ونفاها عن أقوام فقال فى صفة الكافرين « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » (3) وقال : «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى »(4) وقال« ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن

(1) آية ١٨ من سورة غافر

(2) آية ٤٨ من سورة المدثر .

(3) آية ٢٨ من سورة الانبياء .

(4) آية ٢٣ من سورة سبا .

له » فعلمنا بهذا الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين. وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة » — النفس الكافرة لا كل نفس، ونحن وإن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول إنهم مخلدون فيها بدليل الأخبار التى رويناها ، وبدليل قوله « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (١) وقوله « انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » (٢) .

فان قالوا فقد قال تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » والفاسق غير مرتضى قلنا : لم يقل لمن لا يرتضى . وإنما قال : لمن ارتضى . ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحدون بدليل قوله « لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » (٣) وقيل للنبى ﷺ : ما عهد الله مع خلقه ؟ قال : « أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئاً » (٤) وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله . فان قالوا : المرتضى هو التائب الذى اتخذ عند الله عهداً بالإنابة إليه بدليل أن الملائكة استغفروا لهم وقالوا « فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك » وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هى لأهل التوبة دون أهل الكبائر قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة فاذا قبل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشفاعة ولا إلى الاستغفار .

وأجمع أهل التفسير على المراد بقوله « فاغفر للذين تابوا : أى عن الشرك

---

(١) آية ٤٨ من سورة النساء

(٢) آية ٨٧ من سورة يوسف

(٣) آية ٨٧ من سورة مريم

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن معاذ بن جبل مع اختلاف فى الروايتين انظر صحيح مسلم بشرح النووى ح ١ ص ٢٣٠

« واتبعوا سبيلك » أى سبيل المؤمنين . سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم كما، قال تعالى « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

فان قالوا: جميع الأمة يرغبون في شفاعة النبي ﷺ . فلو كانت لأهل الكبائر خاصة بطل سؤالهم . قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول ويرغب إلى الله تعالى في أن تناله لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه، بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة، وقال ﷺ « لا ينجو [1] أحد إلا برحمة الله تعالى. فقيل : ولا أنت يارسول الله؟ فقال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته» [2] .

وهاجم القرطبي كثيراً من الفرق غير المعتزلة . فهاجم « الكرامية » [3] فى تفسير قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » فقال : « فى هذه الآية رد على الكرامية حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب، واحتجوا بقوله تعالى « فأثابهم الله بما قالوا » ولم يقل بما قالوا وأضمروا وبقوله عليه السلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم » [4] وهذا منهم قصور وجمود وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد . وقد قال رسول الله ﷺ « الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان»

---

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أبى هريرة مع اختلاف بسيط. باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ج ١٧ ص ١٦٠

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٨٨ آية ٤٨ من سورة البقرة

(٣) الكرامية فرقة من المجسمة كما يقول الشهرستانى « نسب إلى مؤسسها » محمد بن كرام السجستانى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن أبى هريرة فى باب بيان الايمان الذى يدخل الجنة ج ١ ص ٢٠٦ انظر صحيح مسلم بشرح النووى .

أخرجه ابن ماجة فى سننه، فما ذهب إليه « محمد بن كرام السجتانى » وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق . ونعوذ بالله من الخذلان (١) .

وهاجم الإمامية والرافضة فى قوله تعالى « وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح » فقد قال : « المعنى وقال موسى حين أراد المضى للمناجاة والمغيب فيها ، لأخيه هارون : كن خليفتى، فدل على النيابة » وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلى (حين خلفه) فى بعض مغازيه « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » (٢) فاستدل بهذا الروافض (٣) والإمامية وسائر فرق الشيعة على أن النبى ﷺ استخلف عليا على جميع الأمة حتى كفروا الصحابة — قبحهم الله — لأنهم عندهم تركوا العمل الذى هو النص على استخلاف على واستخلفوا غيره بالاجتهاد منهم . ومنهم من كفر عليا إذ لم يقم بطلب حقه ، وهؤلاء لا شك فى كفرهم وكفر من تبعهم على مقالتهم ، ولم يعلموا أن هذا استخلاف فى حياة ، كالوكالة التى تنقضى بعزل الموكل أو بموته لا يقتضى أنه متماد بعد وفاته فينحل على هذا ما تعلق به الإمامية وغيرهم ، وقد استخلف النبى ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم ، وغيره ولم يلزم من ذلك استخلافه دائما بالاتفاق ، على أنه قد كان هارون شرك مع موسى فى أصل الرسالة فلا يكون لهم فيه على ما راموه دلالة والله الموفق للهداية (٤) .

---

(١) تفسير القرطبى ح ١ ص ١٩٣ آية ٨ من سورة البقرة .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى باب الفضائل ح ١٥ ص ١٧٥ والغزوة التى تخلف عنها على « هى غزوة تبوك » .

(٣) الرافض فرقة من الشيعة ، سموا بذلك لانهم رفضوا خلافة الشيخين .

(٤) تفسير القرطبى ح ٧ ص ٢٧٧ آية ١٤٢ من سورة الاعراف

وفى الآيات التى يوهم ظاهرها مشابهة الله تعالى للحوادث — تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً — عرض القرطبى آراء أهل السنة (١) وهاجم المشبهة والمجسمة ففى قوله تعالى « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » يقول :

« اختلف الناس فى تأويل الوجه المضاف إلى الله تعالى فى القرآن والسنة فقال الحذاق : ذلك راجع إلى الوجود والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام إذ كان الوجه أظهر الأعضاء فى الشاهد وأجلها قدرا . وقال ابن فورك : قد تذكر صفة الشىء والمراد بها الموصوف توسعا كما يقول القائل : رأيت علم فلان اليوم ونظرت إلى علمه ، وإنما يريد بذلك رأيت العالم ، ونظرت إلى العالم . كذلك إذا ذكر الوجه هنا والمراد من له الوجه أى الوجود . وعلى هذا يتناول قوله تعالى: « إنمـــا نطعمكم لوجه الله(٢) » لأن المراد به : لله الذى له الوجه ، وكذلك قوله : « إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » أى الذى له الوجه . قال ابن عباس : الوجه عبارة عنه عز وجل كما قال : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » وقال بعض الأئمة تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجبه العقول من صفات القديم تعالى . قال ابن عطية وضعَّف أبو المعالى هذا القول . وهو كذلك ضعيف . وإنما المراد وجوده . وقيل المراد بالوجه هنا : الجهة التى وجهنا إليها أى القبلة . وقيل الوجه القصد كما قال الشاعر .

أستغفر الله ذنبا لست محصيه   رب العباد إليه الوجه والعمل

وقيل : المعنى فثم رضا الله وثوابه كما قال : « إنما نطعمكم لوجه الله » أى

---

(١) لقد اختلف أهل السنة فى مثل هـــذه الآيات فقال بعضهم بالتفويض ، وقال بعضهم بتأويل الآيات على قوانين اللغة العربية . وقال أبو بكر بن الطيب وجماعة من المتكلمين أن الوجه والعين واليد وغير ذلك صفات زائدة على الذات ثابتة لله تعالى .

(٢) آية ٩ من سورة الانسان .

لرضائه وطلب ثوابه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم(١) « من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة. »

ويبدو أن القرطبي كان يميل إلى التأويل ؛ فإنه كثيراً ما تعرض له ووجه الآيات على ضوئه ، كما وصفه بأنه مذهب الحذاق فى مفتتح كلامه .

وتستطيع أن تلمح ذلك ببساطة من خلال تفسيره ، وترى القرطبي يهاجم الزنادقة والقرامطة الذين يتبعون المتشابه بقصد التشكيك فى القرآن وإضلال العوام، وقال عنهم « لا شك فى كفرهم وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة » وهاجم المجسمة الذين يعتقدون أن البارىء تعالى جسم مجسم وصورة ذات وجه ويد وعين وجنب ورجل وأصبع — تعالى الله عن ذلك — وحكم بكفرهم إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام والصور ، لكنهم يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا كما يفعل بمن ارتد(٢) .

من هذا العرض تبين لنا أن القرطبي كان سنياً أشعرياً ، ينتصر لمذهب أهل السنة ويدافع عنه . وإن كان فى تفسير الآيات التى يوهم ظاهرها مشابهة الله للحوادث يميل إلى التأويل ، وأنه لم يقتصر على مهاجمة المعتزلة ، بل تعرض للهجوم على كثير من الفرق السياسية والدينية .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم عن عثمان بن عفان ح ٥ ص ١٤ باب فضل بناء المساجد انظر تفسير القرطبى ح ٢ ص ٨٣ وما بعدها .

(٢) أنظر تفسير القرطبى ح ٤ ص ١٤ والقرامطة فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك ومانى وكانوا يبيحون المحرمات .

الفصل الرابع

الحركة العلمية فى عصر القرطبى

لقد نشطت الحياة العلمية بالمغرب والأندلس فى عصر الموحدين (٥١٤ ـ ٦٦٨ هـ) ـ وهو العصر الذى عاش فيه القرطبى فترة من حياته أيام أن كان بالأندلس ـ

ومما ساعد على ازدهار هذه الحياة ورواج هذه الحركة : أن « محمد ابن تومرت » مؤسس الدولة الموحدية كان من أقطاب علماء عصره . وقد أفسح فى دعوته للعلم أيما مكانة ، وحض على تحصيله بقوة وحماسة حتى أنه لما ألف كتابا لأتباعه بدأه بهذه الكلمة التى عرف الكتاب بها فقال :

« أعز ما يطلب وأفضل ما يكسب وأنفس ما يدخر وأحسن ما يعمل ، العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب وأفضل المكاسب وأنفس الذخائر وأحسن الأعمال »[1] .

وتتابع بعده الخلفاء والأمراء فكانت لهم قدم راسخة فى العلم والأدب ومشاركة للشعراء فى شعرهم [2]

ورغم الاضطرابات التى حدثت فى أواخر الدولة الموحدية والتى كان من

---

(١) عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى للاستاذ محمد عنان ص ٦٤٥ .

(٢) راجع المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . للمراكشى فانه تحدث عن عبد المؤمن ابن على « ٥٢٤ — ٥٥٨ هـ » ص ٢٦٩ . وتحدث عن يوسف بن عبد المؤمن « ٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ » ص ٣٥٦ وتحدث عن يعقوب بن يوسف « ٥٦٠ — ٥٩٥ هـ » ص ٣٥٦

جرائها أن تداعت أركانها وأخذت تسرع نحو السقوط والانهيار، فإننا نرى أن خلفاءها كانت لهم ميول ونزعات علمية وأدبية، فلقد وصف «ابن الخطيب» الخليفة «المأمون» — أبا العلاء إدريس «٦٢٤ — ٦٢٩ هـ» بقوله :

«كان رحمه الله شهما شجاعا جريئا بعيد الهمة نافذ العزيمة قوى الشكيمة لبيبا كاتبا أديبا فصيحا بليغا أبيا جوادا حازما»[1] .

وهذا هو «المرتضى بالله — أبو حفص عمر» «٦٤٦ — ٦٦٥ هـ» الذى تفككت على يديه الدولة الموحدية ، يصفه المؤرخون بأنه كان فقيها أديبا شاعرا . وأنه كان شغوفا بجمع الكتب والتصانيف .

ومن قصيدة له نظمها فى شهر ربيع :

وافى ربيع قد تعطر نفحه أذكى من المسك العتيق نسيما
بولادة المختار أحمد قد بدا يزهو به فخرا وحاز عظيما

كذلك ساعد على نمو الحركة العلمية وازدهارها كثرة الكتب والمؤلفات التى كانت بالأندلس، فلقد هوى كثير من الحكام جمع الكتب واقتناءها . يحدثنا «المقرى» من «الحكم المستنصر بالله ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ» فيقول : «كان محبا للعلوم مكرما لأهلها جماعا للكتب فى أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله» ثم يقول عنه أيضاً «وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحى باذلا فيها ما أمكن من الأموال، حتى ضاقت عنها خزائنه وكان ذا غرام بها، قد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته،

---

(١) عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٣٨٥، وانظر فى ترجمة المرتضى نفس المصدر ص ٥٩٥ .

وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذيا نسيج وحده وكان ثقة فيما ينقله »(١) .

وفى عهد أبى « يعقوب يوسف بن عبد المؤمن » « ٥٥٨ — ٥٨٠ هـ » تكونت مكتبة تضارع مكتبة « الحكم المستنصر بالله ». يقول« المراكشى » وهو يتحدث عنه : « ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب »(٢) .

ولم تقتصر هذه الهواية على حكام الأندلس بل كانت متأصلة فى نفس الشعب الأندلسى وخاصة أهل « قرطبة ». يقول « المقرى »:

« وهى — أى قرطبة — أكثر بلاد الأندلس كتبا وأشدالناس اعتناء بخزائن الكتب صار عندهم ذلك من آلات التعيين والرياسة حتى أن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به .

قال الحضرمى : أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد فى ثمنه ، فيرجع إلى المنادى بالزيادة على إلى أن بلغ فوق حده فقلت له: يا هذا أرنى من يزيد فى الكتاب حتى بلغه إلى مالا يساوى. قال : فأرانى شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له :

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٠ ، ١٨٤ (٢) المراكشى ص ٣١١

أكرم الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ولكنني أقمت خزانة كتب واحتفلت بها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير[1] .

هذه النزعات العلمية التي اتسم بها خلفاء الموحدين وتلك المؤلفات التي غمرت بلاد الأندلس شجعت العلماء وروجت سوق العلم ، فتعددت الهيئات العلميـــة في ربوع الأندلس وبين جوانبها : ونهضت العلوم الدينية كالفقه والحديث والتفسير والقراءات، كما نهضت علوم اللغة : النحو والتاريخ والأدب والشعر ، ولقد كان لهذا كله أثر كبير في التكوين العلمي لصاحبنا « أبو عبد الله القرطبي » .

ففي الحديث نبغ كثير من العلماء في مقدمتهم « أبو الربيع بن سالم وهو سليمان بن موسى بن سالم الحميرى » ٥٦٥ — ٦٣٤ هـ من أهل بلنسية وصفه ابن « الأبار » بقوله : « كان إماما في صناعة الحديث بصيراً حافظا حافلا عارفا بالجرح والتعديل ذاكرا للمواليد والوفيات يتقدم أهل زمانه في ذلك وفي حفظ أسماء الرجال مع الاستبحار في الأدب والاشتهار في البلاغة فردا في إنشاء الرسائل مجيدا في النظم خطيبا فصيحا مفوها »[2] .

ويقول الأستاذ محمد عنان : وكان فوق علمه الغزير مجاهدا من أولى الإقدام والبسالة وثبات الجأش ، يحضر الغزوات والوقائع ويشترك بنفسه في

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٥
(٢) التكملة ج ٢ ص ٧٠٨

القتال ويبلى البلاء الحسن ، وذكر أنه توفى وهو يحرض إحدى المعارك التى دارت بين المسلمين والنصارى فى ظاهر بلنسية سنة ٦٣٤ هـ[1] .

وكان « يعقوب المنصور ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ » يشجع علم الحديث ويحتضن طلبته، يقول المراكشى : « ونال عنده طلبة العلم — أعنى علم الحديث — مالم ينالوا فى أيام أبيه أو جده ، وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوما بحضرة كافة الموحدين يسمعهم وقد بلغه حسدهم الطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم. يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء -يعنى الطلبة- لاقبيل لهم إلا أنا فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإلى فزعهم وإلى ينسبون . فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالغ الموحدون فى إكرامهم »[2] .

ولقد كان هذا الخليفة يستقدم كثيرا من المحدثين إلى حاضرة ملكه « إشبيلية » بالأندلس أو « مراكش » بالمغرب ، ليسمع عليهم ، وكذلك كان يفعل أبوه الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨ — ٥٨٠هـ » ففى ترجمة « محمد بن ابراهيم بن خلف بن أحمد الأنصارى ٥١١ — ٥٩٠ هـ » يقول ابن « الأبار » بعد أن تحدث عن إمامته فى علم الحديث « واستدعى من مالقة فى أواخر حياته من الخليفة يعقوب المنصور إلى مراكش ليسمع عليه بها فقصد إليها ولكنه توفى بها بعد قليل فى شعبان سنة ٥٩٠ هـ »[3] .

ومن أعلام الحديث فى عصر الموحدين :

داود بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصارى « ٥٥٢ — ٦٢١هـ »

---

(١) عصر المرابطين والموحدين، القسم الثانى ص٦٥٨

(٢) المعجب ص ٣٥٦

(٣) عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٥٣ نقلا عن التكملة وانظر التكملة ترجمة رقم ٥٩٦ ، ٢٠٨٠

«سكن مالقة وأصله من بلنسية . وكانت له رحلات علمية داخل الأندلس وخارجها.
ومن شيوخه « الطاهر بن عوف ، وأبو القاسم بن بشكوال » وكان هو وأخوه
أبو محمد من أوسع أهل الأندلس رواية في وقتهما لا يتنازعان في ذلك ولا يدافعان
مع الجلالة والعدالة »(١)

ومنهم : محمد بن محمد بن سعيد اليحصبي « ٥٦١ — ٦٣١ هـ » من أهل
جيان ، يقول ابن الأبار بعد أن تحدث عن شيوخه ورحلاته « ثم انتقل إلى
قرطبة فتولى الخطبة والإمامة بجامعها الأعظم وأسمع الناس الحديث وأخذ عنه
جماعة وتوفى بها على تلك الحال عصر يوم الأربعاء الحادى والعشرين من
رمضان سنة ٦٣١ هـ ونقل عن بعض المؤرخين : إن هذا الشيخ دعا الله أن
يميته وهو ملازم الصلوات بجامع قرطبة فأجيبت دعوته(٢) .

وفى التفسير ظهر عدد من المفسرين منهم « محمد بن عبد الله بن ميمون
العبدرى ت ٥٦٧ هـ » كان عالما فى التفسير والقراءات والفقه واللغة وله مؤلفات
فى كثير من الفنون كما كان ينظم الشعر ويقوله، ومن شعره :

توسلت ياربى بأنى مؤمن — وما قلت إنى سامع ومطيع
أيصلى بحر النار عاص موحد — وأنت كريم والرسول شفيع

ومن أكابر شيوخه وأجلهم « عبد الرحمن بن عتاب القرطبي ت سنة
٥٢٠ هـ » وصفه صاحب الديباج بأنه كان آخر الشيوخ الجلة الأكابر بالأندلس
فى علو الأسناد وسعة الرواية، وأنه كان عالما بالقراءات السبع واللغة ملما بالتفسير(٣) .

---

(١) التكملة ص ٦٣ وما بعدها ح ١
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٠ ح ١ وانظر الديباج ص ١٥٠ ، ٣٠٤
(٣) المصدر السابق .

ومن المفسرين فى عصر الموحدين « أبو بكر محمد بن أحمد بن أبى جمرة » ت سنة ٥٩٩ هـ . قال ابن « الأبار » عنه « إنه سمع من القاضى أبى بكر بن أسود « ت سنة ٥٣٦ هـ » وناوله تأليفه فى تفسير القرآن »(١) .

وأنجب العصر مجموعة من القراء الأكابر . منهم « أحمد بن على بن يحيى ابن عون الله الأنصارى المعروف بالحصار » سكن « بلنسية » وأصله من « دانية » درس القراءات وبرع فيها وتبوأ رياستها فى عصره ولم يكن أحد يدانيه فى صناعته فى الضبط والتجويد والإتقان وكان يقصده الطلاب من كل صوب للأخذ عنه . ويصفه تلميذه « ابن الأبار » الذى تنقل عنه هذه الترجمة بأنه كان « آخر المقرئين بشرق الأندلس وكانت وفاته ببلنسية فى الثالث من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ قبيل كارثة العقاب بأيام قلائل وقد قارب الثمانين من عمره »(٢) .

ومنهم « محمد بن حسن بن محمد بن عبد الله بن خلف الأنصارى من أهل مالقة يعرف بابن الحاج » كان من أئمة القراءات والحديث أخذ عنه الناس وانتفعوا به واستمر ينشر العلم إلى أن أكرمه الله بالشهادة فى وقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ(٣) .

أما الفقه فقد حاول مجموعة من أقطاب العلماء ، منهم زياد بن عبد الرحمن اللخمى « ت سنة ٢٠٤ هـ » ، وعبد الملك بن حبيب « ت سنة ٢٣٨ هـ » ، ويحيى بن يحيى « ت سنة ٢٣٤ هـ » .

---

(١) رسالة منهج ابن عطية المفسر للزميل عبد الوهاب فايد ـ ص ٢٤

(٢) عصر المرابطين والموحدين، القسم الثانى ص ٦٥٦ وانظر التكملة ترجمة رقم ٢٦١ .

(٣) الديباج ص ٣٠١ .

حاولوا نشر مذهب الإمام « مالك » بالأندلس وبذلوا فى سبيل ذلك جهودا صادقة وشجع أمراء الدولة الأموية هذه الجهود التى تبذل لأقرار المذهب المالكى وكأنهم يريدون مخالفة خصومهم العباسيين الذين يعتنقون المذهب الحنفى بالعراق ، فاستقر المذهب المالكى وزحزح غيره من المذاهب(١) .

وظل الامر على ذلك إلى أن ظهر « محمد بن تومرت » مهدى الموحدين. وكان يسكره فقهاء الدولة المرابطية ويتهمهم بالتعصب والجهل،وكان لهؤلاء الفقهاء نفوذ وسطوة سجلها كثير من المؤرخين وانتقدها بعض الشعراء بقوله :

أهل الريا لبستمونا لبسكم　　كالذئب أدلج فى الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك　　وقسمتمو الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب(٢)　　وبأصبغ صبغت لكم فى العالم(٣)

فزاد ذلك من كراهية « ابن تومرت » لهم — ورغم أنه كان يحب المذهب المالكى — إلا أن هذه الكراهية دفعته إلى أن يضع لأتباعه دروسا فقهية حتى لا يتعبد على فقه هؤلاء ، وهذه الدروس وإن كانت مأخوذة من الفقه المالكى إلا أنه لم ينسبها للامام « مالك » بل نسبها لنفسه وضمنها كتابه «أعز ما يطلب » .

---

(١) راجع ظهر الاسلام ح ٣ ص ٢٩ للاستاذ أحمد أمين — قرطبة فى التاريخ الاسلامى ص ٩٦ دكتور جودة هلال — خطط المقريزى ح ٤ ص ١٤١ — مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٢ — فلسفة ابن رشد دكتور بيصار ص١٦ — نفح الطيب ح٢ ص ١٥٨

(٢) أشهب هو أشهب بن عبد العزيز الفقيه المالكى المصرى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وهو الذى تمنى موت الشافعى فقال الشافعى: تمنى رجال ..
وأصبغ هو أصبغ بن الفرج الفقيه المالكى المصرى توفى سنة ٢٢٥ هـ وقيل غير ذلك وابن القاسم فقيه مالكى مصرى يسمى عبد الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١

(٣) راجع المعجب ص ٢٢٥

وجاء بعده « يوسف بن عبد المؤمن » فكره التشققات والآراء الكثيرة التي توقع المقلدين في حيرة واضطراب فرغب في حمل الناس على المذهب الظاهري وكذلك رغب أبوه «عبد المؤمن بن علي » « ٥٢٤ — ٥٥٨ هـ » ولكنهما لم يظهرا ذلك، يؤكد « المراكشي » هذه الحقيقة فيقول : « يشهد لذلك عندي ما أخبرني به غير واحد ممن لقي الحافظ أبا بكر بن الجد « أنه أخبرهم قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس[1] فقال لي : يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله . أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأي هذه الأقوال هو الحق وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك . فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر ليس إلا هذا ،وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه ،أو السيف »[2] ورغم ما في هذه العبارة من تهديد ووعيد لمن اشتغل بالفروع وترك ظاهر الكتاب والسنة إلا أن التاريخ لم يسجل له أنه نفذ وعيده وتهديده ، كما سجله لولده « يعقوب المنصور » . فقد كان شديد الإعجاب بابن حزم، يعتبره منارة من منارات الاسلام، وبلغ من إعجابه أنه قال بعد أن وقف على قبره ذات يوم : عجبا لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم .. ثم قال : كل العلماء عيال على ابن حزم ولهذا حاول حمل الناس على مذهبه وإزالة مذهب مالك من المغرب والأندلس[3] ويصف « المراكشي» الخطوات الايجابية التي اتخذها

---

(١) لعبدالله بن يونس المتوفى في حدود سنة ٥٢٧ هـ شرح للمدونة يبدو أنه هو . ويوجد منه نسخة خطية بمكتبة القرويين بفاس برقم ٨١٠ ونسخة أخرى برقم ٨٠٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٥

(٣) الدعوة الموحدية ص ٣٠٤

« يعقوب » لاعادة المذهب الظاهرى إلى الأندلس فيبين : أنه أحرق الكتب المالكية وتقدم إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى[1] والخوض فى شىء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة : الصحيحين، والترمذى، والموطأ، وسنن أبى داود، وسنن النسائى، وسنن البزار، ومسند ابن أبى شيبة، وسنن الدارقطنى، وسنن البيهقى، فى الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التى جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه، وانتشر هذا المجموع فى جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة. فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنى من الكساء والأموال. ثم يقول المراكشى « وكان قصده فى الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا »(٢).

وهذه المحاولات، وإن أوجدت بعض الفقهاء الذين اعتنقوا مذهب الظاهرية أو نفست عن الفقهاء القدامى الذين كانوا يدينون بهذا المذهب، فإن ذلك لم يمت المذهب المالكى بالأندلس، بل لعل الوضع تغير بوفاة « المنصور سنة ٥٩٥هـ». فعاد الناس إلى الفقه المالكى وعاد الفقهاء إلى دراسة الفروع الفقهية.

---

(١) علم الرأى : انقسم المتكلمون فى الفقه إلى قسمين: أهل الحديث وأهل الرأى. فعرف الاولون ببناء الاحكام على الاحاديث النبوية والعمل بها بغير إعمال الرأى من أمور الدين والشريعة.

وعرف الاخيرون باعمال الرأى فى الاحكام وقياس بعضها على بعض والتوقف عن قبول الحديث إلا إذا كان متواترا، وكان لكل مدرسة أنصار وأتباع وأطلق على المدرسة الثانية اسم مدرسة الرأى وسمى أصحابها أهل الرأى.

(٢) المعجب ص ٣٥٤ وانظر الدعوة الموحدية ص ٣٠٤.

ويؤيد هذا أن كتب التراجم والطبقات قد ترجمت لكثير من الفقهاء المالكية فى هذا العصر . خذ مثلا :

(اسحاق بن إبراهيم بن يعمر الجابرى) من مدينة فاس درس بها ودرس كذلك بسبتة . ثم رحل إلى الأندلس ودرس الفقه بمرسية وولى قضاء فاس وسبتة ، وكان متبحرا فى الفقه المالكى حافظا متقنا ، ويقال أنه كان يستظهر المدونة وولى قضاء بلنسية فى أواخر حياته سنة ست وستمائة ثم ولى قضاء « جيان » وفقد فى موقعة العقاب فى شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ »[1] .

بل لعل هذا الاضطهاد الذى نال الفقهاء بسبب الحزمية أو الظاهرية . أحدث رد فعل فى كراهية المذهب الظاهرى ونقده . ومن الأمثلة التى تؤيد ذلك : أن الفقيه المالكى « محمد بن محمد بن سعيد الأنصارى الأشبيلى المعروف بابن زرقون » قد ترجم له المؤرخون فوصفوه : بأنه كان فقيها متبحرا فى المذهب وأنه كان يشارك فى الأدب مشاركة طيبة ثم ذكروا من مؤلفاته : « الكتاب المعلى فى الرد على المحلى لابن حزم » . ويوضح صاحب « الديباج » السبب الدافع له إلى تأليف هذا الكتاب فيقول : « كان من كبار المتعصبين للمذهب فأوذى من جانب بنى عبد المؤمن ، ولما أبطلوا القياس وألزموا الناس بالأثر والظاهر صنف كتاب المعلى فى الرد على المحلى لابن حزم . وتوفى فى شوال سنة ٦٢١ هـ »[2] .

---

(١) عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٥٦ ، وانظر ترجمته فى التكملة رقم ٥١٧ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ــ القسم الثانى ص ٦٥٩ والديباج ص ٢٨٦ ويلاحظ أن ابن فرحون ذكر وفاته سنة ٧٢١ وهو خطأ .

أما علوم اللغة والنحو فقد خرج العصر طائفة ممتازة من اللغويين، والنحاة من أشهرهم : « محمد بن على بن خروف » من أهل أشبيلية، قال صاحب الوفيات فى ترجمته : « كان فاضلا فى علم العربية وله فيها مصنفات شهدت بفضله وسعة علمه[1] » ويبين ابن شاكر أنه أهدى نسخة من شرحه على كتاب سيبويه للخليفة الناصر — « ٥٩٥ — ٦١٠ هـ » — فوصله الخليفة الموحدى بألف دينار من الذهب . وأنه لم يتصدر لتدريس النحو باشبيلية وحدها بل طوف كثيراً من بلاد الأندلس لهـــذا الغرض . فانتفع الناس به ،وكانت وفاته سنة ٦٠٩ هـ[2] « ومنهم أبو على عمر بن محمد بن عبد الله الأزدى المعروف بالشلوبين[3] » درس القراءات والآداب واللغات ، وأخذ بقسط من رواية الحديث ثم تعمق فى دراسة العربية حتى نبغ فيها وعد إمامها الذى لا يبارى . وتصدر لإقرائها باشبيلية دهرا وكانت تشد إليه الرحال من سائر الآفاق للاخذ عنه، وتوفى باشبيلية فى أواخر صفر سنة ٦٤٥ هـ » ومنهم . « عبد الله بن محمد ابن عبد العزيز بن سعدون الأزدى » من أهل بلنسية برع فى اللغة والأدب وتفوق فيهما فأفاد الناس كثيرا وكانت وفاته فى سنة ٦٢٢ هـ[4] » .

كذلك ظهر فى علم التاريخ مجموعة من المؤرخين أرخ بعضهم للأندلس وترجم آخرون لعلمائها ومفكريها ومنهم :

---

(١) وفيات الاعيان ج ٣ ص ٢٢

(٢) فوات الوفيات ج٢ ص١٠٠

(٣) ضبط ابن خلكان هذا الكلمة بفتح الشين واللام وسكون الواو وكسر الباء الموحدة وسكون الياء وبعدها نون نسبة إلى الشلوبين وهو بلغة الاندلس الابيض الاشقر انظر الوفيات ج ٣ ص ١٢٤ وانظر عصر المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٦٨٦

(٤) انظر ترجمته فى التكملة ج٢ رقم ٢١١٠

« أبو عبد الله محمد المراكشى المعروف بابن عذارى » صاحب « البيان المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب » . وحياة هذا المؤرخ مجهولة، يشير إلى ذلك الأستاذ « محمد عنان » فيقول : أما عن حياة ابن عذارى وأصله ونشأته فلسنا نعرف عنها شيئا ولا نعرف إلا أنه عاش فى النصف الثانى من القرن السابع وأوائل القرن الثامن وكان حيا فى سنه ٧١٢ هـ حسبما يذكر لنا ذلك فى مؤلفه ، وربما توفى بعد ذلك بقليل[1] .

ومنهم ابن الأبار « أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى » ولم يكن « ابن الأبار » مؤرخا فقط بل كان فقيها وكاتبا وشاعرا إلى جانب كونه مؤرخا[2] ولقد وضع معجما فى تاريخ علماء الأندلس سماه « التكملة » ليتم به كتاب الصلة لأبى القاسم خلف بن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ هـ .

وله فى هذا المجال كتاب « الحلة السيراء » هو أيضاً مجموعة نفيسة من تراجم رجال الأندلس والمغرب تبدأ من المئة الأولى للهجرة حتى أوائل المائة السابعة، وقد توفى ابن الأبار مقتولا بتونس على يد حاكمها المستنصر بالله سنة ٦٥٨ هـ . لأنه تخيل منه الخروج وشق عصا الطاعة[3] .

وجاء بعده العلامة المغربى « أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الانصارى المراكشى » وكان فقيها جليلا ومؤرخا ثقة فوضع موسوعة من أجل موضوعات التراجم لرجالات المغرب والأندلس وسماها « الذيل

---

(١) عصر المرابطين والموحدين ،القسم الثانى ص ٧٠٩ نقلا عن البيان المغرب ، القسم الثالث ص٤٥٤.

(٢) راجع الفوات لابن شاكر الكتبى ح ص ٢٨٣

(٣) عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٧٠٥ ، ٧٠٧

والتكملة لكتابي الموصول والصلة[1] » استدرك فيها مافات ابن بشكوال ، وابن الأبار ، ويشير الأستاذ عنان إلى الغموض الذى يكتنف حياة هذا المؤرخ صاحب هذه الموسوعة فيقول : أما عن حياة مؤلفها فلسنا نعرف الكثير ولا نعرف إلا أنه عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى، وتوفى فى أواخر هذا القرن وربما فى أوائل القرن الثامن[2] .

ثم جاء من بعده « ابن عبد الملك » راوية ومؤرخ أندلسى ولد فى أواخر العصر الموحدى وتوفى بغرناطةسنة ٧٠٨ ﻫ . وهو :أحمد بن ابراهيم بن الزبير ابن الحسن بن الحسين بن الزبير الشهير بابن الزبير . وقد ترك لنا مجموعة نفيسة من التراجم عنوانها« صلة الصلة » مذيلابها على صلة ابن شكوال . وفيها كثير من التراجم لرجال العصرين المرابطى والموحدى[3] .

ولقد بلغ الشعر فى عهد الموحدين حدا كبيرا من الازدهار والقوة فقد كان خلفاء الدولة الموحدية يتذوقون الشعر ويفرقون بين جيده ورديثه قد نسج الشعراء قصائدهم وتباروا فى مدح هؤلاء الخلفاء طمعا فى عطاياهم . ولم تنطفىء جذوة الشعر أيام اضطراب الأندلس بالثورات والفتن وأيام محنتها بسقوط قواعدها فى أيدى النصارى بل أذكى ذلك قرائحهم : فصدرت عنهم القصائد فى رثاء القواعد وفى إشعال الحماسة لاستردادها ،ومن شعراءهذا العصر « محمد بن أحمدالصابونى الصدفى » من أهل أشبيلية ،يقول ابن الأبار عنه : «ذهبت

---

(١) يوجد من هذه النسخة خمسة مجلدات متناثرة بالمتحف البريطانى والمكتبة الوطنية بباريس ودار الكتب المصرية .

(٢) عصر المرابطين والموحدين،القسم الثانى ص ٧١٠

(٣) المصدر السابق، القسم الثانى ص ٧٠٩

الآداب بنهايه وختمت الأندلس شعراءها به » ولقد رحل ابن الصابونى إلى المشرق فتوفى بالإسكندرية وهو يقصد مصر سنة ٦٤٠ ه(١) .

أما العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وعلم الكلام . فإننا نرى أنها نشطت ولقيت رواجا فى مبدأ عصر الموحدين لأن « محمد بن تومرت » كان كما وصفه « ابن الأثير » فاضلا عالما بالشريعة حافظا للحديث عارفا بأصول الدين والفقه متحققا بعلم العربية(٢) وقد قدمنا أنه نعى على علماء المرابطين تعصبهم وجهلهم ووقوفهم عند الفروع كما فعل الإمام قبل امام الغزالى . ولهذا حملوا على المهدى كما حملوا على كتب الغزالى(٣) فاستصدروا أمرا بإحراقهـا يقول « المراكشى »: وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين على بن يوسف — تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شىء منه وأنه بدعة فى الدين . وربما أدى أكثره إلى اختلال فى العقائد . إلى أشباه لهذه الأقوال حتى استحكم فى نفسه بغض علم الكلام وأهله . فكان يكتب عنه فى كل وقت إلى البلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شىء منه . وتوعد من وجد عنده شىء من كتبه . ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى رحمه الله المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شىء منها واشتد الأمر فى ذلك(٤) ولم تقتصر مطاردة الفقهاء

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٩

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ٢٤١ ، وفيات الاعيان ج ٢ ص ٥٢

(٣) ومنها كتاب (الاحياء) فيه حملة على الفقهاء ووصفهم بالجمود ، ومنها (الجام العوام فى علم الكلام) ومنها (الاقتصاد فى الاعتقاد)

(٤) المعجب ص ٢٣٦ وما بعدها .

على علم الكلام وحده بل تعدته إلى بقية العلوم الفلسفية : وفوق ما كان عليه « ابن تومرت » من تحقق فى أصول الفقه وعلم الكلام ، فإن كراهيته أيضاً لعلماء المرابطين جعلته لا يحجر على العقول ولا يغلق أمامها أبوابَ البحث ، ولم يسجل التاريخ له ولا لخليفته « عبد المؤمن بن على » اضطهاداً للعلوم العقلية أو للمشتغلين بها . أما الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن » فكان محبا للعلوم العقلية شغوفا بها ، فشجعها وقرب المشتغلين بها ، يصفه « المراكشى » بقوله: « وكان له مشاركة فى علم الأدب واتساع فى حفظ اللغة وتبحر فى علم النحو ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيرا من أجزائها وبدأ من ذلك بعلم الطب » . ثم بين « المراكشى » أنه أمر بجمع كتب الفلسفة فاجتمع له منها قريب مما اجتمع « للحكم المستنصر بالله الأموى(١) » ولقد نال عنده « أبو بكر بن طفيل » المتوفى سنة ٥٨١ هـ « وأبو الوليد بن رشد » « ت سنة ٥٩٤ هـ » مكانة مرموقة ومنزلة عالية رفيعة وفى عهد ولده « يعقوب المنصور » تألق ابن رشد وسطع نجمه فقربه إليه الخليفة الجديد أكثر من أبيه حتى أن ابن رشد ليعجب ويقول لمن يهنئه بمنزلته ومكانته : والله إن هذا ليس مما يستوجب الهناء به . فإن أمير المؤمنين قد قربنى دفعة إلى أكثر مما كنت أؤمله أو يصل رجائى إليه(٢) » .

وإذا كانت الفلسفة قد ازدهرت فترة فى عهد الموحدين فإنها قد ازدهرت أيضاً فى عهد « الحكم المستنصر بالله ـ ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ » وكانت تقام لها حلقات فى مساجد قرطبة(٣) » .

---

(١) المعجب ص ٣٠٩

(٢) بين الدين والفلسفة ص ٣٢

(٣) بين الدين والفلسفة للدكتور محمد يوسف موسى ص ١٩ .

أما فيما عدا هاتين الفترتين فقد حوربت الفلسفة واضطهدت ، حاربها الأمراء وحاربها الفقهاء والعامة . ولعل محاربة الأمراء لها كانت ترضية للفريقين فبعد أن انتهى عهد الحكم وخلفه ولده « هشام المؤيد » وكان حدثا لا يتجاوز العاشرة من عمره استقل « المنصور محمد بن أبي عامر ت سنة ٣٩٣ هـ » بالسلطة وانفرد بالحكم ، ثم أراد أن يتقرب إلى الناس وأن يمحو شعور السخط والاستياء عليه من نفوسهم فأعدم كتب الفلسفة . يقول صاحب « طبقات الأمم » فأحرق بعضها وطرح بعضها فى آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة وغيرت بضروب من التغايير ، فعل ذلك تحببا إلى عوام الأندلس وتقبيحا لمذهب الحكم عندهم ، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم ، مذمومة بألسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهما عندهم بالخروج عن الملة ومظنونا به الإلحاد فى الشريعة[1] .

ويؤيد « المقرى » ذلك فيقول عند استعراض حال العلوم بالأندلس « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهما حظا عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة ، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق . وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة ، وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشخص إذا وجدت » ثم يقدم لنا المقرى دليلا قويا على أن « المنصور ابن أبي عامر » فعل ما فعل تقربا إلى الناس رغم أنه كان يشتغل بهذه العلوم فى الباطن فيقول « وبهذا تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان

---

(١) بين الدين والفلسفة للدكتور محمد يوسف موسى ص ٢٠ وانظر الادب والاندلس ص ٦٢٢

غير خال من الاشتغال بهذه العلوم فى الباطن »[1] .

فهل كانت محنة ابن رشد على يد الخليفة الذى قربه وأدناه من هذا القبيل؟ أرجع بعض المؤرخين سبب هذه المحنة إلى كفر ابن رشد وزندقته . فقد نقل عنه ألفاظ لا تصدر إلا من المارقين عن الدين . وذلك أنه حين شاع فى الأندلس أن ريحا عاتية تهب فى يوم كذا تهلك الناس ، وشاور والى قرطبة العلماء ومنهم ابن رشد وكان يومئذ قاضيها « قال أحد العلماء : إن صح أمر هذه الريح فهى ثانية الريح التى أهلك الله بها قوم عاد . إذ لم تعلم ريح بعدها يعم هلاكها . فانبرى له ابن رشد ولم يتمالك أن قال : والله وجود قوم عاد ما كان حقا فكيف سبب هلاكهم ، فسقط فى أيدى الحاضرين وأكبروا هذه الزلة التى لا تصدر إلا عن صريح الكفر والتكذيب لما جاءت به آيات القرآن »[2] ووصل ذلك إلى الخليفة فحاكمه وأبعده عن بلاطه .

ويشكك بعض الباحثين فى هذا الكلام فيقول : لم لا تكون هذه إشاعة أطلقها أعداء ابن رشد . من الفلاسفة أو من الفقهاء . كان من ورائها أن أغلق المنصور الباب خوفا من شغب الناس فحاكمه وطرده من قرطبه مهانا[3] .

ولا يهمنا ذلك كثيراً ، وكل مايهمنا أن الخليفة المنصور قد تجاوب مع الروح السائدة فى عهده ضد الفلسفة . ولم تقتصر مطاردة الخليفة المنصور الفلسفة وحدها ، وإنما تعدتها إلى سائر العلوم العقلية فأصدر منشورا يقضى

---

(١) نفح الطيب للمقرى ص ١٠٢

(٢) فى فلسفة ابن رشد للدكتور بيصار ص ٤٣

(٣) انظر « فى فلسفة ابن رشد » ص ٤٤

بتحريم الاشتغال بها، وإذا كان علم الـكلام قد طورد أيام المرابطين فلماذا طورد فى أيام الموحدين وزعيمهم « محمد بن تومرت » كان جل ما يدعو عليه كما يقول « المراكشى » « علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية » ؟ لعل العامة أيضاً كانوا يـكرهون هذا المذهب كما كانوا يكرهون مذهب المعتزلة ولم يعتنقوا إلا مذهب السلف .

يوضح ذلك ماقاله المراكشى بعد أن تحدث عن عقيدة ابن تومرت وأنها أشعرية قال : « وكان أهل المغرب ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم فى ذلك »[1] . ومن هنا أغلق المنصور الباب بتحريم الاشتغال بعلم الـكلام أيضاً .

وإذا كان الفقهاء والعامة قد حاربوا الفلسفة فإنى لا أتصور أن الفقهاء قد حاربوا مذهب الأشاعرة . فإن الأشعرية قد عرفت طريقها إلى المغرب قبل عصر الموحدين . ولقى هذا المذهب قبولا فى نفوس الفقهاء ولم يقض عليه بتلك المنشورات . بل ظل بالأندلس ، وانتشر بها، وبالمغرب .

وقدم القرطبي إلى مصر أيام الأيوبيين وعاصر الفترة الأخيرة من حكمهم ثم شاهد اغتصاب المماليك للسلطة واستمر فى مصر إلى أن توفى فى خلافة « الظاهر بيبرس البندقدارى » الذى حكم من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٦هـ. ولم تـكن الحياة العلمية فى مصر أيام الأيوبيين بأقل منها فى الأندلس أيام الموحدين ، ولعل الأسباب التى أدت إلى نشاط الحركة العلمية فى الأندلس تقرب أو تتفق مع الأسباب التى أدت إلى نشاطها فى مصر . فلقد وصف

---

(١) المعجب ص ٢٥١

المؤرخون أمراء البيت الأيوبى بالذكاء والميول العلمية والأدبية وهذه حقيقة، فإن الباحث إذا تتبع سير هؤلاء الملوك فإنه لا يجد ملكا أو أميراً خاملا أو جاهلا. ويبين « صاحب الروضتين » « أن الملك الناصر « صلاح الدين الأيوبى » كان يحب العلوم الدينية وكان يصطحب أولاده ويذهب لسماع الدروس من أفواه الأئمة المشهورين ويتنقل بهم فى البلاد لهذا الغرض »[١].

وقد قدمنا أنه تتلمذ على « الطرطوشى وابن عوف » وجاء من بعده على مصر ابنه « العزيز عثمان ٥٨٩ — ٥٩٥ هـ » — فسمع الحديث بالإسكندرية من الحافظ السلفى « والفقـــه عن ابن عوف » وسمع بمصر النحو عن « ابن برى »[٢].

وتحدثنا المراجع التاريخية بأن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ٦١٥ — ٦٣٥ — كان يحب العلماء ويجلهم وكثيراً ما يسألهم أسئلة عميقة تدل على ذكائه وعلمه.

يبين صاحب « البداية والنهاية » أنه اجتمع مرة بعالم من العلماء الأجلاء يسمى « أبا عبد الله بن أبى الحسن اليونينى المتوفى سنة ٦٥٨ هـ » عند أخيه « الأشرف موسى ت ٦٣٥ هـ » وتذاكرمعه شيئاً من العلم فجرت مسألة القتل بالمثقل وجرى ذكر حديث الجارية التى قتلها اليهودى فرض رأسها بين حجرين فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله فقال الكامل: إنه لم يعترف. فقال الشيخ الفقيه : فى صحيح مسلم فاعترف. فقال الكامل : أنا اختصرت

---

(١) الروضتين لابى شامة ح ٢ ص ٢١٩ بتصرف. وانظر الحركة الفكرية فى مصر فى عهد الايوبيين والمماليك للدكتور عبد اللطيف حمزة ص ١٤٩ وانظر مفرج الكروب ج ٣ فقد ذكر صاحبه كثيراً من أخبار امراء البيت الايوبى.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ح ١٣ ص ٢٢٨ وانظر الحركة الفكرية فان المؤلف قد ترجم لأمراء البيت الايوبى وبين الميول العلمية لهم.

صحيح مسلم ولم أجد هذا فيه فأرسل الكامل فأحضر خمسة مجلدات اختصار «اسلم

ثم بين ابن كثير أن الشيخ أخذ مجلدا ، وأخذ بعض الحاضرين مجلداً آخر ، وأن الكامل أخذ مجلداً ، فتناول الشيخ مجلده وافتتحه فوجد الحديث كما قال فأراه للكامل فتعجب الكامل من استحضاره وسرعة كشفه وأراد أن يأخذه معه إلى الديار المصرية فأرسله الاشرف سريعاً إلى « بعلبك » وقال للكامل : إنه لا يؤثر ببعلبك شيئاً فأرسل له الكامل ذهبا كثيراً(١) . فهذه القصة لا تدلنا على علم « الكامل » وذكائه فقط بل تدلنا على حبه للعلماء وأنه لم ينفرد بهذا الحب وحده بل شاركه فيه أخوه فلقد تنازع الأخوان عالما من العلماء كل واحد منهما يريد أن يستأثر به وأن يضمه إلى بلاطه لولا أن تغلب « الأشرف » على رغبة الكامل فأنفذه إلى « بعلبك » ولقد أطلق بعض الباحثين على الملك « المعظم عيسى بن الملك العادل » ملك دمشق والشام (ت سنة ٦٢٤ هـ) مأمون بنى أيوب لأنه كان يقرب العلماء ويحترمهم ويدارسهم ومع شغله بالملك كان نحويا فقيها لغويا(٢) .

كذلك كان من العوامل التى ساعدت على رواج الحركة العلمية فى عهد الأيوبيين ، كثرة المدارس وانتشارها بين أرجاء مصر والشام . فلقد أكثر الايوبيون من بناء المدارس للقضاء على التشيع ومحاربة آثاره وإعادة الحرية للعلماء الدارسين الذين كانوا يحاربون على أيدى الفاطميين . وكانت هذه

---

(١) المرجع السابق ، وتعليقه .

(٢) انظر البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٣٤ ، والادب فى العصر الأيوبى للدكتور محمد زغلول سلام ص ٨٠ والحركة الفكرية ص ١٥٣ وللدكتور أحمد بدوى تأليف عن الملك المعظم عيسى بعنوان « مأمون بنى أيوب » مكتبة الانجلو . وحديث الجارية أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى . انظر التاج ج ٣ ص ٧

للمدارس موزعة على بيئات ثلاث : الإسكندرية ، والقاهرة ، وقوص .

أما الاسكندرية فقد قدمنا أنه كان بها مدرستان للحديث والفقه وكان المذهب السنى سائدا بها قبل قدوم « صلاح الدين » وقبل قيام الدولة الأيوبية، وقد تقدم أيضاً كفاح « أبى بكر الطرطوشى » وجهاده فى سبيل إعادة المذهب السنى، بالاسكندرية ، فالاسكندرية إذن : لم تكن كغيرها من البيئات بحاجة إلى مجهود تبذله الدولة الأيوبية حتى تتخلص من تشيعها، ومع هذا فإن « صلاح الدين » أسس بها بعض المدارس إن لم تكن لمحو المذهب الشيعى فمساهمة منه فى إنعاش الحركة العلمية .

أما القاهرة : فقد كانت مقر الدعوة الفاطمية وعاصمة خلافتها، ومن ثم احتاجت إلى جهد كبير من رجال الدولة الأيوبية الجديدة لكى يتم لهم الرجوع بهذه البيئة العظيمة من المذهب الشيعى إلى المذهب السنى ، فابتنى مؤسسها « صلاح الدين » مدرستين على عهد الخليفة « العاضد » الفاطمى نفسه (ت ٥٦٧ هـ) أولاهما مدرسة للشافعية بجوار الجامع العتيق وعرفت بأسماء كثيرة منها المدرسة الناصرية والمدرسة الشريفية ومدرسة ابن زين التجار[١]

والثانية مدرسة المالكية عرفت باسم دار الغزل ثم عرفت باسم المدرسة القمحية نسبة إلى القمح الذى كانت تحصل عليه هذه المدرسة من ضيعة وقفها عليها « صلاح الدين » بالفيوم . ثم مات « العاضد » الفاطمى ومضى « صلاح الدين » فى ابتناء المدارس فبنى بها مدرسة ثالثة للفقهاء الحنفية أطلق عليها المدرسة السيوفية .

---

(١) الحركة الفكرية ص ١٥٦ وراجع كتاب الانتصار لابن دقاق ج ٤ ص ٩٣ فانه قد بين أن هذه المدرسة سميت بمدرسة ابن زين التجار نسبة إلى عالم من علماء الشافعية تسمى بهذا الاسم و درس بها .

وإلى جانب المدارس الثلاث السابقة الشافعية والمالكية والحنفيه بنى « صلاح الدين » مدرستين أخريين لفقهاء المذهب الشافعى خاصة وهو المذهب الذى كان عليه أكثر أمراء البيت الأيوبى نفسه . إحداهما وهى المدرسة الرابعة بجوار الإمام الشافعى والأخرى وهى المدرسة الخامسة بجوار المشهد الحسينى[1] كما بنى صلاح الدين أيضاً مدرسة فى دمشق ومدرسة بالقدس . ولقد تحدث « ابن خلكان » عن هذه المدارس وهو يترجم لصلاح الدين ثم عقب بقوله « ولقد فكرت فى نفسى فى أمر هذا الرجل وقلت إنه سعيد فى الدنيا والآخرة فإنه فعل فى الدنيا هذه الأفعال المشكورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة — يقصد الأوقاف التى حبسها صلاح الدين على هذه المدارس — وليس فيها شىء منسوب إليه فى الظاهر فإن المدرسة التى بالقرافة مايسمونها إلا بالشافعى والمجاورة للمشهد لا يقولون إلا المشهد والمدرسة الحنفية لا يقولون إلا مدرسة السيوفية والتى بمصر — يريد الفسطاط — لا يقولون إلا مدرسة زين التجار .. .. .. وهذه صدقة السر على الحقيقه[2] .

وبعد أن انتهى عهد « صلاح الدين » لم تفتر همة خلفائه . ولم تتقاصر عن بلوغ المجد وخدمة الدين فتوالى إنشاء المدارس فى أيامهم وراجت سوق العلم والعلماء ويكفى أن نشير إلى بعض هذه المدارس التى أحدثها خلفاء صلاح الدين أو التى أسست فى العهد الأيوبى .

المدرسة الكاملية : وهى أول دار عملت للحديث بالقاهرة وقد كانت

---

(١) المصدر السابق ووفيات الاعيان ح ٥ ص ٢٠٥

(٢) وفيات الاعيان ح ٥ ص ٢٠٦ بتصرف .

الأولى فى دمشق على عهد الملك « العادل نور الدين محمود » . أسس هذه المدرسة الملك « الكامل » وفرغ من عمارتها فى سنة ٦٢١ هـ ودرس فيها جماعة من الفضلاء وتولى مشيختها أكابر العلماء(١) .

المدرسة الصالحية بناها الملك « الصالح نجم الدين أيوب » وجعلها لفقهاء المذاهب الأربعة وتحدث « المقريزى » عن هذه المدرسة فقال : « إنها من أجل مدارس القاهرة إلا أنه قد تقادم عهدها فرثت » ولما مات الصالح أيوب دفن بناحية من مدرسته تختص بالمالكية فقال فى ذلك بعض الشعراء :

بنيت لأرباب العلوم مدارسا لتنجو بها من هول يوم المهالك
وضاقت عليك الأرض لم تلق منزلا تحل به إلا بجانب مالك(٢)

وأما بيئة قوص فلقد قال الدكتور « عبد اللطيف حمزة » وهو يتحدث عن هذه البيئة : « ومعلوماتنا عن هذه البيئة فى القرنين السادس والسابع أى فى العهد الأيوبى نفسه قليلة الغناء غير أنه جاء فى القرن الثامن الهجرى من وصف لنا هذه البيئة بشىء من الإسهاب والإفاضة وهذا الذى وصفها هو « كمال الدين الأدفوى المتوفى عام ٧٤٨ هـ » وكتابه الذى نشير إليه هنا هو « الطالع السعيد لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » غير أنه من العسير علينا أن نطمئن كثيرا إلى ماورد بهذا الكتاب لأن صاحبه كان مدفوعا إليه بدافع من تعصبه لهذا الإقليم ، ومع هذا فكتابه لا يمكن أن يخلو من بعض الحقائق ومنها : أن هذا الاقليم كان كثير الخيرات وقد اشتهرت فيه مدن كثيرة من أهمها: ادفو مدينة الفقه والعلم وأسنا مدينة الترف والشعر

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٨٤ وما بعدها بتصرف .
(٢) المصدر السابق .

قنا مدينة الزهد والتصوف . ثم منها — أى من هذه الحقائق الهامة أن التشيع كان منتشرا فى هذه البيئة فاحتاج الفقهاء والعلماء فى الدولة الأيوبية إلى مجهودات كبيرة حتى يخف بها مذهب الشيعة . ثم أحصى الأدفوى مدارس قوص فى القرن الثامن الهجرى فإذا هى ستة عشر مكانا للتدريس، ولا ندرى كم من هذا العدد شهده القرنان السادس والسابع . ومن الجائز أن تكون هذه الفترة التاريخية التى نشير إليها قد شهدت أكثر من هذا العدد »[1] .

ويبدو أن هذه المدارس لم تكن فى هذه البيئات وحدها كما يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة وإنما عرفتها كثير من المدن فى العصر الأيوبى . ولا يهمنا أن نستقصى ذلك ، فلقد قال الدكتور سلام : كان يوجد بأسيوط مدرسة بنيت فى عهد الفاطميين وتسمى المازية وكان يدرس بها فى القرن السابع العالم المغربى نجم الدين المغربى الأكتم وكان يدرس بها الفقه على مذهب الشافعى والأصول والنحو وظل بها إلى أن توفى سنة ٦٢٣ ه .

ولقد كانت لهذه المدارس أوقاف تضمن لها البقاء وتهيىء لطلابها سبيل المعيشة الراضية ، وكان يلحق بها مكتبة تعينهم على البحث والدرس والتزود من مختلف العلوم بخير زاد[2] (ويسمى « على بن يوسف » وقفط بكسر القاف بلدة بالصعيد قرب قوص) واعتقد أنه فوق هذا كان لكل عالم أو أديب مكتبته الخاصة فالقاضى « القفطى » المتوفى سنة ٦٤٦ ه كانت له مكتبة ضخمة قدرت بخمسين ألف دينار ، وكان لا يحب من الدنيا سواها . ومما يثبت شغف العلماء بجمع الكتب واقتنائها ما يروى أن « ابن حمدون »

---

(١) الحركة الفكرية ص١٦٧ .

(٢) ابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى ص ٥٦ .

الكاتب عندما تقاعد به الدهر وبطل عن العمل أخرج كتبه لبيعها وعيناه تذرفان الدمع كالمفارق لأهله الأعزاء والمفجوع بأحبابه الأوداء . وكان معه « ياقوت » صاحب « معجم الأدباء » فواساه فرد عليه قائلا : حسبك يابنى هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقت فى تحصيلها، وهب أن المال يتيسر والأجل يتأخر وهيهات . فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلا على الفراق الذى ليس بعده تلاق، وأنشد بلسان الحال :

هب الدهر أرضانى وأعتب صرفه وأعقب بالحسنى وفك من الأسر
فمن لى بأيام الشباب التى مضت ومن لى بما قد مر فى البوس من عمرى[1]

وقد يفهم البعض من كلام المؤرخين عن المدارس أنه لم يكن يدرس بها الفقه على أحد المذاهب أو المذاهب الأربعة ، ولكن يبدو أن هذه المدارس لم تكن تقتصر على دراسة الفقه بل كانت تضم إلى جانب ذلك بعض العلوم الأخرى . فعندما تحدث المؤرخون عن المدرسة المنصورية التى بناها هى والقبة التى تجاهها الملك « المنصور قلاوون الألفى المتوفى سنة ٦٨٩ » قالوا إنه رتب بها دروسا أربعة لأصحاب المذاهب الأربعة المعروفة ودرسا للطب كما جعل بالقبة درسا للحديث ودرسا للتفسير[2] .

وكانت المساجد تقوم بدورها فى إنعاش الحركة العلمية وتضم كثيراً من حلقات العلم ، وورث المماليك عن سادتهم الأيوبيين حب العلم وتشجيع المشتغلين به واحترامهم فتألقت الحركة العلمية وازدادت نشاطا وقوة ، وإن

---

(١) الأدب فى العصر الأيوبى ص٨٦ نقلا عن معجم الأدباء ج٣ص ٢١٠ وتاريخ العرب مطول لفيليب حتى ج ٣ ص ١٧٠.

(٢) الحركة الفكرية ص ٢٣٢.

لم يحفظ التاريخ المماليك مشاركة فعلية فى الحركة العلمية كما حفظ لبنى أيوب ، فإنه قد حفظ لهم هذا التشجيع والاحترام والإكثار من بناء المدارس حتى توافد على بلادهم ، سواء فى مصر أو فى الشام ، عدد كبير من العلماء(١) وسقطت بغداد وقتل « هولاكو » كثيراً من علمائها وأتلف ... كتبها فانتقلت الخلافة إلى مصر فازداد إقبال العلماء وتوافدهم عليها وفتحت مصر أبوابها لكل طارق، ورحب مماليكها بالقادمين الغرباء وهيأوا لهم سبل الراحة فازدادت الحركة العلمية تألقا ، ولم تقتصر هجرة العلماء بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ على مصر بل تعدتها إلى الشام أيضاً(٢) .

ويحاول السيوطى فى كلام طويل أن يجعل انتقال الخلافة إلى القاهرة السبب الوحيد فى رواج الحركة العلمية بها ، ولا يرتضى أن يكون للمماليك دخل فى هذا ويعلل رأيه بأن العلم والإيمان يدوران مع الخلافة حيثما دارت. يقول السيوطى « واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها وكثرت شعائر الإسلام فيها وعلت فيها السنة وعفت منها البدعة وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء . وهذا سر من أسرار الله أودعه فى الخلافة النبوية حيثما كانت يكون معها الايمان والعلم » . . . ثم يقول « ولا يظن أن ذلك بسبب الملوك فقد كانت ملوك بنى أيوب أجل قدرا وأعظم خطرا من ملوك جاءت بكثير ولم تكن مصر فى زمنهم كبغداد » . ثم يؤكد وجهة نظره بأن الخلفاء لم يكن لهم صولجان فى مصر فلقد استمر المتوكل

---

(١) راجع طبقات الأئمة فى حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) راجع عصر سلاطين المماليك للدكتور محمد رزق سليم، ج ٣ ص ١٨ وابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى ص ٥٢ .

(المتوفى بعد سنة ٨٠٢ ويسمى محمد المتوكل على الله) فى الخلافة إلى أن عزله الظاهر برقوق [١] المتوفى سنة ٨٠١ هـ.

فالسيوطى يتناسى تشجيع المماليك للعلم والعلماء ومابذلوا فى سبيل ذلك . ويصور لنا أن الديار كانت خاملة على عهد الأيوبيين ، ولا يسلم ذلك للسيوطى فإن الحركة العلمية لم تكن خاملة أو راكدة أيام الأيوبيين . ونستطيع أن نقول إن انتقال الخلافة كان عاملا قويا ولم يكن سببا وحيدا . أما ما ذكره من ناحية الإيمان وموت البدعة وظهور السنة فإنه يرجع إلى غيرة المماليك على الدين فإنهم قد اعتبروا أنفسهم بعد زوال الأيوبيين حماة لهذا الدين وذادة عن بلاد المسلمين فمنعوا الفساد ودافعوا التتار والصليبيين ، عن الأمة الإسلامية . ويتساءل بعض الباحثين هل كانت هذه الغيرة عن صدق وإيمان أم عن رياء وتقرب إلى الناس ثم يقول لايهمنا أن نبحث عن هذا [٢] .

ويكشف باحث آخر النقاب عن حقيقة هذه الغيرة فيقول « شهدت مصر فى عهد المماليك نشاطا دينيا منقطع النظير، وقد يكون السر فى هذا النشاط الدينى الكبير هو شعور المماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها مغتصبون للحكم والعرش من أصحابه الشرعيين ، ولذلك أرادوا أن يتخذوا من الدين ورجاله ستارا يخفى هذه الحقائق عن أعين المحكومين ويقربهم إلى قلوب الشعب . ومادام المماليك مسلمين يؤمنون بالله ورسوله ويحرصون على إقامة شعائر الدين وإحياء سنن الأولين ويعمرون مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . فهم إذن حكام صالحون ، ولا داعى للتفكير كثيراً فى

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦

(٢) عصر سلاطين المماليك .

أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم[1] ، ومن هنا فإننا نستطيع أن نستشف مواد الدراسة فى هذا العصر وأنها كانت تدور حول العلوم الدينية كالفقه والحديث والتفسير والقراءات ، ثم علوم اللغة والأدب والتاريخ ، ولم تكن العلوم الدينية تتصدر الحركة العلمية أيام المماليك وحدهم بل كانت كذلك أيام الأيوبيين ثم تليها العلوم الأخرى . فإن الصليبيين كانوا يهددون البلاد ويقتطعون من الدولة الإسلامية خير أراضيها ، فكان لابد من تعبئة الناس تعبئة روحية لمواجهة خطر الصليبية الزاحف ولا يتم ذلك إلا بالعودة إلى الأصول الأولى للدين « القرآن والسنة » ودراسة ما كان لأسلافنا الأوائل من بطولات وأمجاد[2] .

أمام هذا راجت العلوم الدينية وكثر فى العصرين الأيوبى والمملوكى العلماء فى الفقه والحديث والتفسير والقراءات ثم فى النحو واللغة والأدب والتاريخ .

أما الفقه فقد اجتهد الأيوبيون — كما سبق — فى إزالة المذهب الشيعى وافتتحوا المدارس لهذا الغرض ، وجاء المماليك وكان لايزال فى مصر بقية من آثاره فحاولوا القضاء عليها فأكثروا أيضاً من بناء المدارس ، وقد لجأوا إلى استخدام العنف أحيانا لكبت الشيعة حتى أن الناس فى ذلك العصر كانوا إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسوا عليه من رماه بالتشيع فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات والإهانات حتى يظهر التوبة من الرفض . وفى الوقت نفسه حارب سلاطين المماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر . فأمر

(١) العصر المماليكى فى مصر والشام للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٣٣٦

(٢) انظر أعلام الاسكندرية للدكتور الشيال ص ١٣١ .

السلطان « الظاهر بيبرس » باتباع المذاهب السنية الأربعة وتحريم ماعداها .
كما أمر بألا يولى قاض ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لاحدى وظائف
الخطابة أو الإمامة أو التدريس ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب »(١)
وقد ضمت البلاد مجموعة كبيرة من فقهاء المذاهب الأربعة يستطيع من يتصفح
طبقات الفقهاء فى حسن المحاضرة أن يقف على كثير منهم بسهولة وبساطة .

ومن أشهر علماء الحديث فى هذا العصر « ابن دحية المتوفى سنة ٦٣٣ ﻫ »

وهو : أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسى . كان إماما حافظا بصيرا بالحديث
معتنيا به . استوطن مصر وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية فترة من الزمان
ولقد وصفه « ابن خلكان » بقوله : « كان أبو الخطاب من أعيان العلماء
ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث النبوى وما يتعلق به عارفا بالنحو واللغة
وأيام العرب وأشعارها » ثم بين « ابن خلكان » أنه : أقام بمصر إلى أن
توفى بها سنة ٦٣٣ ﻫ ودفن بسفح المقطم(٢) .

ومنهم « الحافظ المنذرى » وهو : الإمام العلامة زكى الدين عبد العظيم
ابن عبدالقوى بن عبد الله بن سلامة بن سعد المنذرى المصرى الشافعى قال
السبكى فى ترجمته : « كان رحمه الله قد أوتى بالمكيال الأوفى من الورع والتقوى
والنصيب الأوفر من الفقه . وأما الحديث فلا مراء فى أنه كان أحفظ أهل
زمانه وفارس أقرانه له القدم الراسخة فى معرفة صحيح الحديث من سقيمه » .
ثم نقل عن الذهبي أنه قال فى حقه « وما كان فى زمانه أحفظ منه » وبعد أن
تحدث عن شيوخه بين « أنه تولى التدريس بدار الحديث الكاملية وأنه كان
لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة حتى أنه كان له ولد نجيب محدث فاضل توفاه

---

(١) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٦ وانظر عصر سلاطين المماليك ج ٢ ص ٧٥

(٢) وفيات الاعيان ج ٣ ص ١٢١

الله تعالى فى حياته ليضاعف له فى حسناته فصلى عليه الشيخ داخل المدرسة وشيعه إلى « بابها ثم دمعت عيناه وقال أودعناك الله ياولدى وفارق . وكانت وفاته سنة ٦٥٦ هـ »[1] .

ومن أشهر المفسرين فى العصرين الايوبى والمملوكى :

ابن المنير « أحمد بن محمد بن منصور المعروف بابن المنير ٦٢٠-٦٨٣ هـ » الاسكندرى المالكى كان من أئمة التفسير والفقه واللغة والقراءات، وكان كما يقول « الداودى » : علامة الاسكندرية وفاضلها وله مؤلفات كثيرة منها تفسير القرآن العظيم الذى سماه « البحر الكبير فى نخب التفسير » ولقد اعترض بعض العلماء عليه فى هذه التسمية وقال له إن البحر الكبير مالح غير مستساغ . فأجاب : لكنه محل العجائب والدرر . ومنها الانتصاف من الكشاف وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يثنى عليه ويمتدحه[2] .

ومنهم « ابن النقيب » محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين جمال الدين أبو عبد الله المقدسى الحنفى « ٦١١ — ٦٩٨ هـ » استوطن القاهرة ودرس بها فانتفع الناس به . وكان فوق علمه زاهدا متواضعا ،وكان الاكابر يأتونه ويسألونه الدعاء . ويقول « ابن شاكر » أنه صنف تفسيرا كبيرا وقع فى خمسين مجلدة ذكر فيه أسباب النزول والقراءات والاعراب واللغات : وأنه لاتنكر إمامته ولاينكر فضله[3] وبين صاحب كشف الظنون أن هذا التفسير يسمى : التحرير والتحبير .

---

(١) طبقات السبكى ح ٥ ص ١٠٨

(٢) طبقات المفسرين الداودى ورقة ٣٨

(٣) فوات الوفيات ح ٢ ص ٢٦٩ وانظر كشف الظنون

كذلك كان من أعلام المفسرين فى هذا العصر صاحبنا « أبو عبدالله القرطبي » .

ومن النحاة واللغويين « ابن الحاجب » أبو عمر عثمان بن عمر بن أبى بكر الحصني المالكى . كان من أئمة العربية والقراءات والتفسير . أقام بدمشق فترة طويلة وتصدر هناك لإقراء العربية والقراءات فانتفع الناس به . ثم عاد إلى القاهرة فتوافد الناس عليه وتسابقوا فى الأخذ عنه . ثم انتقل إلى الاسكندرية ولم تطل حياته بها فتوفى سنة ٦٤٦ ﻫ ، ولقد امتدحه صاحب الروضتين بقوله « كان من أذكى الأئمة قريحة وكان ثقة حجة متواضعا كثير الحياء منصفا محبا للعلم وأهله . ناشرا له محتملا للأذى صبورا على البلوى »(١) .

ومنهم « ابن برى » أبو محمد عبد الله بن برى بن عبد الجبار المقدسى المصرى ، كان عالما فى اللغة والنحو مبرزا فيهما حتى وصفه ابن خلكان بقوله : « كان علامة عصره ونادرة دهره » وبين السيوطى فى ترجمته : أنه انتهى إليه علم العربية واللغة فى زمانه وأن كثيراً من الناس صحبوه وانتفعوا به وتخرجوا عليه . ولقد دفعته عنايته باللغة إلى تصحيح أغلاط اللغويين ، فوضع حاشيتين على الصحاح للجوهرى . استدرك فيهما كثيراً مما فات الجوهرى هذا من صحيح اللغة ، وصوب كثيراً مما وقع فيه من أخطاء . وكانت هاتان الحاشيتان أحد المنابع التى اعتمد عليها « ابن منظور » فى تأليف معجمه المعروف بلسان العرب « وكانت وفاته سنة ٥٨٢ ﻫ »(٢) .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٦ وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤١٣

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٩٢ والحركة الفكرية ص ٢١٧ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨

ومنهم «ابن مالك» إمام العربية العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطائي الجياني الشافعي النحوي اللغوي صاحب الألفية. ولد بجيان(١) إحدى مدن الأندلس وطوف كثيراً وقدم إلى مصر واستقر بدمشق وتتلمذ عليه خلق كثير في المغرب والمشرق. ولقد امتدحه «ابن العماد» بقوله: «وأما اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها والاطلاع على وحشيها. وأما النحو والتصريف فكان فيه بحراً لا يجارى وحبراً لا يبارى، ولقد رزق ابن مالك حظوة في التأليف فلقيت مؤلفاته قبولا في نفوس الناس وكانت وفاته سنة ٦٧٢ هـ».

ومن أبرز علماء القراءات «الشاطبي» أبو محمد القاسم بن فيره(٢) بن خلف ابن أحمد الأندلسي الشاطبي الضرير. قال الذهبي في مستهل ترجمته: «الشيخ الإمام العالم العامل القدوة سيد القراء» ثم بين أنه استوطن مصر وتصدر للإقراء فعظم شأنه وطار صيته، ونقل عن السخاوي أنه قال في حقه: أقطع بأنه كان مكاشفاً وأنه سأل الله كف حاله. وقال السيوطي في حقه: كان إماماً علامة كثير الفنون منقطع القرين رأساً في القراءات حافظا للحديث بصيراً بالعربية واسع العلم وكانت وفاته سنة ٥٩٠ هـ.

ومنهم «السخاوي» علي بن محمد بن عبد الصمد علم الدين أبو الحسن السخاوي. كان من أئمة التفسير واللغة والقراءات والنحو. أتقن كل هذه العلوم إتقاناً بليغاً ولم يكن في عصره من يلحقه فيها خرج من مصر ورحل إلى دمشق

---

(١) جيان بالفتح ثم التشديد وآخره نون.

(٢) ضبط هذه الكلمة ابن خلكان بكسر الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وتشديد الراء وضمها ومعناها بالعربية الحديد. راجع في ترجمة هذا الإمام الوفيات ج ٣ ص ٢٣٤ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٢ وسير أعلام النبلاء ج ١٣ أ لوحة ٦٠.

فأقرأ الناس بجامع دمشق مدة طويلة تجاوزت أربعين عاماً وتخرج عليه خلق كثير قال الذهبي : « ولا أعلم أحداً من القراء في الدنيا أكثر أصحاباً منه » وتوفى سنة ٦٤٣ هـ (١) .

ومن المؤرخين « ابن الأثير » أبو الحسن على بن محمد بن محمد الشيبانى ويعرف بابن الأثير، سكن الموصل وتتلمذ على أكابر العلماء ، وكانت له رحلات علمية إلى الشام والقدس . رجع بعدها إلى الموصل واستقر بها . وكان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة . وله كتاب الكامل ابتدأ فيه من أول الزمان وانتهى إلى آخر سنة ٦٢٨ هـ وهو من خيار التواريخ كما يقول ابن خلكان . وكانت وفاته سنة ٦٣٠ هـ (٢) .

ومنهم « أبو شامة » عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان . الامام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو شامة المقدسي الأصل الدمشقي الشافعى المقرىء النحوى المؤرخ . ولد بدمشق سنة ٥٩٦ وتوفى سنة ٦٦٥ هـ وله كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » — الايوبية والمملوكية — (٣) .

ومن الأدباء والشعراء : « ابن المنجم » على بن المنجم أبو الحسن المصرى كان أشعر أهل زمانه وأفضل أقرانه ، وكان من أعلام أدباء مصر المشهورين بمدح الملوك والوزراء وكان مولده سنة ٥٤٩ هـ وتوفى سنة ٦١٦ هـ (٤) .

ومنهم « البهاء زهير » بن محمد بن على بن الحسن الأزدي المصرى الشاعر

---

(١) أنظر وفيات الاعيان ح ٢ ص ٢٧ ومفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ح ٢ ص ٥٢ .

(٢) وفيات الاعيان ح ٢ ص ٣٣ .

(٣) حسن المحاضرة ح ١ ص ٣٢٢ .

(٤) المصدر السابق ح ١ ص ٢٤٣ .

الكاتب ولد بمكة ونشأ بقوص وقدم القاهرة وخدم الملك الصالح . مات بمصر في ذي القعدة سنة ٦٥٦ هـ [١] .

وإذا كان الأدب قد ازدهر في هذا العصر وظهرت فيه فنون جديدة كما يقول الدكتور « محمد زغلول سلام » ويؤيد ذلك الدكتور « عبد اللطيف حمزة » ، ويوضح عوامل نهوض الأدب في العصرين الأيوبي والمملوكي فيذكر منها : الحماسة الشديدة من أجل الدين ومن أجل مصر وذلك في محنتي الحروب الصليبية والحرب المغولية . والتشجيع الذي لقيه الأدباء من جانب الدولتين الأيوبية والمملوكية [٢] .

فإننا نرى أن العلوم الدينية مع ما ألف فيها من موضوعات علمية ضخمة لم تلق تجديداً أو ابتكاراً . وفي ذلك يقول الدكتور « محمد يوسف موسى » في كتابه « ابن تيمية » « إن هذا العصر يعتبر بحق عصر المؤلفات الطويلة والموسوعات الجامعة في علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم الإسلامية المختلفة . ولكنه لم يكن فيه من أصالة الفكر والتجديد والابتكار في الآراء حظ كبير يتميز به ويتناسب ، ولو إلى حد ما مع كثرة ما جمع فيه من معارف وعلوم [٣] .

أما العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق فلم تلق رواجاً ولم تصادف قبولاً في مصر أو في الشام في ذلك العصر . ولقد جعل السيوطي انتقال الخلافة إلى مصر

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ صفحة ٢٤٣ .

(٢) الحركة الفكرية صفحة ٢٧٢ .

(٣) ابن تيمية صفحة ٦١ بتصرف قليل . وانظر ابن تيمية للشيخ محمد أبو زهرة صفحة ١٥٥ .

سبباً فى موت الفلسفة بها . ولكننا نتساءل: لماذا حوربت الفلسفة فى الأندلس فى وقت لم يكن للخلافة العباسية بها أثر ؟ ولماذا حوربت فى الشام أيام كانت هذه الخلافة قائمة ببغداد — كما سنرى — ؟

الحقيقة أن هذه الدراسات كانت ممقوتة من الناس ومن أكثر الحكام ، فتعاون الجميع على مطاردتها ومعاقبة من يشتغل بها .

حدث أن صادق «السهروردى» الفيلسوف « الظاهر غازى » ملك حلب ولد السلطان «صلاح الدين» فافتتن به وقربه وأحبه وخالف فيه حملة الشرع. فكتب أهل حلب إلى السلطان « صلاح الدين » أن أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته . فكتب إليه أبوه بإبعاده فلم يبعده . فكتب بمناظرته فناظره العلماء فظهر عليهم بعبارته فقالوا : إنك قلت فى بعض تصانيفك : إن الله قادر على أن يخلق نبياً وهذا مستحيل فقال : ما وجه استحالته فإن الله هو الذى لا يمتنع عليه شىء . فتعصبوا عليه فأمر السلطان ولده بقتله فصلبه عن أمر والده . وكان ذلك فى سنة ٥٨٦ هـ (١) .

وفى عهد الأشرف موسى صاحب دمشق كان بعض الناس يشتغل بعلم الأوائل فنادى الملك الأشرف بالبلدان ألا يشتغل الناس بذلك وأن يشتغلوا بعلم التفسير والفقه . وكان « سيف الدين الآمدى » أحد الفلاسفة مدرساً « بالعزيزية » فعزله عنها وبقى ملازما منزله حتى مات فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة (٢) .

---

(١) الحركة الفكرية صفحة ٣٣٣ ، وخطط الشام للاستاذ محمد كرد على ح ٤ صفحة ٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ح ١٢٤ ولقد ملك الظاهر غازى حلب من سنة ٥٨٢ إلى سنة ٦١٣ هـ .

هكذا كانت الدولة الأيوبية تعامل الفلسفة والمشتغلين بها لا تأخذ حكامها رحمة بهم أو شفقة عليهم حتى انتقد بعض الباحثين هذا المسلك فقال : « وعلى كثرة ما أحسن « صلاح الدين » للبلاد فى سياستها أساء إلى الفلسفة بمجاراة أولئك المتعصبين الذين حملوه على قتل « السهروردى » . وربما كانت هذه الغلطة العظيمة التى عدت على « صلاح الدين » ، لأنه بقتله قتل الحكمة وهى صناعة الصنائع فى هذه الديار حتى أن سيف الدين الآمدى الفيلسوف النظار الكبير فى القرن التالى لم يجرؤ أن يقرىء أحدا شيئاً من العلوم الحكمية وبعد ذلك انقطعت الفلسفة من هذه الديار ولا تقرأ إلا أشياء قليلة منها » (١)

ولقد أفتى « عثمان بن الصلاح » المحدث المشهور المتوفى سنة ٦٤٣ هـ بتحريم هذه الدراسات . وصدر فتواه بتساؤلات عديدة فقال : هل الشارع قد أباح الاشتغال بالمنطق تعليما وتعلما ؟ وهل يجوز أن تستعمل المصطلحات المنطقية فى إثبات الأحكام الشرعية ؟ وماذا يجب على ولى الأمر عمله بإزاء شخص من أهل الفلسفة معروف بتعليمه فيها وهو مدرس بمدرسة من المدارس العامة ؟ ثم أجاب بقوله : إن الفلسفة أس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة .

وأما المنطق فهو مدخل إلى الفلسفة ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه أو تعلمه مما أباحه الشارع ولا أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين .

وأما استعمال المصطلحات المنطقية فى مباحث الأحكام الشرعية فمن

---

(١) خطط الشام ج ٤ صفحة ٤٢ .

للمنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة . وليس بالأحكام الشرعية — والحمد لله — افتقار إلى المنطق أصلا، فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم ويخرجهم عن المدارس ويبعدهم ويعاقب على الاشتغال بفنهم وأن يعرض من أظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام . ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والإقراء لها ثم سجنه وإلزامه منزله .

ويعلق « جولد زيهر » على هذا النص فيقول :

« وليست فتوى ابن الصلاح هذا إلا تعبيرا عن الرأى السائد فى البيئات السنية فى مناطق واسعة من العالم الإسلامى فى ذلك العصر (١) .

وبقى هذا السكره للفلسفة من جانب المسلمين فى عهد بنى أيوب إلى مجىء دولة المماليك، وظهرت آثاره واضحة فى كتاب « الطالع السعيد للأدفوى » فقد عرض الأدفوى لترجمة رجل من أقربائه اسمه « عبد القادر بن مهذب ابن جعفر » فوصفه بالذكاء والجود والتواضع ، ثم بين أنه : كان فيلسوفاً يقرأ الفلسفة ويحفظ كثيراً من كتبها ، وأنه عندما مرض لم يعده ، وعندما مات لم يصل عليه وكانت وفاته سنة ٧٢٥ أو ٧٢٦ هـ .

ووصف الأدفوى فى كتابه هذا إقليم « قوص » واختص مدينة « قنا » بالكلام فى محاسنها فقال : « ولا يكاد يوجد بها أجذم ولا أبرص إلا نادراً وفى حكم العدم . ولا شىء من الأمراض التى تعاف . ولا مجسم ولا معتزلى ولا فيلسوف ولا مجوسى ولا وثنى وليس بالأقليم من اليهود إلا نحو عشرة أنفس أو أقل » فانظر إلى هذا المؤلف السنى كيف يعتبر الفيلسوف والمعتزلى كالمجسم

---

(١) الحركة الفكرية صفحة ٣٢٥ .

والوثني والمجوسي ؟ وكيف يقيس هؤلاء جميعاً بذوي العاهات المزمنة كالأجذم والأبرص ومن به أذى من جسمه أو مرض تعافه النفس (١).

وأخيراً أحب أن أقول : إن علم الكلام لم يضطهد بالمشرق في هذا العصر فإن مذهب الأشعري كان قد استقر بالشام والعراق في أواخر القرن الرابع الهجري على يد صفوة ممتازة من الأئمة وبمعاونة كثير من الملوك . و نشأ « صلاح الدين الأيوبي » على هذا المذهب واعتنقه في صباه . أيام كان في خدمة الملك « العادل نور الدين محمود بن زنكي » (المتوفى سنة ٥٦٩ ﻫ) بدمشق ثم نشأ أولاده عليه فلما حكم مصر وتوالى من بعده الملوك والأمراء من أهل بيته انتصروا جميعاً للمذهب الأشعري ودافعوا عنه . وكذلك فعل المماليك من بعدهم . يقول المقريزي بعد أن تحدث عن نشأة صلاح الدين في خدمة نور الدين وتنشئة أولاده على هذا المذهب « فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بني أيوب ثم في أيام مواليهم الملوك من الأتراك (٢) ».

---

(١) المصدر السابق . وانظر الطالع السعيد صفحة ١٦ وما بعدها .

(٢) خطط المقريزي ج ٤ صفحة ١٨٠ تحت عنوان (عقائد أهل الاسلام).

الفصل الخامس

الأحوال السياسية فى عصر الموحدين والأيوبيين

أسس هـذه الدولة (أحمد بن عبد الله بن تومرت) [1] ولقد اختلف المؤرخون فى تاريخ ميلاده، وأطال الأستاذ محمد عنان فى سرد أقوالهم فمن قائل: أنه ولد سنة ٤٧٣ هـ ومن قائل أنه ولد سنة ٤٨٥ هـ ولا يهمنا ذلك كثيراً .

وابن تومرت بربرى الجنس نشأ فى جبل السوس فى أقصى بلاد المغرب . وطوف كثيراً فى طلب العلم . فذهب إلى الأندلس والاسكندرية ، والعراق ، وبغداد ومكة، ومن أساتذته الطرطوشى وأبو بكر الشاشى المتوفى سنة ٥٠٧ هـ . وقيل أنه التقى بالإمام الغزالى ونفى ذلك ابن الأثير [2] ،ثم عاد إلى المغرب . وحاول تغيير المنكر بقوة فى كل بلد نزل فيه ، ولقى فى سبيل ذلك ألواناً من الأذى لم تثنه عن عزمه ولم تصرفه عما نواه . وأخيراً استقر به المقام فى موضع يعرف بتينمل [3] من جبل السوس ولعله قد اختاره موطناً لدعوته التى كان

---

(١) ضبط هذه الكلمة ابن خلكان بضم التاء وسكون الواو وفتح الميم وسكون الراء بعدها تاء مثناة وقال : هو اسم بربرى وقيل : إن معناه الضياء الذى يوقد بالمسجد ولزم هـذا اللقب والده لانه كان يوقد للمساجد فقيل : محمد بن تومرت ونسى اسم أبيه وهو عبد الله .

(٢) راجع ابن الاثير ج ١٠ ص ٢٤١ وعصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٢٥٦ .

(٣) فى معجم البلدان « تين ملل » الميم مفتوحة واللام الاولى مشددة مفتوحة جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البربر بين أولها ومراكش نحو من ثلاثة فراسخ بها كان أول خروج محمد بن تومرت المسمى بالمهدى الذى أقام الدولة الموحدية ومات فصار الامر لعبد المؤمن ثم لولده .

يمتزم إظهارها لمناعته ووقوعه فى أحضان الربى والتلال . ومن هذا المكان شرع « ابن تومرت » فى تدريس العلم والدعاء إلى الخير . ولما تكاثر أتباعه وتوافد الناس عليه من البلاد المجاورة أعلن إمامته ومهدويته سنة ٥١٤ﻫ أو سنة ٥١٥ ﻫ . ثم دعا إلى الخروج على المرابطين وخلع طاعتهم . ووضع لأتباعه عقيدة فى التوحيد تقرب من مذهب الأشعرى وسماهم بالموحدين تعريضاً بالمرابطين الذين يعدلون عن التأويل . وحاول الأمير المرابطى « على بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ — ٥٣٧ ﻫ » القبض عليه وإخماد حركته ولكنه لم يفلح فى ذلك . بل على العكس نرى ابن تومرت أخذ يهدد أملاك المرابطين ويحاول اقتطاعها . ولما مات ابن تومرت سنة ٥٢٤ ﻫ استطاع عبد المؤمن بن على أن يحقق أهداف أستاذه فواصل انتصاراته الحربية حتى أسقط دولة المرابطين واحتل عاصمتهم «مراكش» سنة ٥٤١ ﻫ . وزحف بعد ذلك على الأندلس حيث ورث المرابطين هناك كما ورثهم فى الشمال الإفريقى[١] .

ولقد اشتبك الموحدون بعد أن توطد سلطانهم فى كثير من المعارك الحربية مع ملوك ليون وقشتالة والبرتغال حيث كانت هذه الممالك تجاور الأندلس . وكان ملوكها يحاولون انتقاص المملكة الموحدية من أطرافها . ومن أشهر المعارك التى دارت بين الموحدين والنصارى : « معركة الأرك »[٢] وذلك عندما خرج

---

(١) التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للدكتور أحمد شلبى ح ٤ ص ١٤١ ، والمرابطون قوم من المغاربة من أصل بربرى ، وحكموا الاندلس والمغرب من سنة ٤٤٨ — ٥٤١هـ وسموا بالمرابطين لانهم ألزموا أنفسهم بالرباط فى سبيل الله وسموا بالملثمين لانهم كانوا يغطون وجوههم باللثام راجع ابن خلدون ح ص ١٨٣ وتاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان ح ٢ ص ١٨٢ .

(٢) ضبطها بعض الباحثين بسكون الراء وفتح الهمزة وبعضهم بفتح الهمزة والراء وهى محلة صغيرة من أعمال قلعة رباح شمالى قرطبة .

ألفونس الثامن ملك قشتالة من بلاده . وأخذ يعيث فى البلاد الأندلسية فتجهز أمير المؤمنين « يعقوب المنصور » وأعد قواته وسار بهم للقاء الطاغية . فالتقى الطرفان عند مكان يسمى الأرك شمال قرطبة ودارت معركة عنيفة بين المسلمين والنصارى فى شعبان سنة ٥٩١ . ويصف المراكشى نتيجة هذه المعركة فيقول: « فأنزل الله على الموحدين نصره ، وأفرغ عليهم صبره ، ومنحهم أكتاف الروم، وكانت الدائرة على الأدغنش لعنه الله — الفونس الثامن — وأصحابه ولم ينج إلا هو فى نحو من ثلاثين من وجوه قواده . واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم »(١) .

ورجع المنصور إلى أشبيلية حاضرة ملك الموحدين بالأندلس فتسابق الشعراء يهنئونه فكان مما قيل :

حيتك معطرة النفس	نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم	إن الإسلام لفى عرس
أإمام الحق وناصره	طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق لملتمس
ورفعت منار الدين على	عمد شم وعلى أسس(٢)

وفى عهد الخليفة محمد الناصر ولد الخليفة يعقوب المنصور وقعت بين المسلمين والنصارى معركة كانت سبباً فى انهيار ملك الموحدين وتقويض أركانه . فلقد كان الفونس الثامن شريد موقعة الأرك يتوق إلى الانتقام ويحاول أن يفصل

(١) المعجب ص ٣٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧٠. وراجع ابن الاثير فى الكامل ج ١٢ ص ٥٣ .

العـار والخزى الذى لحق به وبجنوده . ولـكنه فى نفس الوقت يعلم أنه لن يستطيع مجابهة الموحدين بقوات قشتالة وحدها فتضرع إلى البابا فى روما أن يؤلب جموع النصارى على عدوهم . وأرسل الأحبار والرهبان إلى فرانسا وإلى الأمم المجاورة لها للدعوة إلى قضيته واستثارة حماسة النصارى للعبور إلى أسبانيا ومؤازرة الجيوش النصرانية فى قتالها ضد المسلمين ونجحت هذه السفارات . فأعلن البابا أنه يمنح غفرانه لـكل من يشترك فى محاربة المسلمين . ولبت فرنسا والأمم المجاورة لها دعوة الأحبار والرهبان . فتوافد على قشتالة جموع كثيرة من هذه البلاد كما توافد عليها جموع وجموع من أنحاء أوربا احتراماً للبابا وتقديسا له . ولم تـكن قشتالة وحدها هى التى ستخوض الحرب ضد المسلمين بل كانت هناك أعداد كبيرة من البرتغال ومن أراجون ونبارة . وهذه البـلاد تمثل أغلب الممالك الأسبانية فى ذلك الوقت واخترقت هذه الجموع العظيمة بلاد الأندلس فخرج لقتالها الموحدون من أشبيلية بجيوش عظيمة والتقى الطرفان فى يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ بموضع يعرف بالعقاب . وكانت الدائرة فيها على المسلمين فقتل منهم خلق كـثير وتمزقت الجيوش الموحدية ولم تقم لها قائمة بعد ذلك ..... وتعرف هذه الموقعة بموقعة العقاب : ولم يلبث الخليفة أن مات غما وحزنا من آثار نـكبته فى هذه الموقعة فى شعبان سنة ٦١٠ هـ .

ولقد كان لهذه الهزيمة أثر كبير فى الإسراع بالدولة الموحدية إلى السقوط والانهيار [1] كما كان لها وقع عميق فى نفوس المسلمين فاعتبروا ذلك عقابا من الله نزل بهم وأفصح عن ذلك بعض الشعراء فقال :

---

(١) راجع المعجب ص ٤٠١ وعصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٢٨٣ فانه تحدث بأسهاب وتفصيل كبيرين عن هذه الوقعة ، وراجع نفح الطيب . والعقاب مكان يقع فى جبال الشارات وهى جبال كانت تفصل بين الأندلس وأسبانيا .

وقائلة أراك تطيل فكرا كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر فى عقاب غدا سبباً لمعركة العقاب
فما فى أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب(١)

وكان يمكن لأمراء الموحدين أن يلموا شملهم وأن يتداركوا هذه الهزيمة وأن يتحدوا فى مواجهة العدو المتربص . ولكنهم تطاحنوا وتنافسوا على اعتلاء العروش — فعاشت البلاد فى فوضى واضطراب ، فبعد أن مات الخليفة الناصر خلفه على الحكم ولده يوسف المنتصر ٦١٠ — ٦٢٠ هـ وكان فتى لم يبلغ الحلم وليس أخطر على دولة ممزقة من حكم صبي قاصر بل إن الدول القوية المنظمة كثيراً ما تنهار من جراء ذلك فى أعوام قليلة فما بالك بدولة قد أخذت منذ حين تتمزق وينتثر شملها(٢) .

ومات المنتصر بلا عقب فقام بالأمر من بعده فى مراكش . عم أبيه « عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن » وقام بالأندلس ابن أخيه « عبدالله ابن يعقوب المنصور » وتلقب بالعادل ودانت له ممالك الأندلس . فأوعز إلى أنصاره وأصدقائه بالثورة على منازعه وخصمه فخلع فى سنة ٦٢١هـ . ولهذا يطلق عليه المؤرخون لقب المخلوع . ثم قتل بعد ذلك ولم يستمر حكمه أكثر من ثمانية أشهر . وأراد العادل أن يعيد للسلطان هيبته فحكم البلاد بقوة وشدة . ولم يرخ قبضته لأشياخ الموحدين وأقاربه الذين كانوا ولاة على أكثر المدن الأندلسية . بل حد من سيطرة هؤلاء وأولئك . فوقع الانفجار ورفع أقاربه علم الثورة وانتهت الثورة عقبه سنة ٦٣٤ هـ

---

(١) عصر الموحدين والمرابطين القسم الثانى ص ٣٢٠ .

(٢) تاريخ المرابطين والموحدين ، يوسف أشباخ ص ٤٠١ .

وتولى بعده زعيم الثورة ومدبر الانقلاب أخوه « أبو العلاء إدريس الملقب بالمأمون ٦٢٤ — ٦٢٩ » وكان والياً من قبل العادل على أشبيلية ، وقرطبة . ولكنه لم يفز بحكم أهدأ من حكم أخيه[١] ففي عهده قامت ثورات التحرير تحاول أن تخلع حكم الموحدين فقام في مرسية محمد بن يوسف الشهير بابن هود وقاد الثورة ودعا لنفسه فبايعه أهلها سنة ٦٢٥ ثم بايعته قرطبة وأشبيلية بعد ذلك ، وفي بلنسية قام « أبو جميل زيان » بثورته على الموحدين سنة ٦٢٩ هـ وطرد واليها ودخلت في طاعته بعض القواعد الاندلسية الاخرى .

ويتحدث المؤرخون عن مصير أمير بلنسية في ذلك الوقت السيد « أبو زيد عبد الرحمن » الذي ينتمي إلى أسرة بني عبد المؤمن فيذكرون أنه التجأ إلى النصارى واحتمى بهم واستقر في أراجون[٢] وكان بصحبته ابن الابار أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي ولقد أعرب ابن الابار عن أسفه لمغادرة بلنسية فقال :

الحمد لله لا أهل ولا ولد ولا قرار ولا صبر ولا جلد

كان الزمان لنا سلما إلى أمد فعاد حربا لنا لما انقضى الامد

وعاد ابن الأبار إلى بلنسية عندما ارتد الامير الهارب عن الإسلام واعتنق النصرانية[٣] كذلك استقل محمد بن الاحمر بحكم بعض المدن الاندلسية . واستطاع أن يؤسس مملكة إسلامية « بغرناطة »[٤] استمرت نحو قرنين ونصف من الزمان .

---

(١) راجع تاريخ المرابطين والموحدين لاشباخ ص ٤٠١ وما بعدها

(٢) في معجم البلدان أرجونة بالفتح ثم السكون وجيم مضمومة وواو ساكنة بلد بالاندلس .

(٣) راجع عصر المرابطين والموحدين القسم الثاني ص ٣٩٦ .

(٤) غرناطة بفتح أوله وسكون ثانية ثم نون وبعد الالف طاء مهملة .

ونستطيع أن نقول أنه فى عهد العادل الموحدى تقلص سلطان الموحدين تقريباً من الأندلس . وفى عهد المأمون أيضاً تقلص حكم الموحدين من شمال افريقيا حيث استقل بنو حفص[١] بتونس « سنة ٦٢٧ هـ » .

وتقدمت الدولة فى عهد خلفائه إلى السقوط والانهيار فاستقل « بنو زيان » [٢] بالمغرب الأوسط واتخذوا « تلمسان »[٣] عاصمة لهم سنة ٦٣٣ هـ .

ولما ظهر بنو مرين وقوى أمرهم فى المغرب الأقصى أخذوا ينتقصون ما تبقى من أطراف الدولة الموحدية . فأسقطوا مكناسة[٤] سنة ٦٤٣ هـ وفاس سنة ٦٤٦ هـ وأخيراً وفى سنة ٦٦٨ هـ أسقطوا مراكش[٥] فضاع بذلك حكم الموحدين نهائياً وزالت بذلك دولتهم من المغرب والأندلس وأفريقية [٦] . وتقسمتها هذه الدويلات .

---

(١) كان بنو حفص ولاة من قبل الموحدين على تونس فلما ضعف أمر الموحدين استقلوا بتونس وتبدأ دولتهم من سنة ٦٢٨ إلى سنة ٩٤١ هـ .

(٢) كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين فلما ضعف الموحدون أعلن بنو زيان أيضاً استقلالهم و تخذوا تلمسان عاصمة لهم وتبدأ دولتهم من سنة ٦٣٣ إلى سنة ٧٩٦ هـ وتلمسان ضبطها صاحب المعجم بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة .

(٣) مدينة تقع فى القسم الغربى من الجزائر بالقرب من الحدود المراكشية .

(٤) مدينة تقع فى جبال الاطلس بالقرب من مدينة فاس .

(٥) مدينة تقع فى أقصى الغرب من بلاد المغرب وتتجه نحو المحيط الاطلسى وتقسم جبال الاطلس البلاد إلى قسمين أحدهما سهول وتجود مراكش الاطلسية فى الغرب والثانى هضاب شبه صحراوية فى الشرق .

(٦) أفريقية — اسم أطلقه العرب على بلاد البربر الشرقية — أما الغربية فسميت بالمغرب وقد اختلف جغرافيو العرب فى وضع حدودها وقد أوصلها بعضهم الى إفريقيا إلى المغرب الاقصى وليبيا — شمال إفريقية — تونس .

إفريقيا الغربية تتكون من : سنغال ، موريتانيا ، ساحل العاج ، نيجيريا ، غينيا ، داهومى .

إذا كان هذا قد حدث للدولة الموحدية من جراء تفرق أمرائها وتنافسهم على الحكم فإن الثوار لم تتفق كلمتهم ولم تتماسك جبهتهم أمام العدو وقامت بينهم حروب أهلية عديدة ، وانتهز العدو فرصة الحرب الدائرة بين الثوار من ناحية وبينهم وبين الموحدين من ناحية أخرى . فبدأ حملة الاسترداد وأكثر من غزواته وحروبه حتى تساقطت فى يده المدن الاندلسية تباعاً .

فسقطت قرطبة فى يوم الاحد الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ٦٣٣هـ .

وسقطت بلنسية فى يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ٦٣٦ هـ .

وعاشت مرسية تدين بالطاعة والجزية النصارى من شوال سنة ٦٤٠ هـ إلى أن سقطت فى أيديهم سنة ٦٦٤ هـ ، وهى فى هذه الفترة تنتقل من ثائر إلى ثائر .

وسقطت أشبيلية فى الخامس من شعبان سنة ٦٤٦ هـ .

هذه هى الخطوط العريضة للأحوال السياسية فى الاندلس فى عصر الموحدين وهو العصر الذى عاش فيه القرطبي الفترة الاولى من حياته ، وقدم القرطبي إلى مصر فى عهد الايوبيين ، وكانت الأحوال السياسية فيها لا تختلف عنها فى الاندلس فما أكثر الحروب التى دارت فى مصر والشام والتى شنها الصليبيون على المسلمين .

= المغرب اسم أطلقه الجغرافيون على بلاد البربر أو إفريقيا الصغرى الشاملة بلاد طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش وكانوا يقسمونه إلى المغرب الاقصى غربا المنحصر بين تلمسان شرقاً وساحل الاطلس غرباً وسبتة شمالا ومراكش جنوباً .

والمغرب الاوسط المنحصر بين وهران غرباً وحدود مقاطعة بجاية شرقاً وهو اليوم القطر الجزائرى.

وما أكثر الأيام التي عاشتها البلاد في فوضى واضطراب من جراء تنافس الأمراء وتنازعهم على السلطة .

أما من الحروب فان صلاح الدين الأيوبي « ٥٦٨ — ٥٨٩ » مؤسس الدولة الأيوبية . كان قد حمل راية الكفاح ضد الصليبية التي اقتطعت بعض الامارات من الدولة الإسلامية واستقرت بها في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين . وساموا المسلمين الخسف والهوان . وتتابع بعده الملوك والأمراء من البيت الأيوبي فقادوا حملات الجهاد ضد الصليبية في مصر والشام ونجحوا في صد هجماتهم وإيقاف زحفهم .

وقادها من بعدهم المماليك . بل إن المماليك حملوا راية الجهاد ضد الصليبية والتتار معاً ، ورغم كثرة الحروب التي دارت بين المسلمين والصليبيين طوال قرنين من الزمان فإنه لم يقض على الصليبية نهائياً إلا في عهد الاشرف خليل ابن المنصور قلاوون سنة ٦٩٠ هـ (١) . وفي هذا يقول ابن كثير « وفيها فتحت عكا وبقية السواحل التي كانت بأيدي الفرنج من مدد متطاولة ولم يبق لهم فيها حجر واحد ولله الحمد » (٢).

ومن أبرز الأمثلة على نجاح الأيوبيين في صد الصليبية عن مصر ما يحدثنا به ابن الأثير عن حصار دمياط فإنه قال في حوادث سنة ٦١٥ هـ :

وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوها براً وبحراً . وعملوا عليها خندقاً يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين . وأداموا القتال . واشتد الأمر على أهلها وتعذرت عليهم

---

(١) حكم الاشرف مصر من سنة ٦٨٩ إلى ٦٩٢ وفيها مات.

(٢) نقل هذا النص الدكتور محمد يوسف موسى في كتابه ابن تيمية ص ٢١ .

الأقوات وسئموا القتال وملازمته . لأن الافرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم ، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة . ومع هذا صبروا صبراً لم يسمع بمثله ، وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض ودام الحصار عليهم إلى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة فعجز من بقى من أهلها عن الحفظ بقلتهم . وتعذر القوت عندهم . فسلموا البلد إلى الفرنج فى هذا التاريخ بالأمان . ولما سمع الفرنج فى بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا يهرعون من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم ، وفى سنة ٦١٨ هـ استطاع الملك الكامل ابن الملك العادل ٦١٥ — ٦٣٥ بمعاونة أخويه الملك المعظم عيسى (صاحب دمشق) والأشرف موسى (صاحب حلب) محاصرة الفرنج فى دمياط ، ودار بين الفريقين قتال عنيف فلما تيقن الصليبيون أنه قد أحيط بهم ، وأن المنايا كشرت لهم عن أنيابها . ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل عنهم شيطانهم وطلبوا الصلح بغير عوض وخرجوا من دمياط (١) .

ولقد تجددت الحملة على دمياط مرة أخرى . على يد لويس التاسع ملك فرنسا فى عهد الملك الصالح « نجم الدين أيوب ٦٣٦ — ٦٤٧ هـ » . غادرت هذه الحملة باريس وتوجهت إلى قبرص وتوافدت الجيوش الصليبية إلى قبرص لمساعدة ملك فرنسا ضد المسلمين ، ولما تكامل عقد هذه الجيوش تقرر أن تكون مصر هى الهدف الذى يقصدونه لما اشتهرت به من الثروة ، ولمركزها الحربى ، ولما لسلطانها من أهمية ومكانة فى الشرق الأوسط(٢) .

وسارت الحملة إلى مصر فنزلت على دمياط واستولت عليها . وكان ذلك فى سنة ٦٤٧ وخرج الملك الصالح رغم مرضه وآلامه . بعد أن أعد عدته وجهز

---

(١) ابن الاثير ح ١٢ ص ١٥٠ بتصرف قليل .

(٢) مصر فى عصر الايوبيين للدكتور السيد الباز العرينى ص ١٣١

جيشه وعسكر بالمنصورة . ليوقف زحف الأعداء على مصر ، ولكنه مات بعد قليل . فتولى مكانه ابنه الملك المعظم « توران شاه » بعد أن استقدمته شجرة الدر زوجة أبيه من حصن « كيفا » وأراد لويس أن يحطم القوة المصرية الممثلة في هذا الجيش الرابض عند المنصورة . حتى يسهل الاستيلاء على مصر كلها . فسار بجيشه إلى المنصورة بعد أن ترك حامية على دمياط . ودخل المنصورة فلم يلق مقاومة . ثم فوجيء بهجوم عنيف من الجيش الإسلامي . فدارت معركة رهيبة في دروب المنصورة وشوارعها رفع ما بقي من الصليبيين في نهايتها أيديهم بالتسليم . فشده المسلمون وثاقهم وأخذوهم أسرى . ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن دفعوا الفداء ووقع في الأسر لويس التاسع وسجن في دار ابن لقمان . ولم يطلق سراحه إلا بعد أن افتدى نفسه بخمسمائة ألف دينار(١) . ويتحدث ابن كثير عن هذه الحلقة بإيجاز فيقول : « وفي ثالث المحرم من سنة ثمان وأربعين وستمائة يوم الأربعاء كان كسر المعظم توران شاه الفرنج على ثغر دمياط فقتل منهم ثلاثين وقيل مائة ألف وغنموا شيئاً كثيراً ولله الحمد ، وكان فيمن أسر ملك الفرنسيس وأخوه »(٢) .

ولما انتصر « توران شاه » في معركة المنصورة لم يحسن قيادة المماليك ولم يسترض زوجة أبيه « شجرة الدر » فعاملها بقسوة وغلظة فتآمرت عليه مع بعض المماليك وصادف ذلك هوى في نفوسهم . فانه كان يقول المؤرخون « كان إذا سكر صف الشموع أمامه ، وتناول السيف بيده وضرب تلك الشموع المصفوفة ، ويقول : هكذا أفعل بالمماليك البحرية(٣) » وتم تنفيذ المؤامرة واغتياله

---

(١) انظر المصدر السابق ص١٤٦

(٢) ابن كثير ج١٣ ص ١٧٨

(٣) تاريخ ابن إياس ج ١ ص٨٨

فى التاسع من المحرم سنة ٦٤٨ هـ . وبموته انتهت الدولة الأيوبية فى مصر وخلفتها دولة المماليك البحرية . ولقد ابتليت الأمة الإسلاميـــة فى عهدهم إلى جانب الصليبيين بالتتار « والتتار أمم وثنية جاهلة كانت تعيش على البداوة فى بلاد الصين إلى أن نجم فيهم رجل منهم قوى الشكيمة شديد البأس استطاع أن يتملك عليهم وأن يفوز بحكم العرش فيهم ، ودانت له أمم التتار جميعها ، وأخذ يقودهم من نصر إلى نصر حتى خضع لحكمهم كثير من الأمم المجاورة لهم . ذلك الرجل هو « جنكيز خان » ثم ما لبث « جنكيز خان » حتى زحف بهم كالجراد على أواسط آسيا وغربيها منذ عام ٦٠٦ هـ ، فملكوا كثيراً من البلاد ، وقتلوا ما لا يحصى من أهلها حتى بلغوا خراسان فانتزعوها من ملكها خوارزم شاه محمد بن تكش عام ٦١٧ هـ » .

« وكانت الدولة الخوارزمية تقوم بمدافعة التتار وحجزهم عن بلاد الإسلام فلما طويت مملكتها أثر هجمات التتار العنيفة المتوالية انسابوا كالفيضان المدمر على بلاد العراق ثم على بلاد الشام . وسقطت حاضرة الخلافة بغداد فى أيديهم عام ٦٥٦ هـ » (1) .

وشاء الله أن توقف مصر زحف التتار وأن تحطم الأسطورة التى رهبها الناس زمناً طويلا . فإنه بعد أن امتلك التتار العراق وخراسان ، وغيرها من بلاد الشرق أصبح الطريق مفتوحاً أمامهم إلى الشام . فبادروا إليها وعبروا الفرات وما لبثوا أن ملكوا حلب ثم دمشق ، وجاسوا خلال الديار . ثم أرسل « هولاكو » سلطان التتار رسلا إلى مصر بكتاب يفيض غروراً ووعيداً

---

(1) عصر سلاطين المماليك ح ٣ وانظر وصف ابن الاثير لما كان يرتكبه هؤلاء الناس ح ١٢ ص ١٦٤ وانظر البداية والنهاية ح ـ ١ ص ٨٢ فانه تحدث عن ظهور التتار وتتبع غزواتهم بتفصيل ثم تحدث عما ارتكبوه عند نزولهم ببغداد ص ٢٠٠ .

ومما جاء فيه « من ملك الملوك شرقا وغربا » وفيه يقول : « فعليكم بالهرب وعلينا الطلب فأى أرض تأويكم وأى طريق ينجيكم وأى بلاد تحميكم فما لكم من سيوفنا خلاص »(١) . وكانت مصر فى ذلك الوقت أعنى سنة ٦٥٨ هـ تحت حكم الملك المظفر « سيف الدين قطز » فلم ينخلع قلبه من هذه الرسالة وأعد للأمر عدته وسار بجيشه إلى الشام . فبادرهم قبل أن يبادروه ثم التقى الجمعان بالشام على « عين جالوت » وكان قتال شديد انتهى بنصر الإسلام وأهله انتصاراً مبيناً . وبهزيمة التتار هزيمة شنيعة وبفرارهم . فلحق بهم الجيش الإسلامى يقتلونهم فى كل موقع ومكان . ويذكر المقريزى « أن الملك المظفر وقد عاين أن المسلمين زلزلوا زلزالا شديدا ألقى خوذته على الأرض وصرخ بأعلى صوته « وا إسلاماه » ثلاث مرات يا الله نصر عبدك قطز على التتار ، وحمل بنفسه ومن معه حملة صادقة كان بعدها نصر الله المبين »(٢) .

ورغم كثرة الحروب التى كان يقودها الصليبيون ضد المسلمين فى مصر والشام فان التنازع بين أمراء البيت الأيوبى على الحكم كان يشتد ويتفاقم ويهز البلاد هزا عنيفاً . فعندما مات صلاح الدين الأيوبى (٣) . وقع الخلاف بين

---

(١) ابن تيمية ، الدكتور محمد يوسف موسى ص١٦

(٢) المصدر السابق بتصرف ، ابن كثير ص٢١٨ ، ج ١٣ ، ٢٢٠

(٣) بعض الخلافات التى دارت بين أمراء البيت الأيوبى :

عندما مات صلاح الدين دارت منازعات بين الأفضل على بن صلاح الدين ملك دمشق وبين العزيز عثمان ملك مصر ، ولكن الملك العادل تمكن من إقصاء الأفضل عن دمشق وولاه بعض الولايات الشمالية ، واستقر الأمر للعزيز عثمان على مصر وتولى بعد ابنه الملك المنصور وكان طفلا . فاستطاع الكامل أن يتولى حكم مصر فى سنة ٥٩٦ . وبهذا ملك العادل مصر والشام . فولى ابنه الكامل على =

أبنائه حتى وثب بعضهم على بعض » . ولم يقنع أحد منهم بما هو فيه فحصل بينهم من الفتن والحروب ما يطول شرحه فكانوا على حد قول القائل :

أملتهم ثم تأملتهم فلاح لى أن ليس منهم فلاح

طال وقوفى بفنا ربعهم بغير نفع فالرواح الرواح[1]

وكذلك عندما مات الكامل محمد بن الملك العادل سنة ٦٣٥ هـ نشب خلاف بين أولاده وجرت بينهم حروب أهلية يطول بنا الحديث لو تتبعناها .

ولما ابتدأت دولة المماليك البحرية تجدد الخلاف والتنافس على الحكم. ويصف الأستاذ الشيخ « محمد أبو زهرة » « حكم المماليك » وما كان يحدث خلاله من فتن ومؤامرات فيقول :

« إن الحكم فى هذه الدولة كان بلا ريب حكما مطلقا الحاكم فيه مستبد . لا يصل إلى الحكم إلا بقوته وقد يحوله بعد أن يستمكن فى عرشه إلى وراثة لذريته وقد يستقر الأمر لمن آل إليه الملك وراثة . ولكن سرعان ما ينقض عليه قريب أو قائد من قواده ليأخذ منه الحكم بالطريقة التى أخذ بها أبوه أو

= مصر . وولى ابنه المعظم عيسى على دمشق . وولى الأشرف موسى على حلب. وكان يتنقل بينهم .

وبعد أن مات الملك الكامل حدثت خلافات بين أبنائه وأحفاده وإخوته وبين أبناء إخوته . ومن أبرزها ما حدث بين الملك العادل الثانى ابن الكامل أيوب ، وبين الصالح نجم الدين أيوب من أحداث ووقائع للاستيلاء على ملك مصر انتهت بتآمر الصالح نجم الدين على ابن أخيه العادل والايعاز بخنقه سرا والاستيلاء على سرير الملك بالديار المصرية .

(١) تاريخ مصر لابن إياس ح ١ ص ٧٣ بتصرف وراجع خطط الشام ح ٢ ص ٧٣

جده . ولذلك كان بينهم تنازع مستمر على الملك يختفى أحيانا ويظهر أحيانا . فإذا كان عدو غالب من التتار أو غيرها اختفى النزاع فى بعض الأحوال أو سكن . وإن كان أمن من الخارج ظهر النزاع قوياً غلاباً . وقد يستعين بعضهم بعدو للفريقين فى سبيل الاستمكان من خصمه لينال منه مأرباً(١) .

وهناك أمثلة عديدة ، تؤيد ما ذهب إليه أستاذنا الشيخ « أبو زهرة » : فلقدكان أول من تولى حكم المماليك «عز الدين أيبك التركمانى» تنازلت له زوجه « شجرة الدر » عن الحكم سنة ٦٤٨ هـ فابتدأ يتخلص من الخارجين عليه . ويوطد سلطانه بمصر . ولم تمض سنوات قليلة حتى تآمرت عليه . فأوعزت إلى بعض خدامها بقتله واغتياله . وتم ذلك سنة ٦٥٥ هـ .

وتولى بعده ولده الملك المنصور « نور الدين على » وبعد سنة من حكمه خلعه « سيف الدين قطز » وكان من مماليك أبيه واستولى على العرش سنة ٦٥٧ هـ . ولكنه لم ينعم بحكم هادىء فتآمر عليه « الظاهر بيبرس البندقدارى » ـ وكان من مماليكه ـ وقتله بعد انتصاره على التتار سنة٦٥٨ هـ .

وقد عبر القرطبي عما يسود البلاد من فوضى نتيجة هذه الخلافات . وأبدى أسفه وألمه لذلك فى عبارات موجزة .

ففى قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم » الآية تبين أن الله تبارك وتعالى قد أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة ميثاقا ألا يقتل بعضهم بعضا ولا ينفيه ولا يسترقه ولا يدعه يسترق ... إلى غير ذلك من الطاعات . ثم

---

(١) ابن تيمية ص ١٤١

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٩ آية ٨٤ ، ص ٢٢ آية ٨٥ من سورة البقرة

بين أن هذا محرم على المسلمين فقال : وهذا كله محرم على المسلمين وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وبعد أن انتهى من تفسير قوله « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » عقب بقوله : « قلت : والعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا على بعض ليت بالمسلمين بل بالكافرين حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجرى عليهم حكم المشركين فلا حول ولا قوة إلا بالله » .

الباب الثانى

المصادر التى اعتمد عليها القرطبي فى تفسيره ، ودراسة منهجه والأسس التى قام عليها ذلك المنهج ، وبيان القيمة العلميـة لتفسيره وتأثر المفسرين به . ويتكون هذا الباب من أحد عشر فصلا .

الفصل الأول : المصادر التى اعتمد عليها القرطبي فى تفسيره

الفصل الثانى : منهج القرطبي فى التفسير المأثور

الفصل الثالث : موقف القرطبي من القراءات الشاذة والمتواترة

الفصل الرابع : بعض المباحث اللغوية فى تفسير القرطبي

الإعراب والنحو فى تفسير القرطبي

استشهاده بالشعر فى مجال النحو والغريب

استشهاده بالحديث فى هذا المجال

الفصل الخامس : موقف القرطبي من البلاغة

الفصل السادس : موقفه من التفسير الرمزى

الفصل السابع : منهجه فى عرض الأحكام الفقهية وعدم تعصبه

الفصل الثامن : القرطبي يعرض فى تفسيره كثيراً من قواعد الأصول

الفصل التاسع : منهج القرطبي فى الحديث

الفصل العاشر : موقف القرطبي من الإسرائيليات

الفصل الحادى عشر : القيمة العلمية فى تفسير القرطبي وتأثر المفسرين به

الفصل الأول

مصادر القرطبي

عندما يطالع القارىء تفسير القرطبي . بل عندما يطالع تفسير بعض آيات من كتابه « الجامع لأحكام القرآن » يحس أنه أمام موسوعة عظيمة حوت كثيراً من العلوم . ولا شك أن للقرطبي روافد كثيرة أمدته وأعانته على أن يخرج كتابه على هذه الصورة . ولا يستطيع الباحث أن يتقصى كل هذه الروافد والمصادر . فدون ذلك عقبات وعقبات . ولكني سأحاول في هذا الفصل أن أكشف عن بعض مصادره التي تأثر بها . سواء من كتب التفسير أو أو من كتب القراءات ، أو من كتب الحديث ، أو من كتب اللغة والنحو ، أو من كتب الفقه أو من كتب التاريخ .

مصادر القرطبي من كتب التفسير:

لقد أفاد القرطبي من مؤلفات كثير من المفسرين . وكان موقفه من هؤلاء المفسرين أن يعرض آراءهم . وأحيانا يكتفي بهذا العرض . وأحيانا أخرى يتعقبها ويناقشها ويرد بعضها . ومن هنا ظهرت شخصيته في تفسيره ، ومن هذه المؤلفات : إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس . المتوفى سنة ٣٣٨ هـ . لقد تأثر القرطبي بالنحاس في إعراب القرآن ومن الأمثلة التي توضح ذلك ما ذكره في في قوله تعالى « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (١) فقد قال : وكسرت « إن » لأنها مبتدأ قاله النحاس وقال علي بن سليمان : يجوز فتحها

---

(١) آية ١٢ من سورة البقرة .

كما أجاز سيبويه « أما أنك منطلق » على معنى حـقاً وأما بمعنى « ألا » « وهم » يجوز أن يكون مبتدأ « والمفسدون » خبره والمبتدأ وخبره خبر « ان » ويجوز أن تكون « هم » توكيداً للهاء والميم فى « إنهم » ويجوز أن تكون فاصلة ، والكوفيون يقولون عماداً . « والمفسدون » خبر « إن » . والتقدير « ألا أنهم المفسدون »(١) .

وفى قوله تعالى « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » يقول : « الكتاب : التوراة باجماع من المتأولين . واختلف فى الفرقان . فقال الفراء وقطرب المعنى : آتينا موسى التوراة . ومحمداً عليه السلام الفرقان . قال النحاس هذا خطأ فى الإعراب والمعنى . أما الإعراب فان المعطوف على الشىء مثله وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشىء خلافه وأما المعنى فقد قال تعالى « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان » قال أبو إسحاق الزجاج : يكون الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره باسمه تأكيداً ، وحكى عن الفراء ، ومنه قول الشاعر :

وقددت الأديم لراهشـيه وألفى قولها كذباً ومينا (٢)

وقال آخر :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٠٤ وانظر اعراب القرآن للنحاس نسخة خطية بدار الكتب رقم ٤٨ تفسير ورقة ٣ وفى العبارة غموض ولعل المعنى المراد ـ يجوز فتحها كما أجاز سيبويه « أما أنك منطلق » على معنى ، حقا أنك منطلق « وأما » بمعنى « ألا » فاذا فتحت « إن » بعدها كانتا بمعنى حقا أنك ، وإذا كسرت كانتا أداتى استفتاح ـ راجع كتاب سيبويه ج ١ ص ٤٦٢ طبع بولاق .

(٢) الرواية المشهورة فى البيت فقددت الاديم ، والقد القطع والاديم الجلد والراهشان عرقان فى باطن الذراع .

فنسق البعد على النأى ، والمين على الكذب ، لاختلاف اللفظين تأكيداً ومنه قول عنترة :

حييت من طلل تقادم عهده　　　أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

قال النحاس : وهذا إنما يجىء فى الشعر وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد فرقاناً بين الحق والباطل (١) .

وهذه عبارة النحاس فى كتاب « إعراب القرآن » . يقول النحاس : « والفرقان عطف على الكتاب . قال الفراء وقطرب : يكون ـ أى المعنى ـ وإذ آتينا موسى الكتاب » أى التوراة ومحمدا الفرقان . قال أبو جعفر : هذا خطأ فى الإعراب والمعنى . أما الإعراب : فإن المعطوف على الشىء مثله . وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشىء خلافه ، فأما المعنى : فقد قال فيه جل وعز « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان » قال أبو إسحاق : ويكون الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره وهذا أيضا بعيد . إنما يجىء فى الشعر كما قال :

وألفى قولها كذبا ومينا

وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد فرقانا بين الحق والباطل الذى علمه إياه (٢) .

ولقد لاحظت أن القرطبى كان ينقل عن النحاس : ولا يشير إليه . وكان هذا النقل بلا تصرف أحيانا أخرى . ففى قوله تعالى « وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ٣٩٩ .

(٢) اعراب القرآن ورقة ٧ .

يقول القرطبي: « ياقوم » .. منادى مضاف وحذفت الياء في ياقوم لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها. وهي بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد. ويجوز في غير القرآن إثباتها ساكنة. فتقول: «ياقومي» لأنها اسم وهي في موضع خفض. وإن شئت فتحتها وإن شئت ألحقت معها هاء، فقلت « ياقوميه » وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخف فقلت ياقوما وإن شئت قلت « ياقوم » بمعنى ياأيها القوم. وإن جعلتهم نكرة نصبت ونونت[1] ».

وفي ذلك يقول النحاس في « إعراب القرآن » فحذفت الياء لأن النداء موضع حذف والكسرة تدل عليها، وهي بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد. إلى آخر ما ذكره القرطبي بلا تغيير ولا تبديل[2].

وفي قوله تعالى: « نغفر لكم خطاياكم[3] » يقول القرطبي:

« واختلف في أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة. فقال الخليل: الأصل في « خطايا » أن يقال: خطايىء ثم قلب فقيل: خطائي .. بهمزة بعدها ياء. ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول: خطاءا، فلما اجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات فأبدلت من الهمزة ياء فقلت خطايا. وأما سيبويه فمذهبه أن مثل الأول خطايىء ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها في مدائن. فتقول خطائىء، ولا تجتمع همزتان في كلمة فأبدلت من الثانية ياء. فقلت خطائي ثم عملت كما عملت

---

(١) تفسير القرطبي ح ١ ص ٤٠٠

(٢) انظر اعراب القرآن ورقة ٧

(٣) آية ٥٨ من سورة البقرة.

فى الأول . وقال الفراء خطايا جمع خطية بلا همزة كما تقول : هدية وهدايا. قال الفراء ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت خطاءا . وقال الكسائى : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة فى الهمزة كما قلت دواب(١) وهذه عبارة النحاس بلا تغيير ، ومع هذا فلم يشر القرطبي إليه ولم يبين أنه أخذ عنه(٢) .

معانى القرآن لأبى جعفر النحاس

أفاد القرطبي من « كتاب معانى القرآن » لأبى جعفر النحاس . ونقل عنه . ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره فى قوله تعالى « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » فقد نقل القرطبي عن بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ولم يرتض القرطبي هذا الرأى فرفضه . ثم قال : وقال النحاس فى « معانى القرآن » : القول فيه عند العلماء أهل النظر . أنه محكم وأنه يجازيه إذا لم يتب . فإن تاب فقد بين أمره بقوله « وإنى لغفار(٣) لمن تاب » فهذا لا يخرج عنه والخلود لا يقتضى الدوام ، قال الله تعالى : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد(٤) » الآية ، وقال تعالى « يحسب أن ماله أخلده(٥) » الآية وقال زهير :

ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا

وهذا كله يدل على أن الخلد ، يطلق على غير معنى التأبيد ، فإن هذا

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤١٤
(٢) اعراب القرآن ورقة ٨
(٣) آية ٨٢ من سورة طه .
(٤) آية ٢٤ من سورة الانبياء .
(٥) آية ٣ من سورة الهمزة .

يزول بزوال الدنيا . وكذلك العرب تقول : لأخلدن فلانا فى السجن والسجن ينقطع ويفنى . وكذلك المسجون ، ومثله قولهم فى الدعاء : خلد الله ملكه وأبد أيامه(١) .

ويوجد من (معانى القرآن) نسخة خطية بدار الكتب برقم ٣٨٥ تفسير .

التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل . لأبى العباس أحمد ابن عمار المهدوى المتوفى بعد سنة ٤٣٠ هـ .

لقد أفاد القرطبي من هذا التفسير وتأثر به . ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما ذكره فى قوله تعالى : « ويسفك الدماء » فقد قال « السفك : الصب سفكت الدم أسفكه سفكا صببته . وكذلك الدمع، حكاه ابن فارس والجوهرى . والسفاك الصفاح وهو القادر على الكلام قال المهدوى : ولا يستعمل السفك إلا فى الدم وقد يستعمل فى نشر الكلام . يقال سفك الكلام إذا نشره وواحد الدماء دم محذوف اللام وقيل : أصله دمى ، وقيل : دمى ولا يكون اسم على حرفين إلا وقد حذف منه . والمحذوف منه ياء وقد نطق به على الأصل قال الشاعر :

فلو أنا على حجر ذبحنا جرى الدميان بالخبر اليقين(٢)

وفى قوله تعالى « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم » نقل عن المهدوى وتعقبه فقال :

---

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص٣٣٥ آية ٩٣ من سورة النساء

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٧٥ آية ٣٠ من سورة البقرة وانظر التحصيل نسخة خطية بدار الكتب رقم ٧٨ تفسير ورقة ٣ .

الظن هنا فى قول الجمهور بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى : « إنى ظننت أنى ملاق حسابية» وقوله « فظنوا أنهم مواقعوها » قال دريد بن الصمة .

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج   سراتهم فى الفارسى المسرد [(١)]

وقال أبو دؤاد :

رب هم فــــرجته بغريم   وغيـوب كشفتها بظنون

وقد قيل أن الظن فى الآية يصح أن يكون على بابه ويضمر فى الكلام بذنوبهم . فكأنهم يتوقعون لقاءه مذنبين أى ولا أمل عندهم فى التوبة ، ذكره المهدوى والماوردى . ثم قال فى تضعيف هـــذا الرأى قال ابن عطيـة : وهذا تعسف .[(٢)]

وفى قوله تعالى « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا»[(٣)] يقول : قال السدى وغيره من المفسرين نزلت فى « الأخنس بن شريق » واسمه أبى. والأخنس لقب لقب به لأنه خنس يوم بدر بثلثمائة رجل من حلفائه من بنى زهرة عن قتال رسول الله ﷺ . وكان رجلا حلو القول والمنظر ، فجاء بعد ذلك إلى النبى ﷺ فأظهر الأسلام وقال : الله يعلم أنى صادق ، ثم هرب بعد ذلك فمر بزرع لقوم من المسلمين وبحمر ، فأحرق الزرع وعقر الحمر . قال المهدوى : وفيه نزلت « لا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم »، « ويل

---

(١) المدجج : الفارس الذى لبس سلاحه كأنه تغطى به ، والسراة جمع سرى وهم خيار القوم من فرسانهم ، والفارسى المسرد: يعنى الدروع الفارسية والسرد : المحبوك النسج المتداخل الحلق . ينذر أخاه وقومه أنهم سوف يلقون عدوا من ذوى البأس قد استكمل أداة قتـــاله .

(٢) تفسير القرطبى ح ١ ص ٣٧٥ وانظر التحصيل ورقة ١٠ .

(٣) آية ٢٠٤ من سورة البقرة .

لـكل همزة لمزة » ثم قال : قال ابن عطية : «ما ثبت قط أن الأخنس أسلم » .

وهذه عبارة المهدوى فى التحصيل، يقول المهدوى فى الآية السابقة: « ذكر السدى وغـيره من المفسرين أنها نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان حليفا لبنى زهرة وكان قد أتى بهم إلى بدر لقتال النبي ﷺ فأشار عليهم حين وصلوا الجحفة « موضع قرب مكة » بالرجوع وترك القتـال فأطـاعوه ، فخنس بهم من المشركين أى رجع فسمى الأخنس لذلك . وأتى بعد ذلك إلى النبي ﷺ وحلف أنه لم يأت إلا رغبة فى الإسلام ثم خرج من عنده فأحرق زرعا للمسلمين وعقر حمرا، فنزلت الآية وفيه نزل «ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم» و « ويل لـكل همزة لمزة » (١)

تفسير « الماوردى » وهو أبو الحسن على بن محمد المـاوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ :

ولقـد أفاد القرطبي من تفسير المـاوردى ، ونقـل عنه . ومن أمثلة ذلك ماذكره فى قوله تعـالى « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجـاهلين (٢) » فقد قال القرطبي فى المسألة الثالثة : « قال المـاوردى : وإنمـا أمروا — والله أعلم — بذبح البقرة دون غيرها ، لأنها من جنس ماعبدوه من العجل ليهـون عندهم ما كان يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علة فى ذبح البقرة وليس بعلة فى جواب السائل ، ولـكن المعنى فيه أن

---

(١) تفسير المهدوى نسخة خطية رقم ٧٩ غير مرقومة .
(٢) آية ٦٧ من سورة البقرة .

يحيا القتيل بقتل حي . فيكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها (١)

وفي قوله تعالى « ثم بعثنا كم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » يقول القرطبي : « قال الماوردي : واختلف في بقاء تكليف من أعيد بعد موته ومعاينة الاحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين ، أحدها : بقاء تكاليفهم لئلا يخلو عاقل من تعبد . الثاني : سقوط تكليفهم ليكون « التكليف » (٢) معتبرا بالاستدلال دون الاضطرار . ثم قال القرطبي ، قلت : والقول الأول أصح فإن بني إسرائيل قد رأوا الجبل في الهواء ساقطا عليهم ، والنار محيطا بهم وذلك مما اضطرهم إلى الإيمان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ومثلهم قوم يونس ومحال أن يكونوا غير مكلفين » (٣)

ومن الأمثلة التي توضح تأثر القرطبي بالماوردي . ما جاء في قوله تعالى : « لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك » فقد قال القرطبي : الفارض المسنة . وقد فرضت تفرض فروضا أي أسنت ويقال للشيء القديم : فارض . قال الراجز :

شيب أصداغي فرأسي أبيض   محامل فيها رجال فرض

يعني هرمى . وقال آخر :

لعمرك قد أعطيت جارك فارضا   تساق إليه ما تقوم على رجل

... وقيل الفارض التي قد ولدت بطونا كثيرة فيتسع جوفها

---

(١) تفسير القرطبي ح ١ ص ٤٤٥ وانظر تفسير الماوردي نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٩٦٩٣ ، ورقة ٩

(٢) زيادة في تفسير الماوردي رقة ٥٥

(٣) تفسير القرطبي ح ١ ص ٤٠٥ آية ٥٦ من سورة البقرة .

كذلك لأن معنى الفارض فى اللغة الواسع، قال بعض المتأخرين : والبكر الصغيرة التى لم تحمل . والبكر الأول من الأولاد . والبكر أيضاً فى إناث البهائم وبنى آدم ، مالم يفتحله الفحل ويفتحها الفتى من الإبل ، والعوان النصف التى قد ولدت بطنا أو بطنين وهى أقوى ما تكون من البكر وأحسنه بخلاف الخيل قال الشاعر يصف فرسا :

كميت بهيم اللون ليس بفارض ولا بعوان ذات لون مخصف

يعنى أن الفرس أسود ليس كبيراً ولا بعوان ولد بطنا أو بطنين ، وإنما هو صغير فالصغير فى الخيل هو القوى .

فرس أخصف إذا ارتفع البلق من بطنه إلى جنبه .. ..(١)

وهذه عبارة الماوردى ، يقول الماوردى : فى الفارض تأويلان ، أحدهما الكبيرة الهرمة وهو قول الجمهور قال الراجز :

شيب أصداغى فرأسى أبيض محامل فيها رجال فرض

يعنى هرم قال الشاعر

لعمرك قد أعطيت جارك فارضا تساق إليه ما تقام على رجل

يعنى بقوله « فارضا » أى قديما . الثانى : أن الفارض التى ولدت بطونا كثيرة فيتسع جوفها لذلك لان معنى الفارض فى اللغة الواسع وهذا قول بعض المتأخرين .. .. .. والبكر الصغيرة التى لم تحمل والبكر من إناث البهائم وبنى آدم ، مالم يفتحله الفحل وهى مكسورة الباء فأما البكر بفتح الباء فهو الفتى من الأبل . والعوان النصف التى قد ولدت بطنا أو بطنين .. بين ذلك . يعنى بين الصغيرة والكبيرة وهى أقوى ما تكون من البقر وأحسنه .(٢)

---

(١) تفسير القرطبي ح ١ ص ٤٤٩

(٢) تفسير الماوردى ورقة ٩ .

وفى قوله تعالى « وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » يقول القرطبي فى المسألة السادسة :واختلف الناس فى تخصيص الركوع بالذكر فقال قوم : جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة ثم علق فقال : قلت وهذا ليس مختصا بالركوع وحده فقد جعل الشرع القراءة عبارة عن الصلاة والسجود عبارة عن الركعة بكاملها فقال « وقرآن الفجر » أى صلاة الفجر ،وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة »وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل إنما خص الركوع بالذكر ، لأن بنى إسرائيل لم يكن فى صلاتهم ركوع [1] . ويقول الماوردى : وفى قوله «واركعوا مع الراكعين » قولان : أحدهما أنه أراد جملة الصلاة . الثانى أنه أراد الركوع الذى فى الصلاة لأنه لم يكن فى صلاة أهل الكتاب ركوع فأمرهم بما لا يفعلونه فى صلواتهم » [2] .

فى قوله تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » يقول القرطبي والسنة النعاس فى قول الجميع . والنعاس ما كان فى العين فإذا صار فى القلب صار نوما . قال عدى بن الرقاع يصف امرأة بفتور النظر :

وسنان أقصده النعاس فرنقت ... فى عينه سنة وليس بنائم [3]

وفرق « المفضل » بينهما فقال : السنة فى الرأس . والنعاس فى العين ، والنوم فى القلب . وقال ابن زيد : الوسنان الذى يقوم من النوم وهو لا يعقل

---

(١) تفسير القرطبي . ج ١ ص ٣٤٥

(٢) تفسير الماوردى ورقة ٢ .

(٣) رنق النوم فى عينيه خالطها والوسنان النائم الذى ليس بمستغرق فى النوم ومعنى أقصده أصابه ولقد فرق الشاعر هنا بين السنة والنوم .

حتى ربما جرد السيف على أهله، قال ابن عطيه : وهذا الذى قاله ابن زيد فيه نظر، وليس ذلك بمفهوم من كلام العرب وقال السدى السنة ريح النوم الذى يأخذ فى الوجه فينعس الإنسان، وعلق القرطبى فقال : « قلت وبالجملة فهو فتور يعترى الانسان ولا يفقد معه عقله » (١).

وهذه عبارة الماوردى. يقول الماوردى « والسنة النعاس فى قول الجميع والنعاس ماكان فى العين فاذا صار فى القلب صار نوما، وفرق المفضل فقال : السنة فى الرأس والنعاس فى العين والنوم فى القلب وماعليه الجمهور من التسوية بين السنة والنعاس أشبه قال عدى بن الرقاع.

وسنان أقصده النعاس فرنقت فى عينه سنة وليس بنائم (٢)

تفسير النقاش : ويسمى شفاء الصدور لأبى بكر محمد بن الحسن بن زياد الموصلى المعروف بالنقاش المتوفى سنة ٣٥١ ه.

لقد أفاد القرطبى من هذا التفسير وتعقب صاحبه كثيراً. سواء كان ذلك بالنقل من ابن عطيه أو برأيه واجتهاده. ففى قوله تعالى « أهدنا الصراط المستقيم » يقول القرطبى أصل الصراط فى كلام العرب الطريق.

قال عامر بن الطفيل :

شححنا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذل من الصراط (٣)

---

(١) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٧٢

(٢) تفسير الماوردى

(٣) يقول الاستاذ محمود شاكر فى تفسير الطبرى : نسبه القرطبى إلى عامر بن الطفيل وليس فى ديوانه.

وقال جـرير :

أمير المؤمنين على صراط　　　　إذا اعوج الموارد مستقيم (١)

وقال آخر :

فصد عن نهج الصراط الواضح

ثم قال: وحكى النقاش الصراط ، الطريق بلغة الروم ، قال ابن عطية : وهذا ضعيف جداً .(٢)

وفى قوله تعالى «: وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة» يقول فى المسألة الخامسة قال النقاش فى هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم ، لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل . فلما نص على الليالى اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين يوما بلياليها . ثم قوى القرطبى ذلك بما ذكره عن ابن عطيه فقال : قال ابن عطية : سمعت أبى يقول سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهرى رحمه الله يعظ الناس فى الخلوة بالله والدنو منه فى الصلاة ونحوه وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ويقول أين حال موسى فى القرب من الله ووصال ثمانين من الدهر من قوله حين سار إلى الخضر لفتاه فى بعض يوم « آتنا غداءنا » . ثم عقب القرطبى فقال : « قلت وبهذا استدل علماء الصوفية على الوصال وأن أفضله أربعون يوما » (٣) .

---

(١) البيت لجرير يمدح هشام بن عبد الملك . والموارد جمع موردة ، وهى الطرق إلى الماء ، يريد الطرق التى تسلكها الناس إلى أغراضهم وحاجاتهم كما يسلكون الموارد إلى الماء .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٧

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٩٦

وفى قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا(١) » بين القرطبي أن بعض العلماء ذهب إلى أن سبب نزول الآية أن رجلا من الأنصار أطعم فى يوم واحد مسكينا ويتيما وأسيراً . وأن بعضهم ذهب إلى أن الآية نزلت فى على وفاطمة رضى الله عنهما وجارية لهما اسمها فضة . وذكر القرطبي غير هذا من الآراء . ثم عقب بقوله : قلت والصحيح أنها نزلت فى جميع الأبرار ومن فعل فعلا حسنا . فهى عامة .

ثم انتقد القرطبى مغالاة النقاش وغيره من المفسرين « فى قصة على وفاطمة » والقصة طويلة ومشهورة ولا داعى لعرضها . ولنكتفى بذكر موقف القرطبى منها ونقده لها .

بين القرطبى أن الحديث الذى روى فى هذه القصة لا يصح ولا يثبت . ونقل عن بعض العلماء أنه قال فى نقده « هذا الحديث مزوق مزيف قد تطرف فيه صاحبه حتى تشبه على المستمعين . فالجاهل بهذا الحديث يعض شفتيه تلهفا ألا يكون بهذه الصفة ، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم ، وقد قال الله تعالى فى تنزيله « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو (٢) ... » ، وهو الفضل الذى يفضل عن نفسك وعيالك ، وجرت الأخبار عن رسول الله متواترة « بأن خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وابدأ بنفسك ثم بمن تعول (٣) ... » ، وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم وقال رسول الله ﷺ « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت (٤) » أفيحسب أن عليا جهل هذا

(١) آية ٩ من سورة الانسان
(٢) آية ٢١٩ من سورة البقرة .
(٣) الحديث أخرجه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب الزكاة ح ٧ ص ١٢٥
(٤) الحديث أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمر بلفظ كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته .

الأمر حتى أجهد صبيانا صغاراً من أبناء خمس أوست، على جوع ثلاثة أيام ولياليهن، حتى تضوروا من الجوع، وغارت العيون منهم لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم مابهم من الجهد؟ هب أنه آثر على نفسه هذا السائل، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك؟. وهب أن أهله سمحت بذلك لعلى. فهل جازله أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن؟ مايروج مثل هذا إلا على حمق جهال. وأبى الله لقلوب متنبهة أن تظن بعلى مثل هذا. وليت شعرى، من حفظ هذه الآبيات — يقصد الأبيات الشعرية فى القصة — كل ليلة عن على وفاطمة وإجابة كل واحد منهما صاحبه حتى أداه إلى هؤلاء الرواة فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى. بلغنى أن قوما يخلدون فى السجون فيبقون بلا حيلة فيكتبون أحاديث فى السمر وأشباهه، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة فإذا صارت إلى الجهابذة وأغرموابها وزيفوها. ومامن شىء إلا له آفة ومكيدة، وآفة الدين وكيده أكثر. »(١)

أحكام القرآن « لكيا الطبرى » وهو أبو الحسن على بن محمد بن على الطبرى المعروف « بالكيا » المتوفى سنة ٥٠٤ هـ »

لقد أفاد القرطبى من أحكام القرآن لسكيا الطبرى، ومن أمثلة ذلك: ماذكره فى قوله تعالى« إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » (٢) فقد قال فى المسألة الثانية والثلاثين:

(١) تفسير القرطبى ج ١٩ ص ١٣٤ وانظر القصةص١٣٠ ويوجد من تفسير النقاش مجلدان خطيان بدار الكتب تحت رقم ١٤٠، ٦٣٤ تفسير.

(٢) « الكيا » يقول ابن خلكان: ولاأعلم لأى معنى قيل له: الكيا، وهو بكسر الكاف وفتح الياء المثناة من تحتها وبعدها ألف. والكيا فى اللغة العجمية هو الكبير القدر المتقدم بين الناس. انظر وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٥١.

« واختلف العلماء إذا اقترن بضرورته معصية بقطع طريق و إخافه سبيل فخظرها عليه مالك والشافعى فى أحد قوليه ، لأجل معصيته لأن الله سبحانه أباح ذلك عونا والعاصى لايحل أن يعان . فإن أراد الأكل فليتب وليأكل . وأباحها له أبو حنيفة والشافعى فى القول الآخر له . وسويا فى استباحته بين طاعته و معصيته، قال ابن العربى : وعجبا ممن يبيح له ذلك مع التمادى على المعصية وما أظن أحدا يقوله فإن قاله فهو مخطىء قطعاً . ورد القرطبى على ابن العربى وانتصر بما قاله أبو الحسن الطبرى ، فقال : قلت : الصحيح خلاف هذا . فإن إتلاف المرء نفسه فى سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه . قال تعالى : «ولا تقتلوا أنفسكم» وهذا عام ولعله يتوب فى ثانى حال فتمحو التوبة عنه ماكان وقد قال مسروق . من اضطر إلى أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل حتى مات دخل النار إلا أن يعفو الله عنه ، قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكيا وليس أكل الميتة عند الضرورة رخصة . بل هو عزيمة واجبة ، ولو امتنع من أكل الميتة كان عاصيا ، وليس تناول الميتة من رخص السفر ، أو متعلقاً بالسفر بل هو من نتائج الضرورة ، سفراً كان أو حضرا ، وهو كالإفطار للعاصى المقيم إذا كان مريضاً وكالتيمم للعاصى المسافر عند عدم الماء . قال وهو الصحيح عندنا » (١)

وفى قوله تعالى : « ثم أتموا الصيام إلى الليل » يقول فى المسألة الثانية والعشرين : « فإن أفطر وهو شاك فى غروبها — أى الشمس — كفر مع القضاء، قاله مالك ، إلا أن يكون الأغلب عليه غروبها، ومن شك عنده فى طلوع الفجر لزمه الكف من الأكل مع شكه فعليه القضاء كالناسي لم يختلف

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٢ وانظر أحكام القرآن نسخة خطية بمكتبة الازهر رقم ٩٨ ورقة ٢٢ ،

فى ذلك قوله ، ومن أهل العلم بالمدينة وغيرها من لايرى عليه شيئاً حتى يتبين له طلوع الفجر ، وبه قال ابن المنذر ، وقال الـكيا الطبرى : وقد ظن قوم أنه إذا أبيح له الفطر إلى أول الفجر فاذا أكل على ظن أن الفجر لم يطلع فقد أكل بإذن الشرع فى وقت جواز الأكل فلا قضاء عليه ، كذلك قال مجاهد وجابر ابن زيد ، ولاخلاف فى وجوب القضاء إذا غم عليه الهلال فى أول ليلة من رمضان فأكل ثم بان أنه من رمضان ، والذى نحن فيه مثله ، وكذلك الأسير فى دار الحرب إذا أكل ظنا أنه من شعبان ثم بان خلافه (١).

ولقد لاحظت أن القرطبى كان ينقل من « الـكيا الطبرى » ولا يشير إلى ذلك ، فقد قال فى قوله تعالى « وقالوا لن تمسنا النار إلى أياما معدودة » فى هذه الآية ، رد على أبى حنيفة وأصحابه حيث استدلوا بقوله عليه السلام » «دعى الصلاة أيام أقرائك » (٢) فى أن مدة الحيض مايسمى أيام الحيض وأقلها ثلاثة وأكثرها عشرة ، قالوا لأن مادون الثلاثة يسمى يوماً ويومين ، ومازاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوما ، ولايقال فيه أيام ، وإنما يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة ، قال الله تعالى ، « فصيام ثلاثة أيام فى الحج » تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » فيقال لهم ، فقد قال الله تعالى فى الصوم « أياما معدودات » يعنى جميع الشهر « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات » يعنى أربعين يوماً وأيضاً فاذا أضيفت الأيام إلى عارض لم يرد به تحديد العدد بل يقال أيام مشيك وسفرك وإقامتك ، وإن كان ثلاثين وعشرين وماشئت من العدد ، ولعله أراد ماكان معتادا لها والعادة ست فخرج الـكلام عليه والله أعلم » (٣) ،

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص٣٢٨ وانظر أحكام القرآن ورقة ٤٤

(٢) أخرجه الترمذى باختلاف يسير عن عدى بن ثابت عن أبيه عن جده ، فى أبواب الاستحاضة . انظر صحيح الترمذى بشرح ابن العربى ج ١ ص ٢٠٠ .

(٣) تفسير القرطبى ج ٢ ص ١٠ وما بعدها .

وهذا النص بعينه مذكور فى أحكام القرآن « لـكيا الطبرى[١] » .

وفى قوله تعالى « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى[٢] » .

يقول القرطبي فى المسألة الثالثة : « قوله تعالى » من البينات والهدى « يعم المنصوص عليه والمستنبط لشمول اسم الهدى للجميع ، وفيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله وقال « الا الذين تابو وأصلحوا[٣] وبينوا » فحكم بوقوع البيان بخبرهم . فان قيل : إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منهيا عن الـكتمان ، ومأمورا بالبيان ليكثر المخبرون ، ويتواتر بهم الخبر ، قلنا : هذا غلط لأنهم لم ينهوا عن الـكتمان إلا وهم ممن يجوز عليهم التواطؤ عليه ، ومن جاز منهم التواطؤ على الـكتمان فلا يكون خبرهم موجبا للعلم والله أعلم .[٤] وهذا النص أيضاً مذكور فى أحكام القرآن . وليس فيه تصرف مطلقا اللهم إلا أن صاحب أحكام القرآن قال : بدل « يعم » بالمضارع « وعم ذلك المنصوص عليه والمستنبط » بصيغة الماضى[٥] » .

أحكام القرآن القاضى « أبى بكر بن العربى » المتوفى سنة ٥٤٣ هـ .

لقد أفاد القرطبي من أحكام القرآن لابن العربى . وناقشه ورد هجومه على الفقهاء والعلماء .

ففى قوله تعالى « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار » الآيــة « يقول

---

(١) انظر أحكام القرآن ورقه ٦ .

(٢) آية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٣) يعنى أن الله أمر فى هذه الاية كل عالم ببيان العلم وتوعد من يكتمه . واشترط فى قبول توبته البيان .

(٤) تفسير القرطبى ج ٢ ص ١٨٥ وما بعدها .

(٥) أنظر أحكام القرآن ورقه ١٣ .

القرطبي : « قال ابن العربي : قال لى كثير من أشياخي . إن الكافر المعين لايجوز لعنه . لأن حاله عند الوفاة لا تعلم وقد شرط الله تعالى في هذه الآية . في إطلاق اللعنة ، الموافاة على الكفر وأما ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لعن أقواما بأعيانهم من الكفار فإنما كان ذلك لعلمه بمآلهم . قال ابن العربي : والصحيح عندي جواز لعنه لظاهر حاله ، ولجواز قتله وقتاله. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وقد علم أنى لست بشاعر فالعنه واهجه عدد ما هجانى « فلعنه . وإن كان الإيمان والدين والاسلام مآله وانتصف بقوله « عدد ما هجانى » ولم يزد ليعلم العدل والانصاف .

وأضاف الهجو إلى الله تعالى في باب الجزاء ، دون الابتداء بالوصف بذلك . كما يضاف إليه المكر والاستهزاء والخديعة سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وعقب القرطبي فقال : قلت أما لعن الكفار جملة من غير تعيين فلا خلاف في ذلك . لما رواه مالك عن داود بن الحصين . أنه سمع الأعرج يقول ما أدركت الناس الا وهم يلعنون الكفرة في رمضان . قال علماؤنا وسواء كانت لهم ذمة أم لم تكن ، وليس ذلك بواجب ولكنه مباح لمن فعله لجحدهم الحق وعداوتهم للدين وأهله . وكذلك كل من جاهر بالمعاصى كشراب الخمر وأكلة الربا ومن تشبه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء إلى غير ذلك مما ورد في الأحاديث لعنه[١] .. » ومع أن القرطبي نص على نقله عن ابن العربي الا أنه تصرف بعض التصرف في هذا النص[٢].

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٥٠ طبع عيسى الحلبي .

وفى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى »(١) يقو فى المسألة العاشرة : « قال ابن العربى : ولقد بلغت الجهالة بأقوام إلى أن قالوا : » يقتل الحر بعبد نفسه . ورووا فى ذلك حديثا عن الحسن عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من قتل عبده قتلناه » وهو حديث ضعيف . ودليلنا قوله تعالى « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل » والمولى هاهنا السيد . فكيف يجعل له سلطان على نفسه . وعقب القرطبى فقال : قلت هذا الحديث الذى ضعفه ابن العربى وهو صحيح . أخرجه النسائى وأبو داود وتتميم متنه « ومن جدعه جدعناه ومن أخصاه أخصيناه » وقال البخارى عن على بن المدينى . سماع الحسن من سمرة صحيح وأخذ بهذا الحديث وقال البخارى : وأنا أذهب إليه . فلو لم يصح الحديث لما ذهب إليه هذان الإمامان وحسبك بهما . ويقتل الحر بعبد نفسه(٢) » .

وفى قوله تعالى « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » يقول فى المسألة العشرين ..

« عدة الوفاة تلزم الحرة والأمة ، والصغيرة والكبيرة ، والتى لم تبلغ المحيض ، والتى حاضت ، واليائسة من الحيض ، والكتابية . دخل بها أو لم يدخل بها . إذا كانت غير حامل . وعدة جميعهن إلا الأمة أربعة أشهر وعشرة أيام ، لعموم الآية فى قوله تعالى : « يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » وعدة الأمة المتوفى عنها زوجها شهران وخمس ليال . قال ابن

---

(١) آية ١٧٨ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢٤٨ وانظر أحكام القرآن لابن العربى ج ١ ص٦٣ ، وحديث من قتل عبده قتلناه ، أخرجه أبو داود الطيالسى عن سمرة . انظر منحة المعبود ج ١ ص٢٩٣ .

العربي : نصف عدة الحرة إجماعا . الا ما يحكى عن الأصم ، فإنه سوى فيها بين الحرة والأمة . وقد سبقه الإجماع . لكن لصممه لم يسمع قال الباجى «ولا نعلم فى ذلك خلافا إلا ما يروى عن ابن سيرين . وليس الثابت عنه . أنه قال عدتها عدة الحرة » وناقش القرطبى ابن العربى ورد ما ذهب إليه فقال قلت : قوله الأصم صحيح من حيث النظر فإن الآيات الواردة فى عدة الوفاة والطلاق ، بالأشهر والأقراء ، عامة فى حق الأمة والحرة . فعدة الحرة والأمة سواء على هذا النظر . فإن العمومات لافصل فيها بين الحرة والأمة وكما استوت الأمة والحرة فى النكاح فكذلك تستوى معها فى العدة والله أعلم[1] »

ولقد لاحظت أن القرطبى كان ينقل عن ابن العربى ولا يشير إليه :

ففى قوله تعالى « فمن خاف من موص جنفا أو إثما » الآية : يقول القرطبى : « الخطاب بقوله » فمن خاف « لجميع المسلمين . قيل لهم أن خفتم من موص ميلا فى الوصية . وعدولا عن الحق . ووقوعا فى إثم . ولم يخرجها بالمعروف . وذلك بأن يوصى بالمال إلى زوج ابنته أو أوصى لبعيد وترك القريب . فبادروا إلى السعى فى الإصلاح بينهم فاذا وقع الصلح سقط الأثم عن المصلح والإصلاح فرض على الكفاية . فإذا قام أحدهم به ، سقط عن الباقين . وأن لم يفعلوا أثم الكل . ثم قال : فى هذه الآية : دليل على الحكم بالظن . لأنه إذا ظن قصد الفساد وجب السعى فى الصلاح وإذا تحقق الفساد لم يكن صلحا إنما يكون حكما بالدفع وإبطالا للفساد وحسما له [2] » .

---

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٨٣ آية ٢٣٤ من سورة البقرة وانظر أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٢١٠ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٧٠ وما بعدها آية ١٨٢ من سورة البقرة وانظر أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٧٣ .

ولقد تصرف القرطبى فى هذا النص قليلا ، فلعله لهذا التصرف ، لم يشر إلى ابن العربى وإن كنت لا أعتبر بعض العبارات التى زادها تصرفا يجيز له ذلك .

وفى قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا » يقول القرطبى فى المسألة الثانية : « فى هذه الآية دليلان أحدهما : على تجنب الألفاظ المحتملة التى فيها التعريض للتنقيص والغض ، ويخرج من هذا فهم[1] القذف بالتعريض ، وذلك يوجب الحد عندنا خلافاً لأبى حنيفة والشافعى وأصحابهما حين قالوا : التعريض محتمل للقذف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة »[2] .

وتكلم القرطبى على سد الذرائع فى الدليل الثانى وهذه عبارة ابن العربى يقول ابن العربى ، بعد أن بين أن اليهود كانوا يستعملون هذا اللفظ ويقصدون به سب الرسول صلى الله عليه وسلم ، « وهذا دليل على تجنب الألفاظ المحتملة ، التى فيها التعريض للتنقيص والغض ، ويخرج منه فهم التعريض بالقذف وغيره »

وقال علماؤنا : إنه ملزم الحد خلافا للشافعى وأبى حنيفة ، حيث قالا : انه قول محتمل للقذف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة .[3]

تفسير « مكى بن أبى طالب »

لأبى محمد مكى بن أبى طالب القيسى المتوفى سنة ٤٣٧ هـ تفسير يسمى : « الهداية إلى بلوغ النهاية فى علم معانى القرآن وتفسيره وأنواع علومه »:

(١) على الإنسان أن يبتعد عن الألفاظ التى تحتمل التعريض بالسب أما الألفاظ التى يفهم منها التعريض بالقذف فليست داخلة هنا...وقيل انها داخلة ولا حد معها

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٥٧ آية ١٠٤ من سورة البقرة .

(٣) أحكام القرآن لابن العربى ج ١ ص ٣٢

أشار إليه ابن خير في فهرسته فقال عنه : « وهو كتاب كبير يقع في سبعين جزءاً(١) ولقد أفاد القرطبي من هذا الكتاب ونقل عنه »

ففي قوله تعالى : « واذكروا الله في أيام معدودات » يقول القرطبي في المسألة الأولى « ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية : هي أيام منى . وهي أيام التشريق . وأن هذه الثلاثة أسماء واقعة عليها، وهي أيام رمي الجمار وهي واقعة على الثلاثة الأيام التي يتعجل الحاج منها في يومين بعد يوم النحر فقف على ذلك . وقال الثعلبي : وقال إبراهيم : الايام المعدودات أيام عشر من ذي الحجة والمعلومات أيام النحر . ثم قال القرطبي : وكذا حكى مكي والمهدي أن الايام المعدودات هي أيام العشر . ولا يصح لما ذكرناه من الاجماع على ما نقله ابو عمر بن عبد البر وغيره(٢) » .

أ مشكل إعراب القرآن :

كذلك أفاد القرطبي من كتاب « مشكل إعراب القرآن » لمكي ابن أبي طالب . ولقد أشار القرطبي إليه ، وناقش صاحبه كما ناقشه في المثال السابق . ففي قوله تعالى « مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله » الآية يقول القرطبي : « ابتغاء » مفعول من أجله « وتثبيتا من أنفسهم » عطف عليه ، وقال مكي في المشكل : كلاهما مفعول من أجله . قال ابن عطية وهو مردود

(١) انظر فهرسة ابن خير ص ٤٤ طبع سرقسطه . ولقد قال الدكتور عبد الوهاب فايد عن هذا الكتاب: وهذا الكتاب مفقود الآن فيما أعلم . انظر منهج ابن عطية ص ٨٧ . ونقل المقري عن ابي سعيد الذي ذيل رسالة ابن حزم أنه قال « من أجل ما صنف في التفسير : كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية » ثم بين أنه يقع في عشر مجلدات انظر رسالة ابن حزم وتذييلها في نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٦ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١ آية ٢٠٢ من سورة البقرة .

ولا يصح فى « تثبيتا » أنه مفعول من أجله . لان الإنفــاق ليس من أجل التثبيت . « وابتغاء » نصب على المصدر فى موضع الحال . وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله لـكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذى هو « تثبيتاً » عليه(١) .

١٠ – جامع البيان فى تفسير القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ :

أفاد القرطبي من هذا الكتاب ونقل عنه وتأثر به والأمثلة على ذلك كثيرة ونـكتفى هنا ببعض منها .

فى قوله تعالى « إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الـكتاب . ويشترون به ثمنا قليلا » الآية . يقول القرطبي : قوله تعالى « ولا يكلمهم الله » عبارة عن الغضب عليهم وإزالة الرضا عنهم . يقال : فلان لا يـكلم فلاناً إذا غضب عليه . وقال الطبرى : المعنى ولا يكلمهم بما يحبونه . وفى التنزيل « اخسأوا فيها ولا تـكلمون » وقيل : المعنى ولا يرسل إليهم الملائـكة بالتحية » (٢) .

وفى قوله تعالى « ... واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار » يقول القرطبي : أمره بألا يترك الذكر فى نفسه مع اعتقال لسانه ... وقال محمد ابن كـعب القرطبي : لو رخص لأحد فى ترك الذكر لرخص لزكريا يقول الله عز وجل « ألا تـكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً » ولرخص

---

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣١٤ آية ٢٦٥ من سورة البقرة ، ويوجد من هـذا التفسير أعنى (مشـكل إعراب القرآن) نسخة خطية بدار الـكتب تحت رقم ٢٣٢ تفسير ونسخة أخرى خطية بمكتبة الازهر تحت رقم ٢٧٧ علوم قرآن .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٥ آية ١٧٤ من سورة البقرة.

للرجل يكون فى الحرب . يقول الله عز وجل « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً » وذكره الطبرى(١) .

ولقد أفاد القرطبي من الطبرى أكثر من التفسير المأثور . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى « أو كصيب من السماء » فقد قال القرطبي : قال الطبرى « أو » بمعنى الواو وقاله الفراء وأنشد :

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر لنفسى تقاها أوعليها فجورها

وقال آخر :

نال الخلافة أوكانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

أى وكانت . وقيل « أو » للتخيير أى مثلوهم بهذا أو بهـــذا . لا على الاقتصار على أحد الأمرين . والمعنى : أو كأصحاب صيب . والصيب المطر . واشتقاقه من صاب يصوب إذا نزل، قال علقمة :

فلا تعدلى بينى وبين مغمر (٢) سقتك روايا المزن حيث تصوب(٣)

مصادر القرطبي من كتب القراءات:

لقد أفاد القرطبي من كثير من كتب القراءات . ومنها :

---

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٨٢ آية ٤١ من آل عمران.

(٢) المغمر : الجاهل الذى لم يجرب الامور . كأن الجهل غمره وطغى عليه . وفى الشطر الثانى يدعو الشاعر لصاحبته بالخصب والنعمة . والروايا جمع راوية وهى الدابة التى تحمل مزاد الماء ، والمزن : السحاب الابيض ، شبه بالروايا حملان الماء .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢١٥ . وانظر تفسير الطبرى ج ١ ص ٣٣٤ طبع دار المعارف.

١٨ - « الحجة فى علل القراءات السبع » لأبى على الحسن بن أحمد الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ .

وهذا الكتاب لا يعتبر كتاب قراءات فقط . وإنما يعتبر كتاب تفسير فلقد كان منهج « أبى على » أنه لا يعمد إلى اللفظ القرآنى الذى وقع فيه الاختلاف بين القراء فيتحدث عنه . محتجا له ، بل يتناول الآية التى وقع فيها ذلك . فيتحدث عن تفسيرها ويتقصى ما تحتمله كلماتها من معان ثم يذكر ما يتصل بذلك من مسائل النحو . فيذكر آراء النحاة . من أمثال « الخليل وسيبويه والأخفش والمازنى » وغيرهم ثم يعود إلى إعراب الآية . وبعد هذا يعود فيحتج للقراءات .

ومن هنا أفاد منه المفسرون فى التفسير، والقراءات ، والنحو والإعراب. يقول بعض الباحثين : ومن أجل ما تعرض أبو على فى كتابه الحجة إلى تفسير كتاب الله ، ومن أجل تبحره فى المواد التى بها يكون التفسير . اعتمد كثير من المفسرين عليه . وأوردوا أقواله معتدين بها . وقد رأيت هذا مثلا فى البحر المحيط لأبى حيان » فى مواضع متقاربات. كما اعتمد عليه « ابن القيم » فى كتابه « البيان فى أقسام القرآن » وغيرها[1] .

ولقد أفاد القرطبي من كتاب الحجة ، فوق القراءات، فى مجال التفسير والإعراب ، والشواهد وغير ذلك . ففى قوله تعالى « قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة »[2] يقول القرطبى :

---

(١) أبو على الفارسى . للدكتور عبد الفتاح اسماعيل ص ١٧٨ ، ١٩٩ بتصرف.

(٢) آية ٢٦ من سورة المائدة.

« ومعنى محرمة أى أنهم ممنوعون من دخولها كما يقال حرم الله وجهك على النار . وحرمت عليك دخول الدار . فهو تحريم شرع عند أكثر أهل التفسير كما قال الشاعر :

جالت لتصرعنى فقلت لها اقصرى   أنى امرؤ صرعى عليك حرام

أى أنا فارس فلا يمكنك صرعى . وقال « أبو على » : يجوز أن يكون تحريم تعبد . ويقال كيف يجوز على جماعة كثيرة من العقلاء أن يسيروا فى فراسخ يسيرة فلا يهتدوا للخروج منها . فالجواب — قال أبو على : قد يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التى هم عليها إذا ناموا . فيردهم إلى المكان الذى ابتدءوا منه ، وقد يكون بغير ذلك من الأشياء ، والأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارجة عن العادة »[١] .

وقوله تعالى « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً »[٢] يقول . «والذين أى والرجال الذين يموتون منكم » ويذرون أزواجا ، أى يتركون أزواجا أى ولهم زوجات فالزوجات يتربصن . قال معناه الزجاج واختاره النحاس . وحذف المبتدأ فى الكلام كثير كقوله تعالى « قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار » أى هو النار . وقال أبو على الفارسى : تقديره والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بعدهم . وهو كقولك . السمن منوان بدرهم . أى منوان منه بدرهم . وقيل : التقدير وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن. فجاءت العبارة فى غاية الإيجاز »[٣] .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٦ ص١٣٠

(٢) آية ٢٣٤ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبى ج ٢ ص١٧٤

فالمبتدأ محذوف فى هذا التقدير أيضاً ، كما فى قوله تعالى « قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار » .

فى هذا النص أفاد القرطبى من أبى على الفارسى وجها إعرابياً ، وأنه يصح فى تقدير الكلام أن يكون المتعلق هو المحذوف .

وكذلك ما ذكره فى قوله « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر » (١) فقد قال . «وجواب»حتى محذوف أى حتى إذا فشلتم امتحنتم ومثل هذا جائز كقوله : « فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء » فافعل وقال الفراء :وجواب «حتى» «وتنازعتم» والواو مقحمة زائدة كقوله « فلما أسلما وتله للجبين وناديناه » أى ناديناه ، وقال امرؤ القيس :

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى ، أى انتحى .

وقال أبو على : يجوز أن يكون الجواب صرفكم عنهم وثم زائدة . والتقدير حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم صرفكم عنهم ، وقد أنشد بعض النحويين فى زيادتها قول الشاعر :

أرانى إذا ما بت بت على هوى فثم إذا أصبحت أصبحت غاديا

وجوز الأخفش أن تكون زائدة كما فى قوله تعالى « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا » وقيل « حتى » بمعنى « إلى » وحينئذ لا جواب له أى صدقكم الله وعده إلى أن فشلتم . أى كان ذلك الوعد شرط الثبات » (٢) .

ومن إفادة « القرطبى » من « أبى على » فى مجال القراءات ما جاء فى قوله

---

(١) آية ١٥٢ من سورة آل عمران .

(٢) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٢٣٦ .

تعالى « مالك يوم الدين » فقد نقل « القرطبي » عن « أبي على الفارسي » ترجيحه لقراءة « مالك » ورده لحجة من رجح قراءة « ملك » وقال أبو على: حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من اختار القراءة بملك أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء . بقوله : « رب العالمين » فلا فائدة في قراءة من قرأ « مالك » لأنها تكرار . قال أبو على ولا حجة في هذا لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة ، تقدم العام ثم ذكر الخاص كقوله « هو الله الخالق البارىء المصور » فالخالق يعم ، وذكر المصور لما فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة . وكما قال تعالى « وبالآخرة هم يوقنون » بعد قوله « الذين يؤمنون بالغيب » والغيب يعم الآخرة ، وغيرها ولكن ذكرها لعظمها والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والرد على الكفرة الجاحدين لها . وكما قال « الرحمن الرحيم » فذكر الرحمن الذى هو عام ، وذكر الرحيم بعده ، لتخصص المؤمنين به في قوله « وكان بالمؤمنين رحيما »(١).

وإذا كان « أبو على الفارسي » . يتوسع في توجيه القراءات ويستطرد في كتابه « الحجة » فان القرطبي مع أنه قد نص على نقله منه فإنه كان يتصرف في نقله بالحذف والاختصار، وكان ينقل فحوى توجيهه ومعناه غالباً . والقرطبي حق في ذلك، فشواهد « الحجة » وأدلة « أبي على » كثيرة واستطراده طويل مل وتستطيع أن تقارن بين هذا النص في الكتابين .

وفي قوله تعالى : « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » يقول القرطبي : قرأ عمر بن الخطاب وأبي بن كعب « غير المغضوب عليهم وغير الضالين »

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٠ وانظر النص في كتاب الحجة ، تحقيق على النجدى ناصف وآخرون ج ١ ص ١٧ وما بعدها ،

وروى عنهما فى الراء . والنصب والخفض فى الحرفين، فالخفض على البدل من « الذين » أو من الهاء والميم فى «عليهم» أوصفة « الذين » . « والذين» معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات، ولا النكرات بالمعارف . إلا أن « الذين » ليس بمقصود قصدهم ، فهو عام . فالكلام بمنزلة قولك : إنى لأمر بمثلك فأكرمه . أو لأن «غير» تعرفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما كما تقوله : الحى غير الميت والساكن غير المتحرك ، والقائم غير القاعد . قولان الأول للفارسى والثانى . للزمخشرى . والنصب فى الراء على وجهين ، على الحال من « الذين » ، أو من الهاء والميم فى « عليهم » كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم . أو على الاستثناء كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعنى وحكى عن الخليل »(١) .

كتاب : « المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لأبى الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ» .

لقد أفاد « القرطبى » من كتاب « المحتسب » ، ونقل عنه كثيراً من التوجيهات للقراءات الشاذة . وسنشاهد ذلك فى فصل القراءات ، ونكتفى الآن بذكر هذا المثال ، فى قوله تعالى « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . يقول فى المسألة السادسة والثلاثين : « الأصل فى الضالين » الضاللين، حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام فى اللام فاجتمع ساكنان مدة الألف واللام المدغمة . ثم قال « وقرأ أيوب السختيانى ولا الضالين بهمزة غير ممدودة . كأنه فر من التقاء الساكنين . وهى لغة . حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن عبيد

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ١٥٠ وما بعدها ، وانظر الحجة ج ١ ص ١٠٦ .

يقرأ « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جأن » فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب دأبة وشأبة قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كثير :

إذا ما العوالى بالعبيط احمأرت (١) .

وهذه عبارة « ابن جنى » فى كتاب « المحتسب » . يقول « ابن جنى »: ذكر بعض أصحابنا أن أيوب سئل عن هذه الهمزة فقال : هى بدل من المدة لالتقاء الساكنين . واعلم أن أصل هذه ونحوه، الضاللين . وهم الفاعلون من ضل يضل . فكره اجتماع حرفين متحركين من جنس واحد على غير الصور المحتملة فى ذلك . فأسكنت اللام الأولى وأدغمت فى الآخرة . فالتقى ساكنان الألف واللام الأولى المدغمة . فزيدت فى مادة الألف ، واعتمدت وطأة المد فكان ذلك نحواً من تحريك الألف وذلك أن الحرف يزيد صوتاً بحركاته كما يزيد صوت الالف بأشباع مدته — وحكى أبو العباس محمد بن يزيد عن أبى عثمان عن أبى زيد قال . سمعت عمرو بن عبيد يقرأ « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جأن (٢) » قال أبو زيد فظننته قد لحن إلى أن سمعت العرب تقول : شأبة ومأدة ودأبة وعليه قول كثير :

إذا ما العوالى بالعبيط احمأرت

وقال :

وللأرض أما سودها فتجلات بياضا وأما بيضها فادهأمت (٣)

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ والعوالى أسنة الرماح واحدتها عالية والعبيط الدم الطرى واحمار واحمر بمعنى واحد.

(٢) آية ٣٩ من سورة الرحمن .

(٣) رسالة ابن عطية للزميل عبد الوهاب فايد نقلا عن المحتسب ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧ وادهام اشتد سواده.

وسنرى كثيراً من توجيهات القرطبي للقراءات الشاذة ـ نقلا عن ابن جني ونكتفي بذلك الآن .

كتب « أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ » :

« لأبي عمرو الداني » مؤلفات كثيرة في القراءات منها : « جامع البيان في القراءات السبع » و« كتاب التيسير » و « كتاب المقنع في رسم مصاحف الأمصار » .

ولقد أفاد القرطبي من أبي عمرو الداني ونقل عنه ، ونكتفي هنا بهذا المثال : في قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة » يقول القرطبي : وقال أبو عمرو الداني : وقرأ بعضهم مائة « بالنصب على تقدير أنبتت مائة حبة » . ثم عقب القرطبي بقوله : قلت : وقال يعقوب الحضرمي : وقرأ بعضهم « في كل سنبلة مائة حبة » على أنبتت مائة حبة وكذلك قرأ بعضهم « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم » على « واعتدنا لهم عذاب السعير » « وأعتدنا للذين كفروا عذاب جهنم »(١) .

١ ـ مصادر القرطبي من كتب الحديث :

ذكر القرطبي في تفسيره ثروة ضخمة من الأحاديث النبوية الشريفة ، واستشهد بها لأغراض مختلفة . وكان القرطبي يعتمد في ذلك على كثير من المصنفات الحديثية ومن هذه المصنفات : « الجامع الصحيح » للإمام « أبي عبدالله

---

(١) تفسير القرطبي ح ٣ ص ٣٠٤ آية ٢٦١ من سورة البقرة ،
والآيتان الاخيرتان من سورة الملك آية ٥ ، ٦ . ويوجد من جامع البيان نسخة ميكروفيلم بدار الكتب برقم ٤٦٧٦ . أما الكتابان الآخران فطبوعان بالقاهرة

محمد بن اسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ » .

« المسند الصحيح » للامام « أبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابورى المتوفى سنة ٢٦١ هـ » .

« سنن الإمام أبى داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ » .

« سنن الإمام أبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى . المتوفى سنة ٢٧٩ هـ[1] »

« سنن الإمام أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى . المتوفى سنة ٣٠٣ هـ » .

« سنن الإمام أبى الحسن على بن عمر الدارقطنى . المتوفى سنه ٣٨٥ هـ »

« سنن الإمام محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى . المتوفى سنة ٢٧٣ هـ »

« مسند الإمام أحمد بن حنبل . المتوفى سنة ٢٤١ هـ »

« مسند الإمام أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى . المتوفى سنة ٢٥٥ هـ »

« مسند الإمام عثمان بن أبى شيبة المتوفى سنة ٢٣٩ هـ »

« مسند الإمام أبى بكر أحمد بن عمر البصرى البزاز . المتوفى سنة ٢٩٢ هـ »

« صحيح الإمام أبى حاتم محمد بن حبان التميمى البستى . المتوفى سنة ٣٥٤ هـ » .

---

(١) اشتهر هذا الكتاب باسم جامع الترمذى . ويقال له السنن أيضاً . ولكن الاول هو الاكثر على ما ذكره صاحب كشف الظنون ١ — ٢٨٨ . انظر الحديث والمحدثون لاستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة ص ٤١٠ .

وفوق هذا أفاد القرطبي من المصنفات الحديثية التي جمعت بين الكتب الصحاح أو بين بعضها . فنقل عن كتاب : « التجريد في الجمع بين الصحاح [١] للإمام أبي الحسن أحمد بن رزين العبدري . المتوفى سنة ٥٣٥ هـ » . ونقل عن كتاب : « الجمع بين الصحيحين للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي الأندلسي . المتوفى سنة ٤٨٨ هـ » . ونقل عن كتاب : « الجمع بين الصحيحين للإمام محمد بن عبد الحق الأشبيلي المتوفى سنة ٥٨٢ هـ »[٢] .

ولا داعي أن نستطرد في ذكر الأمثلة والشواهد التي توضح إفادته من كل هذه المصادر . فسنرى كل هذا وأكثر منه في فصول الرسالة .

مصادر القرطبي من كتب الفقه :

أفاد القرطبي من كثير من المؤلفات الفقهية في مذهب الإمام مالك ومن هذه المؤلفات : « موطأ الإمام مالك بن أنس » . إمام دار الهجرة المتوفى سنة ١٧٩ هـ[٣] . كتاب « المدونة » « لسحنون بن سعيد » المتوفى سنة ٢٤٠ هـ . كتاب « الواضحة لعبد الملك بن حبيب الأندلسي » المتوفى سنة ٢٣٨ هـ . كتاب « العُتبيَّة . لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي » المتوفى سنة ٢٥٤ هـ . وتسمى أيضاً « المستخرجة » لأن مؤلفها قد استخرجها

---

(١) المراد بالصحاح صحيح البخاري ومسلم . وموطأ مالك وسنن أبي داود والنسائي والترمذي . انظر الحديث والمحدثون ص ٤٣٠

(٢) يوجد من كتاب « الحميدي » أربعة أجزاء في أربعة مجلدات خطيه بدار الكتب برقم ٦٠٨ حديث . ويوجد من كتاب ابن عبد الحق نسخة في مجلدين برقم ٧١٣ حديث .

(٣) ليس الموطأ كتابا حديثيا فقط وإنما هو كتاب فقه وحديث وأخطأ من قصره على أحدهما .

من « الواضحة » . ولقد طعن فى نقل « المستخرجة » الفقه المالكى كثيرون عاصروا مؤلفها . فقد قال « محمد بن عبد الحكم » : رأيت جُلها كذباً ومسائل لا أصول لها . وقال « ابن لبابة » : كثرت فيها الروايات المطروحة والمسائل الشاذة . وقال غيره : فى المستخرجة خطأ كثير(١) .

كتاب « الموازنة » لمحمد بن إبراهيم بن زياد المعروف بابن الموّاز المتوفى سنة ٢٦٩ هـ . وهو كتاب جليل رجحه كثير من العلماء على سائر الأمهات . لا من حيث النقل والرواية « فالمدّونة » لا ينازعها كتاب فى ذلك وإنما من حيث ما تحويه من رد الفروع إلى أصولها التى بنيت عليها »(٢) .

كتاب « التفريع فى مسائل الفقه » « لأبى قاسم بن جلاب » المتوفى سنة ٣٧٨ هـ . كتاب « الإشراف على مذاهب أهل العلم فى الاجتماع والاختلاف » لأبى بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣٠٩ هـ(٣) .

ولا داعى أن نستطرد أيضاً فى ذكر الأمثلة والشواهد التى توضح إفادته من هذه المصادر . فسترى كل هذا وأكثر منه فيما يأتى .

كذلك أفاد القرطبي فى عرضه الفقه ومذاهب الفقهاء من كتب أحاديث الأحكام وشروح « الموطأ » ومنه « كتاب الاستذكار » . الحافظ أبى عمر

---

(١) مالك . لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٥٧ . وانظر الديباج المذهب ص٢٣٩

(٢) انظر مالك ص٢٦٢ .

(٣) يوجد من كتاب « التفريع » نسخة خطية بدار الكتب برقم ٢٩٥ فقه مالكى . ويوجد منه كتاب الصلاة ببلدية الاسكندرية برقم ١٥ فقه مالكى . ويوجد من كتاب « الأشراف » الجزء الثالث برقم ٢٠ فقه مالكى بدار الكتب .

ابن عبد البر القرطبي » المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . فقد قال القرطبي فى قوله تعالى : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض » الآية : « واختلفوا فى الذى يأتى امرأته وهى حائض فقال مالك والشافعى وأبو حنيفة: يستغفر الله ولا شىء عليه . وهو قول ربيعة ويحيى بن سعيد . وبه قال داود . وروى عن محمد بن الحسن : يتصدق بنصف دينار . وقال أحمد : ما أحسن حديث عبد الحميد عن مِقْسم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « يتصدق بدينار أو بنصف دينار[1] أخرجه أبو داود وقال : هكذا الرواية الصحيحة قال : دينار أو نصف دينار .

واستحبه الطبرى فإن لم يفعل فلا شىء عليه . وهو قول الشافعى ببغداد . وقالت فرقة من أهل الحديث : إن وطىء فى الدم فعليه دينار . وإن وطىء فى انقطاعه فعليه نصف دينار . وقال الأوزاعى : من وطىء امرأته وهى حائض تصدق بخمس دينار . والطرق لهذا كله فى سنن أبى داود ، والدارقطنى وغيرهما . وفى كتاب الترمذى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان دماً أحمر فدينار وإن كان دماً أصفر فنصف دينار »[2] ثم قال القرطبي : قال أبو عمر حجة من لم يوجب عليه كفارة إلا الاستغفار والتوبة هى اضطراب هذا الحديث عن ابن عباس ، وأن مثله لا تقوم به حجة . وأن الذمة على البراءة . ولا يجب أن يثبت فيها شىء لمسكين ولا غيره إلا بدليل لا مدفع فيه ولا مطعن عليه وذلك معدوم فى هذه المسألة »[3] .

---

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده عن ابن عباس ج ٣ ص ١٣٢ وأخرجه أبو داود عنه أيضاً ج ١ ص٧٠.

(٢) أخرجه الترمذى عن ابن عباس فى باب ما جاء فى كفارة إتيان الحائض ج ١ ص ٢١٨

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٨٧ آية ٢٢٢ من سورة البقرة .

ولقد نقل القرطبي هذا النص كله عن « ابن عبد البر » . ولـكنه لم يحدد لنا من أى كتاب نقله عن « ابن عبد البر » . فمؤلفات « ابن عبد البر » كثيرة ولـكننى لمـا رجعت إلى كتاب «الاستذكار» وجدت هذا النص بعينه مع تصرف بسيط(١) .

وفى المسألة الرابعة من الآية السابقة يقول القرطبي : « واختلف العلماء فى مقدار الحيض . فقال فقهاء المدينة : إن الحيض لا يكون أكثر من خمسة عشر يوماً . وجائز أن يكون خمسة عشر يوماً فما دون . وما زاد على خمسة عشر يوماً لا يكون حيضاً . وإنمـا هو استحاضة . هذا مذهب مالك وأصحابه. وقد روى عن مالك أنه قال : لا وقت لقليل الحيض ولا لـكثيره إلا ما يوجد فى النساء . فإنه ترك القول الأول ورجع إلى عادة النساء . وقال محمد بن مسْلمة: أقل الطهر خمسة عشر يوماً . وهو اختيار أكثر البغداديين من المالـكيين ، وهو قول الشافعى ، وأبى حنيفة ، وأصحابهما والثورى . وهو الصحيح فى الباب . لأن الله تعالى قد جعل عدة ذوات الأقراء ثلاث حِيَض وجعل عدة من لا تحيض من كبر أو صغر ثلاثة أشهر . فـكان كل قرء عوضاً من شهر . والشهر يجمع الطهر والحيض . فإذا قل الحيض كثر الطهر . وإذا كثر الحيض قل الطهر . فلما كان أكثر الحيض خمسة عشر يوماً ، وجب أن يكون بإزائه أقل الطهر خمسة عشر يوماً . ليكمل فى الشهر الواحد حيض وطهر وهو المتعارف فى الأغلب من خِلْقة النساء وجبلتهن مع دلائل القرآن والسنة . وقال الشافعى أقل الحيض يوم وليلة وأكثره خمسة عشر يوماً . وقد روى عنه مثل قول

---

(١) راجع كتاب الاستذكار نسخة خطية بدار الـكتب رقم ٢٤ حديث ج ١ ورقة ٤٩ .

مالك إن ذلك مردود إلى عُرف النساء . وقال أبو حنيفة وأصحابه : أقل الحيض ثلاثة أيام . وأكثره عشرة . قال « ابن عبد البر » ما نقص عند هؤلاء عن ثلاثة أيام فهو استحاضة . لا يمنع من الصلاة إلا عند أول ظهوره . لأنه لا يعلم مبلغ مدته . ثم على المرأة قضاء صلاة تلك الأوقات وكذلك ما زاد على عشرة أيام عند الكوفيين . وعند الحجازيين ما زاد على خمسة عشر يوماً فهو استحاضة . وما كان أقل من يوم وليلة عند الشافعي فهو استحاضة وهو قول الأوزاعي والطبري[1] .

وهذه عبارة « ابن عبد البر » في كتاب « الاستذكار » يقول في باب المستحاضة : « وقد اختلف العلماء في ذلك — أي في مقدار الحيض — فأما فقهاء أهل المدينة فيقولون : إن الحيض لا يكون أكثر من خمسة عشر يوماً . وجائز عندهم أن يكون خمسة عشر يوماً فما دون . فما زاد على خمسة عشر يوماً . فلا يكون حيضاً وإنما هو استحاضة وهو دم العرق المنقطع . وهذا مذهب مالك وأصحابه في الجملة . وقد روى عن مالك أنه لا وقت لقليل الحيض ولا لكثيره إلا ما يوجد في النساء . وأكثر ما بلغه أنه وجد في النساء خمسة عشر يوماً . والدفقة عنده من الدم حيض تمنع من الصلاة . ولكن الدفقة وما كان مثلها لا تحسب قرءا في العِدَّة . هذه رواية ابن القاسم وأكثر المصريين والمدنيين عنه . وقال ابن الماجشون عنه : أقل الحيض خمسة أيام وأقل الطهر خمسة أيام وهو قول عبد الملك بن الماجشون . قال أبو عمر : أما أقل الطهر فقد اضطرب فيه قول مالك وأصحابه . فروى ابن القاسم عنه عشرة أيام وروى عنه أيضاً أقل الطهر ثمانية أيام . وهو قول سحنون . وقال

---

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٨٢

عبد الملك بن الماجشون : أقل الطهر خمسة أيام ورواه عن مالك . وإلى هذه الرواية مال بعض البغداديين من المالكيين . وقال محمد بن مسلمة : أقل الطهر خمسة عشر يوما وهو اختيار أكثر[١] البغداديين من المالكيين وهو قول الشافعى ، وأبى حنيفة ، وأصحابهما ، والثورى وهو الصحيح . لأن الله تعالى جعل عدة من لا تحيض من كبر أو صغر ثلاثة أشهر فكان كل قرء عوضا عن شهر ، والشهر يجمع الطهر والحيض ، فاذا قل الحيض كثر الطهر ، وإذا كثر الطهر قل الحيض . فلما كان أكثر الحيض خمسة عشر يوما وجب أن يكون الطهر خمسة عشر يوما . ليكمل فى الشهر الواحد حيض وطهر وهو المتعارف فى الأغلب من خلقة النساء . وجبلتهن[٢] مع دلائل القرآن والسنة على ما ذكرنا .

وقال محمد بن مسلمة : أكثره خمسة عشر يوما وأقله ثلاثة أيام وقال الشافعى : أقل الحيض يوم وليلة وأكثره[٣] خمسة عشر يوما ، وقد روى عنه مثل قول مالك : إن ذلك مردود إلى عرف النساء ... وقال الثورى وأبو حنيفة — أقل الحيض ثلاثة أيام وأكثره[٤] — عشرة أيام ثم قال ابن عبد البر قال أبو عمر : مانقص عند هؤلاء من ثلاثة أيام فهو استحاضة . لايمنع من الصلاة — إلا عند أول[٥] — ظهوره لأنه لايعلم مبلغ مدته ثم على المرأة قضاء تلك الأوقات — وكذلك مازاد على[٦] عشرة

---

(١) بياض بالأصل والزيادة من تفسير القرطبى
(٢) بياض بالاصل والزيادة من تفسير القرطبى .
(٣) بياض بالاصل والزيادة من تفسير القرطبى .
(٤) بياض بالاصل والزيادة من تفسير القرطبى .
(٥) بياض بالاصل والزيادة من تفسير القرطبى .
(٦) بياض بالاصل والزيادة من تفسير القرطبى .

أيام عند الكوفيين . وعند الحجازيين مازاد على خمسة عشر يوما فهو استحاضة . وأما الشافعي والأوزاعي فما كان أقل من يوم وليلة فهو استحاضة وهو قول الطبري (١) .

وكان القرطبي ينقل عن كتاب « الاستذكار » بدون إشارة إلى الكتاب أو المؤلف . ففي المسألة العاشرة في الآية السابقة يقول : قوله تعالى « فإذا تطهرن » يعني بالماء . وإليه ذهب مالك وجمهور العلماء . وأن الطهر الذي يحل به جماع الحائض التي يذهب عنها الدم هو تطهرها بالماء كطهر الجنب ولايجزىء من ذلك تيمم ولا غيره . وبه قال مالك ، والشافعي ، والطبري ، ومحمد بن مسلمة ، وأهل المدينة وغيرهم ، وقال يحي بن بكير ومحمد بن كعب القرظي . إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لاماء . حلت لزوجها وإن لم تغتسل ، وقال مجاهد وعكرمة وطاوس : انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن بأن تتوضأ ، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ، ومحمد : إن انقطع دمها بعد مضى عشرة أيام جازله أن يطأها قبل الغسل . وإن كان انقطاعه قبل العشرة لم يجز حتى تغتسل .. أو يدخل عليها وقت الصلاة : وهذا تحكم لا وجه له وقد حكموا للحائض بعد انقطاع دمها بحكم الحيض في العدة وقالوا لزوجها عليها الرجعة مالم تغتسل من الحيضة الثالثة فعلى قياس قولهم هذا لايجب أن توطأ حتى تغتسل مع موافقة أهل المدينة (٢)

فلقد تأثر « القرطبي » في هذا النص بكتاب « الاستذكار » ونقل عنه

---

(١) الاستذكار ج ١ ورقة ٥٥

(٢) تفسير القرطبي ج٣ ص٨٨ وما بعدها — ولعل صحة العبارة لايجوز أن يوطأ حتى تغتسل ، فإن الخلاف في جواز الوطء قبل الغسل لا في وجوبه .

ولم يشر إليه ولا إلى صاحبه وهذه عبارة «الاستذكار» . يقول «ابن عبد البر» بعد كلامه السابق: واختلف ـ العلماء فى وطء الحائض ـ (١) بعد الطهر من الحيض وقبل الاغتسال فقال مالك وأكثر أهل المدينة : إذا انقطع — دمها لاتحل لزوجها مالم (٢) تغتسل وبه قال الشافعى ، والطبرى ، ومحمد بن مسلمة . وقال أبو حنيفة ، وأبو يوسف ومحمد : إن انقطع دمها بعد مضى (٣) عشرة أيام كان له أن يطأها قبل الغسل وإن كان انقطاعه قبل العشرة لم يجز — حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت الصلاة (٤) .

وقال أبو عمر .. وهذا تحكم لاوجه له وقد حكموا للحائض بعد — انقطاع دمها بحكم الحيض فى العدة وقالوا — (٥) لزوجها عليها الرجعة مالم تغتسل فعلى قياس قولهم هذا — لايجب أن توطأ حتى تغتسل (٦) — مع موافقة أهل الحجاز فى ذلك .

وفى قوله تعالى « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا (٧) » يقول فى المسألة السابعة عشرة « ذهب مالك والشافعى : إلى أن لا إحداد على مطلقة رجعية كانت أو بائنة . واحـــدة أو أكثر . وهو قول ربيعة وعطاء . وذهب الكوفيون أبو حنيفة وأصحابه والثورى ، والحسن بن حى وأبو ثور ، وأبو عبيد ـ إلى أن المطلقة ثلاثا

(١) بياض وهذه الزيادة يقتضيها السياق
(٢) » » » » »
(٣) بياض وهذه الزيادة من تفسير القرطبي
(٤) بياض وهذه الزيادة من تفسير القرطبي
(٥) » » » » » »
(٦) » » » » » »
(٧) آية ٢٣٤ من سورة البقرة

عليها الإحداد : وهو قول سعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وابن سيرين ، والحكم بن عيينة قال الحكم : هو عليها أوكد . وأشد منه على المتوفى عنها زوجها . ومن جهة المعنى أنهما جميعاً فى عدة يحفظ بها النسب وقال الشافعى وأحمد واسحاق : الاحتياط أن تتقى المطلقة الزينة : قال ابن المنذر وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم « لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا » (١) . دليل على أن المطلقة ثلاثاً والمطلق حى لا إحداد عليها (٢)

فى هذا النص تأثر القرطبى « بابن عبد البر » ونقل عنه عبارته . فقد قال ابن عبد البر تحت عنوان « باب ماجاء فى الإحداد »

أجمع مالك وأصحابه أن لا إحداد على المطلقة . وهو قول ربيعة وعطاء والحجة لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت إلا على زوج » فأخبر أن الإحداد هو على المتوفى ، والمطلق حى فلا إحداد على امرأته . وقال أبو حنيفة ، وأصحابه ، والثورى والحسن بن حى : الإحداد على المطلقة واجب . وهى والمتوفى عنها فى ذلك سواء . لأنهما جميعاً فى عدة يحفظ فيها النسب . وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان ابن يسار ، وابن سيرين ، والحكم بن عيينة ، وقال الحكم : هو عليها أوكد وأشد منه على المتوفى عنها زوجها .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أم حبيبة - باب وجوب الاحداد فى عدة الوفاة م جـ ١٠ ص ١١١ . والاحداد والحداد مشتق من الحد . وهو المنع لانها تمنع الزينة والطيب يقال أحدت المرأة تحد إحدادا وحدت تحد بضم الحاء وتحد بكسرها حدا .

(٢) تفسير القرطبى ج ٣ ص ١٨٢

وبهذا قال أبو ثور وأبو عبيد. وقال الشافعي : أحب للمطلقة المبتوتة الإحداد ولايبين لى أن أوجب عليها (١)

كتاب « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد » . لابن عبد البر القرطبي » :

لقد أفاد القرطبي من هذا الكتاب وتأثر به . ففي قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » يقول القرطبي في المسألة الثانية عشرة :

وقد اختلف العلماء في شهود الجماعة على قولين : فالذى عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة . ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضاً على الكفاية : قال ابن عبد البر . وهذا قول صحيح . لاجماعهم على أنه لايجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فاذا قامت الجماعة في المسجد . فصلاة المنفرد في بيته جائزة . يقول عليه السلام « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ (٢) بسبع وعشرين درجة » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر .(٣) ولقد نقل القرطبي هذا النص من كتاب « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد » « لابن عبد البر القرطبي » ببعض تصرف وهذه عبارة التمهيد . يقول ابن عبد البر :

---

(١) الاستذكار ح ١ ص ١٠٣

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى « باب فضل صلاة الجماعة » ح ٥ ص ١٥٢ ولقد جمع العلماء بين رواية سبع وعشرين ورواية « خمس وعشرين » بأن ذلك الاختلاف مرجعه إلى قرب المسجد وبعده، وقالوا غير هذا انظر « الفتح الربانى » ح ٥ ص ١٦٢

(٣) تفسير القرطبي ح ١ ص ٣٤٨ .

« وقد أوجبها جماعة من أهل العلم . فرضاً على الكفاية . وهو قول حسن صحيح لاجماعهم على أنه لايجوز تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فاذا قامت الجماعة فى المسجد فصلاة المنفرد فى بيته جائزة لقوله صلى الله عليه وسلم « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة »(١)

ففى هذا الحديث جواز صلاة المنفرد ، والخبر بأن صلاة الجماعة أفضل . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا وجد أحدكم الغائط فليبدأ به قبل الصلاة »(٢) وقال « إذا حضرت الصلاة والعشاء فابدأوا بالعشاء »(٣) وقال « ألا صلوا فى الرحال فى المطر »(٤) وهذه الآثار كلها تدل على أن الجماعة ليست فريضة وإنما هى فضيلة .(٥)

وفى قوله تعالى « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين(٦) .

يقول القرطبي فى المسألة السابعة :

«ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : إلى أنه لايجوز الانتفاع

---

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أبى هريرة باختلاف بسيط« باب فضل صلاة الجماعه » ح ٥ ص ١٥١ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم بمعناه عن عائشة ح ٥ ص ٤٦ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم عن « أنس بن مالك » باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذى يريد أكله ح ٥ ص ٤٥

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن ابن عمر « باب الصلاة فى الرحال فى المطر) ح ٥ ص ٢٠٥ والرحال : المنازل أيا كانت .واحدها رحل.

(٥) التمهيد نسخة خطيه رقم ٣١٥ ح ٢ ورقة ٩٥ .

(٦) آية ٨٠ من سورة النحل .

بجلود الميتة فى شىء . وإن دبغت . لأنها كلحم الميتة ، والأخبار بالانتفاع بعد الدباغ ترد قوله . واحتج بحديث عبد الله بن عكيم — رواه أبو داود — قال قرىء علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض جهينة وأنا غلام شاب « ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب » وفى رواية . قبل موته بشهر . رواه القاسم بن مخيمر عن عبد الله بن عكيم قال : حدثنا مشيخة لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليهم : قال داود بن على : سألت يحى بن معين عن هذا الحديث فضعّفه . وقال ليس بشىء . إنما يقول حدثنى الأشياخ ثم قال : قال أبو عمر ولو كان ثابتا لاحتمل أن يكون مخالفاً للأحاديث المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن المحبق وغيرهم (١) لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عكيم « ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب قبل الدباغ وإذا

---

(١) حديث ابن عباس هو ماروى عن عبد الرحمن بن وعلة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قلت له إنا نغزو فيؤتى بالاهاب والأسقية ، قال : ما أدرى ما أقول لك إلا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما إهاب دبغ فقد طهر » وهذا الحديث أخرجه مسلم والترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

وحديث عائشة . هو ماروى عنها أنها قالت . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جلود الميتة ؟ فقال : « دباغها طهورها » وهذا الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حيان والطبرانى فى معجمه والبيهقى فى سننه وحديث سلمة بن المحبق . هو ماروى عن سلمة بن المحبق رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر ببيت بفنائه — بكسر الفاء وهو المتسع أمام الدار — قربة معلقة فاستسقى : فقيل : إنها ميتة =

احتمل ألا يكون مخالفاً . فليس لنا أن نجعله مخالفاً . وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن . وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء في الخبر . فيمكن أن تكون قصة ميمونة . وسماع ابن عباس منه « أيما إهاب دبغ فقد طهر » قبل موته بجمعة ، والله أعلم [١] .

ولقد نقل القرطبي هذا النص عن كتاب التمهيد أيضاً [٢] .

=فقال : « ذكاة الأديم دباغه » . وهذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي في السنن . وابن حبان .

وحديث ميمونة المشار إليه في آخر كلام القرطبي . هو ماروى عن ابن عباس عن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم . أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بشاة لمولاة ميمونة ميتة فقال . « ألا أخذوا إهابها فادبغوه فانتفعوا به » ؟ فقالوا : يارسول الله إنها ميتة : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إنما حرم أكلها » وهذا الحديث أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وسأتحدث في الباب الثالث من هذه الرسالة عن حديث « عبد الله بن عكيم » .

انظر الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد ابن حنبل الشيبانى . للاستاذ الساعاتى ح ١ ص ٢٣٠

---

(١) تفسير القرطبي ح ١٠ ص ١٥٧

(٢) راجع كتاب التمهيد ح ورقة ٢٧ وما بعدها

ونقد نقل « القرطبي » عن ابن « عبد البر ». من كتاب « التمهيد ». ولم يشر إليه ونستطيع أن نلمح ذلك إذا قارنا بين ما ذكره القرطبي في قوله تعالى « يأيها الذين آمنو إذا قمتم إلى الصلاة . » الآية في المسألة الثانية عشرة وبين ما ذكره ابن عبد البر . (١)

« كتاب الأحكام الصغرى »

وأفاد القرطبي من كتاب « الأحكام الصغرى لأبي محمد عبد الحق الاشبيلي المعروف بابن الخراط » والمتوفى سنة ٥٨٢هـ .

ففي قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » يقول القرطبي وهو يتحدث عن صلاة الجماعة وآراء العلماء فيها . وقال الشافعي لا أرخص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر . حكاه ابن المنذر » وروى مسلم عن أبي هريرة قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل أعمى فقال يارسول الله : إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد . فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له فيصلي في بيته . فرخص له . فلما ولى دعاه فقال « هل تسمع النداء بالصلاة » قال نعم، قال « فأجب (٢) » وقال أبو داود في هذا الحديث « لا أجد لك رخصة » خرجه من حديث ابن أم مكتوم وذكر أنه كان هو السائل . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر قالوا وما العذر؟ قال من « خوف أو مرض لم تقبل منه الصلاة التي صلى » (٣) ثم قال القرطبي :

(١) انظر تفسير القرطبي ج٦ ص ٩٠ وما بعدها وانظر التمهيد ج ٢ ورقة ٣ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في باب فضل صلاة الجماعة والتشديد في التخلف عنها ج ٥ ص ١٥٥

(٣) قال الترمذي في باب فضل صلاة الجماعة : وقد روى عن غير واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له . ثم قال : وقال بعض أهل العلم هذا على التغليظ والتشديد ولا رخصة لأحد في ترك الجماعة إلا من عذر . انظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ٢ ص ١٧ وما بعدها .

« قال أبو محمد عبد الحق : هذا يرويه مغراء العبدى . والصحيح موقوف على ابن عباس « من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له » على أن قاسم بن أصبغ ذكره فى كتابه فقال : حدثنا اسماعيل بن اسحاق القاضى قال : حدثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من عذر » وحسبك بهذا الإسناد صحة ، ومغراء العبدى روى عنه أبو إسحاق . وقال ابن مسعود « ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق » وقال عليه السلام « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح[1] ولا يستطيعونهما »[2]

« ولأبى محمد عبد الحق الأشبيلى » ثلاثة كتب ، تناول فى كل كتاب مجموعة من أحاديث الأحكام . وهذه الكتب هى :

« الأحكام الكبرى » ويوجد منها الجزء الثانى فى مجلد خطى تحت رقم ٧١٣ « حديث الأحكام الوسطى » ويوجد منها الجزء الثانى فى مجلد خطى تحت رقم ٣٦ حديث ، بالدار ، « الأحكام الصغرى » ويوجد منها نسخة خطية بدار الكتب وتقع فى مجلدين تحت رقم ١٣١٤ حديث . ولقد بحثت عن هذا النص كثيراً وأخيراً عثرت عليه فى كتاب الأحكام الصغرى .

كتاب « المنتقى » . « لأبى الوليد الباجى » :

لقد أفاد القرطبي من كتاب المنتقى وتأثر به . فى قوله تعالى « الطلاق

---

(١) أخرجه مسلم بمعناه عن أبى هريرة باب فضل صلاة الجماعة والتشديد فى التخلف عنها ج ٥ ص ١٥٤ .

(٢) انظر الاحكام الصغرى نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٣١٤ حديث وهى نسخة غير مرقومة .

مرتان » ذكر فى المسألة الخامسة حكم الطلاق الثلاث وآراء العلماء فيه . وأن الجمهور على أنه يقع ثلاثاً . وأن بعض العلماء خالف ذلك وقالوا : إنه لا يلزم مطلقاً . وقال فريق آخر أنه يقع واحدة ثم قال : « وأما من ذهب إلى أنه واقع واحدة فاستدل بأحاديث ثلاثة . أحدها حديث ابن عباس من رواية طاوس وأبى الصهبا وعكرمة، وثانيها حديث ابن عمر على رواية من روى أنه طلق امرأته ثلاثا وأنه عليه السلام أمره برجعتها واحتسبت له واحدة. وثالثها : أن ركانة طلق امرأته ثلاثا : فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم برجعتها(١) والرجعة تقتضى وقوع واحدة . والجواب عن الأحاديث ما ذكره الطحاوى أن سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار ومالك بن الحويرث ومحمد بن إياس بن البكير والنعمان بن أبى عياش رووا عن ابن عباس فيمن طلق امرأته ثلاثا أنه قد عصى ربه . وبانت منه امرأته . ولا ينكحها إلا بعد زوج . وفيما رواه هؤلاء الأئمة عن ابن عباس مما يوافق الجماعة ما يدل على وهن رواية طاوس وغيره . وما كان ابن عباس ليخالف الصحابة إلى رأى نفسه . قال

---

(١) حديث ابن عباس هو ما روى عنه أنه قال : كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحديث وسيأتى فى هذا النص .

وهذا الحديث أخرجه مسلم بمعناه فى باب طلاق الثلاث ح ١٠ ص ٧١ حديث ركانة . اخرجه أبو داود والدارقطنى وقال أبو داود : هذا حديث حسن صحيح . وفى الترمذى: أن ركانة . طلق امرأته ألبتة . . و قال عنه لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقال المنذرى فى إسناده الزبير بن سعيد الهاشمى وقد ضعفه غير واحد . وذكر الترمذى أيضاً عن البخارى أنه يضطرب : تارة قيل فيه ثلاثاً وتارة قيل فيه مرة واحدة . وأصحه أنه طلقها ألبتة .

حديث ابن عمر : أخرجه مسلم عن ابن سيرين — وزعم أن الراوى مكث عشرين سنة يعتقد أن ابن عمر طلق امرأته ثلاثاً — فانه نفى ذلك وأكد أن ابن عمر طلق امرأته تطليقة واحدة. وهى حائض .

انظر صحيح مسلم بشرح النووى ح ١٠ ص ٦٢

وانظر فيما تقدم « الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى » . كتاب الطلاق ح ١٧

ابن عبد البر : ورواية طاوس وهم وغلط لم يعرج عليها أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز والشام والعراق والمشرق والمغرب . وقد قيل إن أبا الصهباء لا يعرف فى موالى ابن عباس . ثم قال : قال القاضى أبو الوليد الباجى . وعندى أن الرواية عن ابن طاوس بذلك صحيحة . فقد روى عنه الأئمة معمر وابن جريج وغيرهما. وابن طاوس إمام، والحديث الذى يشيرون إليه هو ما رواه ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنين من خلافة عمر بن الخطاب طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر رضى الله عنه : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم . ومعنى الحديث أنهم كانوا يوقعون طلقة واحدة بدل إيقاع الناس الآن ثلاث تطليقات ، ويدل على صحة هذا التأويل أن عمر قال : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة فأنكر عليهم أن أحدثوا فى الطلاق استعجال أمر كانت لهم فيه أناة فلو كان حالهم ذلك فى أول الإسلام فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ماقاله ، ولا عاب عليهم أنهم استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة . ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن ابن عباس من غير طريق أنه أفتى بلزوم الطلاق الثلاث لمن أوقعها مجتمعة . فإن كان هذا معنى حديث ابن طاوس فهو الذى قلناه . وإن حمل حديث ابن عباس على مايتأول فيه من لا يعبأ بقوله . فقد رجع ابن عباس إلى قول الجماعة وانعقد به الاجماع . ودليلنا من جهة القياس أن هذا الطلاق أوقعه من يملكه فوجب أن يلزمه أصل ذلك إذا أوقعه مفرداً . (١)

---

(١) تفسير القرطبى ج ٣ ص ١٢٩ آية ٢٢٩ من سورة البقرة .
ولقد طبع كتاب « المنتقى » بالقاهرة .

وفى قوله تعالى « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » الآية ، يقول القرطبي فى المسألة الثالثة عشرة مبينا حكم من قبل فى الصوم فأنزل . هل تجب عليه الكفارة مع القضاء أم لا ؟ يقول : لايخلو أن يكون قبل قبلة واحدة فأنزل . أو قبل فالتذ فعاوده فأنزل . فإن كان قبل قبلة واحدة أو باشر أو لمس مرة فقال أشهب وسحنون لا كفارة عليه حتى يكرر . وقال ابن القاسم يكفر فى ذلك كله إلا فى النظر فلا كفارة عليه حتى يكرر . وممن قال بوجوب الكفارة عليه إذا قبّل أو باشر أو لاعب امرأته أو جامع دون الفرج فأمنى . الحسن البصرى وعطاء وابن المبارك وأبو ثور واسحاق . وهو قول مالك فى المدونة وحجة قول أشهب أن اللمس والقبلة والمباشرة ليست تفطر فى نفسها . وإنما يبقى أن تؤول إلى الأمر الذى يقع به الفطر . فإذا فعل مرة واحدة لم يقصد الإنزال وإفساد الصوم فلا كفارة عليه ، كالنظرة إليها وإذا كرر ذلك فقد قصد إفساد صومه فعليه الكفارة كما لو تكرر النظر قال اللخمى :

« واتفق جميعهم فى الانزال من النظر أن لا كفارة عليه إلا أن يتابع » وعقب القرطبي على هذا القول بما نقله عن الباجى فقال :

« قلت : ماحكاه من الاتفاق فى النظر وجعله أصلا ليس كذلك . فقد حكى الباجى فى المنتقى : فإن نظر نظرة واحدة يقصد بها اللذة فأنزل . فقد قال الشيخ أبو الحسن : عليه القضاء والكفارة . قال الباجى وهو الصحيح عندى . لأنه إذا قصد بها الاستمتاع كانت كالقبلة وغير ذلك من أنواع الاستمتاع والله أعلم.(١)

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٢٤ آية ١٨٧ من سورة البقرة .

مصادر القرطبي من كتب اللغة والنحو :

أفاد القرطبي في تفسيره من كثير من المصادر اللغوية والنحوية . ومن المصادر اللغوية التي أفاد منها :

« كتاب المجمل لأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ »

وكتاب مقاييس اللغة له أيضاً .

ففي قوله تعالى « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة »(١) بين القرطبي أن الصبغة قد يراد بها الاغتسال . فقال : « وقيل أن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الاسلام بدلا من معمودية النصارى ذكره الماوردى ... » « ثم قال القرطبي مشيراً إلى نقله من كتاب المجمل . وقيل : إن القربة إلى الله تعالى يقال لها صبغة حكاه ابن فارس في المجمل (٢) »

وفي قوله تعالى « فان أحصرتم فما استيسر من الهدى (٣) . » بين أن ابن العربي حدد المانع في الآية بأنه العدو . وأنه قال هذا هو اختيار علمائنا . وناقش القرطبي ابن العربي فقال : « قلت ما حكاه ابن العربي من أنه اختيار علمائنا لم يقل به إلا أشهب وحده . وخالفه سائر أصحاب مالك في هذا . وقالوا : الاحصار إنما هو المرض . وأما العدو فإنما يقال فيه حصر حصرا فهو محصور . قاله الباجي في المنتقى . وحكى أبو إسحاق الزجاج

(١) آية ٦٠ من سورة البقرة . وكتاب المجمل مطبوع بالقاهرة .
(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٤٤ وما بعدها .
(٣) آية ١٩٦ من سورة البقرة .

أنه كذلك عند جميع أهل اللغة . وقال أبو عبيدة والكسائى : أحصر بالمرض وحصر بالعدو . »

ثم بين أن ابن فارس خالف أكثر أهل اللغة فقال : وفى المجمل لابن فارس على العكس فحصر بالمرض وأحصر بالعدو(١) .

وفى قوله تعالى « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم »(٢) يقول القرطبى « السجود معناه فى كلام العرب التذلل والخضوع » ثم قال : قال ابن فارس سجد إذا تطامن . وكل ما سجد فقد ذل والإسجاد إدامة النظر . قال أبو عمر وأسجد إذا طأطأ رأسه . قال :

فضول أزمتها أسجدت   سجود النصارى لأحبارها(٣)

قال أبو عبيدة : وأنشدنى أعرابى من بنى أسد :

وقلن له اسجد لليلى فأسجدا ..

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه (٤)

ولم يذكر القرطبى مصدره الذى نقل عنه هذا النص وهل هو « كتاب

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٣٧١ .

(٢) آية ٣٤ من سورة البقرة

(٣) هو حميد بن ثور يصف نساء يقول ، لما ارتحلن ولوين فضول أزمة جمالهن على معاصمهن أسجدت أى طأطأت رأسها لهن .

(٤) تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٩١ آية ٣٤ من سورة البقرة وانظر مقاييس اللغة ج ٣ ص ١٣٣

المجمل أم كتاب مقاييس اللغة . . . ولكنى وجدت هذا النص فى كتاب « مقاييس اللغة »

تاج اللغة وصحاح العربية للجوهرى : وهو أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٣ .

أفاد القرطبي من هذا الكتاب اللغوى كثيراً . فقى قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » يقول القرطبى فى المسألة العاشرة الصلاة أصلها فى اللغة الدعاء مأخوذة من صلى يصلى إذا دعا ومنه قوله عليه السلام « إذا دعى أحدكم (١) إلى طعام فليجب فان كان مفطراً فليطعم وإن كان صائماً فليصل » أى فليدع . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة فيصلى ركعتين وينصرف والأول أشهر وعليه العلماء الأكثر ، ولما ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبى صلى الله عليه وسلم قالت أسماء : ثم مسحه وصلى عليه (٢) . أى دعا له . وقال تعالى « وصل عليهم »(٣) أى ادع لهم وقال الأعشى :

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا يارب جنب أبى الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذى صليت فاغتمضى نوما فان لجنب المرء مضطجعا

وقال الأعشى أيضاً :

وقابلها الريح فى دنها وصلى على دنها وارتسم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أبى هريرة « باب الامر باجابة الداعى إلى دعوة » ح ٩ ص ٢٣٦

(٢) أخرجه مسلم باب (استحباب تحنيك المولود عند ولادته) ح ١٤ ص ١٢٥

(٣) آية ١٠٣ من سورة التوبة .

ارتسم الرجل كبر ودعا . قاله فى الصحاح[١] . وفى قوله تعالى « قال إنى أعلم مالا تعلمون »[٢] يقول « أعلم فيه تأويلان » قيل إنه فعل مستقبل وقيل أنه اسم بمعنى فاعل كما يقال الله أكبر بمعنى كبير وكما قال :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل   على أينا تعدو المنية أول[٣]

فعلى أنه فعل تكون « ما » فى موضع نصب بأعلم . ويجوز إدغام الميم فى الميم وإن جعلته اسما بمعنى عالم تكون « ما » فى موضع خفض بالإضافة . . . . قال المهدوى يجوز أن تقدر التنوين فى أعلم إذا قدرته بمعنى عالم . وتنصب « ما » به فيكون مثل حواج بيت الله . قال الجوهرى : ونسوة حواج بيت الله بالإضافة إذا كن قد حججن وإن لم يكن حججن قلت حواج بيت الله فتنصب البيت لانك تريد التنوين فى حواج[٤] .

وفى قوله تعالى « فليستجيبوا لى وليؤمنوا بك لعلهم يرشدون »[٥] . يقول « والرشاد خلاف الغى . وقد رشد يرشد رشداً . ورشد « بالكسر » يرشد رشداً لغة فيه . وأرشده الله . والمراشد مقاصد الطرق، والطريق الأرشد نحو الأقصد وتقول: هو يرشده[٦] خلاف قولك لزنية . وأم راشد، كنية للفأرة وبنو رشدان بطن من العرب عن الجوهرى وقال الهروى : الرشد والرشد

(١) تفسير القرطبى ح ١ ص ١٦٨ آيه ٣ من سورة البقرة وانظر صحاح الجوهرى ح ٢ ص ٥٠٥ والدن واحد الدنان .

(٢) آية ٣٠ من سورة البقرة .

(٣) القائل هو معن بن أوس كان له صديق وكان معن متزوجاباًخته فاتفق أنه طلقها وزوج غيرها فالى صديقه ألا يكلمه أبدا فأنشأ معن يستعطف قلبه ويسترقه له .

(٤) تفسير القرطبى ح ١ ص ٢٧٨ .

(٥) آية ١٨٦ من سورة .

(٦) تفسير القرطبى ح ٢ ص ٣١٣ وما بعدها وانظر صحيح الجوهرى ح ١ ص ٢٢٧

والرشاد . الهدى والاستقامة ومنه قوله « لعلهم يرشدون[١] » .

ولقد ناقش القرطبي ابن فارس والجوهرى وتعقبهما . ومن أمثلة ذلك ما ذكره فى قوله تعالى « وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر » [٢] فقد قال فى المسألة الرابعة :

« وقد يعبر بالعصا عن الاجتماع والافتراق ومنه يقال فى الخوارج : قد شقوا عصا المسلمين أى اجتماعهم وائتلافهم ، وانشقت العصا أى وقع الخلاف قال الشاعر :

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

أى يكفيك ويكفى الضحاك . وقولهم لا ترفع عصاك عن أهلك يراد به الأدب ، والحجر معروف وقياس جمعه فى أدنى العدد أحجار وفى الكثير حجار ، وحجارة ، والحجارة نادر وهو كقولنا : جمل وجمالة وذكر وذكارة . كذا قال ابن فارس والجوهرى وعقب القرطبي على قولهما بقوله :

قلت:وفى القرآن فهى كالحجارة « وإن من الحجارة » [٣] « قل كونوا حجارة » [٤] « ترميهم بحجارة » [٥] « وأمطرنا عليهم حجارة »[٦] فكيف

---

(١) ورشدة بكسر الراء وقد تفتح ومعناه إذا كان لنكاح صحيح .

(٢) آية ٦٠ من سورة البقرة .

(٣) آية ٧٤ من سورة البقرة .

(٤) آية ٥٠ من سورة الاسراء .

(٥) آية ٤ من سورة الفيل .

(٦) آيه ٨٢ من سورة هود.

يكون نادراً إلا أن يريد أنه نادر فى القياس كثير فى الاستعمال فصيح والله أعلم (١) .

مصـادر القرطبي من كتب النحو :

من أبرز المصادر النحوية التى اعتمد عليها القرطبي فى تفسيره :

« الكتاب لسيبويه » وهو « أبو بشر عمرو بن قنبر » المتوفى سنة ١٨٨ ﻫ ومن أمثلة ذلك ما ذكره فى قوله تعالى « واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين » فقد قال :

« والكاف فى « كما » نعت لمصدر محذوف « وما » مصدرية أو كافة ، والمعنى : اذكروه ذكراً حسناً كما علمكم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنه « وإن » مخففة من الثقيلة يدل على ذلك دخول اللام فى الخبر قاله سيبويه (٢) .

وفى قوله تعالى « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة » يقول :

« سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها » ومعنى « بغتة » فجأة يقال : بغتهم الأمر يبغتهم بغتاً وبغتة . وهى نصب على الحال وهى عند سيبويه مصدر فى موضع الحال كما تقول : قتلته صبراً . وتقدير الحال عند سيبويه مفاجأة فالمصدر عند سيبويه لا يكون حالا إلا بعد التأويل وذلك لأن حق الحال أن يكون وصفاً وهو ما دل على معنى وصاحبه كقائم وحسن، شرح الأشمونى ح ١ ص ٢٤٥ .

---

(١) تفسير القرطبي ح ١ ص ٤١٩ .

(٢) تفسير القرطبي ح ٢ ص ٤٢٧ آية ١٩٨ من سورة البقرة .

وأنشد :

فلأيا بلأى ما حملنا وليدنا على ظهر محبوك ظماء مفاصله (١)

« كتاب المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد » المتوفى سنة ٢٨٥هـ

لقد نقل القرطبي عن « أبي العباس المبرد » وأفاد منه ومن كتابه هذا .

ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أو لم تنذرهم لا يؤمنون » فقد قال القرطبي قوله تعالى « لا يؤمنون » موضعه رفع خبر « إن » أي إن الذين كفروا لا يؤمنون وقيل : خبر إن « سواء » وما بعده يقوم مقام الصلة، قاله ابن كيسان. وقال محمد بن يزيد : « سواء » رفع بالابتداء « أأنذرتهم أم لم تنذرهم » (أي من الربط والتفصيل) الخبر والجملة خبر إن (٢) .

وفي قوله تعالى « وأخر متشابهات » يقول القرطبي : لم تصرف « أخر » لأنها عدلت عن الألف واللام لأن أصلها أن تكون صفة بالألف واللام كالكبر والصغر فلما عدلت عن مجرى الألف واللام أي والاخر منعت الصرف . أبو عبيد لم يصرفوها لأن واحدها أي أخرى لا ينصرف في معرفة ولا نكرة . وأنكر ذلك المبرد وقال : يجب على هذا ألا ينصرف غضاب وعطاش . الكسائي : لم تنصرف لأنها صفة وأنكره المبرد أيضاً وقال : إن لبداً وحطما صفتان وهما منصرفان (٣)

---

(١) تفسير القرطبي ح ٦ ص١٢٤ آية ٣١ من سورة الانعام والبيت لزهير بن أبي سلمى والشاهد فيه قوله « لايابلأى » ونصبه على المصدر الموضوع في موضع الحال والتقدير حملنا وليدنا مبطئين . وصف فرسا بالنشاط وشدة الخلق فيقول : إذا حملنا الغلام عليه يصيد امتنع لنشاطه فلم نحمله إلا بعد إبطاء وجهد واللأى : الابطاء ، والمحبوك : الشديد الخلق والظماء هنا القليلة اللحم وهو المحمود منها . وأصل الظمأ العطش .

(٢) تفسير القرطبي ح ١ ص ١٨٤ آية ٦ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ح ٤ ص ١٣ آية ٧ من سورة آل عمران . وكتاب المقتضب كذلك .

وأم بها اعطف إثر همز التسوية   أو همزة عن لفظ أي مغنية

فغضبان مفرد غضاب وهو غير منصرف وكذلك عطشان مفرد عطاش وهو غير منصرف لأنهما مزيدان بالألف واللام . في حين أن غضاب وعطاش مصروفان .

مصادر القرطبي من كتب التوحيد :

« كتب أبي بكر بن الطيب » :

« لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني « المتوفى سنة ٤٠٣ هـ » عدة مؤلفات في العقيدة الأشعرية أفاد منها القرطبي . ولقد مر بنا ما يؤيد ذلك .

كذلك أفاد القرطبي في التوحيد من « كتب أبي المعالي عبد الملك ابن عبد الله الجويني إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨ هـ » ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى: « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » فقد قال القرطبي في المسألة السابعة عشرة : « فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا . قال الإمام أبو المعالي : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين في طرفي العالم . ثم قالوا : لو اتفق عقد الإمامة لشخصين نزل ذلك منزلة تزويج وليين امرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر . قال : والذي عندي فيه أن عقد الإمامة لشخصين في صقع واحد متضايق الخطط والمخاليف[1] غير جائز وقد حصل الإجماع عليه ، فأما إذا بعد المدى وتخلل بين الإمامين شسوع النوى . فللاحتمال في ذلك مجال . وهو خارج عن القواطع[2] .

---

(١) المخاليف الأطراف والنواحي . الكتاب مطبوع بالقاهرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٦٩ ، ٢٧٣ . آية ٣٠ من سورة البقرة .

مصادر القرطبي من كتب التاريخ :

لقد أفاد القرطبي من كثير من المراجع التاريخية ومنها : كتاب «المغازى» لابى عبد الله محمد بن عمر الأسلمي الواقدى ، المتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

وكتاب «سيرة الرسول» ﷺ لابى بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى المتوفى سنة ١٥٠ هـ . ومن الامثلة على ذلك ما ذكره فى قوله تعالى «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما» .

فقد قال: «قال الواقدى : بإسناده عن نافع بن جبير . قال سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أحداً فنظرت إلى النبل تأتى من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطها كل ذلك يصرف عنه . ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا . وإن رسول الله ﷺ إلى جنبه . ما معه أحد . ثم جاوزه . فعاتبه فى ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته أحلف بالله إنه منا ممنوع» .

ثم أخذ القرطبي يتحدث عما أصاب رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم ومن مقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه . ثم بين ما فعلته هند بنت عتبة بجثة حمزة ، فقال : «قال ابن إسحاق : فبقرت هند عن كبد حمزة فلا كتها ولم تستطع أن تسيغها فلفظتها» ثم ذكر ما قاله عبد الله بن رواحة فى رثاء حمزة من من الشعر ومنه قوله :

بكت عينى وحق لها بكاها   وما يغنى البكاء أو العويل

على أسد الإله غداة قالوا   أحمزة ذاكم الرجل القتيل

أصيب المسلمون به جميعا هناك وقد أصيب به الرسول

ثم قال :

ألا يا هند لا تبدى شماتا بحمزة إن عزكم ذليل

ألا يا هند فابكى لا تملى فأنت الواله العبرى الهبول (١)

(١) تفسير القرطبي ح ٤ آية ١٢٢ آل عمران ، الهبول من النساء الثكول .
وانظر سيرة ابن هشام . تحقيق الاساتذة . مصطفى السقا ، إبراهيم الابيارى
وعبد الحفيظ شلبي ص ٩١ ، ١٦٢ ج ٢ ، وكتاب «مغازى الواقدى» مطبوع بالقاهرة.

الفصل الثاني

موقف القرطبي من التفسير والتفسير بالرأي

اختلفت أنظار العلماء في التفسير بالرأي : هل يجوز أو لا ؟ فمنعه بعضهم واستدلوا على ذلك بما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث ، تهاجم من يقول في القرآن برأيه وتتوعده بالنار .

فقد روى الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « اتقوا الحديث على إلا ما علمتم فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » (١) .

وروى أبو داود عن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » (٢) وتحدث السيدة عائشة رضي الله عنها فتصف موقف رسول الله ﷺ من تفسير القرآن فتقول: « ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آيا بعدد علمهن إياه جبريل » (٣) كما استدل هؤلاء

---

(١) أخرجه الترمذي عن ابن عباس « باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه » ح ٤ ص ٢٦٨ انظر الجامع الصحيح مراجعة عبد الرحمن عثمان طبع السلفي بالمدينة المنورة

(٢) أخرجه أيضاً الترمذي عن جندب بن عبدالله وقال هذا حديث غريب وقد تكلم أهل العلم في سهيل بن أبي حزم — أحد رواة الحديث — وأخرجه أبو داود في كتاب العلم ح ٢ ص ٢٦٧ .

(٣) أسنده الطبري إلى هشام بن عروة عن أبيه عن جده عن عائشة وقال الأستاذ أحمد شاكر رواه أبو يعلى والبزار بنحوه .

العلماء بموقف بعض الصحابة والتابعين الذين تحرجوا عن القول فى القرآن بآرائهم . مثل ما نقل عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : « أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى القرآن برأيى أو بما لا أعلم » ومثل ما نقل عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : « أنا لا أقول فى القرآن شيئاً »[١] .

وفى الجانب الآخر نرى القرطبي لا يرتضى ذلك المسلك . فيجيز التفسير بالرأى ويفتح المجال لكل من عنده مؤهلات الفهم والاستنباط . ويقول إن كتاب الله يحوى بين دفتيه آيات تحث على الاعتبار والتدبر . يقول عز وجل « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب »[٢] ويقول « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذى عوج »[٣] ويقول « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »[٤] فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن الله تعالى دعا عباده إلى تدبر القرآن ، والاعتبار بآياته والاتعاظ بمواعظه ، وذلك لا يكون إلا بفهمه وتأويله . وهل يعقل أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ، ولا يعقل تأويله : اعتبر بما لا فهم لك به ولا دراية لك بشأنه، إن ذلك يكون ضربا من العبث — تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً —

وتأول القرطبي ما تمسك به الفريق الأول من أحاديث فبين أن حديث عائشة ليس معناه أن رسول الله ﷺ لم يكن يفسر من القرآن شيئا إلا القليل

---

(١) هذه الاخبار وأمثالها من كتاب الطبرى والقرطبي فى نصوص متفرقة .

(٢) آية ٢٩ من سورة ص .

(٣) آية ٢٧ من سورة الزمر .

(٤) آية ٢٤ من سورة محمد .

النادر . وإلا فأى معنى لقول الله لرسوله « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »(١) وقوله «وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(٢) وإنما هو ... على مغيبات القرآن ، وتفسيره لمجمله ، ونحو ذلك مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى . وسكت القرطبي عن نقد هذا الحديث . مع أن راويه ... بن جعفر الزبيرى » مطعون فيه . فقد قال البخارى فى حقه لا يتابع فى حديثه ، وقال عنه الطبرى : إنه ممن لا يعرف فى أهل الآثار .

وبين القرطبي أن حديث جندب لم تثبت صحته عند المحدثين(٣) . وعلى فرض صحته فإن معناه ومعنى حديث ابن عباس : من قال فى القرآن قولا يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار .

أما موقف بعض الصحابة والتابعين ، وإحجامهم عن تفسير القرآن ، فهذا مسلك غير ملزم وقد بين القرطبي نقلا عن ابن عطية : إن هذا الموقف قوبل بموقف آخر لكثير من الصحابة والتابعين . كانوا منارات تهدى الناس ، وتضىء أمام العقول ما استغلق عليها من معان . ثم عدد القرطبي كثيرا من المفسرين من الصحابة والتابعين ، وذكر ما توجه إليهم من مدح وثناء . وعلل القرطبي ، نقلا عن ابن عطية أيضاً ، موقف المتحرجين عن تفسير القرآن ، بأنهم كانوا

---

(١) آية ٤٤ من سورة النحل .

(٢) آية ٦٤ من سورة النحل .

(٣) قال البخارى فى التاريخ الكبير ، فى حق سهيل بن أبى حزم أحد رواة هذا الحديث « ليس بالقوى عندهم » وروى ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل عن أبيه قال « سهيل ابن أبى حزم ليس بالقوى يكتب حديثه ولا يحتج به وحزم أخوه أتقن منه » .
انظر تفسير الطبرى ج ١ ص ٧٩ طبع دار المعارف .

يفعلون ذلك تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم . أو أن توقفهم ذلك كان فى مشكل القرآن . خوفاً من أن تفسيرهم فى تلك الحالة قد لا يوافق مراد الله عز وجل[1] . وبعد ذلك أخـذ القرطبي يهاجم من يقف فى حدود المأثور بأكثر مما تقدم . فقال : وقال بعض العلماء أن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول »[2] وهذا فاسد لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو : إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل ، والمسموع ، وترك الاستنباط ، أو المراد به أمراً آخر . وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه . فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرأوا القرآن واختلفوا فى تفسيره على وجوه . وليس كل ما قالوه سمعوه من النبى ﷺ . فإن النبى ﷺ دعا لابن عباس وقال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »[3] فان كان التأويل مسموعاً كالتنزيل ، فما فائدة تخصيصه بذلك ، وهذا بين لا إشكال فيه ، وإنما النهى يحمل على أحد وجهين أحدهما : أن يكون له فى الشىء رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه . فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه . ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وبعد أن بين القرطبي أن هذا النوع يستعمله أهل الأهواء والبدع ويستعمله أيضاً الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة ، بعد هذا تكلم عن الوجه الثانى وحدد المراد به فقال : « الوجه الثانى أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية

---

(١) أخذت موقف القرطبي هذا من جملة ما ذكره فى مقدمته فى باب ما جاء من الوعيد فى التفسير بالرأى .

(٢) آية ٥٩ من سورة النساء .

(٣) أخرجه مسلم فى فضائل عبد الله بن عباس ج ١٦ ص ٣٧ بلفظ « اللهم فقهه » والحديث بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم صحيح الاسناد . انظر المغنى عن حمل الاسفار فى الاسفار على هامش الاحياء ج ١ ص ٦٣ طبع الشعب .

من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة (١) وما فيه من الاختصار والحذف، والإضمار، والتقديم والتأخير. فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي». ثم قال: «والنقل والسماع لابد له منه في ظاهر التفسير أولا ليتقي به مواضع الغلط. ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط. والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ألا ترى أن قوله تعالى «وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها» معناه آية مبصرة. فظلموا أنفسهم بقتلها. فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولا يدري بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم. فهذا من الحذف والإضمار، وأمثال هذا في القرآن كثير. وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهي إليه والله أعلم».

هذا موقف «القرطبي». وهو مسبوق بما وصل إليه «ابن عطية والطبري والغزالي» وغيرهم. ولقد استشهد بعض الباحثين المحدثين بموقف: «الغزالي والقرطبي» على جواز التفسير بالرأي، والدعوة إليه (٢).

وأحب أن أقول لا يفهم من موقف القرطبي هذا أنه أهمل التفسير المأثور؟ كلا إنه دعا إليه أولا كما يفهم من عبارته «والنقل والسماع لابد منه — أي للمفسر — في ظاهر التفسير أولا ليتقي به مواضع الغلط إلى آخر ما قاله» ويبدو أن هذا ليس دعوة إلى تفسير المأثور فقط. وإنما هو فوق ذلك

(١) المنقولة من أصل معناها اللغوي إلى معنى إسلامي متعارف كلفظ الصلاة والوضوء وغير ذلك. انظر موقف العلماء من التفسير بالرأي في تفسير الطبري ج ١ ص ٧٧، ٨٤ ومناهل العرفان ج ١ ص ٥٢٢ والتفسير والمفسرون ج ١ ص ٥٢.

(٢) انظر تفسير التحرير لطاهر بن عاشور ج (١) المقدمة الثالثة.

دعوة إلى عدم الانتقال إلى الاجتهاد والرأى إلا بعد سماع أو معرفة ما قاله أئمة الدين والعربية — أى بعد توفر أسبابه ومؤهلاته — وعلى هـذا فإننا نرى « القرطبي » كثيراً ما يعرض للتفسير المأثور عن رسول الله ﷺ . وعن الصحابة والتابعين أثناء شرحه لآيات القرآن الكريم .

منهج القرطبي فى التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ :

كان منهج القرطبي فى التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ ، أنه يقف عنده ، ويقتصر عليه فى شرح اللفظ والآية ، ولا يستعرض غيره من آراء المفسرين لأنه لا مجال للاجتهاد والرأى مع النص . ويتضح ذلك فيما يأتى :

فى قوله تعالى « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » فسر « القرطبي » هذه الآية بما ورد عن رسول الله ﷺ فقال : فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عنـد رسول الله ﷺ قال : « هل تدرون مم أضحك » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال « من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرنى من الظلم قال يقول بلى . فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى. قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقى قال فتنطق بأعماله . قال ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل. وبين القرطبى أن هـذا الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة أيضاً وفيه « ثم يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر فى نفسه، من ذا الذى يشهد علىّ ؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه . وذلك المنافق وذلك

---

(١) آية ٦٥ من سورة يس .

الذى يسخط الله عليه » (١) .

وفى قوله تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا » فسر الحساب اليسير بأنه الذى لا مناقشة فيه . ثم قال « كذا روى عن النبي ﷺ من حديث عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من حوسب يوم القيامة عذب » قالت فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا » ؟ فقال « ليس ذاك الحساب . إنما ذلك العرض . من نوقش الحساب يوم القيامة عذب » . أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وقال حديث حسن صحيح (٢) .

وقد يستعرض القرطبي بعض آراء المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم إلى جانب ما ورد عن رسول الله ﷺ . وفى تلك الحالة نرى القرطبي يرجح المأثور عن رسول الله ﷺ ، ويقف بجواره ، ويرد ما يخالفه ففى قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » يقول القرطبي : « روى من حديث أنس قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى « وزيادة » قال : « الذين أحسنوا العمل فى الدنيا لهم الحسنى وهى الجنة » . والزيادة النظر إلى وجه الله

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٤٨ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٩ ص ٢٧٢ آية ٧ ، ٨ من سورة الانشقاق . والحديث أخرجه البخارى فى كتاب التفسير « باب فسوف يحاسب حساباً يسيرا » انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ج٣ ص١٣٩ وأخرجه مسلم « باب إثبات الحساب » ج ١٧ ص ٢٠٨ وأخرجه الترمذى فى « أبواب تفسير القرآن » سورة الانشقاق انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للامام الحافظ محمد بن عبد الرحمن المباركفورى ج ٩ ص ٢٥٦ .

الكريم » (٣) وهو قول أبي بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب في رواية ، وحذيفة ، وعبادة بن الصامت ، وكعب بن عجرة ، وأبي موسى ، وصهيب ، وابن عباس في رواية ، وهو قول جماعة من التابعين . وهو الصحيح في الباب . ثم أخذ القرطبي في سرد بعض روايات أخرى فقال : « وروى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » وفي رواية ثم تلا « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » وأخرجه النسائي أيضاً عن صهيب قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذه الآية « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار(٢). نادى مناد يا أهل الجنة . ان لكم موعدا عند الله يريد أن ينجزكموه . قالوا : ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويجرنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه . والله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر، ولا أقر لأعينهم» وبعد هذا ذكر القرطبي أقوالا أخرى تختلف مع هذا التفسير ولكنه أبان عن منهجه ، وأنه يقف عند التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال في صدر كلامه : « وهو الصحيح في الباب » .

وفي قوله تعالى « إنا أعطيناك الكوثر » يقول القرطبي في المسألة الثانية « واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم على

---

(١) قال ابن كثير هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم من حديث زهير انظر تفسير ابن كثير ح ٢ ص ٤١٤ .

(٢) أخرجه مسلم في باب ما جاء في رؤية الله عز وجل ح ٣ ص ١٧ وأخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن انظر الجامع الصحيح ح ٤ ص ٣٤٩ طبع السلفية بالمدينة . وانظر تفسير القرطبي ح ٨ ص ٣٣٠ آية ٢٦ من سورة يونس .

ستة عشر قولا . الأول : أنه نهر في الجنة رواه البخاري عن أنس والترمذي[(١)] أيضاً . وروى الترمذي أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت . تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج . هذا حديث حسن صحيح . الثاني أنه : حوض النبي ﷺ في الموقف . قاله عطاء ، وفي صحيح مسلم عن أنس قال : بينا نحن عند رسول الله ، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما . فقلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : نزلت على آنفاً سورة . فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم « إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر » ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة . آنيته عدد النجوم[(٢)] . فيختلج العبد[(٣)] منهم فأقول إنه من أمتي . فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك .

ثم أخذ القرطبي يذكر بقية الآراء . « وأنه قيل في الكوثر : أنه النبوة والكتاب ، وقيل فيه الإسلام ، وقيل الإيثار ، وقيل الفقه في الدين . الخ ما ذكره » . وعقب القرطبي بما يوضح منهجه فقال « قلت أصح هذه الأقوال الأول والثاني . لأنه ثابت عن النبي ﷺ نص في الكوثر . وسمع أنس قوما يتذاكرون في الحوض فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير انظر صحيح البخاري بحاشية السندي ج ٣ ص ١٤٣ وأخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن انظر تحفة الأحوذي ج ٩ ص ٢٩١ وما بعدها . وأخرج أيضا حديث ابن عمر في أبواب تفسير القرآن .

(٢) أخرجه النسائي في كتاب الصلاة باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم ج ٢ ص ١٣٤ ولم أعثر عليه في صحيح مسلم .

(٣) يختلج بالبناء للمجهول معناه ينتزع ويقطع .

يتبارون فى الحوض . لقد تركت عجائز خلفى ما تصلى امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي ﷺ . وفى حوضه يقول الشاعر :

يا صاحب الحوض من يدانيكا وأنت حقاً حبيب باريكا

هكذا كان يسير القرطبي فى التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ يقف عنده ، ولا يتجاوزه أو يتخطاه : ولكنه أحيانا كان يذكر بعض آراء المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم . إلى جانب ما ورد عن رسول الله ﷺ . ورغم أن بعضها يختلف معه . فإننا نراه يسكت ولا يعقب عليها . أو يعلن دفاعه عن المأثور عن رسول الله ﷺ كما عودنا دائما . ولعله يكون قد ارتضى هذه الآراء . إلى جانب المأثور عن رسول الله ﷺ . فنى قوله تعالى « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » الآية . يقول القرطبي قوله تعالى « لهم البشرى فى الحياة الدنيا » . عن أبى الدرداء قال سألت رسول الله ﷺ عنها فقال « ما سألنى أحد عنها غيرك منذ أنزلت . هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو أو ترى له» أخرجه الترمذى فى جامعه (١) . وقال الزهرى وعطاء وقتادة . هى البشارة التى تبشر بها الملائكة المؤمن فى الدنيا عند الموت . وعن محمد ابن كعب القرظى قال : إذا استنقعت (٢) نفس العبد المؤمن جاء ملك الموت فقال : السلام عليك ولى الله . الله يقرئك السلام . ثم نزع بهذه الآية « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم (٣) » ذكره ابن المبارك وقال قتادة والضحاك : هى أن يعلم أين هو قبل أن يموت . وقال الحسن : هى ما يبشرهم الله تعالى فى كتابه من جنته ، وكريم ثوابه بقوله : « يبشرهم ربهم

(١) أخرجه الترمذى فى أبواب تفسير القرآن ج ٤ ص ٣٥٠ .

(٢) إذا اجتمعت فيه تريد الخروج كما يستنقع الماء فى قراره وأراد بالنفس الروح .

(٣) آية ٣٢ من سورة النحل .

برحمة منه ورضوان(١) » وقوله « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات(٢)»وقوله «وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون(٣)»

ولهذا قال « لا تبديل لكلمات الله » أي لاخلف لمواعيده وذلك لأن مواعيده بكلماته (٤) .

منهج القرطبي في التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين :

لم يهمل القرطبي التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين . فضمن تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » بهذا اللون من التفسير . ولكن القرطبي كان يقرن أقوال الصحابة والتابعين بأقوال غيرهم من المفسرين . ثم يحاول الجمع بين هذه الآراء كلها إن أمكن .

ففي قوله تعالى « وإذا خلوا إلى شياطينهم » يقول القرطبي : واختلف المفسرون في المراد بالشياطين هنا، فقال ابن عباس والسدى : هم رؤساء الكفر. وقال الكلبي : هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ثم قال : ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان يعم جميع من ذكر والله أعلم (٥) .

فإذا تعذر الجمع لجأ القرطبي إلى المفاضلة والترجيح . فيختار من الآراء ما تؤيده الأدلة والقرائن . سواء كان ذلك منسوبا إلى الصحابة أو إلى التابعين

(١) آية ٢٢ من سورة التوبة .

(٢) آية ٢٥ من سورة البقرة .

(٣) آية ٣٠ من سورة فصلت .

(٤) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٥٨ آية ٦٤ من سورة يونس .

(٥) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٠٧ آية ١٤ من سورة البقرة .

أو إلى غيرهم من المفسرين . وقواعد الترجيح عنده تقوم إما على العموم ، وإما على اللغة ، وإما على سياق الآيات ، وإما على ما تشهد له الأحاديث ، وإما على دلالة بعض القراءات التفسيرية على صحته .

ففي قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » يقول القرطبي في المسألة الحادية عشرة : اختلف أهل التأويل في العالمين اختلافا كثيرا فقال قتادة : العالمون جمع عالم وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل قوم ورهط . وقيل أهل كل زمان عالم قاله الحسين بن الفضل لقوله تعالى « أتأتون الذكران من العالمين[1] » أي من الناس وقال العجاج :

فخندف[2] هامة هذا العالم

ونقل عن ابن عباس أنه قال : العالمون الجن والإنس . دليله قوله تعالى « ليكون للعالمين نذيرا[3] » ولم يكن نذيراً للبهائم ، وقال الفراء وأبو عبيدة : العالم عبارة عمن يعقل وهم أربعة أمم : الإنس ، والجن ، والملائكة ، والشياطين ؛ ولا يقال للبهائم عالم . لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة . قال الأعشى :

ما إن سمعت بمثلهم في العالمينا

---

(١) آية ١٦٥ من سورة الشعراء .

(٢) خندف اسم قبيلة من العرب .

(٣) آية ١ من سورة الفرقان . ولقد بين الطبري اسناد هذا الحديث . وأنه عن محمد بن سنان القزاز عن أبي عاصم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس . ثم بين الأستاذ / أحمد شاكر أن محمد بن سنان القزاز شيخ الطبري ، تكلم فيه علماء الجرح . من أجل حديث واحد . ثم قال : والحق أنه لا بأس به . وله ترجمة جيدة في تاريخ بغداد ٥ : ٣٤٣ ، ٣٤٦ .

ثم ذكر القرطبي أقوالا أخرى عقب في نهايتها بقوله :

قلت والقول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق وموجود دليله قوله تعالى « قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما [١] » ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجد ، كذا الزجاج قال : العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة . وقال الخليل : العلم والعلامة والمعلم ما دل على الشيء فالعالم دال على أن له خالقاً ومدبراً وهذا واضح [٢] .

فالقرطبي قد رجح قول قتادة على قول ابن عباس وغيره من المفسرين وقام الترجيح عنده على العموم .

ويتضح هذا أيضاً في قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » [٣] فقد قال في المسألة الخامسة والعشرين :

واختلف العلماء في المراد بالنفقة ها هنا . فقيل : الزكاة المفروضة . روى عن ابن عباس لمقارنتها الصلاة ، وقيل : نفقة الرجل على أهله . روى عن ابن مسعود لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك » وقيل : المراد صدقة التطوع روى عن الضحاك « نظراً إلى أن الزكاة لا تأتى إلا بلفظها المختص بها ، وهو الزكاة ، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت الفرض والتطوع فإذا جاءت بلفظ الإنفاق ، لم تكن إلا التطوع . . » ثم قال

(١) آية ٢٣ من سورة الشعراء .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٣٨ وما بعدها .

(٣) آية ٣ من سورة البقرة .

القرطبي « وقيـــل هو عام وهو الصحيح ، لأنه خرج مخرج المدح في الإنفاق مما رزقوا وذلك لا يكون إلا من الحلال . أي يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة وغيرها ، مما يعن في بعض الأحوال مع ما ندبهم إليه [(١)] »

وفي قوله تعالى « ومنهم من يلمزك في الصدقات [(٢)] » بين القرطبي معنى « يلمزك » نقلا عن قتـادة بأنه يطعن عليك ، وأن المعنى في قول الحسن « يعيبك » وفي قول مجاهد المعنى يروزك[(٣)] ويسألك . ورجح القرطبي قول قتادة والحسن ، ورد قول مجاهد لأن اللغة لا تشهد له . فقال : والقول عند أهل اللغة قول قتادة والحسن . يقال لمزه يلمزه إذا عابه . واللمز في اللغة العيب في السر . قال الجوهري : اللمز العيب . وأصله الإشارة بالعين ونحوها وقد لمزه ويلمزه وقرىء بهما « ومنهم من يلمزك في الصـدقات » ورجل لماز ولمزة أي عياب . ثم فسر القرطبي الآية بما يتفق مع هذا[(٤)] .

وفي قوله تعالى « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا [(٥)] » يقول القرطبي وفي قوله « أفمن زين له سوء عمله » أربعة أقوال . أحدها : أنهم اليهود والنصارى والمجوس . قال أبو قلابة ويكون سوء عمله معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام . الثاني : أنهم الخوارج . رواه عمر بن القاسم . فيكون سوء عمله تحريف التأويل . الثالث الشيطان قاله الحسن . ويكون سوء عمله الإغواء . الرابع : كفار

---

(١) تفسير القرطبي ح ١ ص ١٧٩ والحديث أخرجه مسلم باب فضل النفقة على العيال والمملوك ح ٧ ص ٨٢ .

(٢) آية ٥٨ من سورة التوبة .

(٣) الروز الامتحان والتقدير .

(٤) تفسير القرطبي ح ص ١٦٦ بتصرف .

(٥) آية ٨ من سورة فاطر .

قريش . قاله الكلبي . ويكون سوء عمله الشرك ثم عقب فرجح بعض الآراء لأن كثيراً من الآيات تشهد له وكذلك السياق . فقال : « والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال . لقوله تعالى: «ليس عليك هداهم » [١] وقوله «ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » [٢] وقوله « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا [٣] » وقوله « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين [٤] » وقوله في هذه الآية « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » وهذا ظاهر بين أي لا ينفع تأسفك على كفرهم فإن الله أضلهم [٥] .

وفي قوله تعالى « .. .. .. وامرأة مؤمنة [٦] » يقول القرطبي « المعنى وأحللنا لك امرأة تهب نفسها من غير صداق . وقد اختلف في هذا المعنى فروى عن ابن عباس أنه قال : لم تكن عند رسول الله ﷺ امرأة إلا بعقد نكاح ، أو ملك يمين فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد . وقال قوم كانت عنده موهوبة » . ثم رجح القرطبي القول الثاني لأن بعض الأحاديث تؤيده وتشهد له فقال: قلت : والذي في الصحيحين يقوي هذا القول ويعضده ؛ روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أما تستحي امرأة تهب نفسها لرجل حتى أنزل الله تعالى « ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء [٧] » فقلت والله

---

(١) آية ٢٧٢ من سورة البقرة .

(٢) آية ١٧٦ من سورة آل عمران .

(٣) آية ٦ من سورة الكهف .

(٤) آية ٣ من سورة الشعراء .

(٥) تفسير القرطبي ج ١٤ ص٣٢٥ وما بعدها .

(٦) آية ٥٠ من سورة الاحزاب .

(٧) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ج ٣ ص ١١٥ انظر صحيح البخاري بحاشية السندي .

ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك ، وروى البخارى عن عائشة أنها قالت : كانت خولة بنت حكيم من اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ فدل هذا على أنهن كن غير واحدة(١)

وفى قوله تعالى « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم »(٢) رجح القرطبى بعض الآراء لأن كثيراً من قواعد الترجيح السابقة يشهد له . ولأن بعض القراءات التفسيرية أيضاً تؤيده . يقول القرطبى فى المسألة الثالثة عند قوله تعالى « وأزواجه أمهاتهم » « واختلف الناس : هل هن — أى أزواج رسول الله ﷺ — أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة على قولين : فروى الشعبى عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة قالت لها : ياأمه . فقالت لها : لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم » قال ابن العربى : وهو الصحيح . قلت — والقائل القرطبى — « لا فائدة فى اختصاص الحصر فى الإباحة للرجال دون النساء والذى يظهر لى أنهن أمهات الرجال والنساء تعظيما لحقهن على الرجال والنساء يدل عليه صدر الآية « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة. ويدل على ذلك حديث أبى هريرة وجابر فيكون قوله « وأزواجه أمهاتهم » عائداً إلى الجميع ، ثم إن فى مصحف أبى بن كعب « وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » — وقرأ ابن عباس « من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم » وهذا كله يوهن ما رواه مسروق ، إن صح ، من جهة الترجيح وإن لم يصح . فيسقط الاستدلال به فى التخصيص وبقينا على الأصل الذى هو العموم الذى يسبق إلى الفهوم(٣) .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٢٠٨ .

(٢) آية ٦ من سورة الاحزاب .

(٣) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١٢٣

أما حديث أبى هريرة وجابر الذى يشير إليـــه القرطبى فهو ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ، قال : قال ﷺ « إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه » وأخرج مثله عن جابر . وقال بدل قوله « وأنتم تقحمون فيه » «وأنتم تفلتون من يدى»(١) .

وأحياناً نرى القرطبى يعرض آراء الصحابة والتابعين ويوجهها ويكتفى بذلك ولا يعقب عليها . ولعله فى تلك الحالة يعرب عن رضاه عنها كلها .

فنى قوله تعالى « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى (٢) » يقول : والأمانى جمع أمنية وهى التلاوة . وأصلها أمنوية على وزن أفعولة . فأدغمت الواو فى الياء فانكسرت النـون من أجل الياء فصارت أمنية . ومنه قوله تعالى « إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته(٣) » أى إذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته ، وقال كعب بن مالك :

تمنى كتاب الله أول ليلة

وآخره لاقى حمـــام المقادر .

والأمانى أيضاً : الأكاذيب . ومنه قول عثمان رضى الله عنه : ما تمنيت منذ أسلمت أى ما كذبت . وقول بعض العرب لابن دأب وهو يحدث : أهذا شىء رويته أم شىء تمنيته ؟ أى افتعلته . وبهذا المعنى فسر ابن عباس ومجاهد « أمانى » فى الآية . والأمانى أيضاً ما يتمناه الإنسان ويشتهيه . قال قتادة : « إلا أمانى »

---

(١) أخرجها مسلم فى باب شفقته صلى الله عليه وسلم على امته ج ١٥ ص ٤٩

(٢) آية ٧٨ من سورة البقرة

(٣) آية ٥١ من سورة الحج

يعني أنهم يتمنون على الله ما ليس لهم . وقيل: الأماني التقدير يقال مُنى له أي قدر، قاله الجوهري وحكاه ابن بحر وأنشد:

لا تأمن وإن أمسيت في حرم   حتى تلاقي ما يمني لك الماني

أي يقدر لك القادر . ولم يعقب القرطبي على هذه الآراء . فلعله قد ارتضاها كما قلت .

إذن فالقرطبي لم يكن ينتقل بعد التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ إلى التفسير المأثور عن الصحابة يبحث عنه ، ويقف بجواره ، ولكنه كان يذكر المأثور عن التابعين ، وآراء كثير من المفسرين إلى جواره غالباً ثم يجمع بين هذه الآراء تارة ، ويعرضها تارة ، ويرجح بعضها ، مرة ثالثة ، وقد يخرج عن آراء الصحابة والتابعين ، لأن الأدلة والقرآن لا تشهد لها ولا تؤيدها ومن حقنا أن نتساءل كيف جاز القرطبي أن يفاضل بين آراء الصحابة والتابعين ولماذا لم يقدم قول الصحابي على قول التابعين ؟ وكيف جاز له أن يخرج على التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين ؟ ؟

لقد اعتبر أكثر العلماء تفسير الصحابي من قبيل الموقوف فهو رأي له وليس قولا لرسول الله ﷺ ولهذا فهو عرضة للخطأ، وذهب فريق آخر إلى أن أقوال الصحابة حجة يجب الأخذ بها فهي وإن كانت من قبيل الرأي والاجتهاد . فاجتهادهم أرفع شأنا وأعلى مقاما . لأنهم أذكى عقولا وأقوى فهما واستنباطا من سائر الناس[1] .

ورغم هذا الخلاف فقد اتفق الفريقان ، على أن تفسير الصحابي له حكم

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣ والتفسير والمفسرون لاستاذنا الشيخ محمد حسين الذهبي ج ١ ص ٩٦ طبع دار الكتب الحديثة.

المرفوع ، إذا كان لا يعرف بالرأى والاجتهاد . كأسباب النزول ، وأحوال يوم القيامة ، ونحوها مما لا مجال للرأى فيه . وكذلك قال أكثر العلماء فى تفسير التابعين إذا كان مما لا مجال للرأى فيه « إن له حكم المرفوع » .

ولقد عبر عن ذلك ابن الصلاح فقال «وأما قول من قال: تفسير الصحابى مرفوع . فذاك فى تفسير يتعلق بسبب نزول آية كقول جابر : كانت اليهود تقول ، من أتى امرأته من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول فأنزل الله تعالى « نساؤكم حرث لكم » الآية رواه مسلم . . أو نحوه مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ﷺ ، ولا مدخل للرأى فيه . وغيره موقوف . وكذا يقال فى التابعى إلا أن المرفوع من جهته مرسل . [1] ويقصد « ابن الصلاح » بقوله « وأما قول من قال تفسير الصحابى مرفوع» وهو الحاكم (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابورى المتوفى فى سنة ٤٠٤ هـ) . فقد قال الحاكم فى مستدركه « ليعلم طالب الحديث أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل عند الشيخين حديث مسند » .

ولقد بين السيوطى أن الحاكم قيد ما أطلقه فقال مرة ثانية فى كتابه « معرفة علوم الحديث » فأما ما نقوله من أن تفسير الصحابة مسند . فإنما نقوله فى غير هذا النوع — أى ما كان من قبيل الرأى والاجتهاد — ثم أورد حديث جابر فى قصة اليهود وقال : فهذا وأشباهه مسند ليس بموقوف . فإن الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها

---

(١) تدريب الراوى بتحقيق الشيخ « عبد الوهاب عبد اللطيف » المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ص ١١٩ وما بعدها .

نزلت فى كذا فإنه حديث مسند . (١)

وإذا كان أكثر العلماء قد قالوا : أن آراء الصحابة من قبيل الموقوف لا من قبيل المرفوع فلا حرج على القرطبي إذا فاضل بين آراء التابعين ولا حرج عليه إذا خرج عن آرائهم وأقوالهم .

لكن ما هو موقفه من آراء الصحابة والتابعين التى تتصل بأسباب النزول أو نحوها مما لا يعلم إلا بتوقيف ؟

إن القرطبى كان يأخذ بأقوال الصحابة والتابعين فى أسباب النزول إذا اتفقت • ففى قوله تعالى « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها و تشتكى إلى الله » الآية بين فى المسألة الأولى سبب نزولها « قالت عائشة رضى الله عنها : تبارك الذى وسع سمعه كل شىء إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وهى تقول : يا رسول الله أكل شبابى ، ونثرت له بطنى حتى إذا كبر سنى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ». أخرجه ابن ماجه فى السنن . (٢) وساق القرطبي كثيراً من الروايات التى أخرجها المحدثون . وذكر ما قاله ابن عباس والحسن وغيرهما فى سبب نزول الآية وكلها متقاربة . ولم يبد عليها اعتراضا ولم يخرج عنها فى تفسير الآية (٣) .

---

(١) تدريب الراوى للسيوطى ص ١١٦ وحديث جابر المشار إليه أخرجه البخارى فى كتاب التفسير
انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ج ٣ ص ٧٠

(٢) أخرجه ابن ماجه فى السنن باب الظهار • انظر سنن ابن ماجه بحاشية السندى طبع التازية ج ١ ص ٣٢٥

(٣) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٧٠ آية ١ من سورة المجادلة

أما إذا اختلفت آراؤهم فإننا نرى القرطبي في بعض الأحيان يحاول الجمع بينها . ففي قوله تعـالى « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » الآية يقول القرطبي في سبب النزول : « ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رجالا من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم النبي ﷺ اعتذروا إليه ، وحلفوا ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا . فنزلت « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » الآية وفي الصحيحين أيضاً أن مروان (١) قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتي ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعين . فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية . إنما أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب . ثم تلا ابن عباس « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » و « ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » وقال ابن عباس : سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم

---

(١) مروان هو مروان بن الحكم ابن العاص وكان يومئذ أميراً على المدينة من قبل معاوية . والحديث الأول أخرجه البخاري في كتاب التفسير وأخرج الحديث الثاني عن ابن جريج انظر صحيح البخاري بحاشية السندي ح ٣ ص ٧٦ والشيء الذي سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عنه مفسراً وقوله « يفرحون بمـا أتوا » أي بكتمانهم محمداً . واستحمدوا بفتح التاء مبنياً للفاعل أي طلبوا أن يحمدهم . وقيل أنها بصيغة المبني للمجهول من استحمد فلان عند فلان أي صار محموداً عنده والسين فيه للصيرورة . انظر تحفة الأحـوذي ح ٨ ص ٢٦٦ وما بعدها

إياه ، وما سألهم عنه ؛ ثم قال القرطبي : وقال محمد بن كعب القرظي : نزلت في علماء بني إسرائيل الذين كتموا الحق ، وأتوا ملوكهم من العلم ما يوافقهم في باطلهم « واشتروا به ثمناً قليلا » أي بما أعطاهم الملوك من الدنيا . فقال الله لنبيه ﷺ « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » فأخبر أن لهم عذاباً أليما بما أفسدوا من الدين على عباد الله . وذكر قريبا من هذا عن الضحاك ثم قال : والحديث الأول بمقتضى الحديث الثاني ، ويحتمل أن يكون نزولها على السببين لاجتماعهما في زمن واحد فكانت جواباً للفريقين (١) .

والقرطبي وإن كان جمع بين ما قاله أبو سعيد الخدري في الحديث الأول وبين ما قاله ابن عباس في الحديث الثاني . فان ما قاله الضحاك وما قاله محمد ابن كعب القرظي لا يختلف كثيراً عما قاله الصحابة . فكأن القرطبي جمع بين آراء الصحابة والتابعين . فاذا لم يكن الجمع رجح القرطبي بعض آراء الصحابة أو التابعين وبنى ترجيحه على ما يحيط بالكلام من أدلة وقرائن . وقد يخرج على أقوال الفريقين .

ففي قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين » رجح القرطبي بعض آراء التابعين . لأن سياق الآية يشهد له ويؤيده . يقول القرطبي في المسألة الأولى : « ومنهم من عاهد الله » قال قتادة : هذا رجل من الأنصار قال لئن رزقني الله شيئاً لأؤدين فيه حقه ولأتصدقن . فلما آتاه الله ذلك فعل ما نص عليكم . فاحذروا الكذب فانه يؤدي إلى الفجور . وروى علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة الباهلي : أن ثعلبة بن حاطب

---

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣٠٦ آية ١٨٨ من سورة آل عمران .

الأنصاري — فسماه — قال للنبي ﷺ : ادعوا الله أن يرزقني مالا فقال عليه السلام « ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه » ثم عاود ثانيا فقال النبي ﷺ « أما ترضى أن تكون مثل نبي الله لو شئت أن تسير معى الجبال ذهبا لسارت » (١) فقال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه . فدعا له النبي ﷺ فاتخذ غنما فنمت كما تنمى الدود . فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها . ونزل واديا من أوديتها . حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة وترك ما سواهما . ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة . وهي تنمى (٢) حتى ترك الجمعة أيضاً . فقال رسول الله ﷺ : « ياويح ثعلبة » ثلاثا ثم نزل « خذ من أموالهم صدقة » (٣) . فبعث ﷺ رجلين على الصدقة . وقال لهما : « مرا بثعلبة وبفلان — رجل من بني سليم — فخذا صدقاتهما » فأتيا ثعلبة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال : ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا . . الحديث — وهو مشهور وقيل سبب غناء ثعلبة أنه ورث ابن عم له . قال ابن عبد البر : قيل أن ثعلبة

---

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبي حاتم والطبري وابن مردويه كلهم من طريق علي بن زيد القاسم بن عبد الرحمن وهذا إسناد ضعيف جداً . انظر الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ بن حجر على هامش تفسير الكشاف ح ٢ ص ٢٢٩ . ولقد بين ابن حجر أن ثعلبة بن حاطب من البدريين ونقل أنه رجل آخر من المنافقين ثم قال فعلهما اثنان . وقال الأستاذ محمود شاكر هذا الخبر رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الالهاني .وهو متروك . انظر تفسير الطبري ح ١٤ ص ٣٧٣

(٢) في الصحاح نمى المال وغيره ينمي بالكسر نماء بالفتح والمد . وربما جاء من باب سما . ونما الحديث إلى فلان أسنده إليه ورفعه . ونمى الرجل إلى ابيه نسبه وبابهما رمى .

(٣) آية ١٠٣ من سورة التوبة .

ابن حاطب هو الذى نزل فيه « ومنهم من عاهد الله » الآية . إذ منع الزكاة فالله أعلم .

وما جاء فيمن شهد بدراً يعارضه قوله تعالى فى الآية « فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم » الآية. ثم يقول القرطبي . قلت : وذكر عن ابن عباس فى سبب نزول الآية أن حاطب بن أبى بلتعة أبطأ عنه ماله بالشـــام فحلف فى مجلس من مجالس الأنصار إن سلم ذلك لأتصدقن منه ولأصلن منه فلما سلم بخل بذلك فنزلت، ولكنه عارض الرأى وضعفه، وأيد قول ابن عبد البر السابق واستدل على عدم صحة هذا الرأى بما نقله ثانياً عن ابن عبد البر فقال : قلت وثعلبة بدرى أنصارى. وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان . فما روى عنه غير صحيح: قال أبو عمر: ولعل قول من قال فى ثعلبة إنه مانع الزكاة الذى نزلت فيه الآية غير صحيح والله أعلم. وقال الضحاك : إن الآية نزلت فى رجال من المنافقين « نبتل بن الحارث وجـد ابن قيس ومعتب بن قشير » وارتضى القرطبي هذا الرأى وأيده فقال قلت وهذا أشبه بنزول الآية فيهم إلا أن قوله « فأعقبهم نفاقا » يدل على أن الذى عاهد الله لم يكن منافقا من قبل . إلا أن يكون المعنى زادهم نفاقا فأثبتوا عليه إلى الممات وهو قوله تعالى « إلى يوم يلقونه » (١) .

وفى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس (٢) » خرج القرطبي عن آراء الصحابة والتابعين. فقال فى المسألة الأولى : « وقال قتادة ومجاهد: كـانوا يتنافسون فى مجلس النبى ﷺ فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض، وقاله الضحاك. وقال ابن عبـاس : المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا

---

(١) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٠٩ آية ٧٥ من سورة التوبة

(٢) آية ١١ من سورة المجادلة

الحرب. قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب : كان النبي ﷺ إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأول ، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتـــال والشهادة ، فنزلت فيكون كقوله «مقاعد القتال» (أي تصفهم وتسوي صفوفهم) وقال مقاتل : كان النبي ﷺ في الصفة وكان في المكان ضيق يوم الجمعة . وكان النبي ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس ، وقد سبقوا في المجلس . فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم . فلم يفسحوا لهم فشق ذلك على النبي ﷺ . فقال لمن حوله من غير أهل بدر « قم يا فلان وأنت يا فلان » بعدد القائمين من أهل بدر فشق ذلك على من أقيم ، وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم . فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا : ما أنصف هؤلاء قد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان. فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

وخرج القرطبي عن آراء الصحابة والتابعين فقال : « قلت الصحيح في الآية أنها عامة . في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر سواء كان مجلس حرب أو ذكر ، أو مجلس يوم الجمعة . فان كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه . قال ﷺ : « من سبق إلى ما لم يسبق إليه فهو أحق به » (١) ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه . روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه » (٢) وعنه عن النبي ﷺ أنه « نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس

---

(١) أخرجه مسلم بمعناه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا قام أحدكم . وفي حديث أبي عوانة «من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به . انظر صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٦١

(٢) أخرجه مسلم في باب تحريم اقامة الانسان من موضعه الذى سبق إليه ج ١٤ ص ١٦٠ .

فيه آخر ولكن تفسحوا وتوسعوا » وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه[1] لفظ البخاري[2] وكذلك فعل القرطبي في قوله تعالى « لابثين فيها أحقاباً » فقد نقل عن عمر وأبي هريرة أن الحقب ثمانون سنة ونقل عن الحسن أنه سبعون ألف سنة . ونقل أقوالا كثيرة . ثم عقب في نهايتها بقوله : قلت هذه أقوال متعارضة والتحديد في الآية للخلود يحتاج إلى توقيف يقطع العذر وليس ذلك بثابت عن النبي ﷺ . وإنما المعنى والله أعلم ما ذكرنا ، أولا ، أى لابثين فيها أزمانا ودهورا كلما مضى زمن يعقبه زمن ، ودهر يعقبه دهر وهكذا أبد الآبدين من غير انقطاع »[3] .

ولا حرج على القرطبي في ذلك ، لأنه رغم اختلاف مناهج الأئمة الأربعة في قول الصحابي حيث إن بعضهم يأخذ به على أنه سنة وبعضهم يأخذ به لمجرد التقليد ولهم في ذلك توجيهات كثيرة . إلا أنهم قد اتفقوا جميعا على أن أقوال الصحابة إذا اختلفت تخيروا منها أقربها إلى رأى الجماعة ، أو أقربها إلى السنة[4] .

وكان الأئمة يأخذون بأقوال التابعين لا على أنها حجة بل استئناسا بآرائهم ، ويتخيرون منها بعد إعمال الرأى والاجتهاد ، وكانوا جميعاً يجوزون

---

(١) ولفظ مسلم لا يقيم الرجل الرجل من مقعده ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وكان ابن عمر إذا قام له رجل من مجلسه لم يجلس فيه . انظر صحيح البخاري بحاشيه السندى ح ٤ ص ٤٥ وانظر صحيح مسلم ح ١٤ ص ١٦٠

(٢) تفسير القرطبي ح ١٧ ص ٢٩٧

(٣) تفسير القرطبي ح ١٩ ص ١٧٨ وما بعدها .

(٤) انظر « مالك » ص ٣٢٣ وأبو حنيفة ص ٣٠٤ لاستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة .

الخروج عنها . يقول الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه « ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين بأبي وأمي وليس لنا مخالفته وما جاء عن أصحابه تخيرنا وما جاء عن غيرهم فهم رجال ونحن رجال » (١) .

---

(١) انظر أبو حنيفة ص ٢٧٠ وانظر الاصول ص ٢٠٧ فقد نقل الشيخ محمد أبو زهرة رأيا الشوكاني . مفاده أن قول الصحابي ليس بحجة مطلقاً ، ورد عليه .

الفصل الثالث

منهج القرطبي في القراءات الشاذة والمتواترة وموقفه منها

القراءات الشاذة في تفسير القرطبي :

بين « ابن الجزرى » ضابط القراءات الشاذة والمتواترة فقال « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا ، وصح سندها فهى القراءة الصحيحة التى لايجوز ردها ، ولايحل إنكارها . بل هى من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، ووجب على الناس قبولها . سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين . ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة ، أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة . سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم ، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف .

وارتضى السيوطى هذا الضابط وأشاد به وأثنى على قائله ثناء عاطراً (١) وإذا كانت الصلاة لاتجوز بالقراءة الشاذة فإن لها مجالات أخرى كثيرة . فلقد احتج بها النحويون على مذاهبهم وآرائهم . فاحتج « ابن جنى » بقراءة « ابن مسعود وأبى » « وباطلا ما كانوا يعملون »(٢) على جواز تقديم خبر كان

(١) الاتقان ج ١ ص ٩٤ ومابعدها .
(٢) الاعراف آية ١٣٩ .

عليها ، فقال ، باطلا « منصوب » « بيعملون » وما زائدة للتوكيد . فكأنه قال « وباطلا كانوا يعملون » ثم قال « ففى هذه القراءة الشاذة دلالة على جواز تقديم خبر كان عليها كقولك : قائما كان زيد . ووجه الدلالة من ذلك أنه إنما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل « وباطلا » منصوب « بيعملون » والموضع إذا ليعملون ، لوقوع معموله متقدما عليه فكأنه قال : ويعملون باطلا كانوا »[1] .

يجوز فى اللغة أن يقدم خبر كان عليها كما تقول قائما كان زيد . فاذا كان خبر كان جملة فعلية فإنه يجوز تقديم معمول الفعل على كان كما فى قوله تعالى« وباطلاما كانوا يعملون » فباطلا معمول ليعملون ويعملون جملة فعلية هى خبر كان . فكما يجوز أن تقدم يعملون على كان إذ يعملون هو الخبر يجوز أن تقدم المعمول وهو « باطلا» على كان،لأنه يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل .

واحتج « ابن جنى » بقراءة شاذة على ترجيح بعض مذاهب النحويين فاحتج بقراءة ابن مسعود « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا » على ترجيح ماذهب إليه البصريون من جواز حذف القول . فقال « وهذا دليل على صحة مايذهب إليه أصحابنا — البصريون — من أن القول مراد مقدر فى نحو هذه الأشياء . وأنه ليس كما ذهب إليه الكوفيون من أن الكلام محمول على معناه دون أن يكون القول مقدرا معه وذلك كقول الشاعر :

رجلان من ضبة أخبرانا أنا رأينا رجلا عريانا

---

(١) أبو على الفارسى حياته ومكانته بين أئمة العربية وآثاره فى القراءات والنحو ص ٢٤٠

فهو عندنا نحن على : قالا . وعلى قولهم . لا إضمار قول هنالك . لكنه لما كان «أخبرانا» فى معنى « قالا لنا» صار كأنه قال : « قالا لنا » فإما على إضمار « قالا » والحقيقة فلا (١) . وفعل كثير من النحاة ذلك ، ولا داعى للإكثار من الشواهد والأدلة ففى ذلك كفاية ، وجعل اللغويون القراءات الشاذة مصدراً أصيلا لمعرفة لهجات العرب ولغاتها . ولقد أوضح كثير من الباحثين هذه الحقيقة . فالقراءة الشاذة يمكن من خلالها معرفة اللهجات العربية التى كانت سائدة قبل الإسلام(٢) . ويذكر صاحب « تفسير التحرير » فى مقدمة كتابه أن القراء قد اختلفوا فى وجوه النطق بالحروف والحركات وأن مزية القراءات من هذه الجهة أنها حفظت على أبناء العربية ما لم يحفظه غيرها، وهو تحديد كيفيات نطق العرب وبيان اختلاف اللهجات (٣) .

ثم إن الفقهاء قد احتجوا بكثير من القراءات الشاذة فى نصرة بعض الآراء والمذاهب وكلنا يعلم أن جماعة من الفقهاء منهم أبو حنيفة والثورى والمزنى قد استدلوا بقراءة ابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » على اعتبار التتابع فى صوم كفارة اليمين (٤) .

ولقد أبرز القرطبى فى عرضه وتوجيهاته للقراءات الشاذة مثل هذه الأشياء، أبرز بعض ما ذهب إليه النحويون على ضوء القراءة الشاذة . . . ففى قوله تعالى، « يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين » (٥) يقول : قوله تعالى « يا بنى » معناه : ...

(١) المصدر السابق .

(٢) أنظر اللهجات العربية فى القراءات القرآنية للدكتور عبده الراجحى دار المعارف ص ٨٧ ، وانظر تاريخ الفصل السادس (مشكلة المصاحف)

(٣) تفسير التحرير بتصرف

(٤) انظر تفسير القرطبى ج ٦ ص ٢٨٣

(٥) آية ١٣٢ من سورة البقرة

يا بنى وكذلك هو فى قراءة أبى وابن مسعود والضحاك » . ثم قال : « قال الفراء ألغيت « أن » لأن التوصية كالقول وكل كلام يرجع إلى القول جاز فيه دخول « أن » وجاز فيه إلغاؤها . قال : وقول النحويين إنما أراد « أن » ألغيت ليس بشيء وفى قوله تعالى « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا » (١) قوى القرطبي وجها إعرابيا فى قراءة صحيحة بما ورد فى قراءة شاذة . فقال : « قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بالنصب عطفاً على « أن يؤتيه » ويقويه أن اليهود قالت للنبى ﷺ أتريد أن نتخذك يا محمد ربا ؟ فقال الله تعالى «ما كان لبشر أن أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ... إلى قوله ولا يأمركم » وفيه: أى على هذا التفسير ضمير البشر «أى لا يأمركم يعنى عيسى وعزيزاً » . ثم قال القرطبي « وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأول فيه ضمير اسم الله عز وجل أي ولا يأمركم الله أن تتخذوا . ويقوى هذه القراءة أن فى مصحف عبد الله ولن يأمركم والضمير أيضاً لله عز وجل . (٢)

كذلك يستعرض القرطبي أثناء توجيهه للقراءات الشاذة لهجات بعض القبائل ولغاتها . ففى قوله تعالى « أهدنا الصراط المستقيم » يقول القرطبي « وقرىء السراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يسترط من يسلكه، وقرىء بين الزاى والصاد وقرىء بزاى خالصة . وحكى سلمة عن الفراء قال الزراط بإخلاص الزاء لغة لعذرة وكلب وبنى القين قال : وهؤلاء يقولون فى أصدق أزدق وقد قالوا الأزد فى الأسد ولزق به فى لصق به » . (٣)

---

(١) آية ٨٠ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ح ٤ ص ١٢٣ .

(٣) تفسير القرطبي ح ١ ص ١٤٨

وفى قوله تعالى « إياك نعبد » يقول « قرأ الفضل الرقاشى إياك » بفتح الهمزة وهى لغة مشهورة وقرأ أبو السوار الغنوى«هياك» فى الموضعين وهى لغة .. قال:

فهياك والأمر الذى إن توسعت   موارده ضاقت عليك مصادره

وفى قوله « وإياك نستعين » يقول وقرأ يحيى بن وثاب والاعمش « نستعين » بكسر النون وهى لغة تميم وأسد وقيس وربيعة ليدل على أنه من استعان فكسرت النون كما تكسر ألف الوصل [1].

وفى قول الله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » [2] يقول وقرأ الحسن « ما بقى » بالألف وهى لغة طىء يقولون للجارية جاراة والناصية ناصاة وقال الشاعر :

لعمرك لا أخشى التصعلك مابقى   على الأرض قيسى يسوق الأباعرا [3]

وفى قوله تعالى « فلأمه الثلث » يقول قرأ أهل الكوفة « فلإمه الثلث » وهى لغة حكاها سيبويه قال الكسائى : هى لغة كثير من هوازن وهذيل ، ولأن اللام لما كانت مكسورة وكانت متصلة بالحرف كرهوا ضمه بعد كسرة فأبدلوا من الضمة كسرة لأنه ليس فى الكلام فعل . . ومن ضم جاء به على الأصل ، ولأن اللام تنفصل لأنها داخلة على الاسم. قال جميعه النحاس . [4]

وفوق هذا فإننى ألمح فى توجيه القرطبي للقراءات الشاذة — أنه كان

---

(١) تفسير القرطبي ح ١ ص ١٤٦

(٢) آية ٢٧٨ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ح ٣ ص ٢٧٠

(٤) تفسير القرطبي ح ٥ ص ٧٢

أحياناً يرد معنى القراءة الشاذة إلى قراءة الجماعة . ففي قوله تعالى « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » (١) يقول « قرأ الجمهور برفع « تسأل » ويكون فى موضع الحال بعطفه على « بشيرا ونذيرا » والمعنى « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً غير مسئول » . ثم قال : وقرأ « ابن مسعود » و « لن تسأل » . وقرأ أبي « وما تسأل » ومعناها موافق لقراءة الجمهور نفي أن أن يكون مسئولا عنهم » (٢) .

وأحيانا يقوى قراءة الجماعة بما جاء فى قراءة شاذة . ففي قوله تعالى « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشـــهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام» (٣) يقول وقرأ ابن محيصن « ويشهد اللهُ على ما فى قلبه » بفتح الياء والهاء فى « يشهد » « الله » بالرفع والمعنى يعجبك قوله والله يعلم منه خلاف ما قال، دليله قوله « والله يشهد إن المنافقين لـكاذبون » وقراءة ابن عباس « والله يشهد على ما فى قلبه » ثم قال وقراءة الجماعة أبلغ فى الذم لأنه قوى (أى الرجل) على نفسه التزام الـكلام الحسن ثم ظهر من باطنه خلافه . وقرأ أبي وابن مسعو . « ويشهد الله على ما فى قلبه » وهى حجة لقراءة الجماعة » (٤) .

وأحيانا يقوى بعض آراء المفسرين أو يرفضها بما جاء فى قراءة شاذة . ففي قوله تعالى « فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » (٥) وجه قـــراءة القطع فقال « قال مكى : إنه أخبر عن نفسه عندما عاين من قدرة الله

(١) آية ١١٩ من سورة البقرة

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٩٢

(٣) آية ٢٠٤ من سورة البقرة

(٤) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٥

(٥) آية ٢٥٩ من سورة البقرة

تعالى فى إحيائه الموتى فتيقن ذلك بالمشاهدة فأقر أنه يعلم أن الله على كل شىء قدير،أى أعلم أنا هذا الضرب من العلم الذى لم أكن أعلمه عن معاينة . وهذا على قراءة من قرأ « أعلم » بقطع الألف وهم الأكثر من القراء، ثم وجه قراءة الوصل فقال وقرأ حمزة والكسائى: بوصل الألف ويحتمل وجهين أحدهما :قال له الملك « اعلم » . والآخر : هو أن ينزل نفسه منزلة المخاطب الأجنبى فالمعنى « فلما تبين له قال لنفسه : إعلمى يا نفس هذا العلم اليقين الذى لم تكونى تعلمين معاينة »وأنشدأبوعلى فى مثل هذا المعنى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل
ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا

قال ابن عطية وتأنس أبو على فى هذا المعنى بقول الشاعر :

تذكر من أنى ومن أين شربه يؤامر نفسيه كذى الهجمة الأبل (١)

قال مكى : ويبعد أن يكون ذلك أمراً من الله جل ذكره له بالعلم لأنه قد أظهر إليه قدرته وأراه أمرا أيقن صحته وأقر بالقدرة . فلا معنى لأن يأمره الله بعلم ذلك بل هو يأمر نفسه بذلك وهو جائز حسن . . » ثم قال القرطبى : «وفى حرف عبد الله ما يدل على أنه أمر من الله تعالى له بالعلم على معنى : الزم هذا العلم لما عاينت وتيقنت وذلك أن فى حرفه « قيل اعلم » وأيضاً فإنه موافق لما قبله من الأمر فى قوله « انظر إلى طعامك » و « انظر إلى حمارك » ، « وانظر إلى العظام » فكذلك « واعلم أن الله » وقد كان ابن عباس يقرؤها « قيل اعلم » . ويقول أهو خير أم إبراهيم ؟ إذ قيل له « واعلم أن الله عزيز حكيم »

---

(١) الهجمة بفتح فسكون القطعة الضخمة من الابل ، وقيل هى ما بين الثلاثين إلى المائة ورجل أبل ككتف حاذق مصلحة الابل .

فهذا يبين أنه من قول الله سبحانه له لما عاين من الإحياء » (١) .

وإذا كانت القراءات الشـــاذة ليست متواترة ولم تثبت قرآنيتها ، فإذا أضيف إلى ذلك أنها ضعيفة المعنى أو ليس لها وجه في العربية فإن القرطبي كان يرفض الاستدلال بها . ففي قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » يقول : « الجمهور من القراء والعلماء على شد الياء من « إياك » في الموضعين . وقرأ عمرو بن وافد « إياك » بكسر الهمزة وتخفيف الياء وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها » . ثم قال : « وهذه قراءة مرغوب عنها فإن المعنى يصير . شمسك نعبد أو ضوءك ، وإياة الشمس بكسر الهمزة ضوءها ، وقد تفتح وقال :

سقته إياة الشمس إلا لثاته أسف فلم تكدم عليه بأثمد (٢)

وفي قوله تعالى « قال ومن كفر فأمتعه قليـلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير (٣) » يقول : « واختلف هل هذا القول من الله تعالى أو من إبراهيم عليه السلام . فقال أبي بن كعب وابن إسحاق وغيرهما . هو من الله تعالى وقرأوا « فأمتعه » بضم الهمزة وفتح الميم وتشديد التـاء « ثم أضطره » بقطع الألف وضم الراء ، وكذلك القراء السبعة خلا ابن عامر فانه سكن وخفف التاء . وحكى أبو إسحاق الزجاج أن في قراءة أبي « فنمتعه قليلا ثم نضطره »

---

(١) تفسير القرطبي ح ٣ ص ٢٩٦ وما بعدها

(٢) تفسير القرطبي ح١ ص ١٤٦ وقائل هذا البيت طرفة بن العبد والهاء في «سقته» « ولثاته » يعود على الثغر وكذا المضمر الذي في « أسف » ومعنى سقته حسنته وبيضته وأشربته حسنا ، « وأسف » . ذر عليه « فلم تكدم عليه » أي لم تعضض عظما فيؤثر في ثغرها .

(٣) آية ١٢٦ من سورة البقرة

بالنون . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : هذا القول من ابراهيم عليه السلام وقرأوا « فأمتعه » بفتح الهمزة وسكون الميم « ثم أضطره » بوصل الألف وفتح الراء فكأن ابراهيم عليه السلام دعا للمؤمنين وعلى الكافرين وعليه فيكون الضمير فى « قال » « لابراهيم » وأعيد قال لطول الكلام ، أو لخروجه من الدعاء لقوم إلى الدعاء على آخرين . والفاعل فى « قال » على قراءة الجماعة اسم الله تعالى واختاره النحاس وجعل القراءة بفتح الهمزة وسكون الميم ووصل الألف شاذة قال : ونسق الكلام والتفسير جميعاً يدلان على غيرها .

أما نسق الكلام : فإن الله خبر عن ابراهيم عليه السلام أنه قال « رب اجعل هذا بلداً آمناً » ثم جاء بقوله عز وجل « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر » ولم يفصل بينه « فقال » ثم قال بعد « قال ومن كفر » فكان هذا جواباً من الله ولم يقل بعد قال ابراهيم . وأما التفسير فقد صح عن ابن عباس وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب وهذا لفظ ابن عباس « دعا إبراهيم عليه السلام لمن آمن دون الناس خاصة فأعلم الله عز وجل أنه يرزق من كفر كما يرزق من آمن وأنه يمتعه قليلا ثم يضطره إلى عذاب النار . قال أبو جعفر . وقال الله عز وجل « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك » وقال جل ثناؤه « وأمم سنمتعهم » قال أبو إسحاق : إنما علم إبراهيم عليه السلام أن فى ذريته كفاراً فخص المؤمنين لإن الله تعالى قال « لا ينال عهدى الظالمين[1] » .

وفى قوله تعالى « فصرهن اليك » [2] يقول : قرأ قوم « فصرهن » بكسر الصاد وشد الراء المفتوحة ومعناه صيحهن . من قولك صر الباب

---

(١) تفسير القرطبي ج٢ ص ١٣٠

(٢) آية ٢٦٠ من سورة البقرة .

والقلم إذا صوت . حكاه النقاش ، ثم قال ابن جنى هى قراءة غريبة وذلك أن « يفعل » بكسر العين فى المضاعف المتعدى قليل ، وإنما بابه « يفعل » بضم العين : كشد يشد ونحوه ولكن قد جاء منه : نم الحديث ينمه، وهر الحرب: يهرها ويهرها. ومنه بيت الأعشى :

ليعتورنك القول حتى تهره (١)

موقف القرطبي من القراءات المتواترة :

أما موقف القرطبي من القراءات المتواترة فإننا نراه أحياناً فى عرضة وتوجيهه لها يظهر ترجيح بعضها على بعض « فى قوله تعالى » مالك يوم الدين يقول : « اختلف العلماء أيما أبلغ ملك أو مالك ؟ والقراءتان مرويتان عن النبى (ص) وأبى بكر وعمر . ذكرها الترمذى. فقيل : « ملك » أعم وأبلغ من « مالك » إذ كل ملك مالك وليس كل مالك ملكا ولأن أمر الملك نافذ على المالك فى ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك قاله أبو عبيدة والمبرد ، وقيل « مالك » أبلغ لأنه يكون مالكا للناس فالمالك أبلغ تصرفا وأعظم إذ إليه إجراء قوانين الشرع ثم عنده زيادة التملك ، وقال أبو على : حكى أبو بكر السراج عن بعض من اختار القراءة « ملك » أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شىء بقوله « رب العالمين » .

فلا فائدة فى قراءة من قرأ « مالك » لأنها تكرار، قال أبو على : ولا حجة فى هذا لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة . تقدم العام ثم ذكر الخاص

---

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٠٢ . وتهره معناه تكرهه . وانظر القراءات القرآنية للدكتور عبد الصبور شاهين ص ٢٧٢ .

كقوله « هو الله الخالق البارىء المصور » فالخالق تمم وذكر المصور لما فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة ، وكما قال تعالى « وبالآخرة هم يؤمنون » بعد قوله « الذين يؤمنون بالغيب » والغيب يعم الآخرة وغيرها ولكن ذكرها لعظمها والتنبيه على وجوب اعتقادها والرد على الكفرة الجاحدين لها . وكما قال « الرحمن الرحيم » فذكر « الرحمن » الذى هو عام . وذكر « الرحيم » بعده لتخصيص المؤمنين به فى قوله « وكان بالمؤمنين رحيما » وقال أبو حاتم إن « مالكا » أبلغ فى مدح الخالق من « ملك » « وملك » أبلغ فى مدح المخلوقين من « مالك » والفرق بينهما أن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا ، واختار هذا القول القاضى أبو بكر بن العربى وذكر ثلاثة أوجه : الوجه الأول أنك تضيفه إلى الخاص والعام فتقول ، مالك الدار والأرض والثوب . كما تقول مالك الملوك ، الثانى ، أنه يطلق على مالك القليل والكثير ، وإذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا والثالث ، أنك تقول مالك الملك ولا تقول ملك الملك .

قال ابن الحصار ، إنما كان ذلك لأن المراد من « مالك » الدلالة على الملك بكسر الميم وهو لا يتضمن « الملك » بضم الميم . وملك يتضمن الأمرين جميعاً فهو أولى بالمبالغة . ويتضمن أيضاً الكمال ، ولذلك استحق الملك على من دونه ألا ترى إلى قوله تعالى « إن ا اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » ولهذا قال عليه السلام « الإمامة فى قريش [1] » وقريش أفضل قبائل العرب والعرب أفضل من العجم وأشرف . ويتضمن الاقتدار والاختيار ، وذلك أمر ضرورى فى الملك ، إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره قهره عدوه وجار عليه غيره ، وازدرته رعيته ، ويتضمن البطش ، والأمر والنهى ،

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الخلافه والأمارة عن أنس ٢ص ١٦٣ .

والوعد والوعيد ، ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام « مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديداً » إلى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعانى الشريفة التى لا توجد فى المالك .

وارتضى القرطبي ذلك فقال فى تعقيبه على من قال إن مالكا أبلغ لزيادة حروفه التى تقتضى زيادة ثوابه من قرأ به . إن « مالك » أبلغ معنى من « ملك » يقول القرطبي « قلت : وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ « ملك » قلت هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى ، وقد ثبت القراءة بملك وفيه من المعنى ماليس فى مالك على علمنا والله أعلم »[1] .

وفى قوله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب »[2] يقول فى المسألة الثانية . قرأ حمزة وحفص « البر بالنصب » لأن « ليس » من أخوات كان يقع بعدها المعرفتان فتجعل أيهما شئت الاسم أو الخبر . فلما وقع بعد « ليس » البر نصبه . وجعل « أن تولوا » الاسم وكان المصدر أولى بأن يكون اسما لأنه لا يتنكر والبر قد يتنكر والفعل أقوى فى التعريف وقرأ الباقون « البر » بالرفع على أنه اسم ليس وخبره « أن تولوا » تقديره : ليس البر توليتكم وجوهكم . وعلى الأول ليس توليتكم وجوهكم البر كقوله « ما كان حجتهم الا أن قالوا » « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا » « فكان عاقبتهما أنهما فى النار » وما كان مثله ، ثم قال القرطبي « ويقوى قراءة الرفع أن الثانى معه الباء إجماعا فى قوله » وليس البر بأن تأتوا

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٠ وما بعدها .

(٢) آية ١٧٧ من سورة البقرة .

البيوت من ظهورها » ولا يجوز فيه إلا الرفع فحمل الأول على الثانى أولى من مخالفته له ، وكذلك هو فى مصحف أبى بالباء « ليس البر بأن تولوا » وكذلك فى مصحف ابن مسعود أيضاً ،وعليه أكثر القراء . والقراءتان حسنتان .(١).

وأحياناً تختفى من توجيهات القرطبي للقراءات المتواترة هـذه الظاهرة : ففى قوله تعالى « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق » (٢) يقول : وقرأ نافع« النبيئين » بالهمز حيثوقع فى القرآن إلا فى موضعين فى سورة الأحزاب « إن وهبت نفسها للنبي إن أراد » و« لاتدخلوا بيوت النبي إلا » فإنه قرأ بلا مد ولا همز ، وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين وترك الهمز فى جميع ذلك الباقون. أما من همزه فهو عنده من أنبأ إذا أخبر واسم فاعله منبئ .ويجمع نبيء أنبياء،وقد جاء فى جمع نبي نبآء قال العباس بن مرداس السلمى يمدح النبي ﷺ :

يا خاتم النبآء إنك مرسل بالحق كل هدى السبيل هداكا

هذا معنى قراءة الهمز ، واختلف القائلون بترك الهمز ، فمنهم من اشتق اشتقاق من همز ثم سهل الهمز : ومنهم من قال : هو مشتق من نبا ينبو إذا ظهر فالنبي من النبوة وهو الارتفـاع فمنزلة النبي رفيعة . والنبي بترك الهمز أيضاً الطريق، فسمى الرسول نبياً لاهتداء الخلق به كالطريق . . فالأنبياء لنا كالسبل فى الأرض (٣) .

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٢٨ . وانظر تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٦ آية ٢١٠ من سوره البقرة ، ج ٣ ص ١٩٩ فى قول الله « لاجناح عليكم إن طلقتم النساء تمسوهن » وفى قوله « فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب » ج ٣ ص ٣٧٠ .

(٢ ، ٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٣١

وفى قوله تعالى « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم »[1] يقول : قرىء « فعميت عليكم » وهذه قراءة نافع أى عميت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها، يقال عميت عن كذا وعمى على كذا أى لم أفهمه . والمعنى فعميت الرحمة . فقيل : هو مقلوب لأن الرحمة لا تعمى إنما يعمى عنها، فهو كقولك: أدخلت فى القلنسوة رأسى ، ودخل الخف فى رجلى وقرأها الأعمش وحمزة والكسائى « فعميت » بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله أى فعماها الله عليكم وكذا فى قراءة أبى فعماها « ذكره الماوردى » [2] .

وأحب أن أقول أن توجيه القراءات يبرز كثيراً من المعانى التى يمكن أن تدل عليها ألفاظ القرآن الكريم . ولقد اهتم العلماء بتوجيه القراءات المتواترة وألفوا فى ذلك كتباً عديدة ، وجعلوه أمراً محموداً .

أما الترجيح بين القراءات المتواترة . فقد أفتى بعض العلماء بأن السلامة عند أهل الدين إذا صحت القراءتان أن لا يقال : إحداهما أجود . لأنهما جميعاً عن النبى ﷺ فيأثم من قال ذلك . وقال بعض آخر . إن المنع ينحصر فيما إذا رجحت إحدى القراءتين على الأخرى ترجيحا يكاد يسقطها، وذهب فريق ثالث إلى جواز الترجيح بين القراءات المتواترة [3]

وإذا كان القرطبى قد رجح بعض القراءات المتواترة فى توجيهاته فإنه لم ينتقص من الأخرى ، بل لقد امتدحها بقوله والقراءتان حسنتان . وفى الأمثلة التى أشرت إليها لازمته هذه العبارة . على أنه بعد أن عرض آراء العلماء

---

(١) آية ٢٨ من سورة هود

(٢) تفسير القرطبى ج ٩ ص ٢٥

(٣) انظر الاتقان ج ١ ص ٨٤ وتفسير التحرير مقدمة القراءات .

وموقفهم من قراءتى « مالك » « وملك » ، جاء ترجيحه بعد أن كشف ما فى القراءتين من وجود الحسن والبلاغة . ولم يعمد إلى الترجيح قبل ذلك ، أو بعد أن كشف وجوه الترجيح فى القراءة التى اختارها دون الأخرى . ثم إنه قال فى ترجيحه بعد أن استعرض آراء العلماء : وقد ثبتت القراءة بملك وفيه من المعنى ما ليس فى مالك على ما بينا والله أعلم . وليس فى هذا ما يعيب القراءة الأخرى .

موقف القرطبي من بعض القراءات التى ردها النحاة :

تقدم لنا أن النحاة قد اختلفوا فى مذاهبهم وأصولهم وأنهم لجأوا إلى القراءات يحاولون أن يستخرجوا منها شواهدهم وأدلتهم ، ولكنهم مع هذا رفضوا بعض القراءات المتواترة لأنها لا تتفق مع أصولهم وقواعدهم . ففى قوله تعالى « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » منع النحويون قراءة الخفض كما منعوا غيرها من القراءات المتواترة فى بعض الآيات ، ومن حقنا أن نتساءل ما هو موقف القرطبي من هذا المسلك ؟

يقول القرطبي فى قوله تعالى « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » (١) « وقرأ ابراهيم النخعى وقتادة والأعمش وحمزة «الأرحام» بالخفض وقد تكلم النحويون فى ذلك . فأما البصريون فقال رؤساؤهم : هو لحن لا تحل القراءة به . وأما الكوفيون فقالوا هو قبيح، ولم يزيدوا على هذا ولم يذكروا علة قبحه. قال النحاس فيا علمت . وقال سيبويه : لم يعطف على المضمر المخفوض ، لأنه بمنزلة التنوين والتنوين لا يعطف عليه ، وقال جماعة : هو معطوف على المكنى فإنهم كانوا يتساءلون بها ، يقول الرجل: سألتك بالله والرحم . هكذا فسره الحسن

---

(١) آية ١ من سورة النساء .

والنخعى ومجاهد . وهو الصحيح فى المسألة على ما يأتى : وضعفه أقوام منهم الزجاج وقالوا : يقبح عطف الاسم الظاهر على المضمر فى الخفض إلا بإظهار الخافض كقوله « فخسفنا به وبداره الأرض » ويقبح مررت به وزيد . قال الزجاج عن المازنى : لأن المعطوف والمعطوف عليه شريكان يحل كل واحد منهما محل صاحبه . فكما لا يجوز « مررت بزيد وك » . كذلك لا يجوز « مررت بك وزيد » وأما سيبويه : فهى عنده قبيحة ولا تجوز إلا فى الشعر كما قال :

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيام من عجب

عطف الأيام على الكاف فى « بك » بغير الباء للضرورة ثم قال : قال الزجاج : قراءة حمزة مع ضعفها وقبحها فى العربية خطأ عظيم فى أصول أمر الدين لأن النبى ﷺ قال « لا تحلفوا بآبائكم » (١) فإذا لم يجز الحلف بغير الله فكيف يجوز بالرحم ؟ ورأيت اسماعيل بن اسحق يذهب إلى أن الحلف بغير الله أمر عظيم وأنه خاص لله تعالى . قال النحاس : وقول بعضهم « والأرحام » قسم خطأ من المعنى والإعراب لأن الحديث عن النبى ﷺ يدل على النصب ، وروى شعبة عن عون بن أبى جحيفة عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند النبى ﷺ حتى جاء قوم من مضر حفاة عراة . فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغير لما رأى من فاقتهم . ثم صلى الظهر وخطب الناس فقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » إلى «والأرحام» ثم قال « تصدق رجل بديناره تصدق رجل بدرهمه تصدق رجل بصاع تمره » وذكر الحديث (٢) فمعنى هذا النصب . لأنه حضهم على صلة أرحامهم ، وأيضاً فقد صح عن النبى ﷺ « من كان حالفاً

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الايمان عن ابن عمر ج ٤ ص ١٠٣

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باختلاف يسير ج ٧ ص ١٠٢

فليحلف بالله أوليصمت »[1] فهذا يرد قول من قال : المعنى أسألك بالله وبالرحم » وعلق القرطبي فقال « قلت : هذا ما وقفت عليه من القول لعلماء اللسان فى منع قراءة « والأرحام » بالخفض واختاره ابن عطية ، ورده الإمام أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم القشيرى واختار العطف فقال : ومثل هذا الكلام(أى رد النحاة للقراءة وتخريجها على قواعدهم) مردود عند أئمة الدين لأن القراءات التى قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبى ﷺ تواتراً يعرفه أهل الصنعة ، وإذا ثبت شىء عن النبى ﷺ فمن رد ذلك فقد رد على النبى ﷺ ، واستقبح ما قرأ به ، وهذا مقام محظور ، ولا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو . فإن العربية تتلقى من النبى ﷺ ، ولا يشك أحد فى فصاحته ؛ وأما ما ذكر من الحديث ففيه نظر . لأنه عليه السلام قال لأبى العشراء « وأبيك لو طعنت فى خاصرته»[2] . ثم النهى إنما جاء فى الحلف بغير الله . وهذا توسل إلى الغير بحق الرحم فلا نهى فيه . قال القشيرى : وقد قيل هذا إقسام بحق الرحم ، أى اتقوا الله وحق الرحم كما تقول: افعل كذا وحق أبيك ، وقد جاء فى التنزيل « والنجم» « والطور » «والتين» «لعمرك» وهذا تكلف . ورد القرطبي على القشيرى فى فى رفضه لهذا الرأى الأخير فقال : « قلت لا تكلف فيه فإنه لا يبعد أن يكون « والأرحام » من هذا القبيل فيكون أقسم بها كما أقسم بمخلوقاته الدالة على وحدانيته وقدرته تأكيداً لها حتى قرنها بنفسه والله أعلم . ولله أن يقسم بما شاء

---

(١) أخرجه البخارى عن عمر ج ٤ ص ١٠٢

(٢) أخرجه أبو داود عن أبى العشراء الدارمى عن أبيه بلفظ لو طعنت فى فخذها ج ١ ص ٣٤٣ . . هذا فى التردية وأخرجه ابن ماجه عن أبى هريرة قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله نبئنى ما أحق الناس منى بحسن الصحبة فقال: نعم وأبيك لتنبأن. أمك: قال: ثم من قال: أبوك. ج٢ ص ٨١.

ويمنع ما شاء ويبيح ما شاء ، فلا يبعد أن يكون قسما ، والعرب تقسم بالرحم
ويصح أن تكون « الباء » مرادة فحذفها كما حذفها فى قوله :

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا ببين غرابها

فجر وإن لم يتقدم « باء » قال ابن الدهان أبو محمد سعيد ابن مبارك :
والكوفى يجيز عطف الظاهر على المجرور ولا يمنع منه . واستدل بكثير من
الشعر منها قوله :

فاذهب فما بك والأيام من عجب وقوله

فحسبك والضحاك سيف مهند وقوله

قد رام آفاق السماء فلم يجد له مصعداً فيها ولا الأرض مقعداً

فنحن نرى أن القرطبي فى هذا النص قد استعرض ما قاله النحويون فى
منع قراءة « والأرحام » بالخفض وصحح فى ثنايا عرضه العطف على الضمير
وقوى ذلك أخيراً بما نقله عن القشيرى ، ورد رفض القشيرى لمن خرج قراءة
الخفض على أساس أنها إقسام بالرحم ، وارتضى أن تخرج القراءة على هذا
أيضاً ، وعلى أن تكون الباء الجارة التى تجوز عطف الظاهر على المضمر —
وإن كانت محذوفة — مقدرة . ومرادة فى الكلام . بل إن عطف الظاهر
على المضمر لا مانع منه عند الكوفيين . وبهذا دافع القرطبي عن القراءة
المتواترة ، ولم يرفض مسلك النحاه (١) .

وإن « ابن جنى » فى كتابه الخصائص لم يزد فى دفاعه عن هذا عندما

---

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٧ وما بعدها .

تحدث عن هذه القراءة تحت عنوان « باب في أن المحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به » يقول ابن جنى « من ذلك أن ترى رجلا قد سدد سهما نحو الغرض ثم أرسله فتسمع صوتا فتقول: القرطاس والله . « أي» أصاب القرطاس ».« فأصاب » الآن في حكم الملفوظ به ألبتة وإن لم يوجد في اللفظ غير أن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به . وكذا قولهم لرجل مهو بسيف في يده : زيدا . أي «اضرب زيدا » فصارت شهادة الحال بالفعل بدلا من اللفظ به . وكذلك قولهم للقادم من سفر : خير مقدم. وقولك : قد مررت برجل إن زيدا وإن عمرا . أي إن كان زيدا أو إن كان عمرا . وقولك للقادم من حجه : مبرور مأجور، وكذلك قوله .

رســــم دار وقفت في طلله كدت أقضي الغداة من جلله

أي رب رسم دار . وكان رؤبة إذا قيل له كيف أصبحت يقول : خير وقاك الله . أي بخير . ويحذف الباء لدلالة الحال عليها بجرى العادة والعرف .. وعلى نحو من هــذا تتوجه قراءة حمزة وهي قوله سبحانه « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » ثم يقول : « ليست هـــذه القراءة عندنا من الإبعاد والفحش والشناعة والضعف على ما رآه فيها ، وذهب إليه أبو العباس المبرد . بل الأمر فيها دون ذلك ، وأقرب وأخف ، وألطف ، وذلك أن لحمزة أن يقول لأبي العباس : إنني لم أحمـــل الأرحام على العطف على المجرور بل اعتقدت أن تكون فيه « باء ثانية » حتى كأني قلت : وبالأرحام ثم حذفت الباء لتقدم ذكرها كما حذفت لتقدم ذكرها في نحو قولك : بمن تمرر أمرر ، وعلى من تنزل أنزل (١) .

---

(٢) الخصائص ج ١ ص ٢٨٥ .

(ى) قــوله تعالى « وكذلك زين لـكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم » (١) .

دافع القرطبي عن قراءة ابن عامر « وكذلك زين لـكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » برفع «قتل » ونصب « أولادهم » وجر « شركائهم » فقـال : قال النحاس : وأما ما حـكاه أبو عبيد عن ابن عامر وأهـل الشام فلا يجوز في كلام ولا في شعر وإنمـا أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف، لأنه لا يفصل ، وأما بالأسماء غير الظرف فلحن. قال مكى : وهذه القراءة فيها ضعف التفريق بين المضاف والمضاف إليه لأنه إنما يجوز مثل هذا التفريق في الشعر مع الظروف لاتساعهم فيها وهو في المفعول به في الشعر بعيد . فإجازته في القراءة أبعد ، وقال المهدوى : قراءة ابن عامر هـذه على التفرقة بين المضاف والمضاف إليه . ومثله قول الشاعر :

فزججتها بمزجـــة زَجَّ القلوص أبى مزادة (٢)

يريد زج أبى مزادة القلوص وأنشد :

تمـر على ما تستمر وقـد شفت غلائل عبد القيس فيها صدورها

يريد شفت عبد القيس غلائل صدورها . وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوى: قراءة ابن عامر لا تجوز في العربية ، وهى زلة عالم ، وإذا زل العـالم لم يجز اتباعه. ورد قوله إلى الإجماع . وكذلك يجب أن يرد من زل منهم أوسها إلى

---

(١) آية ١٣٧ من سورة الانعام .

(٢) زج هاهنا الطعن: والمزجة بـكسر الميم : رمح قصير كالمزاريق، والقلوص بفتح القاف : الفتية من النوق . يخبر أنه زج امرأته بالمزجة ، كما زج أبو مزادة القلوص وابومزادة كنيةرجل .

الإجماع . فهو أولى من الإصرار على غير الصواب . وإنما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظروف لأنه لا يفصل كما قال :

كما خط الكتاب بكف يوما يهودى يقارب أو يزيل[١]

وقال آخر :

كأن أصوات من إيغالهن بنا أواخر الميس أصوات الفراريج[٢]

وقال آخر :

لما رأت ساتيدما استعبرت لله در اليوم من لامها[٣]

ثم رد القرطبي ذلك بما نقله عن القشيرى : فقال : وقال القشيرى : وقال قوم هذا قبيح ، وهذا محال ، لأنه إذا ثبتت القراءة بالمتواتر عن النبي ﷺ فهو الفصيح لا القبيح ، وقد ورد ذلك فى كلام العرب ، وفى مصحف عثمان « شركائهم » بالياء وهذا يدل على قراءة ابن عامر . وأضيف القتل فى هذه القراءة إلى الشركاء . لأن الشركاء هم الذين زينوا ذلك ودعوا إليه فالفعل مضاف أى (مسند) إلى فاعله على ما يجب فى الأصل . لكنه فرق بين المضاف

---

(١) الشاهد فى البيت إضافة الكف إلى اليهودى مع الفصل بالظرف . وصف رسوم الدار فشبهها بالكتاب فى دقتها والاستدلال بها . وخص اليهود لأنهم أهل كتاب ، وجعل كتابته بعضها متقارب وبعضها مفترق متباين ، لاقتضاء آثار الديار وتلك الصفة والحال .

(٢) الشاهد فى البيت إضافة الاصوات إلى أواخر الميس مع فصله بالمجرور ضرورة . والميس شجر تعمل منه الرحال . والايغال سرعة السير . يقول كان أصوات أواخر الميس من شدة سير الابل بنا واضطراب رحالها عليها : أصوات الفراريج .

(٣) الشاهد فى البيت إضافة الدر إلى من مع جواز الفصل بالظرف ضرورة إذ لم يمكنه إضافة الدار إليه . وصف امرأة نظرت إلى « ساتيدما » وهو جبل بعينه بعيد عن ديارها فتذكرت به بلادها فاستعبرت شوقا إليها .

والمضاف إليه ، وقدم المفعول ، وتركه منصوباً على حاله إذ كان متأخراً في المثنى ، وأخر المضاف وتركه مخفوضاً على حاله ، إذ كان متقدما بعد القتل . والتقدير : وكذلك زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم أى أن قتل شركاؤهم أولادهم (١) .

فالقرطبي بعد أن استعرض أقوال النحويين ومن تابعهم من المفسرين في منع قراءة ابن عامر . دافع عنها ووجهها بما نقله عن القشيرى . وبهذا أيضاً لم يرتض مسلك النحاة ولم يوافقهم فيما ذهبوا إليه كما وافقهم بعض المفسرين . . وإذا كان القرطبي قد نص على بعض المفسرين الذين وافقوا النحاة فيما ذهبوا إليه فإن هناك عددا من المفسرين لم يذكرهم القرطبي ووافقوا النحاة في مسلكهم أيضاً « فالطبرى » قد بين في تفسيره . ضعف هذه القراءة وقبحها في العربية . وكذلك فعل « الزمخشرى » . يقول الزمخشرى : « وأما قراءة ابن عامر » قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف فشىء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجا مردودا كما سمج ورد

زج القلوص أبى مزادة

فكيف به في الكلام المنثور ، فكيف به في القرآن المعجز بحسب نظمه وجزالته ، والذى حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوبا بالياء (٢) .

ولقد دافع « أبو حيان » عن هذه القراءة وهاجم « الزمخشرى » فقال :

---

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) تفسير الزمخشرى ج ٢ ص ٥٥ الدكتور عبد العال سالم ص ١٠٧

وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت . وأعجب لسوء ظن الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم ، لضبطهم وفهمهم وديانتهم . ثم قال : وإذا كان قد فصلوا بين المضاف والمضاف إليه بالجملة في قول بعض العرب : هو غلام — إن شاء الله — أخيك . فالفصل بالمفرد أسهل [(١)] .

من هذا يتضح أن القرطبي دافع عن القراءات المتواترة ورد هجمات النحويين عليها ولم يرتض مسلكهم . وهذا منهج مستقيم ، فإن العقل قد يتصور أن بعض القراءات الشاذة لا توافق العربية ، ولكنه لا يتصور أن القراءات المتواترة تخالف العربية . وفي هذا يقول السيوطي : « كان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم ، وحمزة ، وابن عامر قراءات بعيدة في العربية ، وينسبونهم إلى اللحن، وهم مخطئون في ذلك ، فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن فيها ، وثبوت ذلك دليل على جوازه في العربية » [(٢)]

وفوق هذا فإن القراءات سنة متبعة وقد أثبت القرطبي ذلك في كثير من المواضع في تفسيره [(٣)] وليس معنى هذا أنه تجوز القراءة بما لا يسوغ في العربية كلا ، إنما المعنى أن النحاة لم يحيطوا بكل ما ورد عن العرب فكان الأولى ألا يردوا ذلك ، وأن يلتمسوا تأويلها وتخريجها اعتداداً بمن رواها من الأئمة وأن يقولوا كما قال « أبو عمرو بن العلاء » : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ولو جاءكم لجاءكم علم وافر وشعر كثير » [(٤)] .

---

(١) أثر القراءات في الدراسات النحوية للدكتور عبد العال سالم ص ١٠٧ (٢) المصدر السابق .

(٣) انظر على سبيل المثال ما ذكره في قوله وإذ قال موسى لقومه ياقوم ح ١ ص ٤٠٠

(٤) أثر القراءات في الدراسات النحوية ص ١٠٨ .

الفصل الثالث

اللغة فى تفسير القرطبي

حاول القرطبي أن يفسر ألفاظ القرآن الكريم ، وأن يوضحها بلغة العرب ، فبين معنى الكلمات ومدلولاتها بما قاله أئمة اللغة ، وما تناقله العلماء عنهم ، وحث القرطبي بما نقله من الأحاديث والأخبار فى مقدمته على البحث فى ألفاظ القرآن وطلب معانيها . ومنها ما روى أن رسول الله ﷺ قال « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » وما روى عن ابن مسعود أنه قال « جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات وأعربوه فإنه عربى والله يحب أن يعرب به » وحدد السيوطى المراد بإعراب القرآن وهو يتحدث عن الحديث الأول فقال : « وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة ، وهو ما يقابل اللحن ، لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها » (١) .

وشكك بعض الباحثين فيما روى فى الحث على إعراب القرآن من الأحاديث والآثار فقال « والواقع أن هذه الأحاديث والأخبار فيها نظر لأن الاعراب لم يظهر مصطلحا إلا فى عصر متأخر » . ويبدو أنها كذلك (٢) . ثم قال « وفى نظرى أن المراد بالإعراب الإبانة والتوضيح وفهم الغريب وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يسمون هذا الغريب إعراب القرآن لأنهم يستبينون معانيه

---

(١) الاتقان ج ١ ص ١٤١ بتصرف

(٢) حديث « اعربوا القرآن » أخرجه ابن أبي شيبة فى المصنف والبيهقى فى الشعب من حديث أبي هريرة ، وسنده ضعيف . انظر رسالة ابن عطية للزميل عبد الوهاب فايد ص ١٢٥ .

ويخلصونها(١) والباحث مسبوق فى ذلك وليس أول من حدد المراد من الإعراب بالإبانة كما تدل عبارته .

ولقد استعرض القرطبي فى تفسيره مباحث لغوية كثيرة حاول بها أن يوضح اللفظ القرآنى وأن يبين مدلوله . ومن هذه المباحث : الاشتقاق .

نرى القرطبي يأخذ المعنى اللغوى الكلمة . فيجعله أصلا لمعانى الكلمات التى تقرب من هذه الكلمة فى حروفها . وذلك نقلا عن أئمة اللغة وما تساقله العلماء عنهم . . ففى قوله تعالى « وأولئك هم المفلحون » يقول : الفلح أصله فى اللغة الشق والقطع ، قال الشاعر :

إن الحديد بالحديد يفلح

أى يشق ، ومنه فلاحة الأرضين ، أى شقها قاله أبو عبيد . ولذلك سمى الأكار(٢) فلاحا ، ويقال للذى شقت شفته السفلى : أفلح ، وهو بين الفلحة ، فكأن المفلح قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل فى الفوز والبقاء. وهو أصله أيضاً فى اللغة . ومنه قول الرجل لامرأته : استفلحى بأمرك . معناه فوزى بأمرك ، وقال الشاعر :

لو كان حى مدرك الفلاح   أدركه ملاعب الرماح

وقال الأضبط بن قريع السعدى :

لكل هم من الهموم سعه   والمسى والصبح لا فلاح معه

---

(١) القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية للدكتور عبد العال سالم ص ٢٦٣

(٢) الذى يحرث الارض .

يقول ليس مع كر الليل والنهار بقاء . وقال آخر :

نحل بلاداً كلها حل قبلنا ونرجو الفلاح بعد عاد وحمير

أى البقاء . وقال عبيد :

أفلح بما شئت فقد يدرك بالضـ ـعف وقد يخدع الأريب

أى ابق بما شئت من كيس وحمق . فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل فمعنى « وأولئك هم المفلحون » أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال ابن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ، ونجوا من شر ما منه هربوا . والمعنى واحد . وقد استعمل الفلاح فى السحور ، ومنه الحديث « حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله ﷺ . قلت : وما الفلاح ؟ قال : السحور » أخرجه أبو داود (١) فكأن معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سماه فلاحا . . . ثم الفلاح فى العرف الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب (٢) فالقرطبي قد أخذ المعنى اللغوى لكلمة (الفلح) وهى أصل اشتقاق كلمة (المفلحون) وبين أن معناها فى اللغة إما أن يكون الشق والقطع ، أو الفوز والبقاء ، ثم بين اللفظ القرآنى ووضحه على كلا المعنيين ، وجعلهما أصلا لمعانى الكلمات التى تقرب من هذه الكلمة . كالملاحة والفلاح (بتشديد اللام) والفلاح وغيرها .

ويتضح ذلك فى قوله تعالى « والمحصنات من النساء » (٣) فقد بين أن الحاء والصاد والنون تؤلف بناء معناه المنع ، وأن هذا المعنى يوجد فى كل كلمة

---

(١) أخرجه أبو داود عن جبير بن نفير عن أبى ذر بباب ما جاء فى صلاة التراويح ، انظر منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبو داود للاستاذ الساعاتى ج ١ ص ١٢٠ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١ ص ١٨٣ آية ٥ من سورة البقرة

(٣) آية ٢٤ من سورة النساء .

تقرب من هـــذا البناء . ثم أخذ يوضح اللفظ القرآني على ضوئه . فقال : والحصن الممتنع لأنه يمتنع فيه ،ومنه قوله تعالى « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم » (١) أي لتمنعكم . ومنه الحصان للفرس بكسر الحاء لأنه يمنع صاحبه من الهلاك . الحصان بفتح الحاء المرأة العفيفة لمنعها نفسها من الهلاك وحصنت المرأة تحصن فهي حصان مثل جبنت فهي جبان وقال حسان في عائشة رضي الله عنها :

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل (٢)

والمصدر الحصانة ، والحصن كالعلم . فالمراد بالمحصنات ها هنا ذوات الأزواج يقال امرأة محصنة أي متزوجة، ومحصنة أي حرة. ومنه «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » (٣) ومحصنة أي عفيفة. قال الله تعالى « محصنات غير مسافحات » (٤) وقال « محصنين غير مسافحين » (٥) ومحصنة ومحصنة وحصان أي عفيفة أي ممتنعة عن الفسق . والحرية تمنع الحرة مما يتعاطاه العبيد . قال الله تعالى « والذين يرمون المحصنات » (٦) أي الحرائر . وكان عرف الإماء في الجاهلية الزنا . ألا ترى إلى قول هند بنت عتبة للنبي ﷺ حين بايعته : وهل تزني الحرة؟ والزوج أيضاً يمنع زوجه من أن تزوج غيره . ثم قال القرطبي « فبناء « ح ص ن »

---

(١) آية ٨٠ من سورة الانبياء .

(٢) تزن تتهم غرثى جائعة . والمراد أنها لا تغتاب غيرها .

(٣) آية ٥ من سورة المائدة .

(٤) آية ٢٥ من سورة النساء .

(٥) آية ٢٤ من سورة النساء .

(٦) آية ٤ من سورة النــور .

معناه للنع كما بينا ويستعمل الإحصان فى الإسلام . لأنه حافظ ومانع ومنه قول الهذلى :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وقال الشاعر :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا يأبى عليك الله والإسلام

ومنه قول سحيم:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا (١)

وفى قوله تعالى « ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة » (٢) بين القرطبى أن المعنى اللغوى لهذا اللفظ : الميل . فقال : وأصله الميل إلى الشىء لغرض من الأغراض،ثم أبرز هذا المعنى فى الكلمات القريبة من اللفظ القرآنى فى الآية . فقال : « ومنه صغت النجوم : أى مالت للغروب ،وفى التنزيل « فقد صغت قلوبكما » قال أبو زيد : يقال صغوه معك — وصغوه وصغاه معك ، أى ميله، وفى الحديث « فأصغى لها الإناء » (٣) يعنى للهرة . وأكرموا فلانا فى صاغيته أى فى قرابته الذين يميلون إليه ويطلبون ما عنده ، وأصغت الناقة إذا أمالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئاً حين يشد عليها الرحل . قال ذو الرمة :

---

(١) تفسير القرطبى ح٥ ص ١٢٠ ومابعدها.

(٢) آية ١١٣ من سورة الانعام .

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى باب ماجاء فى سؤر الهرة عن كبشة بنت كعب انظر فقه الاحوذى ح ١ ص ٣٠٨ .

تمضي إذا شدها بالكور جانحة حتى إذا مااستوى في غرزها تثب(١)

ولقد أطلق بعض الباحثين على هذا النوع من الاشتقاق اسم الاشتقاق العام(٢) وكان القرطبي يذكر للكلمة أحياناً أكثر من أصل اشتقاق ، وقد يرجح بينهما تارة ، وقد يعرضها تارة أخرى بلا ترجيح أو اعتراض ، ولعله في تلك الحالة يكون قد ارتضى ما ذكره . . ومن ذلك ما ذكره في المسألة السابعة عشرة من مسائل البسملة فقد قال : « اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين فقال البصريون : هو مشتق من السمو وهو العلو والرفعة . فقيل اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل : لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره . وقيل : إنما سمي الاسم اسماً لأنه علا بقوته على قسمي الكلام . الحرف والفعل . والاسم أقوى منهما بالإجماع . لأنه الأصل . فلعلوه عليهما سمي اسماً فهذه ثلاثة أقوال . وقال الكوفيون : إنه مشتق من السمة وهي العلامة . لأن الاسم علامة لمن وضع له . وأصل اسم على هذا « وسم » ثم رجح القرطبي الرأي الأول فقال : والأول أصح لأنه يقال في التصغير : سمي وفي الجمع أسماء ، والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها . فلا يقال وسيم ولا أوسام » .

---

(١) الكور رحل الناقة بأداته . وهو كالسرج وآلته للفرس قال ابن سيده وكثير من الناس يفتح الكاف وهو خطأ . وجانحة مائلة لاصقة . والغرز سير كالركاب توضع فيه الرجل عند الركوب . وصف ناقته بالفطانة وسرعة الحركة . انظر تفسير القرطبي ح ٧ ص ٦٩ .

(٢) انظر فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى ص ١٤٣ ولقد تحدث المؤلف عن معنى الاشتقاق العام وبين أن الاشتقاق عند علماء الصرف يتناول المشتقات فقط وهي أفعال الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول واسم الزمان واسم المكان واسم الآلة . وعلى هذا فالاشتقاق الصرفي قسم من الاشتقاق العام .

ثم انتقل القرطبي إلى بيان ثمرة الخلاف وفائدته . واستدل بها أيضاً على ترجيح الرأى الأول فقال : « ويدل على صحته أيضاً فائدة الخلاف وهى :

الثامنة عشرة : فإن من قال الأسم مشتق من العلو يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق ، وبعد وجودهم ، وعند فنائهم ، ولا تأثير لهم فى أسمائه ولا صفاته، وهذا قول أهل السنة . ومن قال الاسم المشتق من السمة يقول : كان الله فى الأزل بلا اسم ولا صفه . فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات فإذا أفناهم . بقى بلا اسم ولا صفة وهذا قول المعتزلة . وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة . وهو أعظم فى الخطأ من قولهم أن كلامه مخلوق، تعالى الله عن ذلك » .

وفى مسائل البسملة أيضا . فى المسألة الحادية والعشرين . وهو يتحدث عن لفظ الجلالة يقول : « قيل : هو مشتق من وله إذا تحير ، والوله ذهاب العقل . يقال رجل واله ، وامرأة والهة وواله ، وماء موله . أرسل فى الصحارى : فالله سبحانه تتحير الألباب، أو تذهب فى حقائق صفاته ، والفكر فى معرفته . فعلى هذا أصل « إلاه » « ولاه » . وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح . وإسادة . ووسادة . . . . . . وقيل أنه مشتق من « أله » الرجل . إذا تعبد وتأله إذا تنسك . ومن قوله تعالى « ويذرك وإلاهتك » و(تعبدك) على هذه القراءة فإن ابن عباس وغيره قالوا . وعبادتك قالوا : فاسم الله مشتق من هذا . فالله سبحانه معناه المقصود بالعبادة . ومنه قول الموحدين لا إله إلا الله . معناه لا معبود غير الله »(١) ولعل القرطبي قد ارتضى هذين الأصلين ولهذا لم يعترض على واحد منهما . .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٠١ وما بعدها .

ونرى السيوطى يرجح أحد أصول الاشتقاق فى لفظ الجلالة بل ويضع للترجيح قواعد فى كتابه المزهر : فيقول « إن الكلمة إذا ترددت بين أصلين أو أكثر فى الاشتقاق وطلب الترجيح . فلهذا الترجيح قواعد . ومن القواعد التى ذكرها . « أن يكون أحد الأصلين أشرف . لأنه أحق بالوضع له . والنفوس أذكر له ، وأقبل . وذلك كدوران كلمة[1] الله عند من اشتقها . بين الاشتقاق من أله أو لوه أو وله فيقال من أله أشرف وأقرب » .

وهناك نوع آخر من الاشتقاق وجه به القرطبى اللفظ القرآنى . وهو :

الاشتقاق الكبير . ويطلق عليه كثير من المحدثين اسم الاشتقاق الأكبر وأطلق عليه السيوطى اسم الإبدال . وهو أن تتعاقب الحروف فيبدل بعضها من بعض ، ويبقى المعنى بعد هذا الإبدال متقارباً . ومثال ذلك امتقع لونه وانتقع . وهدر الحمام وهدل ، ورغم أن القرطبى وجه بهذا النوع من الاشتقاق اللفظ القرآنى . إلا أنه قد أشار إلى أنه ليس بكثير فى كلام العرب . وإلى أنه لا يقاس عليه .

ففى قوله تعالى « فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها »[2] يقول : اختلف فى الفوم فقيل : هو الثوم لأنه المشاكل للبصل رواه جويبر عن الضحاك والثاء تبدل من الفاء كما قالوا : « مغافير ومغاثير » ، « وجدث وجدف » للقبر ، وقرأ ابن مسعود « ثومها » بالثاء المثلثة وروى ذلك عن ابن عباس وقال أمية بن أبى الصلت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة   فيها الفراديس والفومان والبصل

---

(١) المزهر للسيوطى بتصرف ح ١ ص ٣٠٢

(٢) آية ٦١ من سورة البقرة .

والفراديس واحدها فرديس وكرم مفردس أى معرش وقال حسان :

وأنتم أناس لئام الأصـول طعامكم الفوم والحوقل

يعنى الثوم والبصل . وهو قول الـكسائى ، والنضر بن شميل . وقيل : الفوم الحنطة . روى عن ابن عباس أيضا ، وأكثر المفسرين ، واختاره النحاس قال : وهو أولى . ومن قال به أعلى . وأسانيده صحاح . وليس جويبر بنظير لروايته . وإن كان الـكسائى والفراء قـد اختاروا القـــول الأول لإبدال العرب الفاء من الثاء والإبدال لا يقاس عليه وليس ذلك بكثير فى كلام العرب[(١)] .

وفى قوله تعالى « إنا خلقناهم من طين لازب »[(٢)] بين القرطبي أن لفظة « لازب » معناها « لاصق » ثم قال : ومنه قول على رضى الله عنه :

تعلم فان الله زادك بسطـــة وأخلاق خير كلها لك لازب

.. .. وقال عكرمة لازب لزج . سعيد بن جبير : أى جيد حر يلصق باليد مجاهد : « لازب » لازم ، والعرب تقول طين لازب ولازم . تبدل الباء من الميم .. .. واللازب الثابت . تقول : صار الشيء ضربة لا زب . وهو أفصح من لازم . وقال النابغة :

ولا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

، حكى الفراء عن العرب : طين لاتب بمعنى لازم . واللاتب : الثابت

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٤٥

(٢) آية ١١ من سورة الصافات .

تقول منه : لتب يلتب لتبا ولتوبا مثل لزب يلزب بالضم لزوبا . وأنشد أبو الجراح فى اللاتب :

فإن يك هذا من نبيذ شربته ... فإنى من شرب النبيذ لتائب
صداع وتوصيم العظام وفترة ... وغم مع الإشراق فى الجوف لاتب

ولقد أشار القرطبى فى توجيهه لبعض ألفاظ القرآن الكريم إلى نوع ثالث من الاشتقاق يسمى النحت ومعناه فى أصل اللغة : البرى يقال نحت الخشب والعود إذا براه وهذب سطوحه ومثله فى الحجارة والجبال قال الله تعالى« أتعبدون ما تنحتون » « وتنحتون من الجبال بيوتا » أما فى الاصطلاح فهو أن تعمد إلى كلمتين أو جملة فتنزع من مجموع كلماتها كلمة تدل على الجملة نفسها . ولما كان هذا النوع يشبه النحت من الخشب والحجارة فقد سمى نحتا . وهو فى الحقيقة من قبيل الاشتقاق وليس اشتقاقا بالفعل لأن الاشتقاق أن تنزع كلمة من كلمة والنحت أن تنزع كلمة من كلمتين أو أكثر وتسمى تلك الكلمة المنزوعة منحوتة . وينقسم النحتَ إلى أقسام منها نحت كلمة من جملة ، ولقد أشار القرطبى إلى هذا النوع من مسائل البسملة فقال : فى المسألة السابعة قال الماوردى : ويقال لمن قال بسم الله : بسمل ، وهى لغة مولدة ، وقد جاءت فى الشعر ، قال عمر بن أبى ربيعة :

لقد بسملت ليلى غداة لقيتها ... فياحبذا ذاك الحبيب المبسمل

---

(١) تفسير القرطبى ح ١٥ ص ٦٨ وما بعدها، وانظر فى معنى الإبدال . فقه اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى ص١٤٧ والتعريب والاشتقاق للاستاذ عبد القادر بن مصطفى المغربى ص ١٢ والمزهر للسيوطى ص ٢٢٢ ح ١ . والخصائص لابن جنى ص ٥٢٧ ح ١ .

وتعقب القرطبي للماوردى ، وبين لنا أن لفظ بسمل ليس مشهوراً فى اللغة وإنما هناك ألفاظ أخرى أشهر منها لأنها تنوقلت عن علماء اللغة . فقال : « قلت : المشهور عن أهل اللغة : بسمل، قال يعقوب بن السكيت (المتوفى سنة ٢٤٣) والمطرز (هو محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٣٤٥) ، والثعالبي ، وغيرهم من أهل اللغة : بسمل الرجل إذا قال بسم الله، يقال ، قد أكثرت من البسملة أى من قول بسم الله . ومثل حوقل الرجل . إذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله. وهلل إذا قال : لا إله إلا الله .وسبحل إذا قال : سبحان الله وحمدل إذا قال . الحمدلله . وحيصل إذا قال : حى على الصلاة . وجعفل إذا قال : جعلت فداك . وطبقل إذا قال . أطال الله بقاءك . ودمعز إذا قال : أدام الله عزك . وحيفل إذا قال : حى على الفلاح » . ثم قال القرطبي « ولم يذكر المطرز .الحيصلة إذا قال : حى على الصلاة . وجعفل إذا قال : جعلت فداك . وطبقل إذا قال : أطال الله . بقاءك ودمعز إذا قال : أدام الله عزك » . فالقرطبي فى هذا النص قد ذكر تقريبا كل الكلمات التى حدث فيها نحت من جملة ، وهذا النوع كما يقول : الدكتور على عبد الواحد وافى « لم يرد إلا فى كلمات قليلة معظمها مستحدث فى الاسلام ، ومن المباحث اللغوية التى استعرضها القرطبي فى تفسيره «الاشتراك» ومعناه أن يكون للكلمة الواحدة عدة معان تطلق على كل منها على طريق الحقيقة لا المجاز .

ولقد وقف علماء اللغة من هذا المبحث موقفين متضادين . فنفاه بعضهم ، وأنكر وروده ، وعلى رأس هؤلاء « ابن درستويه » وذهب فريق آخر إلى كثرة وروده وضرب له كثيرا من الأمثلة . ومن هؤلاء الأصمعى والخليل وسيبويه . وابن فارس . والثعالبي . والمبرد . وغيرهم . بل أفرد بعض علماء

هذا الفريق للمشترك مؤلفات على حدة (١) .

وإن القرطبي لم ينكر الاشتراك وإنما أشار إليه، ونقل عن العلماء الذين اعترفوا به . ففي قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » حدد القرطبي المعنى المراد من الصلاة في الآية . ثم أشار إلى أن لفظ الصلاة من الألفاظ المشتركة وأنها تطلق على عدة معان فقال: « الصلاة الدعاء والصلاة الرحمة » ومنه « اللهم صل على محمد » الحديث ، والصلاة العبادة، ومنه قوله تعالى « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » أي عبادتهم والصلاة النافلة ومنه قوله تعالى « وأمر أهلك بالصلاة » (٢) والصلاة : التسبيح،لوجود التسبيح فيها ومنه قوله تعالى « فلولا أنه كان من المسبحين » (٣) . أي من المصلين . ومنه سبحة الضحى ، وقيل في تأويل « نسبح بحمدك » (٤) نصلي لك . والصلاة القراءة ومنه قوله تعالى « ولا تجهر بصلاتك » (٥) ثم قال بعد هذا « فهي لفظ مشترك » ٦)

وفي قوله تعالى « وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » (٧) يقول :

« إذا أراد الله إحكام أمر وإنفاذه — كما سبق في علمه — قال له كن

---

(١) انظر فقه اللغة للدكتور عبد الواحد وافي، فصل الاشتراك، والمزهر للسيوطي ص ٣٦٩ طبع عيسى الحلبي بتحقيق محمد أبو الفضل وآخرون .

(٢) آية ١٣٢ من سورة طه . يبدو أن المراد الفريضة لا النافلة فان هذه الآية خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويدخل في عمومه جميع أمته وأهل بيته على التخصيص، وكان عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلي ويقول « الصلاة »

(٣) الآية ١٤٣ من سورة الصافات .

(٤) آية ٣٠ من سورة البقرة

(٥) آية ١١٠ من سورة الاسراء

(٦) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٦٩

(٧) آيه ١١٧ من سورة البقرة

فيكون » ثم قال: قال ابن عرفة : « قضاء الشيء إحكامه ، وإمضاؤه ، والفراغ منه . ومنه سمى القاضى ، لأنه إذا حكم فقد فرغ مما بين الخصمين » . وبعد أن حدد القرطبي المراد من لفظ « قضى » فى الآية بين أنه من الألفاظ المشتركة فقال : « قال علماؤنا : قضى لفظ مشترك يكون بمعنى الخلق . قال الله تعالى : « فقضاهن سبع سموات فى يومين » [١] أى خلقهن ويكون بمعنى الإعلام . قال الله تعالى : « وقضينا إلى بنى اسرائيل فى الكتاب[٢] . « أى أعلمنا . ويكون بمعنى الأمر كقوله تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا [٣] إلا إياه » ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام ومنه سمى الحاكم قاضيا . ويكون بمعنى توفية الحق . قال الله تعالى « فلما قضى موسى الأجل » [٤] ويكون بمعنى الإرادة كقوله تعالى « فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » [٥] .

وقد ذكر القرطبي معان كثيرة لبعض الألفاظ . ولكنه لا يشير إلى الاشتراك . ورغم هذا فالاشتراك واضح فى تلك الألفاظ . ففى قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » فسر فى المسألة الثامنة لفظة « رب » بالمالك . ثم أخذ يذكر معانيها فقال : « والرب السيد ومنه قوله تعالى « اذكرنى عند ربك » [٦] « وفى الحديث أن تلد الأمة ربتها » [٧] أى سيدتها ، والرب المصلح والمدبر

---

(١) آية ١٢ من سورة فصلت

(٢) آية ٤ من سورة الاسراء

(٣) آية ٢٣ من سورة الاسراء

(٤) آية ٢٩ من سورة القصص

(٥) تفسير القرطبي ج ٢ ص٨٨ من سورة البقرة

(٦) آية ٤٢ من سورة يوسف

(٧) الحديث أخرجه ابن ماجه عن أبى هريرة فى باب أشراط الساعة ج ٢ ص ٢٥٨ انظر سنن ابن ماجة بحاشية السندى ج ٢ ص ١٥٨ .

والجابر والقائم » قال الهروى وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربه يربه فهو رب له وراب ومنه سمى الربانيون . لقيامهم بالكتب ، وفى الحديث « هل لك من نعمة تربها عليه » أى تقوم بها تصلحها ، والرب المعبود ومنه قول الشاعر :

أرب يبول الثعلبان برأسه   لقد ذل من بالت عليه الثعالب (١)

المطلق والمقيد :

فرق القرطبي بين الألفاظ التى توهم الترادف ، أو بعبارة اللغويين فرق بين المطلق والمقيد . ونقل عن علماء اللغة تلك التفرقة . وارتضاها فى تفسيره ولم يرتض لمثل هذه الألفاظ أن تكون من قبيل المترادفات .

فى قوله تعالى « إنما حرم عليكم الميتة » يقول فى المسألة الثانية : وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع : « الميتة بالتشديد ، وقال جماعة من اللغويين : التشديد والتخفيف فى ميت وميت لغتان وقال أبو حاتم وغيره : ما قد مات فيقالان فيه ، وما لم يمت بعد فلا يقال فيه « ميت » بالتخفيف . دليله قوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » (٢) وقال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء

ولم يقرأ أحد بتخفيف ما لم يمت إلا ما روى البزى عن ابن كثير « وما هو بميت » (٣) والمشهور عنه التثقيل . وأما قول الشاعر :

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٣٦ وما بعدها
(٢) آية ٣٠ من سورة الزمر
(٣) آية ١٧ من سورة الرعد

إذا ما مات ميت من تميم فسرك أن يعيش فجيء بزاد

فلا أبلغ فى الهجاء من أنه أراد الميت حقيقة . وقد ذهب بعض الناس إلى أنه أراد من شارف الموت ، والأول أشهر » [1] .

ويتضح ذلك أيضاً فى قوله تعالى « . . والكاظمين الغيظ » فقد قال فى المسألة الثانية : كظم الغيظ رده فى الجوف يقال : كظم غيظه أى سكت عليه ، ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوه ، وكظمت السقاء أى ملأته وسددت عليه والكظامة ما يسد به مجرى الماء . ومنه : الكظام للسير الذى يسد به فم الزق والقربة . وكظم البعير جرته . إذا ردها فى جوفه ، وقد يقال لحبسه الجرة قبل أن يرسلها إلى فيه : كظم . حكاه الزجاج . يقال : كظم البعير والناقة . إذا لم يجترا . ومنه قول الشاعر :

فأفضن بعد كظومهن بجرة من ذى الأباق إذا رعين حقيلا

الحقيل موضع ، والحقيل نبت ، وقد قيل إنها تفعل ذلك عند الفزع والجهد فلا تجتر . قال أعشى باهلة يصف رجلا نحاراً للإبل فهى تفزع منه :

قد تكظم البزل منه حين تبصره حتى تقطع فى أجوافها الجرر

ومنه : رجل كظيم ، ومكظوم إذا كان ممتلئاً غماًوحزناً . وفى التنزيل : « وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » [2] « ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » [3] « إذ نادى وهو مكظوم » [4] ثم قال : « والغيظ أصل الغضب

---

(١) تفسير القرطبى ج٢ ص٢١٦ آية ١٧٣ من سورة البقرة . وانظر منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن ص ١٦٦ .

(٢) آية ٨٤ من سورة يوسف

(٣) آية ٥٨ من سورة النحل

(٤) آية ٤٨ من سورة القلم

وكثيراً ما يتلازمان لكن فرقان ما بينهما أن الغيظ لا يظهر على الجوارح بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل ولابد . ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم . وقد فسر بعض الناس ، الغيظ بالغضب، وليس بجيد والله أعلم (١)» .

وكذلك في قوله تعالى : « ربنا أنزل علينا مائدة من السماء » (٢) فرق القرطبي بين المائدة والخوان فقال : « المائدة الخوان الذي عليه الطعام قال قطرب : لا تكون المائدة مائدة حتى يكون عليها طعام . فإن لم يكن قيل خوان وهي فاعلة من ماد عبده إذا أطعمه وأعطاه » (٣) .

وفي قوله تعالى « يطاف عليهم بكأس من معين » فرق القرطبي بين الكأس والإناء فقال : « الكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء مع شرابه . فإن كان فارغا فليس بكأس . قال الضحاك والسدى : كل كأس في القرآن فهي الخمر . والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس، فإن لم يكن فيه خمر قالوا : إناء وقدح، ونقل القرطبي عن النحاس أنه قال : حكى من يوثق به من أهل اللغة : إن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأس فإن لم يكن فيه خمر فهو قدح كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام مائدة . فاذا لم يكن عليه طعام لم تقل له مائدة » (٤) .

ولقد منع من هذه التفرقة بعض علماء اللغة وقالوا : إن أمثال ذلك من

---

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٠٦

(٢) آية ١١٤ من سورة المائدة

(٣) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٦٧

(٤) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٤٨ آية ٤٥ من سورة الصافات . وانظر الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس طبع السلفية ص ٦٥ وما بعدها .

قبيل المترادفات . ولكن القرطبي أعرض عن ذلك كما رأينا في بعض الأمثلة السابقة حيث فرق بين الغضب والغيظ . ورد قول من قال : إن الغيظ مساو للغضب واقتصر في الأمثلة الأخرى على أقوال القائلين بالتفرقة فلم يذكر آراء غيرهم ، وهو بهذا يدلل على رضاه بهذا المسلك وإعراضه عن المسلك الآخر .

احتكام القرطبي إلى اللغة :

قدمنا في التفسير المأثور أن القرطبي كان يفاضل بين الآراء ويرجح بعضها أحياناً بما تشهد له اللغة وتؤيده . ومثل ذلك ما ذكره في قوله تعالى « صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » فقد قال جمهور المفسرين : إنها صفراء اللون من الصفرة المعروفة . قال مكي عن بعضهم : حتى القرن والظلف ، وقال الحسن وابن جبير : كانت صفراء القرن والظلف فقط . وعن الحسن أيضاً : صفراء معناها سوداء . قال الشاعر :

تلك خيلي منـــه وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

ولم يرتض القرطبي هذا الرأي لأن اللغة لا تؤيده . فقال : « قلت والأول أصح لأنه الظاهر وهذا شاذ لا يستعمل مجازاً إلا في الإبل . قال الله تعالى : « كأنه جمالة صفر »(١) وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة ولو أراد السواد لما أكده بالفقوع . وذلك نعت مختص بالصفرة ، وليس يوصف السواد بذلك . تقول العرب : أسود حالك ... وأحمر قان . وأبيض ناصع ، وأخضر ناضر ، وأصفر فاقع ، هكذا نص نقلة اللغة عن العرب . قال الكسائي : « يقال فقع لونه يفقع فقوعاً إذا خلصت صفرته »(٢) .

---

(١) آية ٣٣ من سورة المرسلات

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٥٠ آية ٦٩ من سورة البقرة .

وفرق هذا فان القرطبي قد استخدم اللغة ، وجعلها ركيزة يعتمد عليها لا فى رده لبعض الآراء كما سبق بل فى مواضـــم كثيرة . ومنها مهاجمته للمعتزلة فقد قامت مهاجمة القرطبي للمعتزلة فى بعض الأحيان على أساس لغوى بمعنى أنه لجـأ إلى اللغة فجعلها حـكما بين ما يذهب إليه أهل السنة وبـين ما يقوله المعتزلة . ولمـا وجد حكومتها فى صف أهل السنة أنتقد مذهب المعتزلة وعابه . ففى قوله تعالى « ختم الله على . . . . » يقول فى المسألة الثالثة : « فى هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والـكفر والإيمان فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم . فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة فتى يهتدون ، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم . « ومن يضلل الله فما له من هاد » وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله إذ لم يمنعه حقاً وجب له فتزول صفة العـــدل وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

فان قالوا : إن معنى الختم والطبع والغشاوة : التسمية والحـكم والإخبار بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل ، قلنا : هذا فاسد لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعاً مختوماً . ولا يجوز أن تـكون حقيقة التسمية والحـكم،ألا ترى أنه إذا قيل : فلان طبع الـكتاب وختمه كان حقيقة أنه فعل ما صار به الـكتاب مطبوعاً ومختوماً، لا التسمية والحـكم . ثم قال : هذا مالا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الـكافرين مجازاة لـكفرهم . كما قال تعالى « بل طبع الله عليها بكفرهم » وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي

عليه السلام ، والملائكة ، والمؤمنين ممتنع . فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها ، وأنهم فى ضلال لا يؤمنون ، ويحكمون عليهم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم . وإنما هو معنى يخلقه الله فى القلب يمنع الإيمان به ، دليله قوله تعالى « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به » وقال « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » أى لئلا يفقهوه وما كان مثله . (١)

وكرر مثل هذا أو قريباً منه فى قوله تعالى : « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً » حيث رجح أن هذا القول خبر من الله عز وجل ثم انتقل إلى مهاجمة المعتزلة فقال : « وعليه فيكون فيه رد على من تقدم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم فى قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعنى يضل به كثيراً التسمية هنا . أى يسميه ضالا كما يقال : فسقت فلانا يعنى سميته فاسقا . لأن الله تعالى لا يضل أحداً . هـذا طريقهم فى الإضلال وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل فى اللغة لأنه يقال : ضلله إذا سماه ضالا . ولا يقال أضله إذا سماه ضالا ، ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهل التأويل من الحق ، أنه يخذل به كثيراً من الناس مجازاة لكفرهم » (٢)

واحتكم القرطبي إلى اللغة فى مناصرة بعض المذاهب الفقهية والرد على بعض الفقهاء :

ففى قوله تعالى : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى » .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ح ١ ص ١٨٦ وما بعدها آية ٧ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ح ١ ص ٢٤٤ .

يقول القرطبي في المسألة السابعة : « قال ابن العربي قال أبو حنيفة من قال : إن شرب عبدي فلان من الفرات فهو حر فلا يعتق إلا أن تكرع فيه ، والكرع : أن يشرب الرجل بفيه من النهر ، فإن شرب بيده ، أو اغترف بالإناء منه لم يعتق . لأن الله سبحانه فرق بين الكرع في النهر وبين الشرب باليد . قال — أي ابن العربي — وهذا فاسد لأن شرب الماء يطلق على كل هيئة وصفة في لسان العرب من غرف باليد أو كرع بالفم انطلاقاً واحداً . فإذا وجد الشرب المحلوف عليه لغة وحقيقة حنث ، فاعلمه » . ورد القرطبي قول ابن العربي وانتصر لمذهب أبي حنيفة محتكما إلى اللغة فقال : قلت قول أبي حنيفة أصح فإن أهل اللغة فرقوا بينهما كما فرق الكتاب والسنة . قال الجوهري وغيره : كرع في الماء كروعا إذا تناوله بفيه من غير أن يشرب بكفيه . وفيه لغة أخرى : كرع بكسر الراء يكرع كرعا . والكرع ماء السماء . وأما السنة فذكر ابن ماجة في سننه حدثنا واصل بن عبد الأعلى حدثنا ابن فضيل عن ليث عن سعيد ابن عامر قال : مررنا على بركة فجعلنا نكرع فيها فقال رسول الله ﷺ « لا تكرعوا ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناء أطيب من اليد » وهذا نص . وليث بن أبي سليم خرج له مسلم وقد ضعف . (١)

وفي قوله تعالى : « فرهان مقبوضة » يقول القرطبي : « قال أبو علي : ولما كان الرهن بمعنى الثبوت والدوام . فمن ثم بطل الرهن عند الفقهاء . إذا خرج من يد المرتهن إلى الراهن بوجه من الوجوه . لأنه فارق ما جعل باختيار

---

(١) تفسير القرطبي ح ٣ ص ٢٥٣ آية ٢٤٩ من سورة البقرة . والحديث أخرجه ابن ماجة باب الشرب بالأكف والكرع ح ٢ ص ١٧٦ انظر ابن ماجة بحاشية السندي . والحديث مروى عن ابن عمر بلفظ مررنا على بركة فجعلنا نكرع منها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكرعوا ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فانه ليس إناء أطيب من اليد .

للمرتهن له . قلت — والقائل القرطبي — هذا المعتمد عندنا فى أن الرهن متى رجع إلى الراهن باختيار المرتهن ، بطل الرهن . وقاله أبو حنيفة غير أنه قال : إن رجع بعارية أو وديعة لم يبطل . وقال الشافعى : إن رجوعه إلى يد الراهن مطلقاً لا يبطل حكم القبض المتقدم . ولم يرتض القرطبي رأى الشافعى فرد عليه بقوله : « ودليلنا » فرهان مقبوضة « فإذاخرج عن يدالقابض لم يصدق ذلك اللفظ عليه لغة فلا يصدق عليه حكما وهذا واضح » .(١)

ونرى القرطبي يحتكم إلى اللغة فى ترجيحه لبعض القراءات أو توجيهها وسنشاهد ذلك كثيراً عند حديثنا عن منهجه فى القراءات ونكتفى هنا بذكر هذا المثال :

فى قوله تعالى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » يقول القرطبي : القيوم من قام . أى القائم بتدبير ما خلق، عن قتادة . وقال الحسن : القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها من حيث هو عالم بها لا يخفى عليه شىء منها . وقال ابن عباس : معناه الذى لا يحول ولا يزول . . . . ثم قال « وقرأ ابن مسعود وعلقمة والأعمش والنخعى » « الحى القيام » بالألف، وروى ذلك عن عمر ورجح القرطبي قراءة الجماعة محتكما إلى اللغة فقال « ولا خلاف بين أهل اللغة فى أن القيوم أعرف عند العرب وأصح بناء وأثبت علة » (٢)

النحو والإعراب فى تفسير القرطبي : —

لقد تأسست فى البصرة أول مدرسة نحوية . وكان لها منهج خاص فى استنباط

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٤١٠ آية ٢٨٣ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٨٢ آية ٢٥٥ من سورة البقرة .

قواعد النحو وأصوله . وتلتها مدرسة الكوفة وكان لها أيضاً منهجها . ومن طريق هاتين المدرستين تكونت مدرسة بغداد والأندلس . ورغم أن هاتين المدرستين تأثرتا بمدرسة الكوفة والبصرة . إلا أن كل واحدة منهما كانت لها قواعد نحوية جديدة . ومن هنا كثرت التخريجات والآراء النحوية التي حاول بها كل فريق أن يبطل حجة الآخر وأدلته، وكثرت أوجه الإعراب[1]، وتعددت المعاني، فلكل إعراب معنى . ولعل ما ساقه ابن قتيبة في كتابه « تأويل مشكل القرآن » يكشف ذلك . فقد قال وهو يمتدح لغة العرب « ولو أن قائلا قال « هذا قاتل أخي » بالتنوين وقال آخر : هـــذا قاتل أخي بالإضافة . لدل التنوين على أنه لم يقتله ، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله .

ولو أن قارئا قرأ «فلا يحزنك قولهم أنا نعلم ما يسرون وما يعلنون » وترك طريق الابتداء بأنا وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب « أن » بالقول كما ينصبها بالظن . لقلب المعنى عن جهته ، وأزاله عن طريقته ، وجعل النبي محزونا عليه لقولهم « أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » وهـذا كفر ممن تعمده ، وضرب من اللحن لا تجوز الصلاة به ، ولا يجوز للمأمومين أن يتجوزوا فيه . وقد قال رسول ﷺ « لا يقتل قرشي صبرا بعد اليوم » فمن رواه جزما أوجب ظاهر الكلام للقرشي أن لا يقتل إن ارتد ولا يقتص منه إن قتل . ومن رواه رفعاً انصرف التأويل الى الخبر عن قريش أنه لا يرتد أحد عن الإسلام فيستحق القتل » ثم ختم ابن قتيبة كلامه بقوله « أفما ترى

---

(١) راجع كتاب نشأة النحو من ص ١٩ وما بعدها ، وص ١٣٥ إلى ص ١٤٠ ومن ١٤٤ إلى ١٤٩ . . وانظر كتاب القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ص ٩١ ، ٩٥ — ١١٢ — ١٢١ . — ١٢٧ — ١٦٣ .

الإعراب كيف فرق بين هذين المعنيين (١) » . ويذكر ابن الانبارى فى كتابه «نزهة الألباء» سبب وضع أبى الأسود الدؤلى للنحو : أن ابنته قالت له ما أحسن « السماء » برفع « أحسن » وإضافة « السماء » إليها . فقال لها : نجومهـا . فقالت : انى لم أرد هذا وانما تعجبت من حسنها فقال لها : اذن فقولى ما أحسن السماء . ووضع النحو من ساعتها وكان أول ما رسم منه باب التعجب (٢) .

ولقد التمس النحويون على اختلاف مذاهبهم ، أدلتهم وشواهدهم من القرآن الكريم فكثرت التخريجات ، وكثرت أوجه الإعراب فى الآية الواحدة أو فى الكلمة من الآية .

ونرى القرطبي يستعرض فى تفسيره مذاهب هؤلاء النحويين وتخريجاتهم ويستعرض خلافاتهم فى الإعراب ، وهدفه كمفسر أن يكشف للمعنى وأن يجليه .

ففى قوله تعالى : « كتاب الله عليكم » (٣) يقول القرطبي « كتاب » نصب على المصدر المؤكد أى حرمت هذه النساء كتابا من الله عليكم ومعنى « حرمت عليكم » « كتب الله عليكم »

وقال الزجاج والكوفيون : هو نصب على الإغراء أى الزموا كتاب الله أو عليكم كتاب الله . وفيه نظر على ما ذكره أبو على . فان الإغراء لا يجوز

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١١ وانظر خصائص ابن جنى ح ١ ص ٣٣ وكتاب الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس ص ٤٢ ، وكتاب المدارس النحوية للدكتور شوقى ضيف ص ٢٠٦ فلبعض النحاة رأى يخالف إجماع العلماء فى أن الاعراب يغير المعانى . والحديث الذى ذكره « ابن قتيبة » أخرجه مسلم فى فتح مكة ح ١٢ ص ١٣٤ .

(٢) نزهة الالباء فى طبقات اللغويين والادباء أى النحويين ص ١٢ .

(٣) آية ٢٤ من سورة النساء .

فيه تقديم المنصوب على حرف الإغراء فلا يقال : زيداً عليك أو زيداً دونك. بل يقال : عليك زيداً ودونك عمراً. وهذا الذي قاله صحيح على أن يكون منصوباً بـ « عليكم » وأما على تقرير حذف الفعل فيجوز . ويجوز الرفع على معنى هذا كتاب الله وفرضه (١) .

هذا ما ذكره القرطبي . ولو أردنا أن نكشف ما دار في هذه الآية من تخريجات نحوية فإننا نقول — ذهب الكوفيون — وتبعهم الزجاج من مدرسة بغداد إلى أن عليك ودونك وعندك في الإغراء ، يجوز تقديم معمولاتها عليها نحو زيداً عليك ، وعمراً عندك ، وبكراً دونك ، واستدلوا بقوله « كتاب الله عليكم » .

ومنع ذلك البصريون — وأبو علي الفارسي — من مدرسة بغداد أيضاً وخرجوا الآية وحملوها على أساس بأن « كتاب » الله ليس منصوباً بعليكم وإنما هو منصوب لأنه مصدر والعامل فيه فعل مقدر دل عليه ما تقدمه من قوله تعالى : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » فإن فيها معنى « كتب » وتقدير الكلام : كتب كتاباً الله عليكم ثم أضيف المصدر إلى الفاعل كقوله « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله » فنصب « صنع » على المصدر بفعل مقدر ، ولم يظهر لدلالة ما تقدم عليه من الكلام والتقدير فيه : صنع صنعاً الله . وحذف الفعل وأضيف المصدر إلى الفاعل » (٢) .

---

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) راجع الانصاف في مسائل الخلاف للكمال ابن الانباري المتوفى سنة ٥٧٧ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . نشر محمود توفيق الكتبي ج ١ ص ١٤٠ مسألة ٢٧ .

وفى قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون[١] » بين القرطبي مذاهب النحويين وموقفهم من العطف على المضمر وتخريجات من لم يرتض هذا وردهم على من تمسكوا بالآية كدليل لهم . فقال :

« والذين هادوا » معطوف وكذا « والصابئون » معطوف على المضمر فى هادوا فى قول الكسائى[٢] والأخفش[٣] . قال النحاس[٤] : سمعت الزجاج يقول وقد ذكر له قول الأخفش والكسائى . هذا خطأ من جهتين إحداها : أن المضمر المرفوع يقبح العطف عليه حتى يؤكد ، والجهة الأخرى أن المعطوف شريك المعطوف عليه فيصير المعنى أن الصابئين قد دخلوا فى اليهودية وهذا محال . وقال الفراء[٥] وإنما جاز الرفع فى « والصابئون » لأن « إن » ضعيفة فلا تؤثر إلا فى الاسم دون الخبر « والذين » هنا لا يتبين فيه الإعراب فجرى على جهة واحدة الأمران — يقصد الرفع والنصب — فجاز رفع الصابئين رجوعا إلى أصل الكلام . قال الزجاج : وسبيل ما يتبين فيه الإعراب وما لا يتبين فيه الإعراب واحد ، وقال الخليل[٦] وسيبويه : الرفع محمول على التقديم والتأخير ، والتقديم « إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك » وأنشد سيبويه :

---

(١) آية ٦٩ من سورة المائدة .

(٢) من مدرسة الكوفة . وهو على بن حمزة المتوفى سنة ١٨٢ هـ .

(٣) « الاخفش » — هو الاخفش الاوسط لانه إذا أطلق انصرف الذهن إليه وهو سعيد بن مسعدة من مدرسة البصرة . المتوفى ٢٢١ .

(٤) « النحاس » — من نحاة مصر . وهو أبو جعفر النحاس المتوفى سنه ٣٣٨ هـ .

(٥) « الفراء » من مدرسة الكوفة . وهو يحيى بن زياد المتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

(٦) هو الخليل بن أحمد المتوفى ١٦٠ هـ

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا فى شقاق

وقال ظبيء البرجمى :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإنى وقيار بها لغريب

وقيل « إن » بمعنى « نعم » فالصابئون مرتفع بالابتداء وحذف الخبر لدلالة الثانى عليه . فالعطف يكون على هذا التقدير بعد تمام الكلام ، وانقضاء الاسم والخبر .

وقال قيس الرقيات :

بكر العواذل فى الصبا ح يلمننى وألومهنه

ويقلن شيباً قد علا ك وقد كبرت فقلت إنه

قال الأخفش : « إنه » بمعنى « نعم » وهذه الهاء أدخلت للسكت[1] .

وفى قوله تعالى « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها»[2] بين مذاهب النحويين فى زيادة « واو العطف » . فقال : « الواو هنا للعطف عطف جملة على جملة والجواب محذوف » قال المبرد[3] : أى سعدوا وفتحت وحذف الجواب بليغ فى كلام العرب وأنشد :

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفساً

(١) تفسير القرطبى ج ٦ ص ٢٤٦

(٢) آية ٧٣ من سورة الزمر .

(٣) المبرد من مدرسة البصرة ، وهو أبو العباس محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ .

فحذف جواب لو والتقدير : لكان أروح . وقال الزجاجي . حتى إذا جاءوها دخلوها وهو قريب من الأول . وقيل : «الواو» زائدة قاله الكوفيون. وهو خطأ عند البصريين. وقد قيل : إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى . والتقدير : حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة بدليل قوله « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » وحذف الواو فى قصة أهل النار . لأنهم وقفوا على النار ، وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعاً لهم . ذكره المهدوى ، وحكى معناه النحاس قبله . قال النحاس : فأما الحكمة فى إثبات الواو فى الثانى وحذفها من الأول . فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد . وهو أنه لما قال الله عز وجل فى أهل النار « حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » دل بهذا على أنها كانت مغلقة ، ولما قال فى أهل الجنة « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها » دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها والله أعلم . وقيل : أنها واو الثمانية وذلك أن من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون : خمسة . ستة . سبعة . وثمانية فإذا بلغوا السبعة قالوا : وثمانية : قاله أبو بكر بن عياش . قاله الله تعالى « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام » وقال « التائبون العابدون » ثم قال « فى الثامن » والناهون عن المنكر » وقال « ويقولون سبعة وثامنهم » وقال « ثيبات وأبكاراً »(١) .

وفى قوله تعالى « ماذا أراد الله بهذا مثلا »(٢) بين القرطبى مذاهب النحويين فى إعراب ماذا فقال « اختلف النحويون فى « ماذا » فقيل :

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٨٥

(٢) آية ٢٦ من سورة البقرة .

هى بمنزلة اسم واحد بمعنى أى شىء أراد الله. فيكون فى موضع نصب « بأراد» قال ابن كيسان (١) وهو الجيد وقيل . «ما » اسم تام فى موضع رفع بالابتداء. و « ذا » بمعنى الذى وهو خبر الابتداء . ويكون التقدير : ما الذى أراده الله بهذا مثلا . ومعنى كلامهم هذا الإنكار بلفظ الاستفهام»(٢).

وفى قوله تعالى : « وقلن حاش لله »(٣) ذكر أيضاً مذاهب النحويين فى إعراب « حاش » فقال : يقال : « حاش زيد » ، وحاشا زيداً . قال النحاس . وسمعت على ابن سليمان(٤) يقول النصب أولى لأنه قد صح أنها فعل . بقولهم حاش لزيد والحرف لا يحذف منه . وقد قال النابغة :

ولا أحاشى من الأقوام من أحد

وقال بعضهم : حاش حرف وأحاشى فعل . ويدل على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها » . ثم ينتهى إلى أن حاش وحاشا فى الاستثناء حرف جر عند سيبويه ، أما عند المبرد وأبى على الفارسى(٥) فهى فعل ، لأن المعنى صار يوصف فى حاشية وناحية مما اتهم به » (٦) .

ويذكر القرطبي مذاهب النحويين فى معانى بعض الحروف .

ففى قوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم

---

(١) من مدرسة بغداد ت سنة ٢٩٩ هـ

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٤٤

(٣) آية ٣٢ من سورة يوسف .

(٤) هو الأخفش الصغير من مدرسة بغداد ت سنة ٣١٥ هـ .

(٥) من مدرسة بغداد ت سنة ٣٧٧ .

(٦) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٨١

لعلكم تتقون» ذكر معانى «لعل» عند النحويين فقال: قوله تعالى «لعلكم تتقون» وما كان مثله فيما ورد فى كلام الله تعالى من قوله «لعلكم تتقون» «ولعلكم تشكرون»، «لعلكم تذكرون»، «لعلكم تهتدون» فيه ثلاثة تأويلات. الأول: أن «لعل» على بابها من الترجى والتوقع إنما هو فى حيز البشر. فكأنه قيل لهم افعلوا ذلك على الرجاء منكم، والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا، وأن تتقوا. هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان. قال سيبويه فى قوله عزوجل «اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» قال: معناه اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتذكر أو يخشى. واختار هذا القول أبو المعالى. الثانى: أن العرب استعملت «لعل» مجردة من الشك بمعنى لام كى. فالمعنى لتعقلوا، ولتذكروا، ولتتقوا. وعلى ذلك يدل قول الشاعر:

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا ... نكف ووثقتم لنا كل موثق
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم ... كلمع سراب فى الملا متألق

المعنى كفوا الحروب لنكف. ولو كانت «لعل» هنا شكا لم يوثقوا لهم كل موثق. وهذا القول عن قطرب [1] والطبرى. الثالث: أن تكون «لعل» بمعنى التعرض للشىء كأنه قيل: افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا، أو لأن تذكروا، أو لأن تتقوا» [2].

وفى قوله تعالى «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» [3] ذكر مذاهب النحويين فى معنى «أو» فقال: قال الفراء: «أو» بمعنى بل، أى بل يزيدون وقال غيره: إنها بمعنى الواو ومنه قول الشاعر:

---

(١) من مدرسة البصرة. وهو محمد بن المستنير المتوفى سنة ٢٠٦ هـ
(٢) تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٢٧.
(٣) آية ١٧٤ من سورة الصافات.

فلما اشتد أمر الحرب فينا   تأملنا رياحا أو رزاما

أي ورزاما . وهذا كقوله تعالى « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب »[1] وقرأ جعفر بن محمد « إلى مائة ألف ويزيدون » بغير همز . فيزيدون في موضع رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف أي وهم يزيدون : النحاس : ولا يصح هذان القولان عند البصريين وأنكروا كون « أو » بمعنى بل وبمعنى الواو لأن بل للاضراب عن الأول والإيجاب لما بعده وتعالى الله عز وجل عن ذلك . أو خروج من شيء إلى شيء وليس هذا موضع ذلك والواو معناه خلاف معنى أو ، فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت المعاني ، ولو جاز ذلك لكان وأرسلناه إلى أكثر من مائتي ألف أخصر . وقال المبرد : المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم : هم مائة ألف أو أكثر — ومعنى قول المبرد أنها لشك عند المخاطبين ، وفي نظرهم بحيث لو رأوهم لشكوا وقالوا ذلك فخوطب العباد على ما يعرفون . وقيل : هو كما تقول جاءني زيد أو عمرو . وأنت تعرف من جاءك منهما إلا أنك أبهمت على المخاطب « فأو » للابهام ومنه قول الله تعالى « وإنا أو إياكم لعلى هدى[2] أو في ضلال مبين »[3]

وكان القرطبي في بعض الأحيان يرد بعض الآراء والمذاهب النحوية . لضعفها وشذوذها ، أو لإخلالها بالمعنى .

ففي قوله تعالى « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » يقول في المسألة الثالثة : « أنت » تأكيد للمضمر الذي في الفعل ومثله « فاذهب أنت

---

(١) آية ٧٧ من سورة النحل .

(٢) آية ٢٤ من سورة سبأ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٣٢ بتصرف .

وربك »(١) ولا يجوز اسكن وزوجك ، ولا اذهب وربك . إلا فى ضرورة الشعر كما قال :

قلت إذ أقبلت وزهر تهادى كنعاج الملا تعسفن رملا (٢)

« فزهر » معطوف على المضمر فى « أقبلت » ولم يؤكد ذلك المضمر .
ويجوز فى غير القرآن على بعد « قم وزيد » (٣) .

وفى قوله تعالى « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً » يقول القرطبي :
« محرراً » نصب على الحال . وقيل : نعت لمفعول محذوف . وتقديره مولوداً محررا مثل قوله تعالى :« أن أعمل سابغات » أى دروعا سابغات ، ثم يقول : والأول أولى من جهة التفسير وسياق الكلام والإعراب . أما الإعراب : فان إقامة النعت مقام المنعوت لا يجوز فى مواضع ، ويجوز على المجاز فى أخرى .
ويجوز حذف النعت إن علم كما فى قوله تعالى « يأخذ كل سفينة غصبا » ، أى كل سفينة صالحة .

يجوز حذف المنعوت وإقامة النعت مقامه فى صورتين الأولى: إما أن يكون النعت صالحا لمباشرة العامل كما فى قوله تعالى « أن اعمل سابغات » .

الثانية : أن يكون المنعوت بعض اسم مقدم مخفوض « بمن » أو « فى »
فالأول كقولهم « منا ظعن ومنا أقام » أى منا فريق ظعن . . . فظعن جملتان فى موضع رفع نعتان لمحذوفين . والمنعوتان بعض اسم مقدم هو الضمير المجرور بمن .

---

(١) آية ٢٤ من سورة المائدة .
(٢) قاله عمر ابن أبى ربيعة: وزهر جمع زهراء وهى البيضاء المشرقة والتهادى المشى الرويد الساكن . والنعاج بقر الوحش « تعسفن » ركبن .
(٣) تفسير القرطبي . ج٥ ص ٣٠٠ .

والشاهد فيه قول الشاعر وهو الأسود الخنافي يصف امرأة:

لو قلت ما في قومها لم تيثم ... يفضلها في حسب وميسم

أصله: لو قلت ما في قومها أحد يفضلها لم تأثم، فحذف الموصوف وهو أحد

وكسر حرف المضارعة من «أثم» وأبدلت الهمزة ياء «وميسم» من الوسامة والجمال.

ومن التفسير: قيل إن سبب قول امرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لا تلد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان. وأنها كانت تحت شجرة فبصرت بطائر يزق فرخاً فتحركت نفسها لذلك ودعت ربها أن يهب لها ولداً.

فنذرت إن ولدت أن تجعل ولدها محرراً أي عتيقاً خالصاً لله... «فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى» بمعنى أن الأنثى لا تصلح للخدمة. قيل: لما يصيبها من الحيض والأذى. وقيل لا تصلح لمخالطة الرجال وكانت ترجو أن تكون ذكراً فلذلك حزنت (1).

وفي قوله تعالى «ص. والقرآن ذي الذكر» استعرض آراء النحويين في جواب القسم وارتضى بعضها. ورد بعضها الآخر، لضعفها وقبحها. فقال: جواب القسم «بل الذين كفروا في عزة وشقاق» لأن «بل» نفي لأمر سبق وإثبات غيره، قاله القتبي. فكأنه قال: والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق» عن قبول الحق، وعداوة محمد ﷺ، أو «والقرآن ذي الذكر» ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة، بل هم في تكبر عن قبول الحق. وهو كقوله «ق، والقرآن المجيد بل عجبوا». وقيل: الجواب «كم أهلكنا» كأنه قال والقرآن لكم أهلكنا. فلما تأخرت «كم» حذفت اللام منها كقوله تعالى «والشمس وضحاها» ثم قال

(1) [illegible] آية ٣٥ من سورة آل عمران.

وقد أفلح » أى لقد أفلح. قال المهدوى : وهذا مذهب الفراء. ابن الانبارى: فن هذا الوجه لا يتم الوقف على قوله « فى عزة وشقاق » وقال الأخفش : جواب القسم « إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب » ونحو منه قوله تعالى « تالله إن كنا لفى ضلال مبين » وقوله « والسماء والطارق إن كل نفس » ابن الأنبارى : وهذا قبيح لأن الكلام قد طال فيما بينهما ، وكثرت الآيات والقصص . وقال الكسائى : جواب القسم قوله « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » ابن الأنبارى : وهذا أقبح من الأول . لأن الكلام أشد طولا فيما بين القسم وجوابه . وقيل : الجواب قوله « ان هذا لرزقنا ما له من نفاد » وقال قتادة : الجواب محذوف تقديره . « والقرآن ذى الذكر لتبعثن » (١)

وهكذا يمضى القرطبي فى تفسيره مرتكزاً على اللغة والنحو والإعراب والشعر وبهذا وضح ألفاظ القرآن الكريم ، وألقى عليها كثيراً من الأضواء .

الاستشهاد بالشعر عند القرطبي:

استخدم القرطبي الشعر فى تفسيره كثيراً ولو أراد باحث أن يتقصى ذلك وأن يحصره لضاق ذرعا وضاقت مجموعة من الرسائل عن استيعابه . ففى الكتاب ثروة كبيرة من الأشعار . ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنه يوجد فى كل آية عدد كبير من الأبيات الشعرية .

وكان القرطبي يذكر الشعر لأغراض مختلفة . فتارة يذكره لبيان معنى لغوى وتارة يذكره للاستدلال على قاعدة نحوية أو بلاغية أو للاستدلال على توجيه رأى فى الإعراب . أو غير ذلك

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٤٤

ففى قوله تعالى : « لا ريب فيه » بين معانى « الريب » بالشعر فقال :

وفى الريب ثلاثه معان أحدها : الشك . قال عبد الله بن الزبعرى :

ليس فى الحق يا أميمــة ريب إنما الريب ما يقول الجهول

وثانيها : التهمة . قال جميل :

بثينة قالت ياجميـــل أربتنى فقلت كلانا يا بثين مريب

وثالثها : الحاجة . قال :

قضينا من تهامــة كل ريب وخيبر ثم أجمعنا السيوفا[١]

وفى قوله تعالى : « قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين »[٢] استدل بالشعر على قاعدة بلاغية وهى : وضع المستقبل موضع الماضى . فقال : « قوله تعالى « قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل » رد من الله تعالى عليهم فى قولهم إنهم آمنوا بما أنزل عليهم ، وتكذيب منه لهم ، وتوبيخ . المعنى فكيف قتلتم وقد نهيتم عن ذلك . فالخطاب لمن حضر محمداً ﷺ والمراد أسلافهم وإنما توجه الخطاب لأبنائهم . لأنهم كانوا يتولون أولئك الذين قتلوا كما قال « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء »[٣] فإذا تولوهم فهم بمنزلتهم وقيــل : لأنهم رضوا فعلهم فنسب ذلك إليهم . وجاء « تقتلون » . بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضى لما ارتفع الإشكال بقوله « من

(١) تفسير القرطبى ح ١ ص ١٥٩

(٢) آية ٩١ من سورة البقرة .

(٣) آية ٨١ من سورة المائدة .

قبل » وإذا لم يشكل فجائز أن يأتى الماضى بمعنى المستقبل ، والمستقبل بمعنى الماضى . قال الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه   أن الوليد أحق بالعذر

شهد بمعنى يشهد »(١) .

وفى قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » استدل بالشعر على قاعدة بلاغية أيضاً . وهى تقديم المفعول على الفعل للاهتمام . فقال فى المسألة الرابعة والعشرين : « إن قيل لم قدم المفعول على الفعل ؟ قيل له قدم اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه فقال الساب . إياك أعنى . فقال له الآخر : وعنك أعرض . فقدما الأهم ، وأيضاً لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ، فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك فيقدم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن وقال العجاج :

إياك أدعو فتقبل ملقى   واغفر خطاياى وكثر ورقى

وفى قوله تعالى « والموفون بعهدهم » بعد أن بين أن قوله « والموفون » عطف على « من » فى قوله « ولكن البر من آمن » لأن « من » فى موضع جمع ومحل رفع فكأنه قال ولكن البر المؤمنون والموفون . بعد أن بين ذلك قال : « والصابرين » نصب على المدح أو بإضمار فعل . والعرب تنصب على المدح وعلى الذم . كأنهم يريدون بذلك إفراد الممدوح والمذموم ، ولا يتبعونه

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٣٠

أول الكلام ، وينصبونه . فأما المدح فقوله « والمقيمين الصلاة »(١) وأنشد الكسائي :

وكل قوم أطاعوا أمر سيدهم إلا نميراً أطاعت أمر غاويها

الظاعنين ولما يظعنوا أحداً والقائلون لمن دار نخليها

وأنشد أبو عبيدة :

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر

النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الأزر

وقال آخر :

نحن بني ضبة أصحاب الجمل

فنصب على المدح . وأما الذم فقوله تعالى « ملعونين أينما ثقفوا »(٢) الآية .

وقال عروة بن الورد :

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب وزور

وهذا مهيع (٣) — شائع — في النعوت لا مطعن فيه من جهة الإعراب موجود في كلام العرب (٤) : وسنشاهد هذا اللون من الاستشهاد وغيره من الألوان السابقة في كثير من المواقف فلا داعي للإطالة في ذلك .

---

(١) آية ١٦٢ من سورة النساء .

(٢) آية ٦١ من سورة الأحزاب .

(٣) بفتح الميم وسكون الهاء وفتح الياء قال صاحب القاموس وهو الطريق الواسع الواضح .

(٤) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٩ آية ١٧٧ من سورة البقرة .

وإذا كان القرطبي قد استخدم الشعر فى كثير من الأغراض فان له حقاً فى ذلك . فان لغة العرب وأشعارها كانت أساساً اعتمد عليه الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم فى تفسير غريب القرآن . فأزالوا بذلك ما يعتريه من غموض وخفاء ولقد أشار إلى ذلك القرطبي فى مقدمته، وذكر أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فإن الشعر ديوان العرب . وأنه كثيراً ما أقدم على تفسير الغريب باللغة والشعر ، وحذا حذوه التابعون فى ذلك . فقد روى عن ابن عباس فى قوله تعالى « الحمد لله فاطر السموات والأرض » أنه قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى أنا ابتدأتها واخترعتها »[1] . ويقول فى قوله تعالى « إنه ظن أن لن يحور » ما كنت أدرى « ما يحور » حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها : حورى . أى ارجعى فالحور فى كلام العرب الرجوع »[2] .

ولقد سأله يوماً رجل عن قول الله عز وجل : « وثيابك فطهر » فأجابه بقوله : لا تلبس ثيابك على غدر وتمثل بقول غيلان الثقفى :

فأنى بحمد الله لا ثوب غادر   لبست ولا من سوأة أتقنع

وسأله نافع بن الأزرق[3] عن معنى السنة فى قوله تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » فقال : السنة النعاس ثم تمثل بقول زهير بن أبى سلمى :

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص٣١٩

(٢) تفسير القرطبي ج ١٩ ص٢٧٣

(٣) ذكر السيوطى فى الاتقان غالب الاسئلة التى وجهها نافع بن الازرق إلى ابن عباس وأجوبة ابن عباس الشعرية . انظر الاتقان ج ١ ص ١٤٩ .

لا سنة فى طوال الليل تأخذه ولا ينام ولا فى أمره فند [١]

وسأل رجل عكرمة عن الزنيم فقال : هو ولد الزنا . وتمثل ببيت شعر :

زنيم ليس يعرف من أبوه بغى الأم ذو حسب لئيم

وسئل عن قوله تعالى « ذواتا أفنان » فقال ذواتا ظل وأغصان ألم تسمع إلى قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فنن الغصون حماماً

تدعو أبا فرخين صادف طاوياً ذا مخلبين من الصقور قطاما [٢]

ويوضح الرافعى فى كتابه « إعجاز القرآن » معنى الغريب فيقول : « فى القرآن ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة ، أو نافرة ، أو شاذة ، فإن القرآن منزه عن هذا جميعه . وإنما اللفظة الغريبة ها هنا هى التى تكون حسنة مستغربة فى التأويل بحيث لا يتساوى فى العلم بها أهلها وسائر الناس » [٣] .

ولما تأسست المدارس النحوية . كان من مصادرها فى تقعيد قواعد النحو لهجات القبائل وأشعار العرب . . . كما استدلت هذه المدارس على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر [٤] . ولقد أنكر فريق من العلماء على النحويين الاستدلال

---

(١) الفند . بالتحريك ضعف الرأى من الكبر وقد يستعمل فى غير الكبر .

(٢) تفسير القرطبى ح ١ ص ٢٤ وما بعدها بتصرف

(٣) إعجاز القرآن ص ٧٤ ونقل هذا النص الدكتور عبدالعال سالم فى كتابه « القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية » ص ٢٤٢ .

(٤) انظر « القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية » ص ٩٥ ، ١٢١ .

على غريب القرآن ومشكله بالشعر بحجة أن الشعر فى تلك الحالة يكون أصلا للقرآن ، وهذا لا يصح ، وأبطل القرطبي هذا الرأى فى مقدمته مستدلا بموقف الصحابة والتابعين ، وكأنه قد انتهى إلى صحة مذاهب النحويين فى جعلهم الشعر أصلا تؤخذ منه القواعد النحوية ويحتج به على الغريب والمشكل

ونقل القرطبي رأيه هذا عن « أبى بكر بن الأنبارى » . ولكنه لم يشر إلى الحجة التى تمسك بها من أنكر على النحويين مذهبهم . فنقل كلام ابن الأنبارى مختصراً ، ولكن السيوطى أشار إلى ما قاله ابن الأنبارى بأوضح مما قاله القرطبي فقال : « قال أبو بكر بن الأنبارى : قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيراً ، الإحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر . وأنكر جماعة ، لا علم لهم ، على النحويين ذلك وقالوا : إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلا للقرآن . قالوا : وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن . وهو مذموم فى القرآن والحديث . قال : وليس الأمر كما زعموه من أنا جعلنا الشعر أصلا للقرآن . بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر ، لأن الله تعالى قال : « إنا جعلناه قرآنا عربياً » وقال : « بلسان عربى مبين » وقال ابن عباس : الشعر ديوان العرب . فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه » (١) .

وإذا كان القرطبي قد ارتضى الشعر دليلا على اللغة والنحو والإعراب وغير ذلك ، وأورد فى كتابه ثروة هائلة من الشعر . فهل نزل فى استشهاده إلى طبقات المولدين من الشعراء أم وقف على طبقات الاسلاميين منهم ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال يستحسن أن نعرف موقف العلماء من طبقات الشعراء التى يجوز الاحتجاج بشعرها ؟

---

(١) الاتقان ج ١ ص ١٤٩ .

بين صاحب «خزانة الأدب» أن الشعراء ينقسمون إلى طبقات أربع :

الطبقة الأولى : الشعراء الجاهليون وهم من كانوا قبل الإسلام كامرىء القيس والأعشى .

الطبقة الثانية : المخضرمون : وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كلبيد وحسان .

والطبقة الثالثة : المتقدمون ويقال لهم الإسلاميون : وهم الذين كانوا فى صدر الإسلام كجرير والفرزق .

الطبقة الرابعة : المولدون ويقال لهم المحدثون : وهم من بعدهم إلى زماننا كبشار ابن برد وأبى نواس . . فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعا وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بها، ووضح صاحب الخزانة أنه وإن كان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبى إسحاق وغيرهما من النحاة يخطئون الفرزدق والكميت وذا الرمة وإضرابهم. فإن ذلك يرجع إلى أنهم كانوا فى عصرهم والمعاصرة حجاب .

وأما الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقا وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم كأبى تمام (حبيب بن أوس الطائى المتوفى سنة ٢٣١ هـ) فلقد استشهد الزمخشرى فى تفسير أوائل البقرة ببيت من شعره . (١)

ولقد استشهد القرطبي فى تفسيره بشعر فحول شعراء الجاهلية وأعلامها

---

(١) خزانة الادب ح١ ص ٥ وما بعدها. وانظر آداب العرب للرافعى ح١ ص٣٦٩

كامرىء القيس ، وعنترة بن شداد العبسى المتوفى سنة ٢٢ قبل الهجرة . وزهير بن أبى سلمى المتوفى سنة ٦٣١ هـ . وطفيل الغنوى . والحارث بن حلزة اليشكرى المتوفى سنة ٥٢ قبل الهجرة . وعدى بن زيد . وعمرو بن كلثوم ابن زهير المتوفى سنة ٥٢ قبل الهجرة ، والحويدرة الذبيانى .

كما استشهد بأشعار المخضرمين . مثل حسان بن ثابت ولبيد بن أبى ربيعة والحطيئة جرول بن أوس الملقب بالحطيئة لقصره المتوفى سنة ٣٠ هـ . وكعب بن سعد الغنوى . وعباس بن مرداس .

ولقد عد بعض العلماء « لبيد بن ربيعة » من شعراء الجاهلية وقالوا : هو وإن عاش فى الإسلام طويلا ، وكانت وفاته سنة ٤١ هـ إلا أنه أضرب عن قول الشعر بعد أن أسلم [١] .

ومن الشعراء الإسلاميين الذين استشهد القرطبي بشعرهم : جرير ، الفرزدق والأخطل بن غياث بن غوث المتوفى سنة ٩٢ هـ . وزياد بن الأعجم ، وابن هرمة أبو اسحاق إبراهيم بن على المتوفى بين سنة ١٩٦ ، ١٩٨ هـ . وذو الرمة وجميل بن معمر المتوفى سنة ٨٢ هـ ، وغيرهم . وإليك بعض الأمثلة والنماذج التى تؤيد ذلك :

فى قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال » [٢] بين القرطبي أن جواب لو محذوف تقديره « لكان هذا القرآن » وأنه حذف إيجازا لما فى ظاهر الكلام من الدلالة عليه . ثم استدل على جواز حذف جواب لو بقول امرىء القيس :

---

(١) لحولة الشعراء للاصمعى ص ٢٨ .

(٢) آية ٣٣١ من سورة الرعد

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

وتقدير الجواب فى البيت « لهان على » (١) .

وفى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا (٢) » بين أن الأمر بالمصابرة معناه مصابرة الأعداء وصحح هذا القول مستدلا بقول عنترة :

فلم أر حيا صابروا مثل صبرنا ولا كافحوا مثل الذين نكافح

ثم قال : فقوله « صابروا مثل صبرنا » أى صابروا العدو فى الحرب ولم يبد منهم جبن ولا خور (٣)

وفى قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء » (٤) بين أن من معانى « سواء » العدل ، واستشهد بقول زهير :

أرونى خطة لا ضيم فيها يسوى بيننا فيها السواء (٥)

وفى قوله تعالى « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا » (٦) يقول القرطبي : « قد يعبر بالذوق » . عما يطرأ على النفس . وإن لم يكن مطعوما لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم . واستشهد بقول عمر بن أبى ربيعة الشاعر الإسلامى :

فذق هجرها إن كنت تزعم أنها فساد ألا يا ربما كذب الزعم

---

(١) تفسير القرطبي ح ٩ ص ٣١٩ .

(٢) آية ٢٠٠ من سورة آل عمران .

(٣) تفسير القرطبي ح ٤ ص ٣٢٣

(٤) آية ٦٤ من سورة آل عمران

(٥) تفسير القرطبي ح ٤ ص ١٠٦

(٦) آية ١٤ من سورة السجدة

ويقول طفيل الشاعر الجاهلي :

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر من الغيظ في أكبادنا والتحوب(١)

وفي قوله تعالى « أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا »(٢) يقول : قرأ حمزة والكسائي : وولداً » بضم الواو ، والباقون بفتحها واستدل لقول من قال : إنهما لغتان بمعنى واحد . يقول الحارث بن حلزة :

ولقد رأيت معاشراً قد ثمروا مالا وولداً

ويقول شاعر آخر :

فليت فلانا كان في بطن أمه وليت فلانا كان ولد حمار (٣)

وقوله تعالى « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » (٤) يقول : والقرين المقارن . أي المصاحب والخليل وهو فعيل من الإقران . قال عدى بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى (٥)

وفي قوله تعالى « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً» (٦) يقول قرأ الكوفيون : لا يضركم بضم الراء وتشديدها من ضر يضر . ويجوز أن

---

(١) تفسير القرطبي ح ١٤ ص ٩٨ من وما بعدها

(٢) آية ٧٧ من سورة مريم

(٣) تفسير القرطبي ح ١١ ص ٢٤٦

(٤) آية ٣٨ من سورة النساء

(٥) تفسير القرطبي ح ٥ ص ١٤٤ .

(٦) آية ١٢٠ من سورة آل عمران

يكون مرفوعا على تقدير إضمار الفاء والمعنى فلا يضركم ومنه قول الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها

وهذا صدر بيت لحسان بن ثابت وتمامه

والشر بالشر عند الله سيان (١)

وفى قوله تعالى « وما زادوهم غير تتبيب » (٢) استدل على أن لفظة « تتبيب » معناها الخسران بقول لبيد :

فقد بليت وكل صاحب جدة   لبيلى بعود وذاكم التتبيب (٣)

وفى قوله تعالى « الذين استجابوا لله » (٤) استدل على أن استجاب بمعنى أجاب وأن السين والتاء زائدتان (كثرة المبنى تدل على كثرة المعنى والسين والتاء من حروف المطاوعة والفرق بين أجاب واستجاب يدل على الاستجابة بعد التعب والجهد) بقول كعب بن سعد الغنوى :

وداع دعا يامن يجيب إلى الندا   فلم يستجبه عند ذاك مجيب (٥)

وفى قوله تعالى «ولا تأكلوها إسرافا وبدارا » (٦) فرق بين الإسراف والسرف فقال : الإسراف فى اللغة : الإفراط ومجاوزة الحد ٠٠٠٠ والسرف الخطأ فى الإنفاق ومنه قول الشاعر :

---

(١) تفسير القرطبي ح ٤ ص ١٨٤

(٢) آية من سورة هود

(٣) تفسير القرطبي ح ٩ ص ٩٥

(٤) آية ١٧٢ من سورة آل عمران

(٥) تفسير القرطبي ح ٤ ص ٢٧٧

(٦) آية ٦ من سورة النساء

أعطوا هنيدة يحـــدوها ثمانية

ما فى عطائهم من ولا ســـرف

أى ليس يخطئون مواضع العطاء . والبيت لجرير . (١)

وفى قوله تعالى «ويافوم لايجرمنكم شقاقى » (٢) استشهد ببيت الأخطل على أن المراد بالشقاق فى الآية العداوة فقال « والشقاق هنا بمعنى العداوة ومنه قول الأخطل :

ألا من مبلغ عنى رسولا فكيف وجدتم طعم الشقاق (٣)

وفى قوله تعالى «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) (٤) بين أن « أو » بمعنى « حتى » أو « إلا أن » واستدل بقول زياد بن الأعجم :

وكنت إذا غمزت قناة قـوم كسرت كعوبها أو تستقيما (٥)

وفى قوله تعالى « قل من يكلؤكم بالليل والنهار » بين معنى يكلؤكم فقال : أى يحرسكم ويحفظكم . والكلاءة الحراسة والحفظ . كلأه الله كلاء بالكسر أى حفظه وحرسه . يقال اذهب فى كلاءة الله ، وا كلأت منهم أى احترست . قال الشاعر :

---

(١) هنيدة اسم لكل مائة من الآبل . وانظر تفسير القرطبي ج ٥ ص ٤٠

(٢) آية ٨٩ من سورة هود

(٣) الرسول هنا بمعنى الرسالة . وانظر تفسير القرطبي ج ٩ ص ٩٠

(٤) آية ٧٣ من سورة آل عمران

(٥) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١١٣

إن سليمى والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزؤها (١)

وفى قوله تعالى « فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفاً » (٢) قال: السفيه المهلهل الرأى فى المال. الذى لا يحسن الأخذ لنفسه، ولا الإعطاء منها مشبه بالثوب السفه وهو الخفيف النسج، والبذىء اللسان يسمى سفيها لأنه لا تكاد تتفق البذاءة إلا فى جهال الناس، وأصحاب العقول الخفيفة. والعرب تطلق السفيه على ضعف العقل تارة، وعلى ضعف البدن أخرى قال الشاعر:

نخاف أن تسفه أحلامنا ويجهل الدهر مع الحالم

وقال ذو الرمة:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت أعاليها مر الرياح النواسم

أى استضعفها واستلانها فحركها (٣)

وفى قوله تعالى « ولقد همت به وهم بها » يقول: قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبى عبيدة. فلما أتيت على قوله « ولقد همت به وهم بها » الآية قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير. كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم. وقال أحمد بن يحيى: أى همت زليخاء بالمعصية، وكانت مصرةوهم يوسف ولم يواقع ما هم به. فبين الهمتين فرق. ذكر هذين القولين الهروى فى كتابه. قال جميل:

---

(١) تفسير القرطبي ح ١١ ص ٢٩١ . آية ٤٢ من سورة الانبياء .

(٢) آية ٢٨٢ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ح ٣ ص ٣٨٥

همت بهم من بثنيـــة لو بدا شفيت غليلات الهوى من فؤاديا(١)

ولم يقع نظرى على أشعار الطبقة المحدثة فى تفسير القرطبي اللهم إلا فى مواضع قليلة جداً لا تعدو أصابع اليد الواحدة .

ففى قوله تعالى : « وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد » (٢) بين القرطبي أن الأصفاد هى الاغلال والقيود . ثم بين أن الصفد كما يستعمل فى القيد يستعمل فى العطاء كما قال النابغة :

فلم أعرض أبيت اللعن بالصفد (٣)

وكما قال أبو الطيب :

وقيــدت نفسى فى ذراك محبة ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا(٤)

فسمى الإحسان هنا قيداً ، فـكأنه استعمل الصفد فى العطاء والقيد .

وفى قوله تعالى «واللاتى تخافون نشوزهن» يقول القرطبي : ويختلف الحال فى أدب الرفيعة والدنيئة فأدب الرفيعة العذل ، وأدب الدنيئة السوط ، ثم قال : قال بشار :

والحر يلحى والعصا للعبد

والقرطبي كما نرى لم يستشهد بكلام بشار فى اللغة أو فى النحو وكل المواضع التى وقع نظرى عليها من هذا القبيل .

---

(١) تفسير القرطبي ح ٩ ص ١٦٦ آية ٢٤ من سورة يوسف

(٢) آية ٤٩ من سورة إبراهيم

(٣) هذا عجز بيت وصدره : هذا الثناء فان تسمع به حسناً . وقوله أبيت اللعن تحية كانوا يحيون بها الملوك ، والصفد العطاء ، معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلعن عليه وتذم يقول : هذا الثناء الصحيح الصـادق فمن الحق أن تقبله فلم أمدحك متعرضاً لعطائك لـكن أمتدحك إقراراً بفضلك .

(٤) تفسير القرطبي ح ٩ ص ٣٨٤

كما أنه فى المثال الأول لم يستشهد بشعر أبى الطيب وحده وإنما أتى به بعد شعر النابغة، وهو من فحول شعراء الجاهلية. فهو النابغة الذبيانى المتوفى سنة ١٨ قبل الهجرة .

على أنه يجوز أن يكون ضمن الأبيات التى لم يذكر قائلها وهى كثيرة فى تفسيره ، أبيات لشعراء آخرين من هذه الطبقة .

وأحب أن أقول أنه لو ثبت ذلك فقد يكون شعر هذه الطبقة مشفوعا بشعر آخر من الطبقات التى يحتج بها . وهنا لا حرج ولا عيب على القرطبي فى ذلك . أو لعله إذا لم يفعل ذلك قد اقتصر على المجيدين منها ، وهو بهذا إذا خالف كثرة النحاة ، فقد وافق فريقاً منهم ، وفوق هذا فإن ابن قتيبة له رأى فى الشعراء القدماء والمحدثين فقد قال فى مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » بعد أن وجد الكثرة لا يثقون بشعر المولدين قال : « لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوماً دون قوم بل جعل الله ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره » (١) .

ولقد احتج القرطبي فى تفسيره بأبيات من الشعر لا يعرف قائلها : ففى قوله تعالى : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة »(٢) بين أن بعض الشعراء أدخل على « التى » حرف النداء فقال :

من أجلك يا التى تيمت قلبى   وأنت بخيلة بالود عنى

وعرض القرطبي فى كلامه حجة الشاعر فقال : وحروف النداء لا تدخل على

---

(١) الشعر والشعراء طبع الخانجى، وانظر كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى تحقيق محمد محى الدين، طبع التجارية ج ١ ص ٧٢

(٢) آية ٢٤ من سورة البقرة

ما فيه الألف واللام إلا فى قولنا : يا الله . فكأنه شبهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها(١)

وفى قوله تعالى: « فأينما تولوا فثم وجه الله » (٢) استدل على أن من معانى الوجه القصد بقول الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل(٣)

وفى قوله تعالى : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » (٤) نقل عن سيبويه أن عطف الظاهر على المضمر قبيح لا يجوز إلا فى ضرورة الشعر ومنه قول القائل :

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيام من عجب

فقد عطف « الأيام » على الكاف فى « بك » بغير إعادة حرف الجر للضرورة(٥).

وهذه الأبيات كلها لا يعرف قائلها . فهل يوجه إلى القرطبي نقد أو لوم حيث لم ينبه على ذلك ، أو لأنه ذكر مثل هذه الأبيات فى استشهاده ؟

لقد اختلف العلماء فى جواز الاحتجاج بالشعر الذى لا يعرف قائله فمنع من ذلك « الكمال بن الأنبارى » المتوفى سنة ٥٧٠ هـ . وقال : « لا يحتج بالشعر الذى لا يعرف قائله خوفا من أن يكون لمولد » ورد ابن الأنبارى احتجاج

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٣٥ بتصرف

(٢) آية ١١٥ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٨٤

(٤) آيه ١ من سورة النساء

(٥) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣ بتصرف

الكوفيين على البصريين إذا كان مستنده الشعر الذى لا يعرف قائله ، فى كتاب « الإنصاف فى مسائل الخلاف » (١) .

وبعد أن منع « ابن هشام » ذلك بادىء ذى بدء عاد فأجازه : بحجة أنه : لو لم يجز ذلك لسقط الاحتجاج بخمسين بيتاً من الأبيات التى تضمنها « كتاب سيبويه » وكلها ألف وخمسون . فالاحتجاج بالأبيات المجهولة جائز عند فريق من النحاة فلا حرج على القرطبي إذا أورد بعضاً منها فى استشهاداته .

على أن هذه الأبيات الثلاثة التى ذكرتها والتى عثرت عليها فى تفسيره مذكورة فى كتاب سيبويه ، وأبياته كما يقول العلماء أصح الشواهد اعتمد عليها العلماء جيلا بعد جيل ، ولم ينقدها أحد . رغم ما فيها من أبيات مجهولة القائل . قال الجرمى : « نظرت فى كتاب سيبويه فاذا فيه ألف وخمسون بيتاً فأما الألف فقد عرفت أسماء قائليها فأثبتها وأما الخمسون فلم أعرف أسماء قائليها » فاعترف بعجزه ولم يطعن عليه بشيء . وقد روى مثل هذا عن أبى عثمان المازنى أيضاً (٢) .

كما نرى فى احتجاج القرطبى وتوجيهاته أبياتاً مصنوعة :

ففى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » بين القرطبي أن الصوم معناه فى اللغة ، الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال واستدل بقول النابغة :

---

(١) المزهر للسيوطى ح ص ٨٥ وانظر على سبيل المثال مسألة ٤٢ من كتاب الانصاف فى مسائل الخلاف

(٢) خزانة الأدب ١ ص ١٦ وانظر كتاب « نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة » للشيخ محمد طنطاوى ، طبع وادى الملوك ص ٦٣ وما بعدها .

خيل صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج وخيل تعلك اللجما

أى خيل ثابتة ممسوكة عن الجرى والحركة (١) .

وفى قوله تعالى « وإنا لجميع حذرون » يقول القرطبى : «قرىء حاذرون» ومعناه معنى «حذرون» أى فرقون خائفون . قال النحاس : أبو عبيدة يذهب إلى أن معنى « حذرون » « وحاذرون » واحد وهو قول سيبويه وأجاز هو حذر زيداً كما يقال : حاذر زيداً وأنشد :

حذر أموراً لا تضير وآمن   ما ليس منجيه من الاقدار (٢)

والبيت الأول وإن كان مصنوعا إلا أنه صحيح المعنى : ولقد ذكر القرطبى بجانبه مجموعة من الابيات التى تدل على معنى الصيام فى اللغة وعقب على ذلك بقوله :والشعر فى هذا كثير (٣)

على أنه قد يكون للقرطبى عذر فى استشهاده بمثل هذه الابيات . فان الشعر المصنوع وان كان لا خير فيه ولا حجة فى غريبه كما يقول « ابن سلام » فى طبقات الشعراء . إلا أنه قد أدرج فى الشعر ، وتناقله الشعراء ، وأثبت فى دواوينهم . وقد خفى على بعض من له علم بالشعر الحكمة التى يرد بعض الناس أبياتا هى فى نظره جيدة رائقة . وتساءل بأى شىء ترد هذه الأشعار ؟ فأجابه رجل : هل تعلم أنت منها ما أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال: نعم. قال: أفتعلم فى

---

(١) تفسير القرطبى ح ٢ ص ٢٧٢ آية ١٨٣ من سورة البقرة .

(٢) انظر تفسير القرطبى ح ٣ ص ٢٧٣ ص ١٠٠ ومعنى البيت أن الانسان جاهل بعواقب الأمور يدبر فيخونه التدبير.

(٣) انظر تفسير القرطبى ح ٢ ص ٢٧٣

الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال: نعم . قال: فلا ينكر أن يعلموا من ذلك ما لا تعلمه أنت . (١)

ويقول صاحب كتاب « مراتب النحويين » كان «خلف الأحمر» يضرب به المثل فى عمل الشعر، وكان يعمل على ألسنة الناس فيشبه كل شعر يقوله شعر الذى يضعه عليه . ولما تاب عن ذلك فى أخريات حياته خرج إلى أهل الكوفة وأراد أن يعرفهم الأشعار التى وضعها . فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقى فى دواوينهم إلى اليوم . وهذا البيت من وضعه . يقول السيوطى فى كتابه المزهر : قال أبو حاتم سمعت الاصمعى يقول سمعت خلف الأحمر يقول : أنا وضعت على النابغة هذه القصيدة التى فيها :

خيل صيام وخيل غير صائمة

تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما (٤)

أما البيت الثانى فقد استشهد به سيبويه على عمل «فعل» مع أبنية المبالغة لكن النقاد قالوا : يروى عن اللاحقى أنه قال : إن سيبويه سألنى شاهد فى تعدى فعل . فعملت له هذا البيت .

فلا عيب على القرطبى إذا نقل عن سيبويه ، أو نقل عنه وهو من هو فى فضله ومكانته . ولقد تصدى للرد عن سيبويه فى الطعن الوارد على هذا

---

(١) طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين لابن عبد الله محمد بن سلام الجمحى .

(٢) المزهر للسيوطى ح ١ ص ١٠٤ ولقد توفى خلف بن حيان البصرى الأحمر سنة ١٨٠ هـ وانظر آداب العرب للرافعى ص ٢٧٩ ومابعدها.

البيت الـكثير من العلماء . قال الأعلم فى شرحه لهذا الشاهد « وإن كان هذا صحيحاً — يقصد ماروى عن اللاحق — فلا يضر ذلك سيبويه ؛ لأن القياس يعضده » وقال ابن يعيش فى شرح المفصل: إن سيبويه رواه عن بعض العرب وهو ثقة لاسبيل إلى ماروواه . وعقب الشيخ محمد الطنطاوى على هذا بقوله « وبعدئذ فلا مجال للطعن على سيبويه »(١) .

الاستشهاد بالحديث على الغريب والنحو فى تفسير القرطبي :

استشهد القرطبي بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غريب القرآن وقد تقدم كثير من الشواهد على ذلك، ونـكتفى هنا بهذا المثال فى قوله تعالى « وبعولتهن أحق بردهن »(٢) بين أن البعل معناه الزوج ، وأن البعال معناه الجماع يقول رسول الله ﷺ فى أيام التشريق « إنها أيام أكل وشرب وبعال »(٣) ويبدو أنه لاخلاف بين النحويين فى هذا .

أما الاحتجاج بالحديث فى النحو . فهو موضع خلاف بين العلماء فلقد منعه كثير من النحاة وأجازه بعضهم . ويذكر صاحب « خزانة الأدب » . أن من الذين منعوا ذلك أبو الحسن ابن الضائع ، وأبوحيان . ثم يعرض حجتهما وهى حجة كل من ذهب إلى هذا فيقول « وقد منعه — أى الاحتجاج بالحديث — ابن الضائع ، وأبو حيان وسندهما أمران أحدهما : أن الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي ﷺ ، وإنما رويت بالمعنى ، وثانيهما : أن أئمة

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص ٢٥ وانظر آداب العرب الرافعى ج ١ ص ٣٧١

(٢) آية ٢٢٨ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٢٠ والحديث أخرجه ابن ماجة وأبو داود فى كتاب الصيام .

النحو المتقدمين من المصرين — يقصد الكوفة والبصرة — لم يحتجوا بشيء منه » ثم يبطل هذا بقوله « ورد الأول على تقدير تسليمه بأن النقل بالمعنى إنما كان فى الصدر الأول قبل تدوينه فى الكتب ، وقبل فساد اللغة وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق . على أن اليقين غير شرط بل الظن كاف . ورد الثانى بأنه لايلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به . والصواب جواز الاحتجاج بالحديث النحوى فى ضبط ألفاظه » (١)

ولقد بين القرطبي أن رواية الحديث بالمعنى جائزة ، وخالف فى ذلك كثيراً من العلماء والفقهاء فقال فى قوله تعالى « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة » : « والقول بالجواز — أى جواز رواية الحديث بالمعنى — هو الصحيح إن شاء الله تعالى — وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة .وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعانى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة ابن الأسقع أنه قال : «ليس كل ما أخبرنا به رسول الله ﷺ نقلناه إليكم، حسبكم المعنى» وساق القرطبي كثيراً من الآثار فى التدليل على ذلك . . ثم قال : « فإن قيل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم » نضر الله امرءا سمع مقالتى فبلغها كما سمعها . . » الحديث (٢) . وما ثبت عنه ﷺ أنه أمر رجلا أن يقول عند

(١) خزانة الادب ص ٩ ج ١ وانظر كتاب المدارس النحوية ص ١٩ الدكتور شوق ضيف .

(٢) أخرجه الترمذى عن عمر ابن سليمان فى أبواب العلم انظر جامع الترمذى ج٤ص١٤١ .

مضجعه فى دعاء علمه « آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت[١]
ولما خالف الرجل وقال « ورسولك » بدل « ونبيك » لم يقره الرسول على
ذلك[٢] قالوا أفلا ترى أنه لم يسوغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ. وقال « فأداها
كما سمعها » قيل لهم : أما قوله « فأداها كما سمعها فالمراد حكمها لا لفظها ، لأن
اللفظ غير معتد به ، ويدلك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله
« فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » ثم إن هذا
الحديث بعينه ، قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد . وإن أمكن أن
يكون جميع الألفاظ قول النبي ﷺ فى أوقات مختلفة لكن الأغلب أنه
حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة ، وذلك أدل دليل على الجواز . وأما رده
عليه السلام من قوله « ورسولك » إلى قوله « ونبيك » لأن لفظ النبي ﷺ
أمدح ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى إن اسم الرسول يقع
على الكافة ، واسم النبي لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام . وإنما فضل
المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوة والرسالة . فلما قال « ونبيك » جاء
بالنعت الأمدح ثم قيده بالرسالة بقوله « الذى أرسلت »[٣] .

وإذا كان القرطبي قد ارتضى جواز الرواية بالمعنى وناصر من قال بها
فإننا نراه فوق هذا يحتج بالحديث فى النحو وهو بهذا يوافق من ذهب إلى
جواز الاحتجاج بالحديث بالنحو حتى ولو كان مرويا بالمعنى .

ففى قوله تعالى « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه عن البراء ابن عازب ج ٢ ص ١٢٣١ ، وتتمته . اللهم أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمرى لك ، وألجأت ظهرى إليك ، لا ملجأ ولا منجى إلا إليك

(٢) تصرفت فى النص هنا قليلا .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤١٣ آية ٥٨ من سورة البقرة .

ذرية طيبة » يقول القرطبي : وإنما أنث « طيبة » لتأنيث لفظ الذرية كقوله :

أبوك خليفة ولدته أخرى   وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنث « ولدته » لتأنيث لفظ « الخليفة » . وروى من حديث أنس قال : قال النبي ﷺ « أى رجل مات وترك ذرية طيبة أجرى الله له مثل أجر عملهم ولم ينقص من أجورهم شيئاً »(١) .

وفى قوله تعالى « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » يقول : قوله تعالى « ولن تفعلوا » نصب « بلن » . ومن العرب من يجزم بها ، ذكره أبو عبيدة ومنه بيت النابغة :

فلن أعرض أبيت اللعن بالصفد

وفى حديث ابن عمر حين ذهب به إلى النار فى منامه فقيل له « لن ترع »(٢) هذا على تلك اللغة .

---

(١) أخرجه الترمذى بمعناه عن أبى هريرة، تحفة الاحوذى ج ٦ ص ٢٦٤

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجة فى باب تعبير الرؤيا بلفظ لم ترع ج ٢ ص٢٣٦ وأخرجه البخارى بلفظ لن تراع أص ٢٤٦ وأخرجه أبو داوود فى فضائل عبد الله ابن عمر بلفظ لم ترع ، ج ٢ ص ١٤٦

الفصل الخامس

البلاغة فى تفسير القرطبى

لم يتوسع القرطبى فى الأسرار البلاغية أثناء شرحه للقرآن الكريم . ولعل السر فى ذلك يرجع إلى أن الأندلسيين والمغاربة لم يعنوا بعلوم البلاغة والبيان ولم يهتموا بها كثيراً . على عكس المشارقة الذين توفروا على دراستها وشرحها، كما يرجع السر فى ذلك أيضاً إلى أن القرطبى كان يميل إلى استعمال الحقيقة . فالحقيقة هى الأصل : والمجاز فرع عنها . فإذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة فلا داع إلى استعمال المجاز . ففى قوله تعالى « وإن منها لما يهبط من خشية الله[1] » يقول: قال مجاهد : ما تردى حجر من رأس جبل ، ولا تفجر نهر من حجر ، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله . نزل بذلك القرآن الكريم ، وقيل لفظة الهبوط مجاز وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلقها وتخشع بالنظر إليها ، أضيف تواضع الناظر إليها كما قالت العرب : ناقة تاجرة ، أى تبعث من يراها على شرائها ، وحكى الطبرى عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار فى قوله « يريد أن ينقض[2] » وكما قال زيد الخيل :

لما أتى خبر الزبير تواضعت   سور المدينة والجبال الخشع

وذكر ابن بحر أن الضمير فى قوله تعالى « وإن منها » راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة، أى « من القلوب لما يخضع من خشية الله » . ثم قال القرطبى فى

---

(١) آية ٧٤ من سورة البقرة .

(٢) آية ٧٧ من سورة الكهف .

تعقيبه على هذه الأقوال : « قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ ، والأول صحيح فإنه لا يمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل ، كالذى روى من الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله ﷺ إذا خطب ، فلما تحول عنه حن ، وثبت عنه أنه قال « إن حجرا كان يسلم على فى الجاهلية إنى لأعرفه الآن[١] » وفى التنزيل « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض[٢] والجبال » الآية وقال «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله[٣] » يعنى تذللا وخضوعا[٤] .

ولقد أشار القرطبي إلى ذلك فى قوله تعالى « ثم أتموا الصيام إلى الليل »[٥] حيث بين أن ظاهر قوله تعالى « إلى الليل » يفيد النهى عن الوصال ، وتفيد السنة ذلك أيضاً . فقد قال ﷺ « إياكم والوصال » . إياكم والوصال أخرجه البخارى وهذا ما عليه جمهور العلماء وذكر القرطبي أن فريقاً من العلماء أجاز الوصال وخصص النهى عنه بمبدأ الاسلام — حتى لا يضعف المسلمون عن الجهاد ومكافحة الأعداء . أما بعد أن ظهر الإسلام وارتفعت رايته . فقد واصل المسلمون وألزموا أنفسهم أعلى مقامات الطاعة .

رد القرطبي لذلك . وقال « ترك الوصال مع ظهور الإسلام وقهر الأعداء أولى وذلك أرفع الدرجات وأعلى للمنازل والمقامات ، أما وصال رسول الله ﷺ الذى تمسك به هذا الفريق . فإننا نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر عن نفسه قال « لست كهيئتكم إنى أبيت لى مطعم يطعمنى وساق يسقين »

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل عن جابر بن سمرة ج ١٥ ص ٣٦ .
(٢) آية ٧٥ من سورة الأحزاب .
(٣) آية ٢١ من سورة الحشر .
(٤) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٦٥ وما بعدها .
(٥) آية ١٨٧ من سورة البقرة

وليس فى هذا وصال والظاهر منه الحقيقة وأنه ﷺ كان يؤتى بطعام الجنة وشرابها ، ولا داعى لحمله على مايرد على القلب من المعانى واللطائف فاللفظ إذا تردد بين الحقيقة والمجاز فالأصل الحقيقة حتى يرد دليل يزيلها(١) .

ورغم ذلك فلم يخل تفسير القرطبى من الصور البلاغية والبيانية .

ومن هذه الصور التشبيه :

فنى قوله تعالى « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم(٢) » يقول القرطبى فى المسألة الثانية . . حرث تشبيه لأنهن مزدرع الذرية . . فلفظ الحرث يعطى أن الاباحة لم تقع إلا فى الفرج خاصة ، إذهو المزدرع، وأنشد ثعلب :

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات

فعلينا الزرع فيها وعلى الله النبات

ففرج المرأة كالأرض ، والنطفة كالبذر ، والولد كالنبات ، فالحرث بمعنى المحترث(٣) وفى قوله تعالى « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » يقول :

أصل اللباس فى الثياب ثم سمى امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً لانضمام الجسد ، وامتزاجهما ، وتلازمهما « تشبيها بالثوب » وقال النابغة الجعدى :

---

(١) انظر تفسير القرطبى ج ٢ ص ٣٢٩ وحديث لست كهيئتكم أخرجه البخارى فى كتاب الصوم عن ابن سعيد ج ١ ص ١٣٠ .

(٢) آية ٢٢٣ من سورة البقرة.

(٣) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٩٢.

إذا ما الضجيع ثنى جيدها تداعت فكانت عليه لباسا

وقـــال أيضا :

لبســـت أناسا فأفنيتهم وأفنيت بعد أناس أناسا(١)

(*) الاستعارة

يقول القرطبى فى قوله الله تعالى « فى قلوبهم مرض» (٢). المرض عبارة

---

(١) تفسير القرطبى ح ٢ ص ٣١٦

(٢) آية ١٠ من سورة البقرة

(*) الاستعارة : عند البيانيين ومنهم الخطيب مجاز لغوى أى أنها لفظ استعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة فالصرف فى الاستعارة إنما هو فى نقل اللفظ من معناه الموضوع له فى اللغة إلى معنى آخر كما فى قولك رأيت أسدا يقود جيشاً فلفظ أسد فى اللغة موضوع للحيوان المفترس لا للرجل الجرىء — أى أن اللفظ المستعار موضوع فى اللغـــة للمشبه به لا للمشبه ولا للأعم من المشبه والمشبه بها معا .

* * *

أولئك الذين اشترو الضلالة .

الضلالة الخروج عن القصد وفقد الاقتداء فاستعير للذهاب عن الصواب فى الدين .

أما قوله فما ربحت تجارتهم ، فهنا من الإسناد المجازى وهو أن يسند الفعل إلى شىء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشترى . وإذا كان شراء الضلالة بالهـــدى وقع فى معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة . وليس هناك مانع على الحقيقة ؟ هذا مما يقوى أنه المجاز ويحسنه=

مستعارة للفساد الذي في عقائدهم ، وذلك إما أن يكون شكاً ونفاقاً وإما جحداً وتكذيباً والمعنى قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد[١] .

شبه الفساد الموجود في قلوبهم بالمرض ثم حذف المشبه وأقام المشبه به مقامه على سبيل الاستعارة الأصلية لأن الأصلية ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس غير مشتق والمراد به الماهية الصالحة لأن يصدق على كثيرين حقيقة أو تأويلا . فالجنس الحقيقي رأيت بحراً يتحدث والحقيقة إنك تقول : رأيت اليوم سحبان .

ويقول في قوله تعالى «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى» [٢] اشترى من الشراء والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبوا الكفر على الإيمان كما قال : «فاستحبوا العمى على الهدى » فعبر عنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه . فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا . لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم [٣] .

وفي قوله تعالى : وار كعوا مع الراكعين »[٤] يقول الركوع في اللغة الانحناء بالشخص ، وكل منحن راكع، قال لبيد :

أخبر أخبار القرون التي مضت أدب كأني كلما قمت راكع

وقال ابن دريد « الركمة» الهوة في الأرض لغة يمانية . وقيل الانحناء يعم

= فالله قد ذكر الشراء ثم أتبعه ما يشاكله ويؤاخيه تمثيلا لخسارتهم وتصويرا لحقيقته.شبه حبهم للكفر بشراء الضلالة ثم حذف المشبه وأقام المشبه به مقامه وهو شراء الضلالة على سبيل الاستعارة الأصلية .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٩٧

(٢) آية ١٦ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢١٠

(٤) آية ٤٣ من سورة البقرة ، وانظر تفسير القرطبي ج ص ٣٤٤

الركوع والسجود ويستعار أيضاً فى الانحطاط فى المنزلة قال :

ولا تعاد الضعيف علك أن ... تركع يوما والدهر قد رفعه

ولقد عبر القرطبي عن الاستعارة باسم الاستعار والمجاز أى مجاز الاستعارة.

ففى قوله تعالى «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة» (١) فانه قال : «الصبغة الدين وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم فى الماء وهو الذى يسمونه المعمودية. ويقولون هذا تطهير لهم وقال ابن عباس هو أن النصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه فى ماء لهم يقال له ماء المعمودية فصبغوه بذلك ليطهروه به مكان الختان، لأن الختان تطهير فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصرانيا حقاً . فرد الله تعالى ذلك عليهم بأن قال « صبغة الله » أى صبغة الله أحسن صبغة وهو الإسلام فسمى الدين صبغة استعارة ومجازا ، من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين. كما يظهر أثر الصبغ فى الثوب وقال بعض شعراء ملوك همدان :

وكل أناس لهم صبغة ... وصبغة همدان خير الصبغ

صبغنا على ذاك أبناءنا ... فأكرم بصبغتنا فى الصبغ (٢)

المجاز بالحذف :

فى قوله تعالى « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » (٣) يقول « من تحتها » أى من تحت أشجارها ،

---

(١) آية ١٣٨ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ص ١٤٤ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٣٩

ولم يجر لها ذكر لأن الجنات دالة عليها « الأنهار » أى ماء الأنهار ، فنسب الجرى إلى الأنهار توسعاً ، وإنما يجرى الماء وحده فخفف اختصارا كما قال تعالى « واسأل القرية » أى أهلها . وقال الشاعر :

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك ياكليب المجلس

أراد أهل المجلس فحذف .

المجاز العقلى . وهو إسناد الفعل إلى غير ما هو له .

قيل أن أصل الإستعارة مجاز لغوى :

وقيل أن أصلها مجاز عقلى وذلك أن من يقول :

رأيت أسدا معتقلا رمحا فإنما يريد أن يثبت معنى الأسدية لرجل جرىء ، مقدام وأن ينقل هذا من نوع الإنسان إلى جنس الأسد مدعيا أنه فرد من أفراده وعلى هذا فاستعمال الأسد فى الرجل الجرىء استعمال للفظ فيما وضع له فيكون مجازاً عقليا بمعنى أن العقل اعتبر الرجل الجرىء داخلا فى جنس الأسد حقيقة وفردا من أفراده واعتبار ما ليس فى الواقع واقعا مجاز عقلى ومن هنا صح التعجب فى قول ابن العميد يصف غلاماً جميلا يظلله من حر الشمس :

قامت تظللنى من الشمس نفس أعز على من نفسى
قامت تظللنى ومن عجب شمس تظللنى من الشمس

أى غلام مشرق الوجه كالشمس .

يقول القرطبي فى قوله تعالى « فما ربحت تجارتهم » أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : ربح بيعك ، وخسرت صفقتك ،

وقولهم ليل قائم ، ونهار صائم . والمعنى ربحت وخسرت فى بيعك ، وقمت فى ليلك ، وصمت فى نهارك : أى فما ربحوا فى تجارتهم . وقال الشاعر :

نهارك هائم وليلك نائم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

الإيجاز :

وهو جمع المعانى الكثيرة تحت اللفظ القليل مع الوفاء بالغرض والإيضاح ومثال ذلك فى تفسير القرطبى ما ذكره فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » الآية فقد قال « وهذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذى بصيرة بالكلام . فإنها تضمنت خمسة أحكام : الأول الأمر بالوفاء بالعقود . والثانى : تحليل بهيمة الأنعام والثالث استثناء ما يلى بعد ذلك . الرابع استثناء حال الإحرام فيما يصاد والخامس ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم » وحكى النقاش أن أصحاب الكندى قالوا له : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن . فقال : نعم أعمل مثل بعضه فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إنى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فاذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عاماً . ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته فى سطرين ، ولا يقدر أن يأتى أحد بهذا إلا فى أجلاد (١) .

(١) تفسير القرطبى ج ٦ ص ٣١ وما بعدها .

التعبير عن الماضي بالمستقبل أو العكس :

يقول القرطبي في قوله تعالى « قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين » (١) .

وجاء تقتلون بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضى لما ارتفع الإشكال بقوله « من قبل » وإذا لم يشكل فجائز أن يأتي الماضي بمعنى المستقبل ، والمستقبل بمعنى الماضي قال الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه　　أن الوليد أحق بالعذر

شهد بمعنى يشهد (٢) .

وفي قوله تعالى « سيقول السفهاء من الناس » يقول القرطبي « سيقول بمعنى قال . جعل المستقبل موضع الماضي دلالة على استدامة ذلك أنهم يستمرون على ذلك القول » (٣) .

التكرير : وهو ذكر الشيء مرتين أو أكثر لأغراض ودواع . ومن هذه الاغراض والدواعي التأكيد ، وتقرير المعنى في النفس كقوله تعالى « كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون » فقد أكد الإنذار بتكريره ليكون أشد تأثيراً . ويظهر هـــذا الغرض في الخطابة ، وفي مواطن الفخر والمدح والارشاد والإنذار .

ولقد أشار القرطبي إلى التكرير في قوله تعالى : « فبأيء آلاء ربكما تكذبان »

---

(١) آية ٩١ من سورة البقرة

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٠ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢وما بعدها آيه ١٤٢ من سورة البقرة .

فقد ذكر أن الله تبارك وتعالى كرر هذه الآية في هذه السورة للتأكيد والمبالغة في التقرير ثم قال القرطبي : « قال القتبي : إن الله تعالى عدد في هذه السورة نعماءه وذكر خلقه آلاءه ثم أتبع كل خلة وصفها ونعمة وضعها بهذه وجعلها فاصلة بين كل نعمتين، ليفهمهم على النعم ويقررهم بها .. كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملا فعززتك أفتنكر هذا ؟ ألم تكن صرورة فحججت بك أفتنكر هذا ؟ ألم تكن راجلا فحملتك أفتنكر هذا ؟ ..

والتكرير حسن في مثل هذا . قال:

كم نعمة كانت لكم كم كم وكم .

وقال :

لاتقتلى مسلماً إن كنت مسلمة إياك من دمه إياك إياك

وقال آخر :

لاتقطعن الصـــديق ماطرفت عيناك من قول كاشح أشر

ولاتملن مـــن زيارتـه زره وزره وزره وزر

وقال الحسين بن الفضل • التكرير يكون طرقا للغفلة وتأكيداً الحجة[1] .

التتميم : في قوله تعالى « وآتى المال على حبه » يقول القرطبي :

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ١٥٩ ومابعدها ، وانظر ماقاله القرطبي في سورة الكافرون ج ٢٠ ص ٢٢٦

« اختلف فى عود الضمير فى « حبه » فقيل يعود على « المعطى للمال » أى على حب المعطى للمال وحذف المفعول، وهو المال وقيل: يعود على المال . فيكون المصدر مضافا إلى المفعول . قال ابن عطية : ويجيء قوله « على حبه » اعتراضاً بليغاً أثناء القول . وعقب القرطبى فعبر عن رضاه بما قاله ابن عطية فقال : قلت ، ونظيره قول الحق « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً » . فإنه جمع بين المعنيين . الاعتراض وإضافة المصدر إلى المفعول . أى على حب الطعام . ومن الاعتراض قوله الحق « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك » ثم قال القرطبى : « وهذا عندهم يسمى « التتميم » وهو نوع من البلاغة ، ويسمى أيضاً « الاحتراس » و« الاحتياط » فتمم بقوله « على حبه » وقوله « وهو مؤمن » ومنه قول زهير :

من يلق يوما على علاته هرما يلق السماحة منه والندى خلقا

وقال امرؤ القيس

على هيكل يعطيك قبل سؤاله أفانين جرى غير كز ولا دان

فقوله على علاته ، وقبل سؤاله تتميم حسن ومنه قول عنترة .

اثنى على بما علمت فإننى سمح مخالقتى إذا لم أظلم

فقوله : إذا لم أظلم تتميم حسن . وقال طرفة :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى

وقال الربيع بن ضبع الفزارى:

فنيت وما يفنى صنيعى ومنطقى وكل امرىء إلا أحاديثه فان

فقوله : غير مفسدها « وإلا أحاديثه » تتميم واحتراس . وقال أبو عفان :

فأفنى الردى أرواحنا غير ظالم ... وأفنى الندى أموالنا غير عائب

فقوله «غير ظالم وغير عائب» تتميم واحتياط وهو فى الشعر كثير .(١)

---

(١) تفسير القرطبي ح ٢ص٤٤٢ ويلاحظ أن القرطبي قد استعمل « التتميم والاحتراس والاعتراض » بمعنى واحد ، مع أن الباحثين قد فرقوا بينهم فقالوا الاحتراس هو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم ومثال ذلك قول طرفة وقول عنترة اللذين ذكرهما القرطبي . والتتميم هو أن يؤتى فى كلام لايوهم خلاف المقصود بفضلة لفائدة والفضلة كالمفعول والحال والتمييز والجار والمجرور والفائدة مثل المبالغة فى المدح ومن أمثلته قول زهير الذي ذكره القرطبي أى على أى حال يكون عليها من فقر أو غنى ويلقاه الانسان يلقى منه الكرم والجود، والاعتراض هو أن يؤتى فى خلال الكلام أو بين كلامين متصلين فى المعنى بجملة أو أكثر لامحل لها من الإعراب ،ومن أغراض الاعتراض الدعاء وذلك مثل قول الشاعر .

ان الثمانين وبلغتها ... قد احوجت سمعى إلى ترجمان

فجملة « وبلغتها » دعائية معترضة لاستمالة الممدوح واستجلاب عطفه. راجع البلاغة والادب للشيخ ابراهيم الصباغ ص ٦٢ وما بعدها .

الفصل السادس

موقف القرطبي من التفسير الرمزي

يحاول بعض الناس أن يصرف ألفاظ القرآن الكريم عن ظاهرها وأن يخرج بها عن مدلولاتها وما تحتمله من معان . ثم يختار معنى غريباً يدعى أن اللفظ لايدل عليه بطريق الظاهر . وإنما يدل عليه بطريق الرمز والإشارة ويسمى ذلك التفسير الرمزى أو الإشارى.

واشترط العلماء لقبول التفسير الرمزى شرطين : أحدهما أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب بحيث يجرى على المقاصد العربية .

وثانيهما أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهرا فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض . فالشرط الأول وهو موافقة اللغة — لابد منه — ضرورة أن القرآن عربى وكل تفسير لاتساعد عليه قواعد اللغة العربية يجب رده والحكم ببطلانه .

والشرط الثانى وهو شهادة الشرع — لابد منه كذلك — فلو لم يشهد لصحة هذا التفسير شاهد من الشرع أو كان له معارض صار هذا التفسير من جملة الدعاوى التى لادليل عليها ، والدعوى المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء (1)

---

(1) رسالة « منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم » الزميل عبد الوهاب فايد نقلا عن الموافقات ح ص ٣٩٤ وذكر هذا النص أستاذنا محمد حسين الذهبى فى كتابه « التفسير والمفسرون » ح ٣ ص ٢٤

ولقد استعمل هذا اللون من التفسير ، الباطنية ، فقالوا فى قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة »[١] إن المراد بالبقرة عائشة . وقالوا فى قوله تعالى « مرج البحرين يلتقيان »[٢] إن المراد بالبحرين : على ، وفاطمة . وقالوا فى قوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان »[٣] إن المراد باللؤلؤ والمرجان : الحسن والحسين .[٤]

والتفسير الرمزى الذى استعملته الباطنية مرفوض من أساسه لايقبله عقل ولا تساعد عليه اللغة والشريعة ، بل إنه قائم على الكفر والإلحاد . فكان الباطنية يهدفون من ورائه إلى هدم الإسـلام وتقويض أركانه ، وتواصوا بذلك .

جاء فى كتاب « الفرق بين الفرق » « لأبى منصور البغدادى » أن زعيا باطنياً كتب إلى آخر رسالة جاء فيها .. .. .. وإنى أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل ، وتدعوهم إلى إبطال الشرائع وإلى إبطال المعاد والنشر من القبور ، وإبطال الملائكة فى السماء وإبطال الجن فى الأرض ، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير ، فان ذلك عون لك على القول بقدم العالم ...

ويعلق الأستاذ محمد حسين الذهبى على هذا النص فيقول « رأى هـذا

---

(١) آية ٦٧ من سورة البقرة .
(٢) آية ١٩ من سورة الرحمن .
(٣) آية ٢٢ من سورة الرحمن
(٤) انظر مفتاح السعادة . لطاش كبرى زادة . تحقيق كامل بكرى عبد الوهاب أبوالنور . طبع دار الكتب الحديثة ج ٢ صـ ٨٧

الزعيم الباطنى أن التشكيك فى القرآن خير معوان لهم على تركيز عقائدهم، ورأى رأيه أهل الباطن جميعا. فقالوا: القرآن ظاهر وباطن والمراد منه باطنه دون ظاهره، المعلوم من اللغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر. والمتمسك بظاهره معذب بالمشقة فى الكتاب. وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره.(١) وتمسكوا فى ذلك بقوله تعالى فى الآية « ١٣ » من سورة الحديد. « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب(٢)

كذلك استعمل الصوفية هذا اللون من التفسير. إلا أنهم لم يهملوا ظاهر القرآن كما فعل الباطنية بل اعترفوا به وفهموا من ورائه فوق ذلك رموزاً وإشارات. قالوا أن الباطن يدل عليها. يقول الإمام الغزالى وهو بصدد التعليق على مثال ذكره التفسير الإشارى « لاتظن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثال رخصة منى فى رفع الظواهر واعتقاداً فى إبطالها. حتى أقول مثلا، لم يكن مع موسى نعلان ولم يسمع الخطاب بقوله « اخلع نعليك » حاشا لله فان إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين وجهلوا جهلا بالموازنة بينهما فلم يفهموا وجهه، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية. فالذى يجرد الظاهر حشوى والذى يجرد الباطن باطنى والذى يجمع بينهما كامل. ولذلك قال عليه السلام « القرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع »(٣) وربما نقل هذا عن على موقوفا عليه. بل أقول: « موسى فهم من الأمر

---

(١) يعنى أن من وصل إلى علم الباطن انحط عنه التكاليف.

(٢) التفسير والمفسرون ج ٢ ص ٢٤٠، وانظر الفرق بين الفرق ص ١٨٠ والمواقف ج ٨ ص ٣٨٨ والحشو يراد به التشبيه فالحشوية مرمناها للمشبهة.

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه. انظر المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج مافى الاحياء من الاخبار ج ١ ص ١٣٦.

بخلع النعلين اطراح الكونين فامتثل الأمر ظاهرا بخلع نعليه وباطناً بخلع العالمين »(١)

موقف القرطبي من التفسير الرمزى الذى استعملته الباطنية :

لقد رفض القرطبي التفسير الرمزى الذى استعملته الباطنية ، ولم يقبله .

من الأمثلة التى تؤيد هذا ما ذكره فى قوله تعالى « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » يقول بعد أن بين أن الضمير للعسل فى قول الجمهور ... « قال القاضى أبو بكر بن العربى : من قال إنه القرآن فبعيد، ماأراه يصح عنهم ، ولو صح نقلا لم يصح عقلا . لأن مساق الكلام كله للعسل ليس للقرآن فيه ذكر . ثم قال : قال ابن عطية وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم وأنهم النحل وأن الشراب القرآن والحكمة وقد ذكر هذا بعضهم فى مجلس المنصور أبى جعفر العباسى فقال له بعض من حضر : جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم . فأضحك الحاضرين وبهت الآخر وظهرت سخافة قوله »(٢)

وفى قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم لايبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لايعلمون » هاجم من يقول برجعة الإمام على رضى الله عنه فقال : « وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس قال له رجل : يابن عباس ، إن ناساً يزعمون أن عليا مبعوث بعد الموت قبل الساعة

---

(١) رسالة (منهج ابن عطيه فى تفسير القرآن الكريم) ص١٧٢ وانظر مفتاح السعادة ح ٢ ص ٨٩ .

(٢) تفسير القرطبي ح ١٠ ص ١٣٦ آية ٦٩ من سورة النحل.

ويتأولون هذه الآية . فقال ابن عباس : كذب أولئك . إنما هذه الآية عامة للناس . لو كان على مبعوثاً قبل القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه »(١)

أما موقفه من التفسير الصوفي فإنه كان يقبله أحياناً ، ويرفضه أحياناً أخرى . ففي قوله تعالى : « .. إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » يقول القرطبي . « قال بعض أرباب المعاني : عجل كل إنسان نفسه ، فمن أسقطه وخالف مراده فقد برىء من ظلمه » وهاجم القرطبي هذا الرأي ولم يرتضه لأن السياق والقرائن لاتدل عليه . فقال « والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل والحمد لله » ثم قال في قوله تعالى « فاقتلوا أنفسكم » «قال أرباب الخواطر ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشبهات » ورد القرطبي ذلك . فقال « والصحيح أنه قتل على الحقيقة هنا ، والقتل إماتة الحركات ، وقتلت الخمر كسرت شدتها بالماء »(٢) وفي قوله تعالى « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر » الآية . يقول القرطبي : « وقال بعض من يتعاطى غوامض المعاني هذه الآية مثل ضربه الله للدنيا فشبهها الله بالنهر والشارب منه بالمائل إليها . والمستكثر منها ، والتارك لشربه بالمنحرف عنها والزاهد فيها . والمغترف بيده غرفة بالآخذ منها قدر الحاجة ، وأحوال الثلاثة عند الله مختلفة » وعقب القرطبي بقوله . « قلت : ما أحسن هذا لولا ما فيه من التحريف في التأويل والخروج عن الظاهر . ولكن معناه صحيح من غير هذا »(٣)

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٠٥ آية ٣٨ من سورة النحل
(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٠١ آية ٥٤ من سورة البقرة
(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٥١ آية ٢٤٩ من سورة البقرة

وفى قوله تعالى : « وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى » يقول: وقال بعض أهل المعانى « إنما أراد ابراهيم أن يريه كيف يحيي القلوب » وهذا فاسد مردود بما تعقبه من البيان (١) — أى بما يحيط به من أدلة وقرائن لاتشهد له — وفى قوله تعالى : «والذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين » يقول:

« وتجوز بعض أهل الإشارات فى غوامض المعانى فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ماتدفعه بدائه العقول من أنه ليس المراد من ابراهيم . فقال: والذى هو يطعمنى ويسقين . . أى يطعمنى لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول . ولهم فى قوله « وإذا مرضت فهو يشفين » وجهان . أحدهما : إذا مرضت بمخالفته شفانى برحمته . الثانى : إذا مرضت بمقاساة الخلق شفانى بمشاهدة الحق . وقال جعفر بن محمد الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفانى بالتوبة . ونزلوا قوله «والذى يميتنى ثم يحيين » على ثلاثة أوجه : فالأول يميتنى بالمعاصى ويحيينى بالطاعات : الثانى : يميتنى بالخوف ويحيينى بالرجاء الثالث : يميتنى بالطمع ويحيينى بالقناعة ، وقول رابع يميتنى بالعدل ويحيينى بالفضل ، وقول خامس يميتنى بالفراق ويحيينى بالتلاق . وقول سادس يميتنى بالجهل ويحيينى بالعقل، إلى غير ذلك مما ليس بشىء منه مراد من الآية فإن هذه التأويلات الغامضة والأمور الباطنة إنما تكون لمن حذق وعرف الحق ، وأما من كان فى عمى عن عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة ويترك الأمور الظاهرة هذا محال . والله أعلم »(٢)

---

(١) انظر تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٩٩ آية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ١١١ آية ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ من سورة الشعراء .

ومن الأدلة التي تبين قبول القرطبي للتفسير الصوفي في بعض الأحيان ما ذكره في قوله تعالى : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » فقد قال : « قوله تعالى «فزادهم الله مرضاً » قيل : هو دعاء عليهم ويكون معنى الكلام زادهم الله شكا ونفاقا .. .. وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم أي فزادهم الله مرضاً إلى مرضهم، كما قال في آية أخرى « فزادتهم رجساً إلى رجسهم » ثم قال : « وقال أرباب المعاني : في قلوبهم مرض أي بسكونهم إلى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها »وقوله « فزادهم الله مرضاً » أي وكلهم إلى أنفسهم وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين « ولهم عذاب أليم » بما يفنى عما يبقى . وقال الجنيد : علل القلوب من اتباع الهوى، كما أن علل الجوارح من مرض البدن .(١)

وفي قوله تعالى « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » يقول : « وقال أهل الإشارات : ذكرهم الله تعالى سفر الآخرة وحثهم على تزود التقوى فإن التقوى زاد الآخرة قال الأعشى :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على ألا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

وقال آخر :

الموت بحر طامح موجه تذهب فيه حيلة السابح

يانفس إني قائل فاسمعي مقالة من مشفق ناصح

---

(١) تفسير القرطبي ج١ ص١٩٧ آية ١٠ من سورة البقرة.

لايصحب الانسان فى قبره

غير التقى والعمل الصالح[1]

وكان القرطبي ينقل عن المتصوفة بعض تعريفاتهم واصطلاحاتهم . ويقبلها ولا يرفضها ففى قوله تعالى « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون » يقول فى المسألة الرابعة : « قال سهل بن عبد الله : الشكر : الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية فى السر والعلانية . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف فى تقصير الشكر للمنعم ولذلك قال تعالى : « اعملوا آ ل داود شكراً » فقال داود : كيف أشكرك يارب والشكر منك . قال: الآن قد عرفتنى وشكرتنى إذ قد عرفت أن الشكر منى نعمة . قال يارب فأرنى أخفى نعمك على قال : ياداود تنفس فتنفس داود فقال الله تعالى : من يحصى هذه النعمة الليل والنهار ، وقال موسى عليه السلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدى من نعمك لايجازى بها عملى كله فأوحى الله اليه ياموسى الآن شكرتنى . وقال الجنيد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر وعنه . قال: كنت بين يدى السرى السقطى ألعب وأنا لسن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى : ياغلام ما الشكر ؟ فقلت ألا يعصى الله بنعمة . فقال لى : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك قال الجنيد فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى لى . وقال الشبلى : الشكر التواضع والمحافظة على الحسنات ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ومراقبة جبار الأرض والسموات . وقال ذو النون المصرى أبو الفيض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ولنظيرك بالمكافأة ولمن دونك بالإحسان والأفضال [2].

---

(١) تفسير القرطبي ح ٢ ص ٤١٢ آية ١٩٢ من سورة البقرة

(٢) تفسير القرطبي ح ١ آية ٥٢ من سورة البقرة

ويبدو أن القرطبي كان يقبل التفسير الصوفي إذا لم يتناقض مع الشرع واللغة . وكان يرفضه إذا تناقض معهما . وهذا موقف لأخبار عليه مطلقاً . فقد بين الإمام الشاطبي أن من التفسير الصوفي مالا يقبله العقل ولا تشهد له اللغة والشرع . فقال : وقد حمل بعضهم — يعني الصوفية — قوله تعالى «ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه »(١) على أن المساجد القلوب تمنع بالمعاصي من ذكر الله . ونقل في قوله « فاخلع نعليك »(٢) أن باطن النعلين هما الكونان الدنيا والآخرة فذكر عن الشبلي أن معنى « اخلع نعليك » اخلع الكل منك تصل إلينا بالكلية ، وعن ابن عطاء : اخلع نعليك عن الكون فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب . وقال: النعل ، النفس . الوادي المقدس دين المرء أي حان وقت خلوك من نفسك والقيام معنا بدينك» وقيل غير ذلك مما يرجع إلى معنى لا يوجد في النقل عن السلف .

وهذا كله ان صح نقله خارج عما تفهمه العرب ودعوى مادليل عليها في مراد الله بكلامه ولقد قال الصديق : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم . وفي الخبر : (٣) «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » وما أشبه ذلك من التحذيرات .(٤)

---

(١) آية ١٤ من سورة البقرة

(٢) آية ١٢ من سورة طه .

(٣) أخرجه الترمذي عن جندب بن عبد الله في أبواب تفسير القرآن « باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه » ج ٢ ص ١٥٧

(٤) رسالة منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ص ١٧٣ وانظر الموافقات ج ٣ ص ٤٠٢/٤٠٣

أبرز مصادر القرطبي من التفسير الصوفي :

تفسير القرآن العظيم ، لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري(١) :

كان « القرطبي » ينقل عن « التستري » بعض الإشارات الواضحة التي لا تخالف الشرع واللغة ومن أمثلة ذلك ، ما ذكره في قوله تعالى « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » فقد قال « قال سهل بن عبد الله : لا يكون — أي الانسان — خاشعاً حتى تخشع كل شعرة في جسده لقول الله تبارك وتعالى « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » وأيد القرطبي ذلك فقال : « قلت هذا هو الخشوع المحمود لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقا متأدباً متذللا . وقد كان السلف يجتهدون في ستر مايظهر من ذلك ، وأما المذموم ، فتكلفه والتباكي ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بعين البر والإجلال . وذلك خدع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان . روى الحسن أن رجلا تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن . فلكزه عمر أو قال لكمه . وكان عمر رضي الله عنه إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع . وكان ناسكا صادقا وخاشعا حقاً .(٢)

وفي قوله تعالى « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب » الآية يقول : وقال سهل بن عبد الله التستري شروط الدعاء سبعة : أولها : التضرع . والخوف والرجاء والمداومة والخشوع والعموم ، وأكل الحلال . وقال ابن عطاء : إن للدعاء أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا فان وافق أركانه قوي . وإن وافق

(١) نسبة إلى تستر بضم التاء وسكون السين وفتح التاء الثانية بلد من الاهواز ولقد اختلف في سنة وفاة هذا المفسر فقيل سنة ٢٧٣ هـ وقيل ٢٨٣ راجع وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٨٩

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٧٥ آية ٤٥ من سورة البقرة .

أجنحته طار فى السماء وإن وافق مواقيته فاز . وإن وافق أسبابه نجح . فأركانه حضور القلب والرأفة والاستكانة والخشوع ، وأجنحته الصدق ومواقيته الأسحار . وأسبابه الصلاة على محمد ﷺ . (١)

حقائق التفسير لأبى عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدى المتوفى سنة ٤١٢ هـ . « المشهور بالسلمى » :

نقل القرطبي كثيراً من تفسير « السلمى » المعروف بحقائق التفسير وجرى فى نقله على نهجه السابق فلم ينقل ألفازاً أو رموزاً غامضة . وإنما نقل الاشارات التى لاتناقض اللغة والشرع .

فنى قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » يقول : « قال السلمى فى حقائقه سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغانى يقول : من أقر بإياك نعبد وإياك نستعين فقد برىء من الجبر والقدر »(٢)

وكان القرطبي ينقل عن السلمى ولايشير إليه .

فنى قوله « الحمد لله رب العالمين » يقول : « ويذكر عن جعفر الصادق فى قوله « الحمد لله » من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد . لأن الحمد حاء وميم ودال . فالحاء من الوحدانية . والميم من الملك . والدال من الديمومية.

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٢ آية ١٧٦ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٥ . وانظر حقائق السلمى نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٥٠ تفسير ص ٦ .

فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه . وهذا هو حقيقة الحمد لله.
وقال شقيق بن ابراهيم فى تفسير « الحمد لله » قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها
إذا أعطاك شيئا تعرف من أعطاك . والثانى أن ترضى بما أعطاك . والثالث .
مادامت قوته فى جسدك ألا تعصيه، فهذه شرائط الحمد » . ثم قال القرطبي . فى
المسألة السادسة : « أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه وافتتح كتابه بحمده .
ولم يأذن فى ذلك لغيره . بل نهاهم عن ذلك فى كتابه وعلى لسان نبيه عليه
السلام فقال : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » (١) وقال عليه السلام
« احثوا فى وجوه المداحين التراب »(٢) رواه المقداد . . . فمعنى الحمد لله رب
العالمين : أى سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يحمدنى أحد من العالمين
وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة . وحمدى الخلق مشوب بالعلل .
قال علماؤنا : فيستقبح من المخلوق الذى لم يعط الكمال أن يحمد نفسه
ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار . وقيل لما علم سبحانه عجز عباده عن
حمده حمد نفسه بنفسه لنفسه فى الأزل . فاستفراغ طرق عباده هو محل
العجز عن حمده، ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله « لا أحصى
ثناء عليك » وأنشدوا :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

قيل : حمد نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم

---

(١) آية ٣٢ من سورة النجم .
(٢) الحديث أخرجه مسلم عن المقداد ج ١٨ ص ١٢٨
انظر صحيح مسلم بشرح النووى .

عن القيام بواجب حمده . فحمد نفسه عنهم لتكون النعمة أهنأ لديهم حيث أسقط عنهم به فضل المنة »(١)

وفى قوله رب العالمين » بعد أن استعرض أقوال العلماء فى معنى العالمين» قال : وقد ذكر أن رجلا قال بين يدى الجنيد « الحمد لله » فقال له : أتمها كما قال الله . قل « رب العالمين » فقال الرجل : ومن العالمون حتى تذكر مع الحق ؟ قال : قل يا أخى فإن المحدث إذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر .

(١) تفسير القرطبى ح ١ ص١٣٤ ، ١٣٥ ، ٩ ١ وانظر حقائق السلمى ص ٥ وما ذكره القرطبى من الاشارة فى قوله تعالى « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » وفى قوله « إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » فقد نقله عن حقائق السلمى رغم أنه هاجه ورده . انظر حقائق السلمى فى الآيتين ص ١٠ وما بعدها .

الفصل السابع

الأحكام في تفسير القرطبي : منهجه وعدم تعصبه :ـ

لقد توسع القرطبي في ذكر الأحكام الفقهية ، وتعرض كثيراً لآراء الفقهاء وما دار بينهم من خلافات ، ولعل عنوان تفسيره يشير إلى هذا من أول وهلة فقد سماه « الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان »

والقرطبي منهج في ذكر الأحكام يتضح فيما يأتي :

الفقه المالكي :

كان القرطبي يقتصر أحيانا على آراء الإمام « مالك » وبعض فقهاء المالكية وتارة يكتفي بالعرض والتوجيه لهذا الآراء دون التعقيب عليها أو مناقشتها ولعله في تلك الحالة يكون قد ارتضاها .

ففي قوله تعالى « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » (١) يقول في المسألة الحادية عشرة : « والعدو الحاصر لايخلو أن يتيقن بقاؤه واستيطانه . لقوته وكثرته أولا . فإن كان الأول حل المحصر مكانه من ساعته ، وإن كان الثاني وهو مما يرجى زواله . فهذا لا يكون محصوراً حتى يبقى بينه وبين الحج مقدار ما يعلم أنه إن زال العدو لايدرك فيه الحج ، فيحل حينئذ عند ابن القاسم وابن الماجشون ، وقال أشهب : لايحل من حصر عن الحج بعدو حتى يوم النحر ولايقطع التلبية حتى يروح الناس إلى عرفة . وجه قول ابن القاسم : أن هذا

---

(١) آية ١٦٩ من سورة البقرة .

وقت يأس من إكمال حجه لعدو غالب فجاز له أن يحل فيه . ووجه قول أشهب : أن عليه أن يأتي من حكم الإحرام بما يمكنه ، والتزامه إلى يوم النحر الوقت الذي يجوز للحاج التحلل بما يمكنه الإتيان به فكان ذلك عليه » (١) .

وفي قوله تعالى « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام »(٢) .

تحدث في المسألة الثانية عشرة عن سنية الجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة بعد الدفع من عرفات ثم قال في المسألة الثالثة عشرة« ومن أسرع فأتى المزدلفة قبل مغيب الشفق فقد قال ابن حبيب :لا صلاة لمن عجل إلى المزدلفة قبل مغيب الشفق . لا لإمام ولا لغيره حتى يغيب الشفق . لقوله عليه السلام « الصلاة إمامك » (٣) ثم صلاها بالمزدلفة بعد مغيب الشفق ؛ ومن جهة المعنى أن وقت هذه الصلاة بعد مغيب الشفق . فلا يجوز أن يؤتى بها قبله ، ولو كان لها وقت قبل مغيب الشفق لما أخرت عنه »

ويقول في المسألة الثالثة عشرة : « وأما من أتى عرفة بعد دفع الإمام ،أو كان له عذر بمن وقف مع الإمام فقد قال ابن المواز : من وقف بعد الإمام فليصل كل صلاة لوقتها ، وقال مالك فيمن كان له عذر يمنعه أن يكون مع الإمام، إنه يصلي إذا غاب الشفق الصلاتين يجمع بينهما جمع تأخير قبل أن يصل إلى المزدلفة ، وقال ابن القاسم فيمن وقف بعد الإمام : إن رجا أن يأتي المزدلفة

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٧٧ وما بعدها

(٢) آية ١٩٨ من سورة البقرة .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الحج عن أسامة بن زيد ، ج ١ ص ١٩٩

ثبت الليل فليؤخر الصلاة حتى يأتى المزدلفة ، وإلا صلى كل صلاة لوقتها . فجعل ابن المواز تأخير الصلاة إلى المزدلفة ، لمن وقف مع الإمام دون غيره ، وراعى مالك الوقت دون المكان واعتبر ابن القاسم الوقت المختار للصلاة والمكان فإذا خاف فوات الوقت المختار بطل اعتبار المكان وكان مراعاة المختار أولى . (١)

ومن الواضح فى هذين النصين . أن القرطبى قد اقتصر على الفقه المالكى فنقل آراء الإمام مالك ، وآراء ابن المواز ، وابن الماجشون ، وأشهب — وكل هؤلاء من فقهاء المالكية بل ومن كبارهم — ولم يعقب على هذه الآراء ولم يناقشها لأنه قد ارتضاها .

ونرى القرطبى أحيانا أخرى يفاضل بين آراء المالكية ويختار منها ففى قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » يبين فى المسألة الرابعة عشرة حكم التكبير فى الصلاة ، وموقف بعض فقهاء المالكية منه . ثم اختار أقرب الآراء إلى رأى الجماعة وقوى ذلك بما ذكره من الأحاديث . فقال : « وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فسنون عند الجمهور ، وكان ابن القاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير فى الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسهو قبل السلام ، وإن لم يسجد بطلت صلاته وأن نسى تكبيرة واحدة أو اثنتين سجد أيضا للسهو ، فإن لم يفعل فلا شىء عليه . وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها ، وهذا يدل على أن عظم التكبير وجملته عنده فرض ، وأن اليسير منه متجاوز عنه ، وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم . ليس على من يكبر فى الصلاة من

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٤٢٢ .

أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام . فإن تركه ساهيا سجد للسهو . فإن لم يسجد فلا شيء عليه ، ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عامداً لأنه سنة من سنن الصلاة . فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه وصلاته ماضية .

ثم رجح القرطبي هذا الرأى . وبين أنه يتفق مع رأى الجمهور وساق بعض الأحاديث لتقويته . فقال : « قلت هذا هو الصحيح وهو الذى عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهل الحديث والمالكيين غير من ذهب مذهب ابن القاسم . وقد ترجم البخارى رحمه الله « باب إتمام التكبير فى الركوع والسجود » وساق حديث مطرف ابن عبد الله قال : صليت خلف على بن أبى طالب أنا وعمران بن حصين ، فكان إذا سجد كبر وإذا رفع رأسه كبر وإذا نهض من الركعتين كبر ، فلما قضى الصلاة أخذ بيدى عمران بن حصين فقال : لقد ذكرنى هذا صلاة محمد ﷺ . أو قال : لقد صلى بنا صلاة محمد ﷺ . وحديث عكرمة قال : رأيت رجلا عند المقام يكبر فى كل خفض ورفع وإذا وضع ، فأخبرت ابن عباس فقال : أو ليس صلاة النبى ﷺ لا أم لك . فدلك البخارى [١] رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم. روى أبو إسحاق السبيعى عن يزيد بن أبى مريم عن أبى موسى الأشعرى قال : «صلى بنا على يوم الجمل صلاة أذكرنا بها صلاة رسول الله ﷺ كان يكبر فى كل خفض ، ورفع ، وقيام ، قال أبو موسى : فإما نسيناها وإما تركناها عمدا » ثم علق على هذه الأحاديث بقوله : « قلت : أتراهم أعادوا الصلاة : فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته . ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض . والشيء إذا لم يجب إفراده لم يجب جمعه . وبالله التوفيق » [٢] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ج ١ ص ٩٨

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٧١ وما بعدها .

وفي قوله تعالى «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين»(١) يقول في المسألة الحادية عشرة: «لما قال تعالى «اركعوا واسجدوا» قال بعض علمائنا وغيرهم: يكفي منها مايسمى ركوعاً وسجوداً، وكذلك من القيام، ولم يشترطوا الطمأنينة في ذلك. فأخذوا بأقل الاسم في ذلك. وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتة في إلغاء الصلاة (أي لا بالطمأنينة) قال ابن عبد البر: ولا يجزىء ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتدل راكعاً، وواقفاً، وساجداً، وجالساً، وهو الصحيح في الأثر، وعليه جمهور العلماء، وأهل النظر. وهي رواية ابن وهب وابن مصعب عن مالك. وقال القاضي أبو بكر العربي: وقد تكاثرت الرواية عن ابن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة وهو وهم عظيم. لأن النبي ﷺ فعلها وأمر بها، وعلمها. فإن كان لابن القاسم عذر إن كان لم يطلع عليها فما لكم أنتم وقد انتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم. روى النسائي والدار قطني وعلى ابن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصلى فلما قضى الصلاة جاء فسلم على رسول الله ﷺ وعلى القوم فقال رسول الله ﷺ: ارجع فصل فإنك لم تصل. وجعل الرجل يصلي وجعلنا نرمق صلاته لاندري مايعيب منها، فلما جاء فسلم على النبي ﷺ وعلى القوم فقال له النبي ﷺ «وعليك ارجع فصل فإنك لم تصل» قال همام (٢) فلا ندري أمره بذلك مرتين أو ثلاثا فقال له الرجل: ما آلوت فلا أدري ماعبت على من صلاتي؟ فقال رسول الله ﷺ «إنه لاتتم صلاة أحدكم

---

(١) آية ٤٣ من سورة البقرة.

(٢) همام هذا هو أحد رجال سند الحديث. والحديث أخرجه النسائي في باب الرخصة في ترك الذكر في السجود ج ٢ ص ٢٢٥ طبع التجارية.

حتى يسبغ الوضوء كما أمره الله فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه ثم يكبر الله تعالى ويثنى عليه ثم يقرأ أم القرآن وما أذن له فيه وتيسر ثم يكبر فيركع فيضع كفيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائماً حتى يقيم صلبه ، ويأخذ كل عظم مأخذه ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه . قال همام : وربما قال جبهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ، ثم يكبر فيستوى قاعداً على مقعده ، ويقيم صلبه ، فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال : لا تتم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك .(١)

الفقه المقارن :

فى كثير من الأحيان لم يكن القرطبي يقتصر على الفقه المالكى بل كان يضم إليه فقه المذاهب الأخرى ، ونستطيع أن نسمى ذلك بالفقه المقارن ، ومنهجه فى تلك الحالة يشبه منهجه السابق . فهو تارة يسلك مسلك العرض والتوجيه . ومثال ذلك ماذكره فى قوله تعالى « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر »(٢) فقد قال فى المسألة الرابعة : « واختلف العلماء فى الأفضل من الفطر أو الصوم فى السفر فقال مالك والشافعى فى بعض ما روى عنهما : الصوم أفضل لمن قوى عليه » وجل مذهب مالك التخيير وكذلك مذهب الشافعى . قال الشافعى ومن اتبعه : وهو مخير ولم يفصل وكذلك « ابن علية » لحديث أنس قال : سافرنا مع النبي ﷺ فى رمضان فلم يعب الصائم على المفطر

---

(١) تفسير القرطبى ج١ ص ٣٤٧ وما بعدها .

(٢) آية ١٨٤ من سورة البقرة .

ولا المفطر على الصائم .(١) خرجه مالك والبخارى ومسلم . وروى عن عثمان بن أبي العاصى الثقفى وأنس بن مالك صاحبي رسول الله ﷺ : الصوم فى السفر أفضل لمن قدر عليه ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . وروى عن ابن عمر وابن عباس أن الرخصة أفضل ، وقال به سعيد بن المسيب ، والشعبي وعمر بن عبد العزيز ومجاهد ، وقتادة والأوزاعى واحمد واسحاق . وكل هؤلاء يقولون الفطر أفضل لقول الله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » فالقرطبي فى هذا النص قد استعرض آراء الفقهاء ووجه هذه الآراء واكتفى بذلك فلم يعلن معارضته لرأى من الآراء (٢) ولعله قد ارتضاها جميعا : وكذلك فعل فى قوله تعالى « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين »(٣) .

فإن القرطبي يقول فى المسألة الرابعة عشرة « واختلفوا — أى العلماء — فى رجوع المجيزين للوصية للوارث فى حياة الموصى بعد وفاته . فقالت طائفة : ذلك جائز عليهم ، وليس لهم الرجوع فيه . هذا قول عطاء بن أبي رباح وطاوس والحسن وابن سيرين وابن أبي ليلى والزهرى وربيعة والأوزاعى . وقالت طائفة : لهم الرجوع فى ذلك إن احبوا . هذا قول ابن مسعود وشريح والحكم وطاوس والثورى والحسن بن صالح وأبي حنيفة والشافعى وأحمد وأبى ثور .. واختاره ابن المنذر . وفرق مالك فقال : إذا أذنوا فى صحته فلهم أن يرجعوا . وإن أذنوا له فى مرضه حين يحجب عن ماله فذلك جائز عليهم . وهو قول اسحاق . احتج أهل المقالة الأولى بأن المنع إنما وقع من أجل الورثة . فاذا أجازوا جاز وقد اتفقوا أنه إذا أوصى بأكثر من ثلثه لأجنبي جاز باجازتهم ، فكذلك

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم ج ١ ص ٢٢٨

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٨٠

(٣) آية ١٨٠ من سورة البقرة

ها هنا ، واحتج أهل القول الثانى بأنهم أجازوا شيئا لم يملكوه فى ذلك الوقت ، وإنما يملك المال بعد وفاته ؛ وقد يموت الوارث المستأذن قبله ، ولا يكون وارثا ، وقد يرثه غيره . فقد أجاز من لا يحق له فيه ، فلا يلزمه. واحتج مالك بأن قال : إن الرجل إذا كان صحيحا فهو أحق بماله كله يصنع فيه ماشاء . فاذا أذنوا له فى صحته فقد تركوا شيئا لم يجب لهم . وإذا أذنوا له فى مرضه فقد تركوا ما وجب لهم من الحق . فليس لهم أن يرجعوا فيه إذا كان أنفذه لأنه قد فات . . » ثم يقول فى المسألة السادسة عشرة « واختلفوا فى الرجل يوصى لبعض ورثته بمال ، ويقول فى وصيته : إن أجازها الورثة فهى له وإن لم يجيزوه فهو فى سبيل الله فلم يجيزوه ، فقال مالك إن لم تجز الورثة ذلك رجع إليهم . وفى قول الشافعى وأبى حنيفة ومعمر صاحب عبد الرازق يمضى فى سبيل الله »(١)

ونرى القرطبي تارة أخرى يسلك فى الفقه المقارن مسلك المناقشة والترجيح ويؤيد ذلك بالحجة والدليل والأمثلة كثيرة — وإليك بعضها:

فى قوله تعالى « فان أحصرتم فما استيسر من الهدى» (٢) يقول القرطبى فى المسألة السادسة « قال مالك وأصحابه : لاينفع المحرم الا الاشتراط فى الحج اذا خاف الحصر بمرض أو عدو . وهو قول الثورى وأبى حنيفة . وأصحابهم .

والاشتراط أن يقول اذا أهل : لبيك اللهم لبيك ومحلى حيث حبستنى من الأرض . وقال أحمد ابن حنبل ، واسحاق ابن راهويه وأبو ثور :

(١) تفسير القرطبي ج٣ص٢٢٥

(٢) آية ١٩٦ من سورة البقرة .

لابأس أن يشترطوله شرطه وقال غير واحد من الصحابة والتابعين . وحجتهم حديث ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله إنى أردت الحج أأشترط ؟ قال: نعم قالت: فكيف أقول قال: « قولى لبيك اللهم لبيك وعلى من الأرض حيث حبستنى » (١) أخرجه أبو داود والدارقطني .. قال الشافعي : لو ثبت حديث ضباعة لم أعده . وكان محله حيث حبسه الله » .

وعلق القرطبي على قول الشافعي بما يفيد تأييده للرأى الثانى فقال : « قلت : قد صححه — أى الحديث — غير واحد منهم أبو حاتم البستي وابن المنذر : ثبت أن رسول الله ﷺ قال لضباعة بنت الزبير « حجى واشترطى » وبه قال الشافعي إذ هو بالعراق ثم وقف عنه بمصر . قال ابن المنذر وبالقول الأول — أى بقول الشافعي الأول — أقول ، وذكره عبد الرازق . أخبرنا ابن جريج قال : أخبرنى أبو الزبير أن طاوساً وعكرمة . أخبراه عن ابن عباس قال : جاءت ضباعة بنت الزبير إلى رسول الله ﷺ فقالت إنى امرأة ثقيلة (٢) وإنى أريد الحج فكيف تأمرنى أن أهل ؟ قال :أهلى واشترطى أن محلى حيث حبستنى . قال فأدركت ، وهذا إسناد صحيح(٣) .

وفى قوله تعالى :

« فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه(٤) » ويقول فى المسألة الرابعة عشرة

---

(١) أخرجه أبو داود عن ابن عباس فى كتاب الحج ج ١ ص ٢٠٩ .
(٢) أثقلنى المرض .
(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٧٥ .
(٤) آية ٢٠٣ من سورة البقرة .

واختلف فى قدر الحصى . فقال الشافعى : يكون أصغر من الأنملة طولا وعرضاً . وقال أبو ثور وأصحاب الرأى : بمثل حصى الخذف . وروينا عن ابن عمر أنه كان يرمى الجمرة بمثل بعر الغنم ولا معنى لقول مالك أكبر من ذلك أحب إلى . لأن النبى صلى الله عليه وسلم سن الرمى بمثل حصى الخذف ، ويجوز أن يرمى بما وقع عليه اسم حصاة ، واتباع السنة أفضل . قاله ابن المنذر » ثم قال : « قلت وهو الصحيح الذى لا يجوز خلافه لمن اهتدى واقتدى » روى النسائى عن ابن عباس قال قال لى رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على راحلته « هات القط لى — فلقطت له حصيات من حصى الخذف فلما وضعتهن فى يده قال : « مثال هؤلاء وإياكم والغلو فى الدين فانما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين » فدل قوله . « وإياكم والغلو فى الدين » على كراهة الرمى بالجمار الكبار وأن ذلك من الغلو والله أعلم(١).

الفقه المقارن المبنى على أحاديث الخلاف :

فى كثير من الحالات تختلف أنظار الأئمة والفقهاء وآراؤهم فى الأحكام الشرعية وكثيراً أيضاً مايقوم هذا الاختلاف على أساس أن كل واحد قد أخذ ما ذهب إليه بما روى فى تلك الأحكام من الأحاديث ، فإذا ذهب بعض الأئمة مثلا إلى إباحة حكم لأن هناك من الأحاديث مايؤيد ذلك نرى بعضاً آخر يذهب إلى عدم إباحة ذلك الحكم بعينه لأن هناك أيضاً من الأحاديث

---

(١) تفسير القرطبى ج ٣ ص ١١ وما بعدها والحديث أخرجه النسائى فى كتاب الحج ج ٥ ص ٢٦٨ طبع التجارية : والخذف رمى الانسان بحصاة ونحوها من بين سبابتيه من باب ضربه .

ما يفيد ذلك ويثبته ، ومن هنا سميت هذه الأحاديث أحاديث الخلاف . ولقد استعرض القرطبي في تفسيره كثيراً من الفقه المقارن المبني على أحاديث الخلاف، وكان منهجه في تلك الحالة أنه يحاول الجمع بين هذه الآراء بما يفعله من جمع بين الأحاديث عن طريق تأويلها تأويلا يبعد عنها التناقض والتعارض. ومن أمثلة ذلك . ما ذكره في قوله تعالى « وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود(١) » . فقد قال في المسألة الرابعة استدل الشافعي وأبو حنيفة والثوري وجماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت . قال الشافعي رحمه الله : إن صلى في جوفها مستقبلا حائطا من حيطانها فصلاته جائزة ،وإن صلى نحو الباب والباب مفتوح فصلاته باطلة ، وكذلك من صلى على ظهرها : لأنه لم يستقبل منها شيئاً وقال مالك لا يصلى فيه الفرض ولا السنن ويصلى فيه التطوع . غير أنه إن صلى فيه الفرض أعاد في الوقت وقال أصبغ: يعيد أبداً »

ثم عقب فقال : « قلت وهو الصحيح لما رواه مسلم عن ابن عباس قال: أخبرني أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج منه فلما خرج ركع في قبل الكعبة ركعتين وقال « هذه القبلة »(٢) وهذا نص . واستعرض القرطبي بعض الأحاديث التي تخالف هذا الحديث والتي قد يستدل بها بعض الفقهاء على ما يخالف هذا الرأي الذي صححه ثم أولها حتى لا تتعارض فقال . فإن قيل قد روى البخاري عن ابن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) آية ١٢٥ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه النسائي أيضاً عن أسامة بن زيد ج ٥ ص ٢٢٠

هو وأسامة ابن زيد وبلال وعثمان بن طلحة الحجبي البيت . فأغلقوا عليهم الباب . فلما فتحوا كنت أول من ولج . فلقيت بلال فسألته : هل صلى فيه رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم بين العمودين اليمانيين(١) . وأخرجه مسلم وفيه قال : جعل عودين عن يساره وعموداً عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة . قلنا : هذا يحتمل أن يكون صلى بمعنى دعا كما قال أسامة ، ويحتمل أن يكون صلى الصلاة العرفية . وإذا احتمل هذا وهذا سقط الاحتجاج به .

فان قيل : فقد روى ابن المنذر وغيره عن أسامة قال : رأى النبي ﷺ صوراً في الكعبة فكنت آتيه بماء في الدلو يضرب به تلك الصور . يعني أن الرسول ﷺ مسح الصور ولم يصل . وخرجه أبو داود الطيالسي قال حدثنا ابن أبي ذئب عن عبد الرحمن بن مهران قال حدثنا عمير مولى ابن عباس عن أسامة بن زيد قال دخلت على رسول الله ﷺ في الكعبة ورأى صوراً قال : فدعا بدلو من الماء فأتيته به فجعل يمحوها ويقول : « قاتل الله قوماً يصورون مالا يخلقون »(٢) فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم في حالة مضى أسامة في طلب الماء . فشاهد بلال مالم يشاهده أسامة . فكان من أثبته أولى ممن نفى . وقد قال أسامة نفسه : فأخذ الناس بقول بلال وتركوا قولي ، وقد روى مجاهد عن عبد الله بن صفوان قال قلت لعمر بن الخطاب . كيف صنع رسول الله ﷺ حين دخل الكعبة ؟ قال : صلى ركعتين . قلنا هذا محمول على النافلة . ولا نعلم خلافاً بين العلماء في صحة النافلة في الكعبة ، وأما الفرض فلا لأن الله تعالى عين الجهة بقوله تعالى « فولوا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج ج ١ ص ١٩١ .

(٢) أخرجه البخاري بمعناه عن ابن عباس ج ١ ص ١٩١

وجوهكم شطره » وقوله ﷺ لما خرج : « هذه القبلة » . فبينها كما عينها الله تعالى . ولو كان الفرض يصح داخلها لما قال : هذه القبلة . ثم قال القرطبي بعد ذلك : وبهذا يصح الجمع بين الأحاديث وهو أولى من إسقاط بعضها ولا تعارض والحمد لله (١) .

وإذا كان بين الأحاديث عموم وخصوص أو إطلاق وتقييد جمع القرطبي بين الآراء . فأخرج من أفراد العام ما يتناوله التخصيص وحمل المطلق على المقيد : ومثال الأول ماذكره في قوله تعالى « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر »(٢) فقد قال في المسألة الخامسة عشرة « واختلفوا فيمن مات وعليه صوم من رمضان لم يقضه فقال مالك والشافعي والثوري : لا يصوم أحد عن أحد . وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور والليث وأبو عبيد وأهل الظاهر : يصام عنه إلا أنهم خصصوه بالنذر ، وروى مثله عن الشافعي وقال أحمد وإسحاق في قضاء رمضان : يطعم عنه . احتج من قال بالصوم بما رواه مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وعليه صيام صام وليه »(٣)

إلا أن هذا عام في الصوم يخصصه ما رواه مسلم أيضاً عن ابن عباس قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إن أمي قد ماتت وعليها صوم نذر — وفي رواية صوم شهر — أفأصوم عنها ؟ فقال : أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدي ذلك عنها » . قالت : نعم ، قال :

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) آية ١٨٤ من سورة البقرة

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الصيام ، باب قضاء الصوم عن الميت ج ٨ ص ٢٢ .

« فصومى عن أمك »[١]. احتج مالك ومن وافقه بقـوله سبحانه : «ولا تزر وازرة وزر أخرى » وقوله « وأن ليس للانسان إلا ماسعى » وقوله «ولا تكسب كل نفس إلا عليها » وبما خرجه النسائى عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : لايصلى أحد على أحد ولايصوم أحد عن أحد ولـكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة[٢] . ثم عقب على هذا الحديث بما يجمع بينه وبين الأحاديث التى تعارضه . فحمله على صوم رمضان دون صوم النذر فقـال : قلت وهذا الحديث عام فيحتمل أن يكون المراد بقوله : لا يصوم أحد عن أحد صوم رمضان ، فأما صوم النذر فيجوز بدليل حديث ابن عباس وغيره . فقد جاء فى صحيح مسلم أيضاً من حديث بريدة نحو حديث ابن عباس ، وفى بعض طرقه : صوم شهرين أفأصوم عنها ؟ قال « صومى عنها » قالت : إنها لم تحج قط أفأحج عنها ؟ قال : « حجى عنها »[٣] فقولها شهرين يبعد أن يكون رمضان والله أعلم . وأقوى مايحتج به لمالك أنه عمل أهل المدينة ، ويعضده القياس الجلى ، وهو أنه عبادة بدنية لامدخل للمال فيها . فلا تفعل عمن وجبت عليه كالصلاة ، ولا ينقض هذا بالحج لأن للمال فيه مدخلا .

ومثل الثانى ماذكره فى قوله تعالى « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام »[٤]. فقد قال : قيل هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة واهتمام

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الصيام ج ٨ ص ٢٣ و ٢٤ .

(٢) رواه الترمذى عن ابن عمر بلفظ : من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه مكان كل يوم مسكينا . انظر التاج الجامع للاصول فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ منصور ناصف ج ١ ص ٩٠ ومابعدها .

(٣) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢٨٥ ومابعدها وانظر طرق حديث ابن عباس فى صحيح مسلم ج ٨ ص ٢٤ و ٢٥ .

(٤) آية ١٤٩ من سورة البقرة

بها . لأن موقع التحويل كان صعباً فى نفسهم جداً . فأكد الأمر ليرى الناس الاهتمام به فيخف عليهم ، وتسكن نفوسهم إليه » وقيل : أراد بالأول ول وجهك شطر الكعبة . أى عاينها إذا صليت تلقاءها . ثم قال « وحيث ما كنتم معاشر المسلمين فى سائر المساجد بالمدينة وغيرها : فولوا وجوهكم شطره . ثم قال ومن حيث خرجت ، يعنى وجوب الاستقبال فى الأسفار فكان هذا أمراً بالتوجه إلى الكعبة فى جميع المواضع من نواحى الأرض.

قلت : والقائل القرطبي : « هذا القول أحسن من الأول . لأن فيه حمل كل آية على فائدة . وقد روى الدار قطنى عن أنس بن مالك قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان فى سفر فأراد أن يصلى على راحلته . استقبل القبلة وكبر ثم صلى حيث توجهت به »(١) . أخرجه أبو داود أيضاً . وبه قال الشافعى وأحمد وأبو ثور . وذهب مالك إلى أنه لايلزمه الاستقبال لحديث ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته (٢) قال: وفيه نزل « فأينما تولوا فثم وجه الله » .

قلت : والقائل القرطبي — « ولاتعارض بين الحديثين لأن هذا من باب المطلق والمقيد . فقول الشافعى أولى وحديث أنس فى ذلك حديث صحيح »(٣) وهو محمول على المقيد (أى الحديث الأول الذى أخذ الشافعى به) .

فاذا تعذر الجمع بين الآراء لجأ القرطبي إلى المفاضلة والترجيح، وبنى ترجيحه

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة ج ١ ص ٨٧ .
(٢) » » » » » » » » » »
(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص١٦٨

على أساس علمى ، فناقش الأدلة وأبطل مالا يصلح منها واعتمد مارآه صوابا ثم وقف بجانبه ينتصر له ويدافع عنه. فى قوله تعالى «ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا[1] » يقول فى المسألة الثانية :

وقد اختلف العلماء فى أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — لهذه الآية وما كان فى معناها — فمنع ذلك الزهرى وأصحاب الرأى وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن. لأن تعليمه واجب من الواجبات التى يحتاج فيها إلى نية التقرب والاخلاص. فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام وقد قال تعالى « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » وروى ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : معلمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين[2] وروى أبو هريرة قال : قلت يارسول الله ماتقول فى المعلمين؟ قال : درهمهم حرام وثوبهم سحت وكلامهم رياء » . وروى عبادة ابن الصامت قال : علمت ناسا من أهل الصفة القرآن والكتابة فأهدى إلى رجل منهم قوسا فقلت ليست بمال وأرمى عنها فى سبيل الله فسألت عنها رسول الله ﷺ فقال « إن سرك أن تطوق بها طوقا من نار فاقبلها» وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور . وأكثر العلماء لقوله عليه السلام فى حديث ابن عباس — حديث الرقية — : إن أحق ما أخذتم عليه

---

(١) آية ٤١ من سورة البقرة .

(٢) هذا الحديث أورده السيوطى فى اللآلىء المصنوعة وقال عنه إنه موضوع وتبين سبب وضعه أن سعد ابن طريف — واضع هذا الحديث — كان له ابن فجاءه يبكى ذات يوم فقال له مالك ؟ قال: ضربنى المعلم قال : والله لأخزينهم اليوم ثم وضع من فوره هذا الحديث ، وسيأتى نقد القرطبى لهذا الحديث وحديثى أبى هريرة وابن الصامت .

أجرا كتاب الله » أخرجه البخارى(١) . وهو نص يرفع الخلاف فينبغى أن يعول » ثم قال القرطبى :

وأما ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد ، لأنه فى مقابلة النص ، ثم إن بينهما فرقانا ، وهو أن الصلاة والصوم عبادات مختصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلم . فتجوز الأجرة على محاولته النقل ، كتعليم كتابة القرآن . قال ابن المنذر وأبو حنيفة . يكره تعليم القرآن بأجرة ويجوز أن يستأجر الرجل يكتب له لوحاً أو شعراً أو غناء معلوما بأجر معلوم . فيجوز الإجارة فيا هو معصية ويبطلها فيا هو طاعة .

وأما الجواب عن الآية : فالمراد بها بنو إسرائيل وشرع من قبلنا هل هو شرع لنا ؟ فيه خلاف وهو — أى مالك — لايقول به :

جواب ثان : وهو أن تكون الآية فيمن تعين عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فأما إذا لم يتعين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة فى ذلك . وقد يتعين عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ، ولا على عياله . فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته ، ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدين إعانته والا فعلى المسلمين لأن الصديق رضى الله عنه لما ولى الخلافة ، وعين لها لم يكن عنده مايقيم به أهله فأخذ ثيابا ، وخرج إلى السوق فقيل له فى ذلك ، فقال : ومن أين أنفق على عيالى ، فردوه وفرضوا له كفايته ، وأما الأحاديث فليس شىء منها يقوم على ساق ولا يصح منها شىء عند أهل

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ج ٤ ص ١٣

العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سعيد بن طريف عن عكرمة عنه . وسعيد متروك . أما حديث أبي هريرة فرواه على بن عاصم عن حماد بن سلمة عن أبي جرم عنه . وأبو جرم مجهول لايعرف ولم يرو حماد بن سلمة عن أحد يقال له أبو جرم . وإنما رواه عن أبي المهزم وهو متروك الحديث أيضاً . وهو حديث لا أصل له ، وأما حديث عبادة بن الصامت فرواه ابو داود من حديث المغيرة ابن زياد الموصلي عن عبادة بن نسى عن الأسود بن ثعلبة عنه ، والمغيرة معروف عند أهل العلم ، ولكنه له مناكير هذا منها .قاله أبو عمر» ثم قال: « وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العلم لأنه روى عن عبادة من وجهين وروى عن أبي ابن كعب من حديث موسى ابن على عن أبيه عن أبي . وهو منقطع وليس في الباب حديث يجب العمل به . . . وروى عن النبي ﷺ أنه قال : خير (١) الناس وخير من يمشي على جديد الارض المعلمون كلما خلق الدين جددوه أعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم فان المعلم إذا قال للصبي قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبي بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبي وبراءة للمعلم وبراءة لأبويه من النار» (٢)

فالقرطبي قد رجح مذهب الامام مالك ومن تابعه وبنى ترجيحه على أساس رد القياس لأنه في مقابلة النص : وله الحق في ذلك كما سيتضح في بعد . ثم بتأويل الآية . ويبين أن الاحاديث التي استدل بها المخالفون لاتصلح

---

(١) أخرجه ابن مردويه وأورده السيوطي في اللآلىء المصنوعة ح ١ ص ١٩٨ وبين أنه موضوع .

(٢) تفسير القرطبي ح ١ ج ص ٣٣٥ وما بعدها .

التدليل لأن في سندها من هو متروك لا يؤخذ عنه . ومنه من هو مجهول لا يعرف ولأن فيها ما هو منقطع . وكل هذه لا تقوم على ساق ولا تصلح دليلا وحجة . وقد أجاد القرطبي إلى هنا ولكنه في النهاية قد استدل بحديث لا يصلح للتدليل. وهو ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «خير الناس وخير من يمشي على الأرض المعلمون» الحديث ، وهذا الحديث قد رواه ابن الجوزي بسنده إلى ابن عباس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعلمون خير الناس كلما خلق الذكر جددوه ، عظموهم ولا تستأجروهم فإن المعلم إذا قال للصبي قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبي بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبي وبراءة لوالديه وبراءة للمعلم من النار » .

وإذا كان القرطبي قد أورد هذا الحديث دليلا على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن فإن ابن الجوزي قد أورده دليلا على عدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن .

والحديث يصلح للرأيين . فرواية ابن الجوزي تقول « عظموهم ولا تستأجروهم» وهذه تفيد عدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن . ورواية القرطبي تقول « أعطوهم ولا تستأجروهم » وهذه تفيد الجواز . والحديث لا يصلح حجة ودليلا فكان الأولى بالقرطبي أن يقتصر على الأدلة القوية وأن يكتفي بها وخاصة أنه هاجم أدلة المخالفين وردها . وإذا كان قد رد بعض الأحاديث لانقطاعها فإنه قد استدل بحديث موضوع قال عنه ابن الجوزي : «لا يجوز الاحتجاج به لأنه من عمل أحمد بن عبد الله الهروي الجويباري وكان كذابا يضع » وقد أجمع أهل النقل على ذلك[1] .

---

(١) رسالة ابن الجوزي ص ٢٣٦ نقلا عن التحقيق لابن الجوزي ١٨٧ وانظر اللآلىء المصنوعة للسيوطي ج ١ ص ٢٩٨ .

وفى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا[1] » . يقول فى المسألة الثالثة عشرة « نهى الله سبحانه وتعالى عن الصلاة إلا بعد الاغتسال ، والاغتسال معنى معقول ، ولفظه عند العرب معلوم . يعبر به عن إمرار اليد مع الماء على المغسول ولذلك فرقت العرب بين قولهم : غسلت الثوب وبين قولهم : أفضت عليه الماء وغمسته فى الماء . وإذا تقرر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا فى الجنب يصب على جسده الماء أو ينغمس فيه ولا يتدلك . فالمشهور من مذهب مالك أنه لا يجزئه حتى يتدلك لأن الله سبحانه وتعالى أمر الجنب بالاغتسال . كما أمر المتوضىء بغسل وجهه ويديه . وهذا قول المزنى واختياره . قال أبو الفرج عمرو بن محمد المالكى . وهذا هو المعقول من لفظ الغسل . لأن الاغتسال فى اللغة هو الافتعال ، ومن لم يمر يديه فلم يفعل غير صب الماء . لا يسميه أهل اللسان غاسلا بل يسمونه صابا للماء . ومنغمسا فيه قال : وعلى نحو هذا جاءت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « تحت كل شعرة جنابة فاغسلوا الشعر وأنقوا البشرة » قال : وإنقاؤه — والله أعلم — لا يكون إلا بتتبعه على حد ما ذكرنا .

ورد القرطبي هذا الرأى بعد أن ناقشه ، ثم انتصر لرأى الجمهور ورجحه لقوة حجته ودليله فقال :

قلت : لاحجة فيا استدل به من الحديث لوجهين : أحدهما — أنه قد خولف فى تأويله . قال سفيان بن عيينة : المراد بقوله عليه السلام « وأنقوا البشرة »

---

(١) آية ٤٣ من سورة النساء .

أراد غسل الفرج وتنظيفه ، وأنه كنى بالبشرة عن الفرج . قال ابن وهب : ما رأيت أحداً أعلم بتفسير الأحاديث من ابن عيينة .

الثاني : أن الحديث أخرجه أبو داود في سننه وقال فيه : وهذا الحديث ضعيف كذا في رواية ابن داسه(١). وفي رواية اللؤلؤى عنه : الحارث بن وجيه ضعيف . حديثه منكر . فسقط الاستدلال بالحديث . وبقى المعول على اللسان كما بيناه ، ويعضده ماثبت في صحيح الحديث أن النبي ﷺ أتى بصبي فبال عليه فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يغسله ، روته عائشة ونحوه عن أم قيس بنت محصن أخرجهما مسلم (٢) . وقال الجمهور من العلماء وجماعة الفقهاء : يجزىء الجنب صب الماء ، والانغماس فيه ، إذا أسبغ وعم ، وإن لم يتدلك ، على مقتضى حديث ميمونة وعائشة في غسل النبي ﷺ رواها الأئمة وأن النبي ﷺ كان « يفيض الماء على جسده » (٣) . وبه قال محمد بن عبد الحكم وإليه رجع أبو الفرج ورواه عن مالك : وإنما أمر بإمرار اليدين في الغسل لأنه لا يكاد من لم يمر يديه عليه يسلم من تنكب الماء عن بعض ما يجب عليه من جسده . قال ابن العربي : لأبي الفرج الذي روى وحكى عن صاحب المذهب أن الغسل دون ذلك (التدليك وإمرار اليد) يجزىء . وما قاله مالك قط نصا ولا تخريجاً ، وإنما هي من أوهامه . ورد القرطبي على ابن العربي ، ثم ناقش بما نقله عن ابن عبد البر ما تمسك به المخالفون من الدلالة اللغوية للفظ الغسل على التدليك . فقال :

---

(١) ابن داسة هو أبو بكر محمد بن بكر التمار البصري راوي سنن أبي داود .

(٢) أخرجهما مسلم في كتاب الطهارة ، باب حكم بول الطفل الرضيع ج ٣ ص ١٩٣

(٣) حديث ميمونة وعائشة أخرجهما مسلم في كتاب الحيض باب صفة غسل الجنابة ج ٣ ص ٢٢٨ .

« قلت قد روى هذا عن مالك نصاً ؛ قال مروان بن محمد الظاهرى وهو ثقة ثقاة الشاميين : سألت مالك بن أنس عن رجل انغمس فى ماء وهو جنب ولم يتوضأ قال : مضت صلاته » . ثم قال القرطبي . « قال أبو عمر : فهذه الرواية فيها لم يتدلك ولا توضأ . وقد أجزأه عند مالك ، والمشهور من مذهبه أنه لا يجزئه حتى يتدلك قياساً على غسل الوجه واليدين . وحجة الجماعة أن كل من صب عليه الماء فقد اغتسل . والعرب تقول غسلتنى السماء . وقد حكت عائشة وميمونة صفة غسل رسول الله ﷺ ولم تذكرا تدلكا ، ولو كان واجبا ما تركه لأنه المبين عن الله مراده ، ولو فعله لنقل عنه كما نقل تخليل أصول شعره بالماء وغرفه على رأسه وغير ذلك من صفة غسله ووضوئه عليه السلام . قال أبو عمر : وغير نكير أن يكون الغسل فى لسان العرب مرة بالعرك[1] . ومرة بالصب والإفاضة . وإذا كان هذا فلا يمتنع أن يكون الله عز وجل تعبد عباده فى الوضوء بإمرار أيديهم على وجوههم مع الماء ، وأن يكون ذلك غسلا ، وأن يفيضوا بالماء على أنفسهم فى غسل الجنابة والحيض ، ويكون ذلك غسلا موافقا للسنة غير خارج عن اللغة ، ويكون كل واحد من الأمرين أصلا فى نفسه . لا يجب أن يرد أحدهما إلى صاحبه لأن الأصول لا يرد بعضها إلى بعض قياساً — وهذا ما لا اختلاف فيه بين علماء الأمة ، وإنما ترد الفروع قياساً على الأصول وبالله التوفيق »[2] .

فالقرطبي قد ناقش ما تمسك به المخالف من الأحاديث . وأسقط الاستدلال بها ثم بين أن دلالة اللفظ اللغوية تؤيد ما ذهب إليه المخالف .

---

(١) العرك معناها الدلك .

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٠٩ وما بعدها .

وأن بعض الأحاديث يعضد هذه الدلالة . وبهذا عرض القرطبي حجة الخصم بدقة وأمانة وقواها حيث ذكر ما يؤيدها من الأحاديث . ثم عاد فبين بما نقله عن « ابن عبد البر » أن اللغة لا تناقض ما ذهب إليه الجمهور . وعلى هذا فرأى الجمهور أقوى وأسلم .

وقد لاحظت أن القرطبي في قول الله تبارك وتعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليك القصاص في القتلى[1] » رجح بعض الآراء . وانتصر له . وكان يمكنه أن يجمع بين الأحاديث وألا يسقط الاستدلال ببعضها . وبالتالي كان يمكنه أن يجمع بين الآراء بدون أن يلجأ إلى هذا الترجيح .. يقول في المسألة الثالثة عشرة .

« روى الأئمة عن أبي شريح الكعبي قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إنكم معشر خزاعة قتلتم هذا القتيل من هذيل وإني عاقله فمن قتل له — بعد مقالتي هذه — قتيل فأهله بين خيرتين . أن يأخذوا العقل أو يقتلوا[2] » لفظ أبي داود . وقال الترمذي حديث حسن صحيح[3] . وروى عن أبي شريح الخزاعي عن النبي ﷺ قال « من قتل له قتيل فله أن يقتل أو يعفو أو يأخذ الدية » وذهب إلى هذا بعض أهل العلم وهو قول أحمد وإسحاق . ثم قال في المسألة الرابعة عشرة . اختلف أهل العلم في أخذ الدية من قاتل العمد فقالت طائفة : ولي المقتول بالخيار إن شاء اقتص ، وإن شاء أخذ الدية ، وإن لم يرض القاتل . يروى هذا عن سعيد بن المسيب وعطاء والحسن ورواه أشهب عن مالك وبه

---

(١) آية ١٨٧ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الديات ج ١٥ ص ٢٥٥

(٣) أخرجه الترمذي بلفظ من قتل مؤمنا متعمدا دفع الى أولياء المقتول فان شاء قتلوه وان شاءوا أخذوا الدية ـ انظر التاج ج ٣ ص ٩ .

قال الليث والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور . وحجتهم حديث أبي شريح وما كان في معناه وهو نص في موضع الخلاف ، وأيضاً من طريق النظر فإنما لزمته الدية بغير رضاه (أي وإن لم يرض) . لأن فرضا عليه إحياء نفسه. وقد قال الله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم » وقال « فمن عفي له من أخيه شيء » أي ترك له دمه في أحد التأويلات ، ورضي منه بالدية « فاتباع بالمعروف » أي فعلى صاحب الدم اتباع بالمعروف في المطالبة بالدية ، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان . أي من غير مماطلة وتأخير عن الوقت «ذلك تخفيف من ربكم ورحمة» أي إن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم غير النفس بالنفس ، فتفضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضي بها ولي الدم .. وقال آخرون : ليس لولي المقتول إلا القصاص ، ولا يأخذ الدية إلا إذا رضي القاتل ، رواه ابن القاسم عن مالك وهو المشهور عنه . وبه قال الثوري والكوفيون ، واحتجوا بحديث أنس في قصة الربيع حين كسرت ثنية المرأة ، رواه الأئمة قالوا : « فلما حكم رسول الله ﷺ بالقصاص وقال : القصاص كتاب الله ولم يخير المجني عليه بين القصاص والدية ثبت بذلك أن الذي يجب بكتاب الله وسنة رسوله في العمد هو القصاص» ورجح القرطبي الرأي الأول فقال « والأول أصح لحديث أبي شريح المذكور» ثم انتصر له فقال « وروى الربيع عن الشافعي قال : أخبرني أبو حنيفة عن ابن سماك بن الفضل الشهابي قال : وحدثني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله ﷺ قال عام الفتح «من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود» فقال أبو حنيفة : فقلت لابن أبي ذئب أتأخذ بهذا يا أبا الحارث ، فضرب صدري ، وصاح علي صياحاً كثيراً ، ونال مني وقال : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول : أتأخذ به ، نعم آخذ به وذلك الفرض علي وعلى من سمعه . إن الله عز وجل ثناؤه اختار محمداً ﷺ من

الناس فيدلهم به وعلى يديه، واختار لهم ما اختاره له، وعلى لسانه. فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين لا مخرج لمسلم من ذلك. قال: وما سكت عنى حتى تمنيت أن يسكت »(١).

فالقرطبي قد رجح الرأى الأول وانتصر له وقواه، وإنى أرى أن الجمع بين الأحاديث ممكن. فلعل واقعة الربيع كانت قبل أن يعلم النبي ﷺ أن ولى المقتول بخير النظرين إن شاء قتل. وإن شاء عقل، ويرشح لذلك أن أحاديث التخيير متأخرة. فحديث أبي شريح كان يوم فتح مكة وحديث أبي هريرة كذلك حيث أسلم قبل الفتح. فلقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يفدى (أى يعطى له الفدية) وإما أن يقتل(٢) ».

على أن الحديث الذى تمسك به الفريق الآخر أصحاب الرأى الثانى. أخرجه البخارى وغيره من الأئمة. ولفظ البخارى:

روى أنس بن مالك بن النضر أن عمته الربيع لطمت جارية فكسرت ثنيتها فطلبوا العفو فأبوا والأرش فأبوا إلا القصاص. فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فأمر رسول الله بالقصاص فقال أنس: يا رسول الله: أتكسر ثنية الربيع. لا والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فقال رسول الله ﷺ: « يا أنس كتاب الله القصاص » فرضى القوم فعفوا، وقال رسول الله « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره »(٣) وهذا مما يؤيد الجمع لا الترجيح.

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الديات باب من قتل له قتيل ١٠/٢٢٥ وانظر رسالة ابن الجوزى المحدث الرميل ابو العلا على ابو العلا ص ٢١٠.

(٣) اخرجه البخارى فى كتاب التفسير سورة البقرة باب « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » ج ٩ ص ٢٤٣.

عدم تعصب القرطبى

لم يتعصب القرطبى لمذهب الإمام « مالك » فيرجحه وإن ضعفت حجته، ولكنه كان يرجح غيره من المذاهب . إذ رأى الحق بجانبه ، ويخرج على المذهب المالكى ، ويعلن معارضته له . كما لم يلتو القرطبى فى عرض حجة الخصم ، أو يأتى بها مبتورة مهلهلة . بل كان يعرضها بدقة وأمانة ،وكان يضفى عليها كثيراً من الشرح والتوضيح ، ولقد مر بنا ما يؤيد ذلك . ونذكر هنا بعض الشواهد الأخرى :

فى قوله تعالى « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » الآية(١) يقول فى المسألة الثانية عشرة : « قال مالك والشافعى وأبو ثور وأصحاب الرأى : إذا أكل ناسياً فظن أن ذلك قد فطره فجامع عامداً كان عليه القضاء ولا كفارة عليه . قال ابن المنذر : وبه نقول . وقيل فى المذهب : عليه القضاء والكفارة . إن كان قاصداً لهتك حرمة صومه جرأة وتهاونا . قال أبو عمر : وقد كان يجب على أصل مالك ألا يكفر . لأن من أكل ناسيا فهو عنده مفطر يقضى يومه ذلك . فأى حرمة هتك وهو مُفطر ، وعند غير مالك : ليس بمفطر كل من أكل ناسيا لصومه »(ويلاحظ أن القرطبي قد انتقل بلا تمهيد إلى حكم آخر وهو حكم من أكل ناسياً فى رمضان)ورجح القرطبي هذا الرأى مع أنه مخالف لمذهب مالك . ثم دلل على ذلك فقال : « قلت وهو الصحيح وبه قال الجمهور : إن من أكل أو شرب ناسيا فلا قضاء عليه وأن صومه تام لحديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « إذا أكل الصائم ناسيا أوشرب ناسيا فإنما هو رزق ساقه الله

---

(١) آية ١٨٧ من سورة البقرة .

تعالى إليه ولا قضاء عليه ، وفى رواية : وليتم صومه فإن الله أطعمه وسقاه»(١) أخرجه الدارقطنى وقال : إسناد صحيح ، وكلهم ثقات ، قال أبو بكر الأثرم : سمعت أبا عبد الله يسأل عن أكل ناسيا فى رمضان قال : ليس عليه شىء على حديث أبى هريرة . ثم قال أبو عبد الله مالك : وزعموا أن مالكا يقول ، عليه القضاء ، وضحك . وقال ابن المنذر لا شىء عليه لقول النبي ﷺ لمن أكل أو شرب ناسيا « يتم صومه » وإذا قال : « يتم صومه » فأتمه فهو صوم تام كامل . ثم عرض القرطبي الأدلة التى تمسك بها المالكية فى وجوب القضاء على من أفطر ناسيا وصححها ، ولكنه عاد فخرج عليها وبين أن هذه الأدلة لا تقف أمام النص الصريح فقال :

وإذا كان من أفطر ناسيا لا قضاء عليه ، وصومه صوم تام . فعليه إذا جامع عامدا القضاء والكفارة — والله أعلم — كمن لم يفطر ناسيا .

(وعبارة القرطبي فيها تأييد لما ذهب إليه بعض فقهاء المالكية من أن من أفطر ناسيا ثم جامع عامداً عليه القضاء والكفارة . وفيها فى الوقت نفسه ردٌّ لما ذهب إليه مالك من أن من أفطر ناسيا لا قضاء عليه ولا كفارة — فهو قد رجع بعد الانتقال من حكم إلى حكم رجع إلى الحكم الأول ثم عاد إلى الانتقال إلى الحكم الثانى) .

وقد احتج علماؤنا على إيجاب القضاء بأن قالوا : المطلوب منه صيام يوم تام لا يقع فيه خَرْم لقوله تعالى « ثم أتموا الصيام إلى الليل » وهذا لم يأت به على التمام فهو باق عليه . ولعل الحديث فى صوم التطوع

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وابو دواد والنسائى عن أبى هريرة : بلفظ « من نسى وهو صائم فأكل او شرب فليتم صومه فانما أطعمه الله وسقاه» ورواية الترمذى : من أكل او شرب ناسيا فلا يفطر فانما هو رزق رزقه الله . انظر التاج الجامع للاصول فى أحاديث الرسول للشيخ منصور ناصف ج ٢ ص ٧٨ .

خلقته . وقد جاء فى صحيح البخارى ومسلم : « من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه » فلم يذكر قضاء ولا تعرض له . بل الذى تعرض له سقوط المؤاخذة ، والأمر بمضيه على صومه ، وإتمامه . هذا إن كان واجباً فدل على ما ذكرناه من القضاء .

وأما صوم التطوع فلا قضاء فيه لمن أكل ناسيا لقوله ﷺ « لا قضاء عليه » ثم قال : قلت هذا ما احتج به علماؤنا وهو صحيح . لولا ما صح عن الشارع ماذكرناه ، وقد جاء بالنص الصريح الصحيح . وهو ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ : من أفطر فى شهر رمضان ناسيا فلا قضاء عليه ولا كفارة « أخرجه الدارقطنى وقال : تفرد به ابن مرزوق ، وهو ثقة عن الأنصارى فزال الاحتمال وارتفع الإشكال والحمد لله ذى الجلال والكمال »[1] .

وفى قوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن »[2] الآية . . يقول فى المسألة السابعة عشرة : « روى الدارقطنى عن ربعى ابن حراش عن رجل من أصحاب النبي ﷺ باقة لأهلا[3] الهلال أمس عشية . فأمر رسول الله ﷺ الناس أن يفطروا ، وأن يغدوا إلى مصلاهم . قال الدارقطنى هذا إسناد حسن ثابت . قال أبو عمر : لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تصلى صلاة العيد فى غير يوم العيد ولا فى يوم العيد بعد الزوال . وحكى عن أبى حنيفة . واختلف قول الشافعى فى هذه المسألة . فرة قال بقول مالك ، واختاره المزنى ،

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٣٢٢ وما بعدها .

(٢) آية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٣) أهل الرجل بالهلال رآه والحديث أخرجه ايضا ابو داود واحمد بسند صحيح انظر التاج الجامع للاصول فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٦٣ .

وقال إذا لم يجز أن تصلى فى يوم العيد بعد الزوال . فاليوم الثانى أبعد من وقتها ، وأحرى ألا تصلى فيه . وعن الشافعى رواية أخرى : أنها تصلى فى اليوم الثانى ضحى . وقال البويطى : لا تصلى إلا أن يثبت فى ذلك حديث قال أبو عمر : لو قضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض ، وقد أجمعوا فى سائر السنن أنها لا تقضى فهذه مثلها وقال الثورى والأوزاعى وأحمد بن حنبل يخرجون من الغد، وقال أبو يوسف فى الإملاء وقال الحسن بن صالح بن حىّ : لا يخرجون فى الفطر ويخرجون فى الأضحى قال أبو يوسف : وأما فى الأضحى فيصليها بهم فى اليوم الثالث . قال أبو عمر : لأن الأضحى أيام عيد ، وهى صلاة عيد ، وليس الفطر يوم عيد إلا يوم واحد . فإذا لم تصل فيه لم تقض فى غيره . لانها ليست بفريضة فتقضى . وقال الليث بن سعد : يخرجون فى الفطر والأضحى من الغد . . » .

وخرج القرطبى على مذهب مالك ، ورجح قول من ذهب إلى جواز الخروج فقال : « قلت : والقول بالخروج إن شاء الله أصح للسنة الثابتة فى ذلك . ولا يمتنع أن يستثنى الشارع من السنن ماشاء فيأمر بقضائه بعد خروج وقته . وقد روى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من لم يصل ركعتى الفجر فليصلهما بعد ماتطلع الشمس(١) . صححه أبو محمد . قال الترمذى : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم وبه يقول سفيان الثورى والشافعى وأحمد وإسحاق وابن المبارك . وروى عن ابن عمر أنه فعله .

قلت وقد قال علماؤنا : فمن ضاق عليه الوقت ، وصلى الصبح وترك

---

(١) أخرجه الترمذى فى أبواب الصلاة انظر جامع الترمذى بشرح ابن العربى ويسمى تحفة الاحوذى فى شرح الترمذى لابن العربى ج ٢ ص ٢١٧ .

ركعتى الفجر فإنه يصليهما بعد طلوع الشمس إن شاء ، وقيل : لا يصليهما حينئذ . ثم إذا قلنا يصليهما فهل ما يفعله قضاء أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتى الفجر . قال الشيخ أبو بكر : وهذا الجارى على أصل المذهب وذِكْر القضاء تجوّز .

قلت ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر فى اليوم الثانى على هذا الأصل . لا سيما مع كونها مرة واحدة فى السَّنة مع ما ثبت من السُّنة روى النسائى قال : أخبرنى عمرو بن على قال حدثنا يحيى قال حدثنا شعبة قال حدثنى أبو بشر عن أبى عمير بن أنس عن عمومة له أن قوما رأوا الهلال فأتوا النبى ﷺ فأمرهم أن يفطروا بعد ما ارتفع النهار وأن يخرجوا إلى العيد من الغد . فى رواية « ويخرجوا لمصلاهم من الغد [1] » .

وإذا كان القرطبى يخرج عن المذهب المالكى لأنه لا يرى الحق بجانبه بعد النظر فى أدلته ، وأدلة المخالفين له ، ومناقشة ذلك كله بأسلوب هادئ . فإنه أيضاً لم يكن يبنى نقده للمخالفين له بما يثير حوله الاتهام بالتعصب . بل كان يبنى نقده على هذا الأسلوب العلمى وهذا مثال يوضح ذلك . .

فى قوله تعالى : « ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين » يقول فى المسألة السابعة :

« ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة فى شىء وإن دبغت . لأنها كلحم الميتة ، والإخبار بالانتفاع بعد

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٣٠٤ والحديث أخرجه النسائى فى كتاب صلاة العيدين ج ٣ ص ١٨٠ .

الدباغ . ترد قوله ، واحتج بحديث عبد الله بن عكيم — رواه أبو داود — قال : قرىء علينا كتاب رسول الله ﷺ بأرض جهينة وأنا غلام شاب ، « ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب » وفى رواية : قبل موته بشهر . رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عكيم قال : حدثنا مشيخة لنا أن النبي ﷺ كتب إليهم . . . قال داود بن على : سألت يحيى بن معين عن هـــذا الحديث . فضعّفه ، وقال ليس بشىء . إنما يقول حدثنى الأشياخ . قال أبو عمر : ولو كان ثابتا لا أحتمل أن يكون مخالفا للاحاديث المروية عن ابن عباس ، وعائشة ، وسلمة بن المحبق ، وغيرهم . لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عكيم : ألا تنتفعوا من الميتة بأهاب قبل الدباغ وإذا احتمل ألا يكون مخالفاً . فليس لنا أن نجعله مخالفاً ، وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن ، وحديث عبد الله بن عكيم . وإن كان قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء فى الخبر . فيمكن أن تـكون قصة ميمونة وسماع ابن عباس منه « أيما إهاب دبغ فقد تطهر » قبل موته بجمعة أو دون جمعة والله أعلم[1] » .

فالإمام أحمد ابن حنبل . يرى أن جلد الميتة لا يطهر بالدباغ . وبالتالى لا يبيح الانتفاع به بعد دبغه ، ودليله حديث : عبد الله بن عكيم ؛ ولم يرتض القرطبي مذهب الإمام أحمد ابن حنبل وناقش دليله فضعّفه ، ولـكنه فى النهاية عاد فجمع بين الأدلة . فهل قامت هذه المناقشة على أساس علمى . . أم على أساس التعصب والمحاباة ؟ . .

لقد ناقش الزميل : أبو العلا على أبو العلا : ابن الجوزى . فى رسالته عنه .

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب اللباس ٢/٣٨٧ والنسائى / ١٧٥ والترمذى فى كتاب اللباس — ٣ / ٣٦ والبيهق فى كـتاب الطهارة — باب فى جلد الميتة . ونقل عن يحيى ابن معين أنه ضعف هذا الحدث وقال ليس بشىء إنما هو حدثنى أشياخ جهينة ورواه عنه دود بن على .

وتقدم تحت عنوان : سكوت ابن الجوزى عن بعض الأحاديث التى استدل بها الحنابلة : وأحب أن أستعرض موقف « ابن الجوزى » من هذه المسألة . ونقد الزميل له رغم ما فيهما من طول — لأنهما يوضحان لنا عدم تعصب القرطبي . وأنه كان يقف بجانب الحق أينما كان .

يقول ابن الجوزى رحمه الله تعالى : مسألة جلود الميتة لا تطهر بالدباغ، وقال أبو حنيفة والشافعى تطهر .

لنا أحاديث أشهرها حديث ابن عكيم . وهو ما رواه بسنده عن عبد الله بن عكيم قال : أتانا كتاب رسول الله ﷺ وأنا غلام شاب قبل موته بشهر أو شهرين ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب . . . ثم قال ابن الجوزى :

احتج الخصم بأحاديث :

الحديث الأول : ما رواه بسنده عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بشاة ميتة فقال : ألا استمتعتم بجلدها ؟ فقالوا يا رسول الله إنها ميتة . قال : إنما حرم أكلها[1]. ثم ذكر طرقا أربعة . رواه الدارقطنى بسنده زاد فى الطريق الأول منها . أو ليس فى الماء والقرظ ما يطهرها : وفى الطريق الثانى : إن دباغها ذكاتها : وفى الثالث: دباغ إهابها طهورها : وفى الرابع نحو الذى تقدم غير أنه قال : إنما حرم عليكم لحمها ورخص لكم فى مَسكها[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الذبائح والصيد باب جلود الميتة ج ١٢ ص ٧٩ وأخرجه مسلم بشرح النووى ج ٤ ص ٥١ .

(٢) المسك الجلود والجمع مسوك ، مثل فلس وفلوس .

قال الدارقطني هذه أسانيد صحاح .

والحديث الثاني بسنده عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أيما أهاب دبغ فقد طهر .

الحديث الثالث بسنده عن سلمة بن المحبق : أنه كان مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . فأتى على بيت قدامه قربة معلقة قال : الشراب. قيل : أنها ميتة . فقال : ذكاتها دباغها . قال أحمد بن حنبل — جون — أحد رواته لا يعرف(١) .

الحديث الرابع بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «أيما إهاب دبغ فقد طهر » .

الحديث الخامس بسنده عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ . قال : «طهور كل أديم دباغه » قال الدار قطني إسناده كلهم ثقات(٢) .

قال ابن الجوزي . ولهم حديث يرويه المغيرة بن شعبة وآخر ترويه أم سلمة كلاهما مطعون فيه فلم أر في ذكرها فائدة . ثم قال ابن الجوزي: وأصحابنا يقولون : حديثنا متأخر . وهو حاظر والحظر مقدم .

ويقول الزميل : هذا ما ذكره ابن الجوزي في تلك المسألة ، ونلاحظ عليه أنه ذكر أحاديث مذهبه دون أن ينبه على ما فيها من ضعف ، وإعلال .

---

(١) سنن الدار قطني ١/٤٥ رقم ١٢ وسنن ابي داود٢/ ٣٨٧ والنسائي ٧/١٧٣

(٢) سنن الدار قطني ١/٤٨ ، ٤٩ ، رقم ٢٤ ، ٢٧ .

وإذا كانت مصاحبتنا لابن الجوزى وملازمتنا له فى الدراسة تقتضى الدفاع عنه فإن واجب الإنصاف والعلم يقتضينا أن نقول كلمة حق حتى وإن كانت فى غير صالح ابن الجوزى . بل إن الذى يهمنا هو أن يسير بحثنا فى طريقه العلمى السوى دون هوى أو ميل لهذا أو لذاك .

ويكفينا هنا أن نبين وجوه الطعن فيما استدل به لأهل مذهبه ، وخصوصا ما يتعلق بالحديث الأول وهو حديث عبد الله بن عكيم وهى : —

الإرسال لعدم سماع عبد الله بن عكيم من النبى ﷺ .

الانقطاع لعدم سماع عبد الرحمن بن أبى ليلى من عبد الله بن عكيم .

الاضطراب فى سنده فإنه تارة يقول : عن كتاب النبى صلى الله عليه وسلم وتارة : عن مشيخة من جهينة : وتارة عمن قرأ الكتاب :

نعم إن قوله : قرىء علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بأرض جهينة وأنا غلام شاب . ما يدل على حضوره وسماعه إياه من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن فى غيره من الأحاديث : جاءنا كتاب رسول الله ، وكتب إلينا رسول الله فيحتمل أنه لم يحضره . ومعناه كتب إلى قومنا وهذا جائز فى كلامهم . وقد حققه ما روى عنه أنه قال : حدثنى أشياخ بجهينة . قالوا : أتانا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . أو قرىء علينا كتاب رسول الله . فلم يتم حُجَّة إذ لم يسمِّ الأشخاص حتى نعلم أنهم ممن يجوز الأخذ عنهم أم لا .

قال الترمذى : سمعت أحمد بن الحسين يقول : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا الحديث لما ذكر فيه : قبل وفاته بشهرين : وكان يقول :

هذا آخر أمر رسول الله ﷺ . ثم ترك أحمد هذا الحديث لما اضطربوا فى إسناده حيث روى بعضهم فقال : عن عبد الله بن عكيم عن أشياخ من جهينة .

قال الخلال لما رأى أبو عبد الله تزلزل الرواة فيه توقف .

الاضطراب فى متنه . فرواه الأكثر من غير تقييد ، ومنهم من رواه بتقييد شهر أو شهرين أو أربعين يوماً أو ثلاثة أيام .

هذه بعض وجوه الطعن فى هذا الحديث . وقد نقل الحافظ « ابن حجر » فى الفتح : رد « ابن حبان » على من ادعى فيه الاضطراب وقال : سمع ابن عكيم الكتاب يقرأ ، وسمعه من أشياخ من جهينة عن النبي ﷺ فلا اضطراب .

أقول ولو سلم ذلك لزم أمران :

الأول : جهالة الشيوخ الذين سمع عنهم وهل هم ممن يجوز الأخذ عنهم أم لا .

الثانى : الاضطراب فى المتن كما سبق بيانه .

وقد رد الحافظ « ابن حجر » دعوى الانقطاع أيضاً . بعـــدم سماع ابن أبى ليلى من ابن عكيم محتجاً بما رواه أبو داود عنه أنه : انطلق وناس معه إلى عبد الله بن عكيم قال : فدخلوا وقعدت على الباب فخرجوا إلىَّ فأخبرونى . . قال : فهذا يقتضى أن فى السند من لم يسمّ ، ولكن صح تصريح عبد الرحمن بن أبى ليلى بسماعه من ابن عكيم فلا أثر لهذه العلة .

فتراه بعد أن يسلِّم بأن فى السند من لم يسم . صرح بأنه لا أثر لهذه العلة وهؤلاء الذين قال ابن أبى ليلى بأنه سمعه عنهم ، وأنهم ناس مجهولو العين

والحال ، لا تقبل روايتهم عند جماهير العلماء . والواقع أن فى الحديث جهالة من جهتين :

الأولى : فى سماع عبد الله بن عكيم من أشياخه .

الثانية : فى سماع عبد الرحمن بن أبى ليلى ممن دخلوا على عبد الله بن عكيم .

وعلى فرض عدم الانقطاع . فالحديث معلول بالإرسال ، وبالاضطراب وفى جهالة بعض رواته . وهو ماسكت عنه ابن الجوزى ، ولم يحاول إظهاره وتحقيقه كما فعل فى بعض أدلة الخصم التى نقدها . وهو ما نعيبه على مثله عندما يعرض لأحاديث الخلاف وتحقيقها ، ولعله لو فعل لما سلم لأصحابه قولهم : حديثنا متأخر وهو حاظر والحظر مقدم . ذلك أنه عند تقديم بعض أحاديث الحظر لابد أولا من تحقيق صحتها ورجحانها على أحاديث الإباحة . والأمر ها هنا بالعكس . فقد ذهب الجمهور إلى ترجيح أحاديث الطهارة لصحتها وتخريج الشيخين لبعضها .

والذى أميل إليه فى مثل هـذه : الجمع بينها ذلك أن حديث ابن عكيم يمكن أن يحمل على أن معناه « لا تنتفعوا من الميتة بإهاب . . ما دام غير مدبوغ فإذا دبغت يجوز الانتفاع بها » . لأن « الإهاب » اسم الجلد غير مدبوغ فإذا دبغ تغير ذاته ، واسمه ، أما تغير ذاته : فإنه يزول عنه تلك الرطوبة النجسة والنتن والفساد ، وأما تغير اسمه : فإنه يسمى بعد الدباغ أديما »(١) .

وكان القرطبى فوق أنه يناقش مناقشة علمية ، ويعرض حجة الفقهاء بدقة

(١) رسالة ابن الجوزى المحدث ص ٢٤٧ وما بعدها .

وأمانة وبلا التواء أو تعصب ، ويقف بجانب ما يراه حقا وصواباً . كان فوق هذا كله عفّ اللسان لم يتطاول على مخالفيه أو يجرحهم . وأشهد ما رأيت منه سوى هذا . في كل مجال ناقش فيه وجادل - وهذا مثال يتسم بذلك .

فقد ناقش القرطبي فيه كثيراً من العلماء في مجال اللغة بأسلوب رصين متزن .

في قوله تعالى « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى »[1] الآية : يقول في المسألة الثالثة عشرة « قوله تعالى » ذلك أدنى « ألا تعولوا » أي ذلك أقرب إلى ألا تميلوا عن الحق ، وتجوروا ، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . يقال : عال الرجل يعول إذا جار ومال . ومنه قولهم : عال السهم عن الهدف مال عنه . ثم نقل عن الشافعي أن معنى قوله تعالى « ألا تعولوا » ألا تكثر عيالكم ، وأن الثعلبي انتقد الشافعي فقال : وما قال هذا غيره وإنما يقال أعال يُعيل إذا كثر عياله . وانتقل إلى ماقاله ابن العربي فقال : وزعم ابن العربي أن عال على سبعة معانٍ لا ثامن لها يقال : عال : مال . الثاني : زاد . الثالث: جار ، الرابع : افتقر . الخامس : أثقل حكاه ابن دريد قالت الخنساء :

ويكفي العشيرة ما عالها

السادس : عال . قام بمئونة العيال ، ومنه قوله عليه السلام « وابدأ بمن تعول » .

السابع : عال غلب ومنه عيل صبره . أي غُلب . ويقال أعال الرجل

---

(١) آية ٣ من سورة النساء .

كثر عياله ، وأما عال بمعنى كثر عياله فلا يصح ، وابتدأ القرطبي يناقش هذه الأقوال فقال : « قلت أما قول الثعلبي » « ما قاله غيره » فقد أسنده الدارقطني في سننه عن زيد ابن أسلم ، وهو قول جابر بن زيد . فهذان إمامان من علماء المسلمين ، وأئمتهم قد سبقا الشافعي إليه ، وأما ما ذكره ابن العربي من الحصر وعدم الصحة . فلا يصح وقد ذكرنا عال الأمر اشتد وتفاقم . حكاه الجوهري . وقال الهروي في غريبه : وقال أبو بكر : يقال عال الرجل في الأرض يعيل فيها أي ضرب فيها . وقال الأحمر : يقال عالني الشيء يَعيلني عَيْلا ومَعِيلا إذا أعجزك ، وأما عال كثر عياله فذكره الكسائي وأبو عمرو الدوري وابن الأعرابي . قال الكسائي أبو الحسن علي بن حمزة : العرب تقول عال يعول ، وأعال يُعيل أي كثر عياله . وقال أبو حاتم : كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا ولعله لغة : قال الثعلبي المفسر : سألت أبا عمرو الدوري عن هذا وكان إماماً في اللغة غير مدافع فقال : هي لغة حِمير وأنشد :

وأن الموت يأخذ كل حي بلا شك وإن أمشى وعالا

يعني وإن كثرت ماشيته وعياله . وقال أبو عمر بن العلاء : لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيت أن آخذ على لاحن لحناً . وقرأ طلحة بن مصرف : « ألا تعيلوا » وهي حجة الشافعي رضي الله عنه . قال ابن عطية : وقدح الزجاج وغيره في تأويل عال من العيال بأن قال : إن الله تعالى قد أباح كثرة السراري وفي ذلك تكثير العيال . فكيف يكون أقربَ إلى ألا يكثر العيال ؟ وهذا القدح غير صحيح ، لأن السراري إنما هي مال يتصرف فيه بالبيع ، وإنما القادح الحرائر ذوات الحقوق الواجبة . وحكى ابن الأعرابي أن العرب تقول : عال الرجل إذا كثر عياله[1] .

---

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢١ وما بعدها .

ولقد كان ابن العربى يقسو فى أحيان كثيرة على من خالف مذهبه ، ويحمل عليهم فكان القرطبي يرد عن العلماء هذه الحملات ويبين أن هذا المسلك لا يليق بالعلماء . وفى الكتاب شواهد كثيرة تؤيد ذلك .

ففى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » (١) الآية . . يقول فى المسألة الثالثة :

قال ابن العربى : اعتقد قوم من الغافلين تحريم أسئلة النوازل حتى تقع ، تعلقاً بهذه الآية وليس كذلك لأن هذه الآية مصرحة بأن السؤال المنهىّ عنه إنما كان فيما تقع المساءة فى جوابه . ولا مساءة فى جواب نوازل الوقت فافترقا » ورغم أن القرطبي وافق ابن العربى فى رأيه . فإنه رد عليه قسوة هذا التعبير فقال : « قلت : قوله : اعتقد قوم من الغافلين فيه قبح ، وإنما كان الأولى به أن يقول : ذهب قوم إلى تحريم أسئلة النوازل . لكنه جرى على عادته »(٢) .

ثم بدأ القرطبي بعد أن انتقد هجوم ابن العربى . يصحح ما ذهب إليه .

فالقرطبي وإن ارتضى مذهب ابن العربى ورأيه إلا أنه لم يرتض هجومه وتطاوله فانتقده ورد عن العلماء هذا التطاول .

وفى قوله تعالى « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً »(٣) يبين القرطبي لابن العربى . كيف تكون المناقشة وكيف تبنى على الإقناع لا على الثورة والغضب ؟ ولا يمنعنى أن أذكر هذه المناقشة العلمية الرائعة إلا خوف التطويل فمن أرادها فليراجعها(٤) .

---

(١) آية ١٠١ من سورة المائدة .
(٢) تفسير القرطبي .
(٣) آية ٦٧ من سورة النحل .
(٤) انظر القرطبي ج ١٠ ص ١٢٩ وما بعدها .

الفصل الثامن

أصول الفقه فى تفسير القرطبى

لقد تعرض القرطبي لأصول الفقه فى تفسيره فذكر كثيراً من أدلته وقواعده وبين أثناء عرضه للأحكام كيف تبنى الفروع عليها ، وفى بعض الأحيان كان يتطرق إلى مادار من خلافات بين المذاهب حول هذه القواعد والأدلة ، والقرطبي وإن لم يتوسع فى كل هذا التوسع المذكور فى كتب الأصول فإن المقام يضيق عن ذكر كل ما جاء به . وسنقف على بعض ما عرضه من أصول الفقه فيما يأتى :

النص والظاهر :

قد يكون الدليل من قبيل النص وقد يكون من قبيل الظاهر ، وكل منهما طريق معترف به فى استنباط الأحكام . ولقد فرق أكثرية علماء الأصول بين النص والظاهر فقالوا : إن النص ما لايحتمل التأويل ، أو هو الذى لا يقبل احتمالا فيما يدل عليه . والظاهر ما يحتمل التأويل ، أو يقبل احتمالا فيما يدل عليه ولهذا فمن المقرر ، أن النص والظاهر ليسا مرتبة واحدة فى الدلالة على الحكم . فالنص أقوى فى الدلالة من الظاهر . فإذا تعارضا ، قـــدم النص على الظاهر .

ونرى القرطبي أثناء عرضه لبعض الأحكام يبرز كل ذلك ليتعرف الأدلة التى بنى عليها الفقهاء مذاهبهم وأحكامهم ، ويشير إلى أنها من قبيل النص ،

أو من قبيل الظاهر . ثم نراه يرجح الأدلة التى هى من قبيل النص لأن دلالة النص على الأحكام أقوى من دلالة الظاهر .

فى قوله تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام[1] » يقول القرطبي فى المسألة الثالثة :

من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع . فقد أكله بالباطل ، ومن الأكل بالباطل أن يقضى القاضى لك ، وأنت تعلم أنك مبطل . فالحرام لا يصير حلالا بقضاء القاضى . لأنه إنما يقضى بالظاهر ، وهذا إجماع فى الأموال ، وإن كان عند أبى حنيفة قضاؤه ينفذ فى الفروج باطنا ، وإذا كان قضاء القاضى لا يغير حكم الباطن فى الأموال فهو فى الفروج أولى ، وروى الأئمة عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو مما أسمع فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار » فى رواية « فليحملها أو يذرها » [2] وعلى القول بهذا الحديث جمهور العلماء وأئمة الفقهاء . ثم قال القرطبي : « وهو نص فى أن حكم الحاكم على الظاهر لا يغير حكم الباطن ، وسواء كان ذلك فى الأموال والدماء والفروج : إلا ما حكى عن أبى حنيفة فى الفروج (عنده أن قضاء القاضى ينفذ فى الفروج باطنا بمعنى أنه لو شهد رجلان بطلاق رجل لزوجته وحكم القاضى بشهادتهما فإن فرجها يحل لأحد الشهود ممن يعلم أن القضية باطل) وزعم أنه لو شهد شاهدا زور على رجل بطلاق زوجته ، وحكم الحاكم بشهادتهما لعدالتهما عنده . فإن فرجها يحل لمتزوجها — ممن يعلم أن القضية باطل —

---

(١) آية ١٨٨ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الأقضية ج ١٢ ص ٤ :

بعد المدة ، وكذلك لو تزوجها أحد الشاهدين جاز عنده ، لأنه لما حلت للأزواج فى الظاهر كان الشاهد وغيره سواء . لأن قضاء القاضى قطع عصمتها ، وأحدث فى ذلك التحليل والتحريم فى الظاهر والباطن جميعاً ، ولولا ذلك ما حلت للأزواج ، واحتج بحكم اللعان وقال : معلوم أن الزوجة إنما وصلت إلى فراق زوجها باللعان الكاذب الذى لو علم الحاكم كذبها فيه ، لحدها ، وما فرق بينهما . فلم يدخل هذا فى عموم قوله عليه السلام « فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه » الحديث(١) .

فالقرطبي قد بين أن الدليل الذى استدل به الجمهور على أن حكم الحاكم على الظاهر لا يغير حكم الباطن ، من قبيل النص ، أى لا يحتمل تأويلا ، ولا يصح أن يعارض بدليل آخر . ولهذا رجح ماذهب إليه الجمهور على ماذهب إليه أبو حنيفة كما يفهم من كلامه .

وفى قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا »(٢) رد على الحنفية مذهبهم فى النبيذ ، وبين أن مادل على تحريمه من قبيل النص فلا يعارض . يقول القرطبي فى المسألة الأولى :

« قال ابن عباس والبراء بن عازب وأنس بن مالك : إنه لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة : كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر ؟ — ونحو هذا — فنزلت الآية . روى البخارى عن أنس قال : كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة فنزل تحريم الخمر فأمر — أى النبى ﷺ — مناديا ينادى فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هذا الصوت ، قال فخرجت فقلت هذا

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٣٨ وما بعدها .

(٢) آية ٩٣ من سورة المائدة .

مناد ينادى : ألا إن الخمر قد حرمت . فقال اذهب فأهرقها . وكان الخمر من الفضيخ[1] — قال : فجرت فى سكك المدينة . فقال بعض القوم : قتل قوم وهى فى بطونهم فانزل الله عز وجل « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » الآية . ثم قال فى المسألة الثالثة « هذا الحديث فى نزول الآية فيه دليل واضح : على أن نبيذ التمر إذا أسكر خمر ، وهو نص لا يجوز الاعتراض عليه . لأن الصحابة رحمهم الله هم أهل اللسان ، وقد عقلوا أن شرابهم ذلك خمر . إذ لم يكن لهم شراب ذلك الوقت بالمدينة غيره » وقد قال الحكمى :

لنا خمر وليست خمر كرم ولكن من نتاج الباسقات
كرام فى السماء ذهبن طولا وفات ثمارها أيدى الجناة

ومن الدليل الواضح على ذلك ما رواه النسائى : أخبرنا القاسم بن زكريا أخبرنا عبيد الله عن شيبان عن الأعمش عن محارب بن دثار عن جابر عن النبى ﷺ قال « الزبيب والتمر هو الخمر »[2] . وثبت بالنقل الصحيح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه — وحسبك به عالما باللسان والشرع — خطب على منبر النبى ﷺ فقال: يا أيها الناس ألا إنه قد نزل تحريم الخمر يوم نزل وهى من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير . والخمر ما خامر العقل[3] . وهذا أبين ما يكون فى معنى الخمر ، يخطب به عمر بالمدينة على المنبر بمحضر جماعة

---

(١) الفضيخ شراب يتخذ من البسر المفضوخ وحده من غير أن تمسه النار ، والمفضوخ المشدوخ . والحديث أخرجه البخارى فى كتب الأشربة ج ٣ ص ٢١٣ .

(٢) أخرجه النسائى فى كتاب الأشربة ج ٨ ص ٢٨٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الأشربة ج ٣ ص ٢١٣ .

من الصحابة ، وهم أهل اللسان ، ولم يفهموا من الخمر إلا ما ذكرناه . ثم قال : وإذا ثبت هذا بطل مذهب أبى حنيفة والكوفيين القائلين بأن الخمر لا تكون إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خمرا ، ولا يتناوله اسم الخمر وإنما يسمى نبيذا وقال الشاعر :

تركت النبيذ لأهل النبيذ   وصرت حليفا لمن عابه
شراب يدنس عرض الفتى   ويفتح للشر أبوابه[1]

وفى قوله تعالى « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم » بعد أن بين القرطبي أن العلماء أجمعوا على التمتع المراد بقوله تعالى « فمن تمتع بالعمرة إلى الحج » هو أن يحرم الرجل بعمرة فى أشهر الحج . وبعد فراغه من أعمالها يحرم بالحج ، وأن عليه فى تلك الحالة هديا . فإن لم يجد صام ثلاثة أيام اختلف العلماء فى مبدئها فقيل : له أن يصوم من وقت إحرامه بالحج إلى يوم النحر . وقيل : غير هذا . وسبعة أيام إذا رجع إلى بلده وهذا مذهب مالك والشافعى . بعد هذا كله عرض القرطبي فى المسألة الخامسة آراء كثير من العلماء مكان صوم هذه الأيام السبعة فقال :

« قال قتادة والربيع : هذه رخصة من الله تعالى فلا يجب على أحد صوم السبعة إلا إذا وصل إلى وطنه . إلا أن يتشدد أحد كما يفعل من يصوم فى السفر فى رمضان . وقال أحمد وإسحاق : يجزيه الصوم فى الطريق . وروى عن مجاهد وعطاء . قال مجاهد : فإن شاء صامها فى الطريق ، إنما هى رخصة . وكذلك قال

---

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٩٣ ومابعدها .

عكرمة والحسن . والتقدير عند بعض أهل اللغة : إذا رجعتم من الحج أى إذا رجعتم إلى ما كنتم عليه قبل الإحرام من الحل ... وقال ابن العربى : « إن كان تخفيفا ورخصة فيجوز تقديم الرخص وترك الرفق فيها إلى العزيمة إجماعاً ، وإن كان ذلك توقيتاً فليس فيه نص ولا ظاهر أنه أراد البلاد وأنها المراد فى الأغلب » . وناقش القرطبي ابن العربى وبين له أن هناك دليلا من قبيل الظاهر يدل على أن المراد البلاد فقال : « قلت : بل فيه ظاهر يقرب إلى النص يبينه ما رواه مسلم عن ابن عمر قال : تمتع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع (١) بالعمرة إلى الحج وأهدى . فساق معه الهدى من ذى الحليفة ، وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج ، وتمتع الناس مع رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج . فكان من الناس من أهدى فساق الهدى ، ومنهم من لم يهد . فلما قدم رسول الله ﷺ مكة ، قال للناس « من كان منكم أهدى فإنه لا يحل من شىء حرم منه حتى يقضى حجه . ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ثم ليهل بالحج وليهد . فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله » الحديث . وهذا كالنص فى أنه لا يجوز صوم السبعة الأيام إلا فى أهله وبلده والله أعلم (٢) .

الدلالات :

قسم العلماء دلالات الألفاظ إلى اقسام كثيرة منها :

دلالة العبارة : وهى ما يدل عليه اللفظ بعبارته . فإذا قال الله تعالى

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الحج ، باب وجوب الدم على المتمتع ج٦ ص ٢٠٨ .

(٢) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٤١٠ وما بعدها آية ٢٣٢ من سورة البقرة .

« فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » فإن عبارة النص تفيد أن شهادة الزور جريمة يستحق صاحبها العقاب الشديد . وإذا قال الرسول ﷺ « إن من أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور » فإن هـــذا الحديث يفهم منه أيضاً بدلالة العبارة مقدار إثم شهادة الزور (١) .

ودلالة العبارة من أقوى الدلالات فى استنباط الأحكام . ونرى القرطبي فى آيات كثيرة يبرز دلالة العبارة فيقول : هذه الآية تدل على كذا ويؤخذ منها كذا . ومن أمثلة ذلك ما ذكره فى قوله تعالى « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن » فقد قال فى المسألة الثامنة : « الرزق فى هـــذا الحكم . الطعام الكافى ، وفى هذا دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد . لضعفه وعجزه وسماه الله سبحانه للأم لأن الغذاء يصل إليه بواسطتها فى الرضاع كما قال « وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن » لأن الغذاء لا يصل إلا بسببها ، وأجمع العلماء على أن على المرء نفقة ولده الأطفال الذين لا مال لهم . وقال ﷺ لهند بنت عتبة وقد قالت له : إن أبا سفيان رجل شحيح وأنه لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني إلا ما أخذت من ماله بغير علمه فهل على فى ذلك جناح؟ فقال « خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف »(٢) .

دلالة الإشارة : وهى ما يدل عليه اللفظ بغير عبارته ، ولكنه يجيء

---

(١) انظر الاصول لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة ص١٣٣ ، وأصول الفقه المرحوم الشيخ محمد الخضرى ص ١٢١ .

(٢) أخرجه مسلم عن عائشة فى كتاب الأقضية ج ١٢ ص ٧ .

نتيجة لهذه العبارة ، فهو يفهم من الكلام ولكنه لا يستفاد من العبارة ذاتها .
ومثال ذلك قوله تعالى فى سياق إباحة تعدد الزوجات « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فإن مايفهم من هذا النص بدلالة العبارة ، أن الإنسان لا يحل له دينيا لا قضائيا أن يتزوج أكثر من واحدة . إذا تأكد أنه لا يعدل بين أزواجه ، ويفهم منه بالإشارة أن العدل مع الزوجة واجب سواء كان متزوجاً واحدة أم كان متزوجاً أكثر من واحدة ، وأن ظلم الزوجة حرام[١] .

ودلالة الإشارة حجة عند الفقهاء يؤخذ بها استنباط الأحكام .

ولقد أشار القرطبى إلى هذه الدلالة أثناء حديثه عن الأحكام الفقهية فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » فقد علق فى المسألة الثامنة والثلاثين على قوله تعالى « ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا » فقال : قلت : وقد يستلوح من هذه الآية دليل على أن جائزاً للإمام أن يقيم للناس شهوداً ، ويجعل لهم من بيت المال كفايتهم . فلا يكون لهم شغل إلا تحمل حقوق الناس حفظاً لها ، وإن لم يكن ذلك ضاعت الحقوق وبطلت . فيكون المعنى : ولا يأب الشهداء إذا أخذوا حقوقهم أن يجيبوا والله أعلم . فإن قيل : هذه شهادة بالأجرة . قلنا : إنما هى شهادة خالصة من قوم استوفوا حقوقهم من بيت المال وذلك كأرزاق القضاة والولاة وجميع المصالح التى تعن للمسلمين وهذا من جملتها والله أعلم . وقد قال تعالى « والعاملين عليها » ففرض لهم[٢] .

فحوى الخطاب : وهى إثبات حكم المنطوق به للمسكوت عنه بطريق

---

(١) الأصول للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٢٣ .

(٢) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٣٨٩ آية ٢٨٢ من سورة البقرة .

الأولى . وكان المالكية يأخذون بها ويعتبرونها حجة . أما غير المالكية فقد اختلفوا فيها فبعضهم قد اعتبرها طريقاً من طرق معرفة الأحكام وبعضهم قد رفض ذلك . وترى القرطبي يأخذ بها وينتصر للمالكية ومن وافقهم ويستدل ببعض الآيات على صحة العمل بها . ففي قوله تعالى « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً » يقول في المسألة الثانية : « أخبر تعالى أن في أهل الكتاب الخائن والأمين ، والمؤمنون لا يميزون ذلك فينبغي اجتناب جميعهم ، وخص أهل الكتاب بالذكر وإن كان المؤمنون كذلك ، لأن الخيانة فيهم أكثر فخرج الكلام على الغالب . . ثم قال ومن حفظ الكثير وأداه فالقليل أولى ، ومن خان في اليسير أو منعه ، فذلك في الكثير أكثر ، وهذا أدل دليل على القول بمفهوم الخطاب . وفيه بين العلماء خلاف كثير مذكور في أصول الفقه »[1] .

ولقد قسم الأصوليون دلالة فحوى الخطاب إلى قسمين :

أحدهما : إثبات الحكم في الأكثر إذا ثبت في الأقل . لأن الكثرة تزيد الحكم قوة . ثانيهما : إثبات الحكم في الأقل ، لأن القلة تقتضي قوة في الحكم لا تكون في الكثرة ، والآية التي معنا تصلح للقسمين ، ولعل قول القرطبي يوضح ذلك . فقد قال مشيراً إلى القسم الأول : ومن حفظ الكثير وأداه فالقليل أولى ، وقال مشيراً إلى القسم الثاني : ومن خان في اليسير أو منعه فذلك في الكثير أكثر .

ويعلق أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة على هذه الآية وهو يتحدث عن

---

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١١٦ آية ٧٥ من سورة آل عمران .

لحوى الخطاب فيقول « وهذا المثال يشمل النوعين ، لأن القسم الأول من الآية الكريمة يثبت حكم الأكثر فى الأقل بالأولى ، والقسم الثانى منها اعتبر النفى الأكثر لأنه نفى الأقل إذ من لا يؤتمن على دينار بالأولى لا يؤتمن على قنطار »(١) .

مفهوم المخالفة : وهى : إثبات نقيض حكم المنطوق به للمسكوت عنه . كقوله ﷺ « فى سائمة الغنم الزكاة » فهذا يدل بمنطوقه ، على وجوب الزكاة فى الغنم السائمة ، وبمفهومه على أن الزكاة لا تجب فى غير السائمة . ولم يأخذ الحنفية بمفهوم المخالفة كطريق من طرق فهم الأحكام . على عكس المالكية الذين أخذوا به فى ذلك ويسمى عندهم « دليل الخطاب »(٢) .

ولقد رد القرطبي على من أنكر القول بمفهوم المخالفة أو بدليل الخطاب مستدلا بقوله تعالى « وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » . فقال : « لا حجة فى هذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب وهم الكوفيون ومن وافقهم . لأن المقصود من الكلام : النهى عن الكفر أولا وآخراً ، وخُص الأول بالذكر ، لأن التقدم فيه أغلظ . فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحداً وهذا واضح »(٣) .

وينقسم مفهوم المخالفة إلى أقسام كثيرة باعتبار القيد الذى يقيد الكلام فإن أساس مفهوم المخالفة أن يكون الكلام مقيداً بقيد ، فيثبت الحكم فى الحال التى اشتمل عليه القيد بمنطوقه ، ويثبت النقيض فى الحال التى خلت

---

(١) مالك ص ٣٠٠ .
(٢) راجع الأصول ، ومالك للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٣٩ ، ٢٧٠ .
(٣) تفسير القرطبى ج ١ ص ٣٣٤ آية ٤٢ من سورة البقرة .

من القيد بمفهومه . ومن القيود قيد الصفة . فمن أقسام مفهوم المخالفة مفهوم الصفة نحو الحديث السابق فى الزكاة[1] .

ومفهوم الصفة حجة عند المالكية والشافعية ، وطريق من طرق استنباط الأحكام عندهم . ولقد بين القرطبي كيف بُنِى عليه بعض الأحكام فقال فى قوله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » : قوله تعالى : « المؤمنات » بيّن بهذا أنه لا يجوز التزوج بالأمة الكتابية . فهذه الصفة مشترطة عند مالك وأصحابه ، والشافعي وأصحابه ، والثورى والأوزاعى والحسن البصرى والزهرى ومكحول ومجاهد . وقالت طائفة من أهل العلم منهم أصحاب الرأى : نكاح الأمــة الكتابية جائز . قال أبو عمر : ولا أعلم لهم سلفاً فى قولهم إلا أبا مَيْسرة عمرو بن شرحبيل فإنه قال : إماء أهل الكتاب بمنزلة الحرائر منهن قالوا : وقوله « المؤمنات » على جهة الوصف الفاضل ، وليس بشرط ألا يجوز غيرها ، وهذا بمنزلة قوله تعالى « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فإن خاف ألا يعدل فتزوج أكثر من واحدة جاز ، ولكن الأفضل ألا يتزوج إلا مؤمنة : ولو تزوج غير المؤمنة جاز ، واحتجوا بالقياس على الحرائر ، وذلك أنه لما لم يمنع قوله « المؤمنات » فى الحرائر ، من نكاح الكتابيات فكذلك لا يمنع قوله « المؤمنات » فى الإماء من نكاح إماء الكتابيات . وقال أشهب فى المدونة : جائز للعبد المسلم أن يتزوج أمة كتابية . فالمنع عنده أن يفضل الزوج فى الحرية والدين معاً »[2] .

---

(١) مالك ص ٢٩٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٤٠ آية ٢٥ من سورة النساء .

ولقد عرّف الأصوليون مفهوم الوصف فقالوا « هو أن يثبت الحكم في المنطوق المقيد بوصف وأن يثبت النقيض إذا تخلف الوصف ، فالآية قد قيّدت حِل الإماء بأن تكون مؤمنات فلا تحل الإماء غير المؤمنات . وبهذا النظر أخذ مالك والشافعي وبعض الفقهاء[1] . واشترط المالكية للأخذ بمفهوم الصفة : ألا تخرج الصفة مخرج الغالب والعادة كقوله تعالى في آية تحريم النساء « وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » فترى هنا صفتين إحداهما : ذكرت على مجرى العادة والغالب فذكرها لا يدل على إثبات نقيض الحكم عند عدمها وهو الحل وهو وصفهن بكونهن في الحجور . والأخرى : لم تكن على هذا النحو فذكرها يُثبت نقيض الحكم وهو الحل عند عدمها ، وهو كون الأمهات قد دخلتم بهن . ولقد أشار القرطبي إلى هذا الشرط في الأخذ بمفهوم الصفة ، وناقش الظاهرية على ضوئه فقال في قوله تعالى « وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » : « الربيبة بنت امرأة الرجل من غيره سميت بذلك لأنه يربيها في حجره . فهي مربوبة . فعيلة بمعنى مفعولة ، واتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم . وإن لم تكن الربيبة في حجره . وشذ بعض المتقدمين وأهل الظاهر فقالوا لا تحرم عليه الربيبة إلا أن تكون في حجر المتزوج بأمها . فلو كانت في بلد آخر وفارق الأم بعد الدخول . فله أن يتزوج بها واحتجوا بالآية فقالوا : حرّم الله تعالى الربيبة بشرطين أحدهما : أن تكون في حجر المتزوج بأمها ، والثاني : الدخول بالأم . فإذا عدم أحد الشرطين لم يوجد التحريم ، ثم قال القرطبي في رد هذا : قال الطحاوي : وإضافتهن إلى

---

(١) راجع الأصول للشيخ أبو زهرة ص ١٤٦ .

الحجور إنما ذلك على الاغلب مما يكون عليه الربائب ؛ لانهن لا يحرمن إذا لم يكنّ كذلك »(١) .

العام والخاص

يعرف « القرافى » وهو من علماء المالكية اللفظ العام بأنه الموضوع لمعنى كلّيّ بحيث يشمل الحكم كل آحاده . فكل ما ينطلق عليه اسم العام يكون داخلا فى عموم الحكم الذى أسند إليه . فإذا قلت الإنسان البالغ مكلف بالصلاة والزكاة والحج : فكل ما ينطبق عليه اسم الإنسان داخل فى هذا الحكم ، واذا قال الشارع : السارق تقطع يده فكل من يتحقق فيه الوصف وهو السرقة يستحق ذلك الحكم . وهكذا فالعام يدل على قدر مشترك يتحقق فى كل آحاده فينطبق عليه اللفظ ، وينطبق بمقتضاه الحكم ، واذا كان اللفظ لا يُطلب فيه الحكم للقدر المشترك . بل يُطلب فيه البعض فهو خاص كقوله تعالى « فتحرير رقبة مؤمنة » أو قوله تعالى « فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » فاللفظ خاص فيهما لانه لم يُطلب فيه كل ما يتحقق فيه هذا الوصف بل واحد منه . وان كان فى الأول مقيداً بوصف وكان فى الثانى مطلقاً عن القيد »(٢) .

ولقد اختلف العلماء فى تخصيص عام القرآن بالسنة وتضييق دائرة الخلاف أمام تخصيص النصوص العامة من القرآن ، بالأحاديث المتواترة والمشهورة ، فأغلبية العلماء تجيز ذلك . ومن أمثلة الأول تخصيص قوله تعالى « يوصيكم

---

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١١٢ .
(٢) مالك ص ٢٨٣ .

الله فى أولادكم » بقوله عليه الصلاة والسلام « القاتل لا يرث[١] » وبقوله ﷺ « لا يتوارث أهل القبلتين وأهل الملتين[٢] » ومن أمثلة الثانى تخصيص قوله تعالى «وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين» بقوله ﷺ « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا ابنة أختها إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم »[٣] .

وتتسع دائرة الخلاف حول تخصيص عام القرآن بأخبار الآحاد فمنع من ذلك الإمام أبو حنيفة لأن دلالة العام عنده قطعية لا تحتاج إلى بيان فلا يجوز أن تخصص إلا بما هو فى درجتها ، وأخبار الآحاد ليست لها هذه القوة . أما الإمام مالك فإن دلالة العام عنده ظنية، ورغم هذا أجاز ذلك مرة ومنعه أخرى، ولقد استنبط المالكية من فقه الإمام مالك أنه كان لا يجيز تخصيص عام القرآن بأخبار الآحاد . إلا إذا رفع من شأنها وقواها قياس أو إجماع أو عمل أهل المدينة[٤] .

ولقد أشار القرطبي إلى اختلاف العلماء فى تخصيص الكتاب بالسنة

---

(١) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة وانتقد بعض رواته وهو إسحاق بن عبدالله وقال عنه قد تركه بعض أهل العلم منهم أحمد بن حنبل ويقول صاحب تحفة الاحوذى : أخرجه ابن ماجه والنسائى فى السنن الكبرى وقال : إسحاق متروك ثم بين أن العمل رغم هذا النقد عليه عند أهل العلم انظر تحفة الأحوذى ٦ ص ٢٩٠ .

(٢) أخرجه الترمذى عن جابر وانظر شرح تنقيح الفصول للقرافى ت/٦٨٤ ص٩٢ .

(٣) الاصول للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٥٣ والحديث أخرجه البخارى فى كتاب النكاح عن أبى هريرة ج ٣ ص ١٦٠ .

(٤) انظر مالك ص ٣٠٨ والاصول ص ١٥٢ وانظر شرح تنقيح الفصول ص ٩٣ .

إشارة عابرة فى قوله تعالى « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »(١) الآية وبين أنه لا يجوز تخصيص الكتاب بحديث ضعيف باتفاق العلماء ، ثم أشار إلى أن الآية قد دخلها التخصيص ببعض الأحاديث فقال فى المسألة الخامسة « وقد اختلف الناس فى تخصيص كتاب الله تعالى بالسنة ، ومع اختلافهم فى ذلك اتفقوا على أنه لا يجوز تخصيصه بحديث ضعيف قاله ابن العربى ، وقد يستدل على تخصيص هذه الآية أيضاً بما فى صحيح مسلم من حديث عبد الله ابن أبى أوفى قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه(٢) » وظاهره أكله كيف ما مات بعلاج . أو حتف أنفه - وبهذا قال ابن نافع وابن عبد الحكم وأكثر العلماء وهو مذهب الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما . ومنع مالك وجمهور أصحابه من أكله إن مات حتف أنفه . لأنه من صيد البر ألا ترى أن المحرم يجزيه إذا قتله فأشبه الغزال . وقال أشهب : إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل ، لأنها حالة قد يعيش بها وينسل(٣) .

وفى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى يقول فى المسألة السابعة » : والجمهور أيضاً على أنه « لا يقتل مسلم بكافر »(٤) أخرجه البخارى عن على بن أبى طالب ولا يصح لهم — أى المخالفين — ما رووه من حديث ربيعة أن النبي ﷺ قتل يوم خيبر مسلما بكافر ، لأنه منقطع ومن حديث ابن البيلمانى وهو ضعيف عن ابن عمر عن النبي ﷺ مرفوعا قال الدار قطنى : « لم يسنده غير إبراهيم بن أبى يحيى وهو متروك الحديث

---

(١) آية ١٣٧ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الصيد والذبائح ح ١٣ ص ١٠٣ .

(٣) تفسير القرطبى ح ٢ ص ٢١٧ .

(٤) أخرجه البخارى عن على رضى الله عنه ج ٤ ص ١٣١ .

والصواب عن ربيعة عن ابن البيلمانى مرسل عن النبى ﷺ ، وابن البيلمانى ضعيف الحديث لاتقوم به حجة إذا وصل الحديث فكيف بما يرسله » .

قلت — والقائل القرطبى — فلا يصح فى الباب إلا حديث البخارى وهو يخصص عموم قوله تعالى « كتب عليكم القصاص فى القتلى » الآية وعموم قوله « النفس بالنفس »(١) .

ويبدو أن القرطبى كان يميل إلى تخصيص عام القرآن بأخبار الآحاد مطلقا مثل الشافعية وكثير من المالكية ويؤيد هذا ما ذكره فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » فقد قال فى المسألة الرابعة : قوله تعالى « إلا ما يتلى عليكم » أى يقرأ عليكم فى القرآن والسنة من قوله تعالى « حرمت عليكم الميتة » وقوله عليه الصلاة والسلام « وكل ذى ناب من السباع حرام » ثم قال « فإن قيل الذى يتلى علينا الكتاب ليست سنة . قلنا : كل سنة لرسول الله ﷺ فهى من كتاب الله . فعمم القرطبى كل ما نقل عن رسول الله ﷺ ولم يستثن أخبار الآحاد ، وبين أن كل ما نقل فهو من كتاب الله . ثم قال والدليل عليه أمران أحدهما : حديث العسيف « لأقضين بينكما بكتاب الله »(٣) والرجم ليس منصوصاً بكتاب الله . الثانى: حديث ابن مسعود « ومالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو فى كتاب الله »(٤) . الحديث . على أن استاذنا الشيخ محمد أبو زهرة قد علق

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢٤٧ آية ١٧٨ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه مسلم عن ابى هريرة ج ١٣ ص ٨٣

(٣) حديث العسيف أخرجه البخارى عن ابى هريرة ج ٤ ص ١١٠

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب اللباس ج ١٤ ص ١٠٥ .

على حديث الرجم بأنه حديث آحاد فقال وهو يتحدث عن موقف الحنفية والشافعية حول تخصيص الكتاب بأحاديث الآحاد . وإذا كانت دلالة العام فى القرآن قطعية — أى عند الحنفية — فأحاديث الآحاد لا تخصص عام الكتاب ... وقد خالف فى ذلك الشافعى ومن تبعه فإنهم يخصصون عام القرآن ، بالأحاديث ويضربون لذلك مثلا بقوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » فإنها بحلولها عام تشمل المحصنة وغير المحصنه . ولكنها خصصت بغير المحصن ، وخصصها حديث الرجم وهو خبر آحاد وليس بحديث عامة — أى ليس متواترا — »(١) .

وإذا كانت الآيات العامة فى القرآن تخصص بالأحاديث فإنها تخصص أيضاً بآيات أخرى وذلك مثل قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » فإنها قد خصصت بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها » وبقوله « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » ويسمى كل هذا مخصصا مستقلا. وذهب العلماء إلى أن عام القرآن يخصص أيضاً بمخصص متصل ، والمخصصات المتصلة كثيرة منها : الاستثناء نحو قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون .... إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ونحو قوله « ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً »(٢) .... وإذا جاء الاستثناء بعد جمل متعاطفة بالواو أو نحوها فهل ينصرف إلى الجملة الأخيرة وحدها أو إلى جميع الجمل وبعبارة أخرى هل يخصص الاستثناء الجملة الأخيرة أو جميع الجمل ؟ .

---

(١) أبو حنيفه للشيخ أبو زهرة ص٢٧٥ .
(٢) الاتقان للسيوطى ج ٢ ص ١٦ بتصرف .

اختلف العلماء فى ذلك فذهب قوم إلى أن الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة ، إلا إذا دل الدليل على خلاف ذلك وقال آخرون : يرجع إلى الجميع إلا أن يدل الدليل على خلاف ذلك . وقال قوم : يتوقف فى الجميع إلا أن يدل الدليل . ولكل فريق أدلة وحجج . فمن حجج المعممين أنهم قالوا : لا فرق بين أن يقول : عاقب من قتل وسرق وزنى إلا من تاب فى رجوع الاستثناء إلى الجميع ويجاب عن هذا الدليل بأن هذا قياس فى اللغة .

ومن حجج المخصصين بالجملة الأخيرة قولهم : إطلاق الكلام الأول معلوم ودخوله تحت الاستثناء مشكوك فيه ، فلا ينبغى أن يخرج منه ما دخل فيه إلا بيقين ، وهذا الكلام فاسد . لأنه غير مسلم إطلاق الأول قبل تمام الكلام ، وما تم الكلام حتى أردف باستثناء يرجع إليه عند المعمم ، ويحتمل الرجوع إليه عند المتوقف ... وقال أرباب الوقف : إذا بطل التعميم والتخصيص . لأن كل واحد منهما تحكم . فيجب التوقف لا محالة . قال الغزالى : وهذا هو الأحق ، وإن لم يكن بد فمذهب المعممين أولى ، لأن الواو ظاهرة فى العطف وذلك يوجب الاتحاد بين المعطوف والمعطوف عليه ، ومذهب المعممين هو المختار عندنا لأن المتبادر من الإطلاق فى عرف التخاطب ، فإذا دل دليل على غير ذلك يعمل به »(١) .

ولقد بين القرطبى موقف العلماء من الاستثناء ورجح التوقف ، ثم عاد فرجح موقف المعممين ، لأن كثيراً من القرائن تشهد له ، وذكر القرطبى كل هذا فى قوله تعالى « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم

---

(١) أصول الفقه للمرحوم ، الشيخ محمد الخضرى ص ١٩٨ وما بعدها بتصرف .

ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » يقول القرطبي فى المسألة الرابعة والعشرين : الاستثناء إذا تعقب جملا معطوفة عاد إلى جميعها عند مالك والشافعى وأصحابهما ، وعند أبى حنيفة وجل أصحابه ، يرجع الاستثناء إلى أقرب مذكور وهو الفسق . ولهذا تقبل شهادته ، فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة . وسبب الخلاف فى هذا الأصل سببان أحدهما : هل هذه الجمل فى حكم الجملة الواحدة للعطف الذى فيها أو لكل جملة حكم نفسها فى الاستقلال، وحرف العطف محسن لا مشرك ، وهو الصحيح فى عطف الجمل ، لجواز عطف الجمل المختلفة بعضها على بعض على ما يعرف من النحو . السبب الثانى : يشبه الاستثناء بالشرط[1] فى عوده إلى الجمل المتقدمة فإنه يعود إلى جميعها عند الفقهاء . أولا يشبه به لأنه من باب القياس فى اللغة وهو فاسد على ما يعرف فى أصول الفقه .

والسببان اللذان ذكرهما القرطبي — وهما على ما أعتقد من أدلة كل فريق — فمن قال إن الجمل فى حكم الجملة الواحدة للعطف الذى فيها عمَّم . ومن قال إن لكل جملة حكما مستقلا أعاد الاستثناء إلى الجملة الأخيرة . ومن قال إن الشرط يشبه الاستثناء أعاد الاستثناء إلى الجميع . ومن قال إن هذا قياس والقياس لا يجوز فى اللغة أرجعه إلى الجملة الأخيرة .

ثم بين القرطبي أن هذه الحجج محتملة ولا ترجيح لبعضها فالأسلم التوقف .

---

(١) اتفق الفقهاء على أنه لو قال قائل : والله لا أكلت ولا شربت إن شاء الله تعلق الشرط بالجملتين ، وإذا ألحق الاستثناء بالشرط كان قياساً فى اللغة وهو فاسد ويسمى الشرط استثناء تجوزا لأنه يقوم مقام « إلا » فى الإخراج ، انظر المصدر السابق وانظر شرح تنقيح الفصول ص ١٠٥ .

يقول القرطبي : « والأصل أن كل ذلك محتمل ولا ترجيح . فتعين ما قاله القاضي من الوقف ، ويتأيد الإشكال بأنه قد جاء في كتاب الله عز وجل كلا الامرين .. فإن آية المحاربة « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ... » إلخ فيها عود الضمير إلى الجميع باتفاق ، وآية قتل المؤمن خطأ « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ » فيها رد الاستثناء إلى الأخيرة باتفاق .. وآية القذف محتملة الوجهين ، فتعين الوقف من غير مين . قال علماؤنا : وهذا نظر كلىّ أصولىّ » ثم قال : « ويترجح قول مالك والشافعي رحمهما الله من جهة نظر الفقه الجزئي بأن يقال : الاستثناء راجع إلى الفسق والنهي عن قبول الشهادة جميعاً . إلا أن يفرق بين ذلك بخبر يجب التسليم له . وأجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الكفر فيجب أن يكون ما دون ذلك أولى والله أعلم . قال أبو عبيد : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة قال : وليس من نسب إلى الزنا بأعظم جرما من مرتكب الزنا . ثم الزاني إذا تاب قبلت شهادته لأن التائب من الذنب كمن لاذنب له . وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى ، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن منها قوله تعالى « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله — إلى قوله — إلا الذين تابوا » ولاشك أن هذا الاستثناء إلى الجميع . وقال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرما من الكافر ، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته ، قال وقوله « أبدا » أي ما دام قاذفا كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبداً فإن معناه ما دام كافرا . وقال الشعبي للمخالف في هذه المسألة : يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته ، ثم إن كان الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة عند أقوام من الاصوليين فقوله « وأولئك هم الفاسقون » تعليل لا جملة مستقلة بنفسها . أي لا تقبلوا شهادتهم لفسقهم . فإذا زال الفسق فلم لا تقبل شهادتهم ؟ . ثم توبة القاذف ، إكذابه

نفسه ، كما قال عمر لقذفة المغيرة بحضرة الصحابة من غير نكير مع إشاعة القضية وشهرتها من البصرة إلى الحجاز وغير ذلك من الأقطار ، ولو كان تأويل الآية ما تأوله الكوفيون لم يجز أن يذهب علم ذلك عن الصحابة ولقالوا لعمر : لا يجوز قبول توبة القاذف ، ولم يسعهم السكوت عن القضاء بتحريف تأويل الكتاب . فسقط قولهم والله المستعان »(١) .

تخصيص العام بالعرف والعادة :

العرف إما قولي وإما عملي . فالعرف القولي : أن يكون الناس قد تعارفوا إطلاق اللفظ العام على بعض أفراده كما تعارفوا إطلاق الدّابة على الحمار . ويُسمَّى هذا العرف : عادة المخاطبين في الاستعمال أو العادة القوليَّة . ولقد اتفق الأصوليون على جواز تخصيص النصوص العامة به . لأن الشارع إنما يخاطب الناس بما تعارفوه من الاطلاقات .

ولقد أبرز القرطبي ذلك وبين ما ذهب إليه الأصوليون . ففي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة » الآية، يقول في المسألة السابعة والعشرين : قوله تعالى « وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط » تقدم في النساء مستوفى ونزيد هنا مسألة أصولية أغفلناها هناك . وهي تخصيص العموم بالعادة الغالبة . فإن الغائط كناية عن الأحداث الخارجة من المخرجَيْن فهو عام . غير أن جُل علمائنا خصصوا ذلك بالأحداث المعتادة

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٨٠ وما بعدها آية ٤ ، ٥ من سورة النور . وحديث ما قاله عمر لقذفة المغيرة ورد في أسد الغابة ج ٤ ص ٤٠٧ أن المغيرة بن شعبة ولاه عمر البصرة ولم يزل عليها حتى شهد عليه بالزنى فعزله ثم ولاه الكوفة فلم يزل عليها حتى قتل عمر .

الخارجة على الوجه المعتاد . فلو خرج غير المعتاد كالحصى والدود ، أو خرج المعتاد على وجه السلس والمرض ، لم يكن شيء من ذلك ناقضا ، وإنما صاروا إلى اللفظ لأن اللفظ مهما تقرر لمدلوله عرف غالب فى الاستعمال ، سبق ذلك الغالب لفهم السامع حالة الإطلاق ، وصار غيره مما وضع له اللفظ بعيداً عن الذهن . فصار غير مدلول له وصار الحال فيه كالحال فى الدابة فإنها إذا أطلقت سبق فيها الذهن إلى ذوات الأربع ، ولم تخطر النملة ببال السامع . فصارت غير مرادة ولا مدلولة لذلك اللفظ ظاهرا . والمخالف يقول : لا يلزم من سبقية الغالب ، أن يكون النادر غير مراد فإن تناول اللفظ لهما واحد وضعا ، وذلك يدل على شعور المتكلم بهما قصداً . والأول أصح وتتمته فى كتب الأصول[1] » .

أما العرف العملى[2] فقد أجاز الامام مالك تخصيص العام به ومنع ذلك الجمهور . ولقد امتدح القرطبي وجهة نظر الامام مالك هذه ، ويبدو من كلام القرطبي أن أحداً من الأئمة لم يقل به ولم يفطن إليه . على عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين من القدامى والمحدثين[3] .

يقول القرطبي فى قوله تعالى « وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم » : قوله تعالى « وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم » أى لأولادكم غير الوالدة قاله الزجاج.

---

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٠٤ آية ٦ من سورة المائدة

(٢) معناه قصر اللفظ العام على ما جرت عادة المخاطبين الفعلية عليه وذلك كلفظ الطعام فانه علم فاذا جرت عادة بعض المخاطبين ألا يأكل إلا نوعاً معيناً ثم حلف ألا يأكل طعاماً فهل يحنث إذا أكل أى طعام أو لا يحنث إلا إذا أكل ما جرت عادته بأكله قال الجمهور : يحنث بأكل أى نوع من أنواع الطعام، وقال مالك: لا يحنث إلا إذا أكل ما جرت عادته بأكله انظر شرح تنقيح الفصول ص ٩٤ .

(٣) انظر الأصول للشيخ الخضرى ص ٢٠٣ وشرح تنقيح الفصول ص ٩٤ .

قال النحاس : التقدير فى العربية أن تسترضعوا أجنبية لأولادكم مثل « كالوهم أو وزنوهم » أى كالوا لهم أو وزنوا لهم . وحذفت اللام لأنه يتعدى إلى مفعولين أحدهما بحرف ، وأنشد سيبويه .

أمرتك الخيرَ فافعل ما أُمرت به   فقد تركتك ذا مال وذا نَشَب

ولا يجوز دعوت زيداً . أى دعوت لزيد . لأنه يؤدى إلى التلبيس فيعتبر فى هذا النوع ، السماع . ثم عقب القرطبى بقوله ؟ قلت : وعلى هذا يكون فى الآية دليل على جواز اتّخاذ الظئر ، إذا اتفق الآباء والأمهات على ذلك ، وقد قال عكرمة فى قوله تعالى « لا تضار والدة » معناه الظئر حكاه ابن عطية ، والأصل أن كل أم يلزمها رضاع ولدها كما أخبر الله عز وجل ، فأمر الزوجات بإرضاع أولادهن وأوجب لهن على الأزواج النفقة والكسوة . والزوجية قائمة . فلو كان الرضاع على الأب لذكره مع ما ذكره من رزقهن وكسوتهن . إلا أن مالكا رحمه الله دون فقهاء الأمصار استثنى الحَسيبة فقال : لا يلزمها رضاعة فأخرجها من الآية ، وخصصها بأصل من أصول الفقه وهو العمل بالعادة . وهذا أصل لم يتفطن له إلا مالك والأصل البديع فيه أن هذا أمر كان فى الجاهلية فى ذوى الحسب وجاء الإسلام فلم يغيره ، وتمادى ذوو الثروة والأحساب على تفريغ الأمهات للمتعة بدفع الرضعاء للمراضع إلى زمانه . فقال به ، وإلى زماننا فتحققنا ، شرعا[1] » .

صيغة الأمر ومذاهب العلماء فى حقيقتها :

إذا تجردت صيغة الأمر عن القرائن فهل تدل على طلب الفعل على جهة

---

(١) تفسير القرطبى ج ٣ ص ١٧٢ آية ٢٣٣ من سورة البقرة .

الوجوب أو الندب ؟ ذهب جمهور العلماء إلى أنها فى تلك الحالة تدل على طلب الفعل على جهة الوجوب . فالله تبارك وتعالى قد قال للملائكة « اسجدوا لآدم » فامتثلوا ، وأبى إبليس السجود . فقال الله له « ما منعك من ألا تسجد إذ أمرتك » ولم يأمر إلا بقوله « اسجدوا » وكذلك ذم الله قوماً بعدم امتثال ما أمروا به فقال « وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون » ولم يأمرهم إلا بقوله « اركعوا » وهو صيغة لا قرينة معها .

وذهب جماعة من العلماء إلى أنها فى تلك الحالة للندب . وهناك أقوال وراء أخرى لا داعى لتفصيلها . ويقول أستاذنا الشيخ محمد الخضرى مؤيداً رأى الجمهور « والذى يظهر لنا من استقراء الأدلة ، أن وضع صيغة « أفعل » إنما هو لطلب الفعل طلباً حتماً ، ويلزم من ذلك إذا كان للطلب سيادة على المطلوب منه ، أن يكون بالفعل مستحقاً للرضا والثواب ، وبالكف مستحقاً للملامة والعقاب . وهذا هو الذى يلزم أن يكون قاعدة لفهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لو فرضنا أن تأتى فيهما هذه الصيغة مجردة عن القرائن . فأما إن احتفت بالصيغة قرينة تبين المراد فقد خرجت عن موضوع النزاع بين الخصوم . وهـذا معظم ما ورد فى التشريع كما يدل عليه الاستقراء(١) .

ولقد أشار القرطبى إلى هذا عندما بين محل النزاع بين العلماء فى « المتعة » وذلك فى قوله تعالى « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » ورجح قول من قال بوجوب المتعة تمسكاً بمقتضى الامر ، ولغير ذلك من القرائن والأدلة فقال : قوله تعالى « ومتعوهن » معناه اعطوهن شيئاً يكون متاعاً

---

(١) انظر أصول الفقه للشيخ الخضرى ص ٢١٤ .

لهن . وحمله ابن عمر وعلى بن أبى طالب والحسن بن أبى الحسن وسعيد بن جبير وأبو قلابة والزهرى وقتادة والضحاك بن مزاحم — على الوجوب ، وحمله أبو عبيد ومالك بن أنس وأصحابه والقاضى شريح وغيرهم — على الندب . تمسك أهل القول الأول ، بمقتضى الامر ، وتمسك أهل القول الثانى ، بقوله تعالى « حقاً على المحسنين » « حقاً على المتقين » ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين . ثم قال : والقول الاول أولى . لأن عمومات الامر بالامتاع فى قوله « متعوهن » وإضافة الامتاع إليهن بلام التمليك فى قوله « وللمطلقات متاع » أظهر فى الوجوب منه فى الندب . وقوله « على المتقين » تأكيد لإيجابها لان كل واحد يجب عليه أن يتقى الله فى الاشراك به ومعاصيه . وقد قال تعالى فى القرآن « هدى للمتقين »[١] .

خبر الواحد :

ذهب أكثر العلماء من المحدثين والفقهاء والأصوليين، إلى أن خبر الواحد حجة يلزم العمل بها ومع هذا فهو لايفيد إلا الظن ولا يفيد اليقين ولا يقدح ذلك فى حجيته لأنه يعتمد على أصل قطعى وهو القرآن . فالله تبارك وتعالى أمرنا أن نتبع الرسول ﷺ فى كل ما جاء به يقول سبحانه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ويقول « من يطع الرسول فقد أطاع الله »[٢] .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٠٠ وانظر ماقاله فى قول الله « فافعلوا ما تؤمرون » ج ١ ص ٤٤٩ .

(٢) راجع مالك ص ٣١١ والموافقات للشاطبى ج ٢ ص ١٧ والحديث والمحدثون للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٦ .

ولقد هاجم الأمام الشافعى من ينكر الاحتجاج بخبر الواحد وناقشه فى رسالته مناقشة طويلة فليراجعها من أرادها[1] .

ولقد أشار القرطبي أثناء تفسيره لبعض الآيات إلى أن خبر الواحد حجة وأنه يلزم قبوله . ففى قوله تعالى « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » يقول فى المسألة الثامنة : وفيها — أى فى الآية — دليل على جواز القطع بخبر الواحد ، وذلك أن استقبال بيت المقدس كان مقطوعا به من الشريعة عندهم . ثم إن أهل قباء لما أتاهم الآتى وأخبرهم أن القبلة قد حولت إلى المسجد الحرام قبلوا قوله واستداروا نحو الكعبة [2] فتركوا المتواتر بخبر الواحد وهو مظنون . ثم بين القرطبي أن هناك من يمنع ذلك ، لأن المقطوع لا يرفع بالمظنون . أما قصة أهل قباء ، وما كان ﷺ ينفذه من الولاة ، فمحمول على قرائن تفيد العلم إما نقلا وتحقيقا وإما احتمالا وتقديرا . ثم قال أخيرا : « وتتميم هذا سؤالا وجواباً فى أصول الفقه »[3] .

وفى قوله تعالى « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى » يقول فى المسألة الثالثة : قوله تعالى « من البينات والهدى » فيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد ؛ لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله ، وقال « إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا » فحكم بوقوع البيان بخبرهم . فان قيل : إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منهيا عن الكتمان ومأمورا بالبيان ، ليكثر المخبرون ويتواتر بهم الخبر . قلنا : هذا غلط . لأنهم لم ينهوا عن الكتمان

---

(١) انظر الامام الشافعى ج ٧ ص ٢٥٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ج ٣ ص ٦٧ .

(٣) تفسير القرطبى ج ٢ ص ١٥١ آية ١٤٢ من سورة البقرة .

إلا وهم ممن يجوز عليهم التواطؤ عليه ، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتمان ، فلا يكون خبرهم موجبا للعلم والله تعالى أعلم (١) .

فتوى الصحابى :

نقل القرطبي كثيرا من فتاوى الصحابة وأقضيتهم أثناء عرضه للاحكام وكان من منهجه فى ذلك أنه يرد قول الصحابى إذا خالف الكتاب والسنة .

فى قوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس » يقول فى المسألة الرابعة :

« هذه الآية وما كان مثلها دليل على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة كان أو عبادة كالحج والجهاد . ثم استدل القرطبي لذلك من السنة ، بحديث أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء . الحديث(٢) ... ثم قال القرطبي « ففيه دليل واضح على ركوب البحر فى الجهاد للرجال والنساء وإذا جاز ركوبه للجهاد فركوبه للحج المفترض أولى وأوجب ، وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما . المنع من ركوبه ، والقرآن والسنة يرد هذا القول ، ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبى ﷺ الذين قالوا له : إنا نركب البحر ، وهذه الآية وما كان مثلها نص فى الغرض واليها المفزع . وقد تؤول ما روى عن العمرين فى ذلك ، بأن ذلك محمول على الاحتياط

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٨٥ آية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه بمعناه ج ٢ ص ١٥٥ .

وترك التغرير بالمهج فى طلب الدنيا والاستكثار منها . وأما فى أداء الفرائض فلا »(١) .

أما فتوى الصحابة إذا عارضها القياس . فقد اختلفت فيها أنظار العلماء وتباينت ، ولا داعى أن نخوض غمار هذا المعترك ، فلذلك بحوث مستقلة فى أصول الفقه (٢) . ويكفى أن نشير إلى أن القرطبى قد ذكر عن علماء المالكية أن أقوال الصحابة قد يحتج بها إذا خالفت القياس .

ففى قوله تعالى « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » يقول فى المسألة الحادية عشرة : « فإن تمادى به المرض فلم يصح حتى جاء رمضان آخر فروى الدار قطنى عن ابن عمر أنه يطعم مكان كل يوم مسكينا مدا من حنطة ثم ليس عليه قضاء . وروى أيضاً عن أبى هريرة أنه قال : إذا لم يصح بين الرمضانين ، صام عن هذا وأطعم عن الثانى ولا قضاء عليه . وإذا صح فلم يصم حتى أدركه رمضان آخر صام عن هذا وأطعم عن الماضى . فإذا أفطر قضاه . إسناد صحيح . ثم قال القرطبى : قال علماؤنا : وأقوال الصحابة على خلاف القياس قد يحتج بها » (٣) .

ورد الكيا الطبرى — وهو شافعى — ما ذكره القرطبى فقال : قوله تعالى « فعدة من أيام أخر » يدل على جواز التأخير من غير أن يتحدد بوقت وهو كالأمر المطلق الذى لايتقيد بوقت ويجوز مفرقا ومجموعا . والشافعى رأى تقييد

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ١٩٥ .

(٢) راجع أصول السرخسى للامام أبى بكر محمد بن أحمد بن أبى سهل السرخسى المتوفى سنة ٤٩٠ تحقيق أبو الوفا الافغانى ج ٢ ص ١٠٥ .

(٣) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢٨٣ آية ١٨٤ من سورة البقرة .

القضاء . بالسنة قبل دخول رمضان آخر : وقال : إذا دخل رمضان آخر فدى عن كل يوم بمد ، ورواه عن ابن عباس وابن عمر، فأما مارواه عن ابن عباس أن رجلا جاء إليه فقال مرضت رمضانين فقال ابن عباس : استمر بك المرض أو صححت فيما بينهما ؟ قال : بل صححت . قال : صم رمضانين وأطعم ستين مسكينا . وعن ابن عمر فى رجل فرط فى قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر قال : يصوم الذى أدركه ويطعم عن الأول كل يوم مدا من تمر ولا قضاء عليه. وهذا تشبيه مذهبه فى الحامل والمرضع أنهما يطعمان ولا قضاء عليهما . وأقوال الصحابة على خلاف القياس قد يحتج بها ، فقيل لهم: فالقضاء بعد الصوم الآخر مأخوذ من قوله تعالى « فعدة من أيام أخر » واللفظ قد تناول الأوقات فلا يجوز أن يكون قد أوجب القضاء على قوم والفدية على قوم آخرين . (معنى ذلك أن الفتوى التى تقول إنه لايصوم إلا رمضان الأخير ويطعم عن الأول تخالف القياس ثم إننا لانترك كتاب الله لفتوى يتوهم فيها توقيف) . بل يقتضى أن يكون الحكم فى الكل واحداً : وغاية قول الصحابى على خلاف القياس أن يتوهم فيه توقيف ، مع احتمال كون وجه احتجاجه بالتوقيف فاسداً وغلطا فظهور هذا من كتاب الله تعالى أولى بالاعتبار والاتباع[١] .

ولايهمنا أن نناقش الرأيين . وإنما يهمنا أن نقول : لعل الكيا الطبرى قد عرض وجهة نظر الشافعيين فى فتوى الصحابى ، إذا كانت على خلاف القياس كما عرض القرطبي وجهة نظر المالكية فى ذلك . ولا داعى أن نخوض المعترك بأكثر من هذا .

---

(١) أحكام القرآن للكيا الطبرى ورقه ٣٨ .

الاستحسان والمصلحة :

لقد اعتبر المالكية الاستحسان دليلا من الأدلة التي تستنبط بها الأحكام، وخالفهم في ذلك الشافعية، فلم يأخذوا به واعتبروه حكما بالهوى والتشهي، وفي ذلك يقول الإمام الشافعي « من استحسن فقد شرع » .

وإذا كان المالكية يأخذون بالاستحسان ويعتبرونه طريقا من طرق استنباط الأحكام فما حقيقته عندهم ؟ .

عرف بعض المالكيه الاستحسان بأنه : استعمال مصلحة جزئية في مقابل قياس كلي . وذكر أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة كثيراً من تعريفات الاستحسان عند المالكية في كتابه « مالك » وبين أن من هذه التعريفات ما يتفق مع تعريفات الحنفية للاستحسان . ثم بين أن تعريفات المالكية تتجه كلها إلى قصر الاستحسان على أمر واحد، وهو ترك مقتضى القياس لمصلحة في موضع معين — أي في مسألة جزئية — ويدخل في المصلحة رفع الحرج والتوسعة ودفع المشقة[1] .

وبهذا يتضح أن الاستحسان استثناء من القياس أو من القاعدة العامة، لأن اطراد القياس أو القاعدة يقتضي الوقوع في المشقة أو دفع مصلحة وجلب مفسدة ومثال ذلك : الاطلاع على عورات الناس للتداوي . فإن القياس تحريم رؤيتها ولكن استحسنت لدفع الضرر .

ولقد بين القرطبي أثناء شرحه لبعض الآيات أن الاستحسان لا يكون

---

(١) مالك ص ٢٧٩ .

حيث يكون هناك نص . ففي قوله تعالى « قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » يقول في المسألة الثالثة :

« في هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام ، وذلك موجود في كثير من السنة . وآكد الإشارات ما حكم به النبي ﷺ من أمر السوداء حين قال لها : أين الله ؟ فأشارت برأسها إلى السماء فقال : أعتقها فإنها مؤمنة . فأجاز الاسلام بالإشارة الذي هو أصل الديانة الذي يحرز الدم والمال وتستحق به الجنة وينجى به من النار ، وحكم بإيمانها كما حكم بنطق من يقول ذلك فيجب أن تكون الإشارة عاملة في سائر الديانة وهو قول عامة الفقهاء . وروى ابن القاسم عن مالك أن الأخرس إذا أشار بالطلاق : أنه يلزمه . وقال الشافعي في الرجل يمرض فيختل لسانه فهو كالأخرس في الرجعة والطلاق . وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف وإن شك فيها فهي باطل وليس ذلك بقياس وإنما هو استحسان . والقياس في هذا كله أنه باطل لأنه لا يتكلم ولا تعقل إشارته . ثم قال القرطبي : قال أبو الحسن بن بطال : وإنما حمل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السنن التي جاءت بجواز الإشارات في أحكام مختلفة في الديانة (١) .

والفرق بين الاستحسان والمصلحة المرسلة : أن المصلحة تكون حيث لا يكون هناك دليل سواها . أما الاستحسان فإنه يكون إذا أدى القياس إلى حرج أو مشقة . وعلى هذا فلفظ المصلحة مطلقا ، يشمل المصلحة المرسلة ، وذلك حيث لا يكون دليل سواها ، والاستحسان ، وذلك حيث يؤدي القياس إلى حرج أو مشقة أو دفع مصلحة وجلب مفسدة .

---

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٨٠ آية ٤١ من سورة آل عمران

ولقد اعتبر المالكية المصلحة أصلا قائما بذاته ، تبنى عليه بعض الفروع الفقهية واشترطوا ألا يعارضها نص .

ولقد أبرز القرطبي الاستدلال بالمصلحة في بعض الأحكام وناقش بها الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، وضعف ما ذهب إليه بواسطتها .

ففي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى » يقول في المسألة الثانية عشرة . « وقد استدل الإمام أحمد بن حنبل بهذه الآية على قوله : لا تُقتل الجماعة بالواحد قال : لأن الله سبحانه شرط المساواة ولا مساواة بين الجماعة والواحد . وقد قال تعالى « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين » والجواب أن المراد بالقصاص في الآية : قتل من قَتَل كائنا من كان ردا على العرب التي كانت تريد أن تقتل بمن قتل من لم يقتل وتقتل في مقابلة الواحد مائة ، افتخاراً واستظهاراً بالجاه والمقدرة فأمر الله سبحانه بالعدل والمساواة ، وذلك بأن يقتل من قتل . وقد قتل عمر رضى الله عنه سبعة برجل بصنعاء وقال : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعاً . وقتل على رضى الله عنه الحرورية(١) بعبد الله بن خباب فإنه توقف عن قتالهم حتى يحدثوا . فلما ذبحوا عبد الله بن خباب كما تذبح الشاة وأخبر على بذلك قال : الله أكبر ، نادوهم أن أخرجوا إلينا قاتل عبد الله بن خباب . فقالوا : كلنا قتله ثلاث مرات . فقال على لأصحابه : دونكم القوم فما لبث أن قتلهم على وأصحابه . خرج الحديثين الدارقطني في سننه وفي الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا

---

(١) الحرورية فرقة من الخوارج نسبة إلى حروراء موضع قريب من الكوفة لأن اول مجتمعهم وتحكيمهم فيها .

فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار » وقال فيه : حديث غريب . ثم قال القرطبى : وأيضاً فلو علم الجماعة أنهم إذا قتلوا لتعاون الأعـداء على قتل أعدائهم بالاشتراك فى قتلهم وبلغوا الأمل من التشفى . ومراعاة هذه القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ والله أعلم(١) .

سد الذرائع :

لقد تحدث القرطبى فى تفسيره عن سد الذرائع وذكر ما يشهد لها من الأدلة وما بنى عليها من الفروع فقال فى المسألة الثانية فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا » .

فى هذه الآية دليلان أحدهما : على تجنب الألفاظ المحتملة التى فيها التعريض للتنقيص والغض . ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض وذلك يوجب الحد عندنا ، خلافاً لأبى حنيفة والشافعى وأصحابهما حين قالوا : التعريض محتمل للقذف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة .

الدليل الثانى : التمسك بسد الذرائع وحمايتها . وهذا مذهب مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل فى رواية عنه . وقد دل على هذا الأصل : الكتاب والسنة . والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع فى ممنوع . أما الكتاب فهذه الآية ، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك ، وهى سب بلغتهم ، فلما علم الله ذلك منهم . منع من إطلاق ذلك اللفظ لأنه ذريعة للسب ، وقوله تعالى « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا

---

(١) تفسير القرطبى ح٢ ص ٢٥٦ آية ١٧٨ من سورة البقرة ، وحديث لو ان أهل السماء . أخرجه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى فى باب الحكم فى الدماء ج ٤ ص ٦٥٤ تحفة الاحوذى .

الله عدوا بغير علم »(١) . فنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك ، وقوله تعالى « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر »(٢) الآية فحرّم عليهم تبارك وتعالى الصيد فى يوم السبت . فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شُرّعا . أى ظاهرة . فسَدُّوا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، وكان السد ذريعة للاصطياد فسخهم الله قردة وخنازير ، وذكر الله لنا ذلك فى معنى التحذير عن ذلك ، وقوله تعالى لآدم وحواء « ولا تقربا هــذه الشجرة »(٣) .

ثم استدل القرطبي من السنة بأحاديث كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » فنع الرسول صلى الله عليه وسلم من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع فى المحرمات . وذلك سدا للذريعة . ومنها قوله عليه الصلاة والسلام « إن من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال « نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه »(٤) . . . ثم عقب القرطبي بعد الأحاديث التى ذكرها وبعد أن فرغ من سرد كثير من الأدلة بقوله ، قلت : فهذه هى الأدلة التى لنا على سد الذرائع ، وعليه بنى المالكية كتاب الآجال وغيره من المسائل فى البيوع وغيرها . وليس عند الشافعية كتاب الآجال ، لأن ذلك عندهم

---

(١) آية ١٠٨ من سورة الانعام ،

(٢) آية ١٦٣ من سورة الاعراف .

(٣) آية ٣٥ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسى فى كتاب الكبائر ح ٢ ص ٥٨ .

عقود مختلفة مستقلة . قالوا : وأصل الأشياء على الظواهر ، لا على الظنون .
والمالكية جعلوا السلعة محللة ليتوصل بها إلى دراهم بأكثر منها وهذا هو الربا
بعينه فاعلمه (١) .

وقبل أن أترك هذا المقام أحب أن أعقب على نظرة الإمام مالك ونظرة
المخالفين له فى بيوع الآجال ، بما ذكره أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة فقد
قال فى تعقيبه على ذلك « لقد تعارض جانبان قويان من النظر أحدهما : النظر
إلى أصل الإذن ، وأصل الإذن كان لمصلحة راجحة للفاعل ولذا أجازه
الشارع منه . والثانى : المفسدة التى كثرت وإن لم تكن غالبة . فنظر
أبو حنيفة والشافعى إلى أصل الإذن ، ولذلك كان التصرف عندهم جائزا
لا مجال لمنعه . . وأيضاً فإنه لا سبيل لأن نحمل على العامل وزر المفسدة
لأنه لم يقصدها ولم يكن مقصرًا فى الاحتياط لتجنبها . لأنها ليست غالبة
وإن كانت كثيرة ، فإنها لم تصل إلى درجة الأمر الغالب حتى يعد عدم
الاحتياط تقصيراً .

هذا نظر أبى حنيفة والشافعى فرجحا جانب الإذن لأنه الأصل ، وأما
مالك رضى الله عنه فقد نظر إلى الجانب الآخر ، وهو جانب قوى أيضاً وهو
كثرة المفاسد المترتبة على الفعل وإن لم تكن غالبة . ورجّح مالك رضى الله
عنه ذلك الجانب . لأن الفعل وإن كان الأصل فيه الإذن إلا أنه عارضه
أصل ثان . وهو أن الأصل صيانة الإنسان عن الإضرار بغيره وإيلامه ،
ويرجح الأصل الثانى لكثرة المفاسد المترتبة . فيكون المنع للزجر ويخرج

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٥٧ ومابعدها .

بذلك الفعل عن أصله وهو الإذن إلى العمل بالأصل الثانى وهو المنع . سدا لذرائع الشر (١) .

وعن عرض القرطبي للأدلة التى تمسك بها المالكية فى سد الذرائع يتبين لنا أن الذرائع التى تؤدى إلى الفساد ممنوعة . سواء كان ذلك الفساد قد نُص عليه بنص خاص به أو كان داخلا فى النهى العام عن الضرر والضرار وعن كل فساد . ولكننى وجدت القرطبي يذكر فى تفسير قوله تعالى « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم » ما يستفاد منه أن الذرائع لا يلزم سدها أو الابتعاد عنها إلا إذا كانت تؤدى إلى محظور منصوص عليه ، وإليك ما قاله القرطبي فى ذلك : بعد أن بين رأى مالك فى جواز شراء ولى اليتيم من مال اليتيم قال : فإن قيل يلزم ترك مالك أصله فى التهمة والذرائع إذ جوّز له الشراء من يتيم . فالجواب : أن ذلك لا يلزم وإنما يكون ذلك ذريعة — أى أمرا ممنوعا — فيما يؤدى من الأفعال المحظورة إلى محظورة منصوص عليها . وأما ها هنا فقد أذن الله سبحانه فى صورة المخالطة ووكل الحاضنين فى ذلك إلى أمانتهم بقوله « والله يعلم المفسد من المصلح » وكل أمر مَخُوف وكل الله سبحانه المكلف إلى أمانته لا يقال فيه إنه يتذرع به إلى محظور فيمنع منه . كما جعل الله النساء مؤتمنات على فروجهن مع عظيم ما يترتب على قولهن فى ذلك من الأحكام ويرتبط به من الحِلّ والحرمة والأنساب . وإن جاز أن يكذبن . وكان طاوس إذا سُئل عن شىء من أمر اليتامى قرأ « والله يعلم المفسد من المصلح » وكان ابن سيرين أحب الأشياء إليه فى مال اليتيم أن يجتمع نصحاؤه فينظرون الذى

---

(١) مالك ص ٤٣٩ وما بعدها ببعض تصرف .

هو خير له ، ذكره البخارى . وفى هذا دلالة على جواز الشراء منه لنفسه كما ذكرنا (١) .

والقرطبى قد نقل هذا النص عن « ابن العربى » ، ولم يصرح بذلك . ويبدو أن ابن العربى كان له موقف يخالف موقف المالكية فى سد الذرائع . ولقد أشار إلى هذا أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة فقد قال بعد أن ذكر النص السابق « ونرى من هذا أنه — أى ابن العربى — يقرر أن الذريعة تُسَدّ إذا كانت تؤدى إلى محظور منصوص عليه ولكن المتتبع لكتب المالكية فى الأصول والفروع يرى أنهم يتجهون فى سد الذرائع ، إلى سد وسائل الفساد. فكل ما يؤدى إلى فساد غالباً فهو ممنوع من غير تقييد يكون ذلك الفساد قد نُص عليه بنص خاص به أو كان داخلا فى النهى العام عن الضرر والضرار وعن كل فساد »(٢) .

ولا أدرى هل تابع القرطبي ابن العربى أم وقف مع المالكية ؟ لم أعثر على نص يجيب على هذا التساؤل . ولعله قد وقف مع ابن العربى حيث أنه قد ارتضى ما نقله عنه .

---

(١) تفسير القرطبى ح ٢ ص ٦٥ .

(٢) مالك ص ٤٤١ وانظر أحكام القرآن لابن العربى .

الفصل التاسع

موقف القرطبي من الاحاديث التي ذكرها في تفسيره

أورد القرطبي في تفسيره كثيراً من الأحاديث وأضافها إلى من خرجها من الأئمة : كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأبي داود وغيرهم . لكن القرطبي ماكان يذكر سند هذه الأحاديث في الغالب ، ولعله فعل ذلك اختصاراً . وأبرز القرطبي في مقدمة تفسيره القيمة العلمية لتخريج الأحاديث فقال : « وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها ، والأحاديث إلى مصنفيها ، فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ، وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما لايعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لاخبرة له بذلك حائرا لايعرف الصحيح من السقيم . ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمه الأعلام والثقات المشاهير من علماء الإسلام ، ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب [1] » .

وإذا كان القرطبي قد سار على هذا النهج كثيراً فأضاف الأحاديث إلى من خرجها من الأئمة ، وأورد الحديث في كثير من الأحيان أ كثرمن طريق . وقد مر بنا في فصول الرسالة ما يؤيد كل ذلك . فإننا نراه في أحيان أخرى لايلتزم هذا الشرط ، فيأتي بالأحاديث ولايذكر من خرجها وقد مر بنا أيضاً ما يؤيد ذلك ونكتفي بهذا المثال :

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣ .

فى قوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » يقول : قال مجاهد والضحاك : « اليسر » الفطر فى السفر « والعسر » الصوم فى السفر والوجه عموم اللفظ فى جميع أمور الدين ، كما قال تعالى « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « دين الله يسر » « يسروا ولا تعسروا »[١] .

القرطبى بين تصحيح الأحاديث وتضعيفها :

لم يكن القرطبى حاطب ليل يجمع الأحاديث ويذكرها فى تفسيره فقط . بل كان ينقدها نقداً علميا فيذكر ما قاله أئمة الجرح والتعديل فيها من جهة سندها أو من جهة متنها ، وقد مر بنا كثير من الأمثلة التى تؤيد هذا وأسوق هنا بعض الشواهد الأخرى التى تؤكد هذه الحقيقة :

فى قوله تعالى « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » بين أن العلماء اختلفوا فى المعنى الذى نزلت فيه الآية على أقوال كثيرة وأن من جملة الأقوال ما قاله عبد الله بن عامر بن ربيعة أنها : نزلت فيمن صلى إلى غير القبلة فى ليلة مظلمة ، ثم قال : أخرجه الترمذى عن أبيه قال : كنا مع النبى ﷺ فى سفر فى ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلى كل واحد منا على حياله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبى ﷺ فنزلت فأينما تولوا فثم وجه الله «قال أبو عيسى

(١) تفسير القرطبى ح ٢ ص ٣٠١ آية ١٨٥ من سورة البقرة . والحديث أخرجه مسلم ح ١٢ ص ٤٠ . والحديث الاول أخرجه البخارى فى باب الاقتصاد فى العمل عن أبى هريرة انظر التاج ح ١ ص ٤١ ولفظه إن الدين يسر — قاربوا — أى إن لم تقدروا على العمل بالاكمل فاعملوا بما يقرب منه — الغدوة من الفجر إلى طلوع الشمس أى آخر الليل أو اوله .

هذا حديث ليس إسناده بذلك لانعرفه إلا من حديث أشعث السمان وأشعث ابن سعيد أبو الربيع يضعف فى الحديث[١] » :

وفى قوله تعالى « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » يقول فى المسألة السادسة عشرة : وخرج مسلم عن أنس قال : وقت لنا فى قص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة ألا نترك أكثر من أربعين ليلة[٢] . ثم قال القرطبي قال علماؤنا : هـذا تحديد فى أكثر المدة والمستحب تفقد ذلك من الجمعة إلى الجمعة . وهذا الحديث يرويه جعفر بن سليمان . قال العقيلى فى حديثه نظر ، وقال أبو عمر فيه : ليس بحجة لسوء حفظه وكثرة غلطه وهذا الحديث ليس بالقوى من جهة النقل ولكنه قد قال به قوم . وأكثرهم على أن لا توقيت فى ذلك وبالله التوفيق[٣] .

وفى قوله تعالى « ومن لم يطعمه فإنه منى » فرق القرطبي بين الكرع[٤] والشرب . بما ذكره ابن ماجة فى سننه : حدثنا واصل بن عبد الأعلى حدثنا ابن فضيل عن ليث عن سعيد بن عمر عن ابن عمر قال : مررنا على بركة فجعلنا نكرع فيها فقال رسول الله ﷺ : « لا تكرعوا ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناء أطيب من اليد » ثم قال القرطبي : وليث بن أبى

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٧٩ وما بعدها آية ١١٥ من سورة البقرة . والحديث أخرجه الترمذى انظر تحفة الاحوذى ج ٨ ص ٢٩٢

(٢) أخرجه مسلم فى باب خصال الفطرة ج ٣ ص ١٤٦

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٠٦ آية ١٢٤ من سورة البقرة .

(٤) الكرع : الشرب بالفم .

سليم خرج له مسلم وقد ضعف(١) » .

وفى قوله تعالى «الله لا إله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم»(٢) بين أن السنة معناها فتور يعترى الإنسان ولا يفقد معه عقله . وأن المراد بالآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال ثم قال : « والناس يذكرون فى هذا الباب عن أبى هريرة قال : سمعت رسول ﷺ يحكى عن موسى على المنبر قال : وقع فى نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤه فأرسل الله إليه ملكا فأرقه ثلاثا ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ فينحى إحداهما عن الأخرى حتى نام نوما فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان — قال — ضرب الله له مثلا أن لو كان ينام لم تمسك السماء والأرض ، ولا يصح هذا الحديث ، ضعفه غير واحد منهم البيهقى (٣) »

وفى قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط »، يقول فى المسألة الثالثة :

« روى غالب القطان قال أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه فلما كان ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة . قام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام » قال

---

(١) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٥٢ وقد سبق تخريج الحديث المذكور فى هذا النص من أحكام القرطبى إلى اللغة .

(٢) آية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٧٢ وما بعدها .

الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة وإن الدين عند الله الإسلام — قالها مراراً — ، فغدوت إليه وودعته ثم قلت : إني سمعتك تقرأ هذه الآية فما بلغك فيها ؟ أنا عندك منذ سنة لم تحدثني به قال : والله لاحدثتك به سنة . قال فأقمت وكتبت على بابه ذلك اليوم . فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة قال : حدثني أبو وائل عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى عبدي عهد إليَّ وأنا أحق من وفَّى أدخلوا عبدي الجنة »(١) قال أبو الفرج الجوزي : غالب القطان يروى عن الأعمش حديث شهد الله . وهو حديث مُعضل(٢) . قال ابن عديّ : الضعف على حديثه بين . وقال أحمد ابن حنبل: غالب بن خطّاف القطّان ثقة ثقة وقال ابن معين : ثقة . وقال أبو حاتم صدوق صالح . ثم عقب بقوله « قلت ويكفيك من عدالته وثقته أن خرَّج له البخاري ومسلم في كتابيهما وحسبك »(٣) .

فالقرطبي قد انتقد ما تقدم من الأحاديث . ونراه في نقده يقتصر أحياناً على ما قاله بعض أئمة الجرح والتعديل ، وأحياناً أخرى يقابل أقوالهم ويرجح منها أقواها .

ونرى القرطبي إلى جانب ذلك يرتضي بعض الأحاديث رغم أن علماء الجرح والتعديل قد انتقدوها وذلك لأن لها طرقاً أخرى تقويها وتشهد لصحتها، أو لأن معناها لا يناقض ما جاءت به الأحاديث الصحيحة .

---

(١) الحديث قال عنه ابن كثير أخرجه الطبراني في المعجم الكبير .
(٢) المعضل ما سقط من إسناده اثنان فصاعدا في موضع واحد .
(٣) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٤٠ وما بعدها .

ففي قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » .

يقول في المسألة الرابعة : قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحبه الله ويواليه ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه بل يبغضه الله ويعاديه فكل من علم الله أنه يوافي بالإيمان ، فالله محب له موال له راض عنه ، وكل من علم الله أنه يوافي بالكفر فالله مبغض له ساخط عليه معاد له . لا لأجل إيمانه ولكن لكفره وضلاله الذي يوافي به ، والكافر ضربان : كافر يعاقب لا محالة . وكافر لا يعاقب ، فالذي يعاقب هو الذي يوافي بالكفر ، فالله ساخط عليه معاد له ، والذي لا يعاقب هو الموافي بالإيمان فالله غير ساخط على هذا ولا باغض له بل محب له موال . لا لكفره لكن لإيمانه الموافي به فلا يجوز أن يطلق القول وهي :

الخامسة — بأن المؤمن يستحق الثواب والكافر يستحق العقاب بل يجب تقييده بالموافاة ولأجل هذا قلنا إن الله راض عن عمر في الوقت الذي كان يعبد الأصنام ومريد لثوابه ودخوله الجنة لا لعبادته الصنم لكن لإيمانه الموافي به وأن الله تعالى ساخط على إبليس في حال عبادته لكفره الموافي به ، ثم قال القرطبي :

وخالفت القدرية في هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطاً على إبليس وقت عبادته ، ولا راضياً عن عمر وقت عبادته للصنم وهذا فاسد لما ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافي به إبليس لعنه الله وبما يوافي به عمر رضي الله عنه فيما لم

---

(١) الآية ٨ من سورة البقرة .

يزل ، فثبت أنه كان ساخطاً على إبليس محباً لعمر ، ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل الجنة ، وقد قال رسول الله ﷺ « وإنما الأعمال بالخواتيم »(١) ولهذا قال علماء الصوفية «ليس الإيمان ما يتزين به العبد قولا وفعلا لكن الإيمان جرى السعادة فى سوابق الأزل ، وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عارياً وربما يكون حقيقة » وعلق القرطبي فقال : قلت هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد . فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع (فيما يبدو للناس) فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة »(٢) فإن قيل وهى السادسة فقد خرج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد ابن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقه وهو محمد ابن أبى قيس عن سليمان بن موسى وهو الأشدق عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رُزين العقيلى قال : قال لى رسول الله ﷺ « لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه » . قال : قلت : كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : « أما مررت بأرض لك مجدبة ثم مررت بها مخصبة ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة » قلت : بلى قال : « كذلك النشور » قال قلت

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب القدر ج ٤ ص ٩٩ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب القدر ج ١٦ ص ١٩٠ .

كيف لى أن أعلم أنى مؤمن ؟ قال « ليس أحد من هذه الأمة — قال ابن أبى قيس أو قال من أمتى — عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيراً أو عمل سيئة وأن الله جازيه بها شراً أو يغفرها إلا مؤمن » .

قال القرطبي : وهذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح ، وليس بمعارض لحديث ابن مسعود فإن ذلك موقوف على الخاتمة كما قال عليه السلام « وإنما الأعمال بالخواتيم » وهذا إنما يدل على أنه مؤمن فى الحال والله أعلم[1] .

وفى قوله تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم »[2] يقول القرطبي فى المسألة الثانية : « فى شدة عذاب من هذه صفته روى حماد بن سلمة عن على ابن زيد عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : ليلة أسرى بى مررت على ناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » وروى أبو أمامة قال قال رسول الله ﷺ « إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم يجرون قصبهم فى نار جهنم . فيقال لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير وننسى أنفسنا » .

وانتقد القرطبي هذا الحديث ثم صححه فقال : قلت : وهذا الحديث وإن كان فيه لين لأن فى سنده الخصيب ابن جحدر ، كان الإمام أحمد يستضعفه وكذلك ابن معين يرويه عن أبى غالب عن أبى أمامة صدى ابن عجلان الباهلى وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن معين — حزور القرشى

---

(١) تفسير القرطبى ح ١ ص ١٩٣ وما بعدها .

(٢) آية ٤٤ من سورة البقرة .

مولى خالد بن عبـــد الله بن أسيد . وقيل : مولى باهلة . وقيل : مولى عبد الرحمن الحضرمي . كان يختلف إلى الشام فى تجارته . قال يحيى بن معين هو صالح الحديث . فقد رواه مسلم فى صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ؟ ألم تـكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنـكر ؟ فيقول : بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنـكر وآتيه(١) . ثم قال القصب بضم القاف — المعى وجمعه أقصاب ، والأقتاب الأمعاء وأحدها قِتْب ، ومعنى فتندلق : فتخرج بسرعة(٢) .

وفى قوله تعالى « وآتى المال على حبه » (٣) يقول استدل به من قال إن فى المال حقا سوى الزكاة . . . وقيل : إن المراد الزكاة المفروضة ، والاول أصح . لما روى الدارقطنى عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله ﷺ « إن فى المال حقا سوى الزكاة ، ثم تلا هذه الآية : « ليس البر أن تولوا وجوهكم » إلى آخر الآية ، وأخرجه بن ماجه فى سننه والترمذى فى جامعه وقال : هذا حديث ليس إسناده بذاك وأبو حمزة ميمون الأعور يضعف ، وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي هذا الحديث وهو أصح . ثم عقب القرطبي بقوله قلت : والحديث وإن كان فيه مقال فقد دل على صحته معنى ما فى الآية نفسها من قوله تعالى « وأقام الصلاة وآتى الزكاة » فذكر الزكاة

---

(١) أخرجه مسلم عن أسامة بن زيد فى كتاب الزهد ج ١٨ ص١١٨ .

(٢) تفسير القرطبى ج١ ص٣٦٥ وما بعدها .

(٣) آية ١٧٧ من سورة البقرة

مع الصلاة وذلك دليل على أن المراد بقوله « وآتى المال على حبه » ليس الزكاة المفروضة ، فإن ذلك كان يكون تكراراً والله أعلم[١] .

ولو تساءل متسائل وقال : هل هذا النقد الذى وجهه القرطبي للاحاديث السابقة صحيح ؟ فإنى أقول : لقد تتبعت القرطبي فى بعض الأحاديث التى انتقدها بكلمات مختصرة ولم يذكر فيها رأى أئمة الجرح والتعديل فوجدته صحيحا . . فمثلا يقول القرطبي فى الحديث الأول « قال أبو عيسى هذا حديث ليس إسناده بذاك لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان ، وأشعث ابن سعيد أبو الربيع يضعف فى الحديث » هذا ما قاله القرطبي وهو بهذا النقد يوافق أئمة الجرح والتعديل ولا يخالفهم . فلقد قال ابن الجوزى « قلت كان هشيم يقول : أشعث السمان كذاب . وقال أحمد بن حنبل : حديث مضطرب ليس بذاك وقال يحي والنسائى وأبو زرعة : ضعيف . وفى لفظ عن يحي ليس بشىء وقال الفلاس والدارقطنى : ضعيف متروك . وقال أبو حاتم بن حبان : يروى عن الأئمة الأحاديث الموضوعات وخصوصاً عن هشام بن عروة . وقال العقيلى : لا يروى متن هذا الحديث من وجه يثبت وفى سنده عاصم بن عبد الله ، قال ابن معين : هو ضعيف لا يحتج بحديثه . وقال ابن حبان : كان سيء الحفظ كثير الوهم فأحس الخطأ فترك[٢] » .

وفى المثال الثالث يقول القرطبي « وليث بن أبى سليم خرج له مسلم وقد ضعف » ولم يذكر القرطبي ما قاله أئمة الجرح والتعديل . ولقد جمع

---

(١) تفسير القرطبي ج٢ ص٢٤١ وما بعدها ، والحديث أخرجه الترمذى فى باب ما جاء أن فى المال حقا سوى الزكاة — انظر صحيح الترمذى بشرح ابن العربى ج ٣ ص ١٦٢ .

(٢) ابن الجوزى المحدث رسالة دكتوراه للزميل أبو العلا على أبو العلا ص ٢٤٠

« الذهبي » أقوالا كثيرة تبين موقف علماء الجرح والتعديل من « ليث بن أبي سليم » يقول الذهبي في ميزان الاعتدال : « قال أحمد : مضطرب الحديث ولكن حدث عنه الناس . وقال يحيى والنسائي : ضعيف . وقال ابن معين أيضاً : لابأس به » وقال ابن حبان : اختلط في آخر عمره . وقال الدارقطني : كان صاحب سنة ، إنما أنكروا عليه الجمع بين عطاء وطاوس ومجاهد حسب . وقال عبد الوارث : كان من أوعية العلم . قال أبو بكر بن عياش : كان ليث من أكثر الناس صلاة وصياما ، وإذا وقع على شيء لم يرده . . . . وقال ابن إدريس : ما جلست إلى ليث إلا سمعت منه مالم أسمع منه . وقال عبد الله ابن أحمد حدثنا أبي قال : ما رأيت يحيى بن سعيد أسوأ رأيا في أحد منه في ليث، ومحمد بن إسحاق ، وهمام . لا يستطيع أحد أن يراجعه فيهم . وقال ابن معين : ليث أضعف من عطاء بن السائب . وقال مؤمل بن الفضل : سألت عيسى ابن يونس عن ليث بن أبي سليم فقال : رأيته وكان قد اختلط ، وكنت ربما مررت به ارتفاع النهار وهو على المنارة يؤذن [1] » .

وعن « ليث بن أبي سليم » يقول « ابن سعد » : « وكان ليث رجلا صالحا عابدا ، وكان ضعيفا في الحديث . يقال كان يسأل عطاء وطاوسا ، ومجاهدا عن الشيء فيختلفون فيه ، فيروى أنهم اتفقوا من غير تعمد ذلك [2] » .

مما تقدم يتبين لنا أن أكثر علماء الجرح والتعديل يضعفون (ليث بن أبي سليم) ولا يرتضون روايته ، ولقد وافق القرطبي هذه الأكثرية وأفصح

---

(١) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للحافظ الذهبي ج٢ ص٣٦٠ طبع السعادة

(٢) طبقات ابن سعد ج٦ ص٢٤٣ طبع ليدن .

عن ذلك فى عبارته الموجزة التى قال فيها « وليث بن أبى سليم خرج له مسلم وقد ضعف » .

وإذا كان القرطبي فى المثال الأخير قد ارتضى « غالب بن القطان » وبين أنه عدل ثقة وناصر فريقا على فريق فيبدو أن الحق معه . فلقد قال الذهبي فى ميزان الاعتدال : « غالب بن خطّاف القطّان البصرى صدوق مشهور . روى عن الحسن وابن سيرين ، وعنه . بشر بن الفضل وابن عُلَيّة. قال أحمد : ثقة ثقة . . . ثم قال الذهبي : ساق ابن عدىّ له أحاديث وقال : الضعف على أحاديثه بين . . . وقد روى عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله حديث « شهد الله » وهو حديث معضَل ، . . . ى هذا الحديث عنه عمر بن مختار البصرى ورواه عنه ولده عمار بن عمر ثم عقب « الذهبي » بقوله : قلت الآفة من عمر ، فإنه متهم بالوضع ، فما أنصف ابن عدى فى إحضاره هـذا الحديث فى ترجمة غالب وغالب من رجال الصحيحين ، وقد قال فيه أحمد ابن حنبل كما قدمنا : ثقة ثقة .

أما موقف القرطبي من تصحيح بعض الأحاديث التى اتفق علماء الجرح على تضعيفها فإنه موقف يبدو أنه سليم . حيث أن القرطبي قد سلم لعلماء الجرح ما قالوه وكشف عن ذلك أولا . ثم عاد فقوى هذه الأحاديث بقرائن أخرى تشهد لصحتها .

القرطبي يورد بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة فى تفسيره :

رغم أن القرطبي كانت له وقفات كثيرة جداً فى نقد الأحاديث كما كانت له وقفات فى تصحيح بعضها مع ما وجه إليها من نقد . رغم هذا وذاك . فقد

أورد القرطبي في تفسيره بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ولم يعقب عليها أو يذكر ما وجه إليها من نقد .

ومن أمثلة ذلك . ما ذكره في قوله تعالى « وإن تصبروا خير لكم » فقد قال : « وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : أيما حر تزوج بأمة فقد أرقّ نصفه — يعني يصير ولده رقيقاً . فالصبر عن ذلك أفضل لكيلا يرق الولد . وقال سعيد بن جبير : ما نكاح الأمة من الزنى إلا قريب . قال الله تعالى « وإن تصبروا خير لكم » أي عن نكاح الإماء ، وفي سنن ابن ماجه عن الضحاك بن مزاحم قال : سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر »(١) .

ولم يتحدث القرطبي عما وُجِّه إلى هذا الحديث من طعن . مع أن ابن الجوزي أخرجه من حديث أنس وقال فيه : سلام بن سوّار منكر الحديث عن كثير بن سليم كذاب . ومن حديث علي ، وقال فيه : عمرو بن جميع وجويبر كذابان .

وعلى هذا فلا يشفع للحديث أن « ابن ماجه » أخرجه في سننه بل إن إخراج « ابن ماجه » لمثل هذا الحديث عن طريق الكذابين — كما يقول الدكتور « أبو العلا » أنزل بمكانة كتابه العلمية إذا قيست بالصحيحين أو بقية السنن(٢) .

وفي قوله تعالى « كلا لا تطعه واسجد واقترب » يقول القرطبي : « وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن

---

(١) تفسير القرطبي ج٥ ص١٤٧ آية ٢٥ من سورة النساء . والحديث أخرجه ابن ماجه في سننه ١/ ٩٨ رقم ١٨٦٢ .

(٢) ابن الجوزي المحدث ص٨٤ وانظر الموضوعات لابن الجوزي ١/ ٢٦١

ابن عمر قال : لما أنزل الله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق » قال رسول الله ﷺ لمعاذ « اكتبها يا معاذ » فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون — وهى الدواة — فكتبها معاذ فلما بلغ « كلا لا تطعه واسجد واقترب » سجد اللوح وسجد القلم وسجدت النون وهم يقولون : اللهم ارفع به ذكراً اللهم احطط به وزراً اللهم اغفر به ذنباً ، قال معاذ : سجدت وأخبرت رسول الله فسجد »(١)

وسكت القرطبي فلم يعقب على هذا الحديث ولم يبين ما وجه إليه من نقد .

ولقد انتقده ابن الجوزى وحكم عليه بالوضع . فقال : « هذا حديث موضوع لا شك وأنا أتهم به إسماعيل الآجرى وما أبرد هذا الوضع وما أبعد واضعه عن العلم فإن هذه السورة نزلت بمكة . ومعاذ إنما أسلم بالمدينة » ، وناقش الدكتور « أبو العلا » ابن الجوزى ، فقال فى تعقيبه على كلام « ابن الجوزى » : « والواقع أن ابن الجوزى قد وفق غاية التوفيق فى حكمه على هذا الحديث بالوضع واستدلاله على ذلك بتاريخ نزول القرآن وأن هذه السورة من أول ما نزل بمكة من القرآن الكريم . ومعاذ رضى الله عنه لم يعرف رسول الله إلا بعد هجرته إلى المدينة . فإنه مع هذا التوفيق قد جانبه الصواب حين زعم أن الواضع له إسماعيل بن أحمد بن محمد الآجرى والحق أن إسماعيل ثقة وإنما المتهم به شيخه كما قال الذهبى فى « الميزان » وأكده فى « ترتيبه للموضوعات حيث يقول : والواضع له إبراهيم بن محمد الخواص . لا كما قال « ابن الجوزى »(٢) .

وفى قوله تعالى « فصل لربك وانحر » يقول القرطبى : « وعن على رضى

---

(١) تفسير القرطبى ج٢٠ ص١٢٩ آية ١٩ من سورة العلق .

(٢) ابن الجوزى المحدث ص١٦٩ وانظر اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ١/٢٣٦ .

الله عنه قال : لما نزلت « فصل لربك وانحر » قال النبي ﷺ لجبريل « ما هذه النحيرة التي أمرني الله بها » ؟ قال ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة »[1] .

ولقد حكم « ابن الجوزى » على هذا الحديث بالوضع فقال : « هذا حديث موضوع وضعه من يريد مقاومة من يكره الوضع وهو في نصرة مذهبنا ، إلا أنه ليس بصحيح وفي الصحيح غُنية عن الاستعانة بالباطل وهو يكفي وفيه أصْبغ بن نباتة . قال يحيى : لا يساوى شيئاً ، وقال أبو حاتم بن حبان : عمر بن صبح وضع هذا الحديث على مقاتل . فظفر به إسرائيل فحدث به .

أما السيوطى فقد بين أن هذا الحديث ضعيف ولا يصل إلى درجة الموضوع فقال في اللآلىء : « الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي في سننه وقال إنه ضعيف . وقال الحافظ ابن حجر في تخريجه إسناده ضعيف جداً »[2] .

---

(١) تفسير القرطبي ج٢٠ ص٢٢٩ آية ٢ من سورة الكوثر .

(٢) ابن الجوزى المحدث ص١٨٤ وانظر الموضوعات ٢—٩٨ ، ٩٩ واللآلىء ٢٠:١٠ وللزميل أبو العلا دفاع عن رأى ابن الجوزى في هذا الحديث ونقد للسيوطى فارجع إليه .

الفصل العاشر

الاسرائيليات فى تفسير القرطبى

لم يخل تفسير القرطبي من الاسرائيليات بل حوى كثيراً منهـا . وكان القرطبي يرفضها ويهاجمهـا أحيانا . ومن أمثلة ذلك ماذكره في قوله تعالى « .... وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت » فقد قال : « وقد روى عن على وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدى والكلبي ما معناه : أنه لما كثر الفساد من أولاد آدم عليه السلام — وذلك فى زمن إدريس عليه السلام — عيرتهم الملائكة فقال الله تعالى : أما إنكم لو كنتم مكانهم وركبت فيكم ماركبت فيهم لعملتم مثل أعمالهم فقالوا : سبحانك ما كان ينبغى لنا ذلك قال : فاختاروا ملكين من خياركم فاختاروا هاروت وماروت فأنزلهما إلى الأرض فركب فيهما الشهوة . فما مربهماشهر حتى فتنا بامرأة اسمها بالنبطية « بيدخت » وبالفارسية « نأهيل » وبالعربية « الزهرة » اختصمت إليهما . وراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يدخلا فى دينها ويشربا الخمر ويقتلا النفس التى حرم الله، فأجاباها وشربا الخمر وألما بها ، فرآهما رجل فقتلاه وسألتهما عن الاسم الذى يصعدان به إلى السماء فعلماها ، فتكلمت به فعرجت فمسخت كوكبا . وقال سالم عن أبيه عن عبد الله فحدثنى كعب الحبر أنهما لم يستكملا يومهما حتى عملا بما حرم الله عليهما ، وفى غير هذا الحديث فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا ، فهما يعذبان ببابل فى سرب من الأرض ، قيل : بابل بالعراق وقيل بابل نهاوند . وكان ابن عمر فيما يروى عن عطاء . أنه كان إذا رأى الزهرة وسهيلا سبهما وشتمهما ويقول إن

سهيلا كان عشاراً باليمن . يظلم الناس وأن الزهرة كانت صاحبة هاروت وماروت » .

ولم يرتض القرطبي هذه الروايات والأخبار فرفضها وعقب عليها بقوله :

« قلنا هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه ، وسفراؤه إلى رسله « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون (١) ما يؤمرون ، بل عباد مكرمون لا يسبقونه (٢) بالقول وهم بأمره يعملون ، يسبحون الليل والنهار (٣) لا يفترون » وأما العقل فلا ينكر وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلفوه ويخلق فيهم الشهوات إذ في قدرة الله تعالى كل موهوم . ومن هذا خوف الأنبياء والاولياء الفضلاء العلماء . لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح » .

ثم بين القرطبي أن الزهرة كانت مخلوقة قبل آدم عليه السلام ؛ لأنها كوكب من جملة الكواكب وأن قول الملائكة لله سبحانه وتعالى « ما كان ينبغي لنا » كفر لأن معناه لا تقدر على فتنتنا وهـــذا لا يصح نسبته إلى الملائكة (٤) .

وفي قوله تعالى « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب » ذكر أخباراً خيالية طويلة ، ثم أطال في نقدها أيضاً . وأخيراً قال : « قال ابن العربي القاضي أبو بكر رضي الله عنه : ولم يصح عن أيوب في

---

(١) آية ٦ من سورة التحريم

(٢) آية ٢٦ ، ٢٧ من سورة الانبياء

(٣) آية ٢٠ من سورة الانبياء

(٤) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٥١ آية ١٠٢ من سورة البقرة .

أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين الأولى قوله تعالى « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر »[١] والثانية في ص « أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » وأما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله « بينا أيوب يغتسل إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب »[٢] الحديث ، وإذا لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه فمن الذى يوصل السامع إلى أيوب خبره أم على أى لسان سمعه ؟ والاسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات فأعرض عن سطورها بصرك واصمم عن سماعها أذنيك فإنها لاتعطى فكرك إلا خبالا ، وفي الصحيح واللفظ للبخاري أن ابن عباس قال : يامعشر المسلمين[٣] تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله تقرؤونه محضا لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب فقالوا « هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » ولا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم . وقد أنكر النبي ﷺ في حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة[٤] » . وأحيانا أخرى نرى «القرطبي» يذكر الإسرائيليات ويسكت عنها ولايتعقبها بكلمة ففي قوله تعالى « قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين » حدد طول « عوج بن عنق » وذكر طرفا من أخباره فقال : « وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا قاله ابن عمر .

---

(١) آية ٨٢ من سورة الانبياء .

(٢) الحديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الغسل ج ١ ص ٤٢ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام باب قول النبي : لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء ج ١٧ ص ١٠٢ .

(٤) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢١٠ آية ٤١ من سورة ص والحديث أخرجه أيضا الامام أحمد في مسنده ٣/٣٨٧ .

وكان يحتجن السحاب أى يجذبه يحجنه ويشرب منه ويتناول الحوت من قاع البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله . وحضر طوفانُ نوح عليه الصلاة والسلام ولم يجاوز ركبتيه وكان عمره ثلاثة آلاف وستمائة سنة وأنه قلع صخرة على قدر عسكر موسى عليه السلام ليرضخهم بها فبعث الله طائرا فنقرها ووقعت فى عنقه فصرعته ، وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع وترق فى السماء عشرة أذرع فما أصاب إلا كعبه وهو مصروع فقتله » [1] . ولم يعقب القرطبي بشىء على هذه الأخبار الخرافية ولقد انتقد « ابن كثير » هذه الخرافات فقال وهو يتحدث عن صفة الجبارين فى كتابه « البداية والنهاية » وقد ذكر كثير من المفسرين ها هنا آثارا فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها . من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاما جداً حتى أنهم ذكروا أن رسل بنى إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من الجبارين فجعل يأخذهم واحدا واحدا ويلفهم فى أكامه وحجزة سراويله ، وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها . وأن الملك بعث عنبا كل عنبة تكفى الرجل، وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم . وهذا ليس صحيحا . ثم قال « ابن كثير » : « يروى هذا عن نوف البكالى ونقله ابن عباس وفى إسناده إليه نظر ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات . فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولا تمييز لهم بين صحيحها وباطلها . ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيلَ معذورين فى النكول عن قتالهم ، وقد ذمهم الله على نكولهم وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم [2] » .

---

(١) تفسير القرطبي ج٦ ص١٢٦ وما بعدها آية ٢٢ من سورة المائدة .

(٢) البداية والنهاية ج١ ص ٢٧٨ .

وكذلك تعقب ابن كثير هذه الأخبار فى تفسيره فقال « وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا — أى فى الآية التى معنا — أخباراً من وضع بنى إسرائيل فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين وأن منهم « عوج ابن عنق » بنت آدم عليه السلام وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع تحرير الحساب، وهذا شىء يستحى من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن[1] » ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً وأنه كان ولد زنية ، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح ، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبتيه . وهذا كذب وافتراء فإن الله تعالى ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين . فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » [2] وقال تعالى « فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون[3] . ثم أغرقنا بعد الباقين » وقال تعالى « لا عاصم اليوم من أمر الله[4] إلا من رحم » وإذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف يبقى « عوج بن عنق » وهو كافر وولد زنية ؟ هذا لا يسوغ فى عقل ولا شرع . ثم فى وجود رجل يقال له : عوج ابن عنق نظر والله أعلم »[5] .

ومن أغرب ما أورده القرطبي من الإسرائيليات ما ذكره فى قوله تعالى

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الانبياء باب خلق آدم وذريته ٤ / ١٥٩ وأخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

(٢) آية ٢٦ من سورة نوح .

(٣) آية ١١٩ ، ١٢٠ من سورة الشعراء .

(٤) آية ٤٣ من سورة هود .

(٥) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٨ .

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم » فقد ذكر « أن حملة العرش أرجلهم فى الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش » ، ثم نقل عن كعب الأحبار أنه قال : لما خلق الله تعالى العرش قال : لن يخلق الله خلقاً أعظم منى فاهتز فطوقه الله تعالى بحية ، للحية سبعون ألف جناح فى الجناح سبعون ألف ريشة فى كل ريشة سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف فم فى كل فم سبعون ألف لسان ، يخرج من أفواهها فى كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وعدد ورق الشجر وعدد الحصى والثرى وعدد أيام الدنيا وعدد الملائكة أجمعين فالتوت الحية بالعرش فالعرش إلى نصف الحية وهى ملتوية به »[١] .

ومن العجب أن « القرطبي » يمر على هذه الأخبار وأمثالها دون تعليق أو تعقيب . وليت « القرطبي » حين ذكر هذه الأخبار الخرافية التى لا يقبلها عقل ولا يقرها منطق تعقبها وكشف ما فيها من فساد وبطلان ، أو ليته صان كتابه عنها جملة واحدة . فلم يشغل نفسه بها فإن فى البعد عنها خيرا كثيراً ، حيث أساءت إلى سمعة الإسلام وفتحت للمستشرقين وأذنابهم مجالا للطعن فى الإسلام وتشويه جماله ووصفه بأنه دين خرافة وجهل .

ولا يشفع « القرطبي » أن رسول الله ﷺ قد أباح التحدث عن أهل الكتاب فقال « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » « فإن هذا الحديث مفيد

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٢٩٤ آية ٧ من سورة غافر .

بما لا يعلم كذبه ؛ أو بما يحتمل الصدق والكذب لأن رسول الله ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب[١] » والأخبار التى ذكرها « القرطبى » والتى تقدمت يبدو عليها الكذب والبطلان . وحتى لو كانت هذه الأخبار أو غيرها مما ذكره « القرطبى » من الأخبار الاسرائيلية التى تحتمل الصدق والكذب وذكرها القرطبى فى مقام التفسير للاستئناس بها أو عبرة وعظة فإن ذلك يخالف قول رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا[٢] لأن ذكر هذا النوع من الاسرائيليات فى مقام التفسير تصديق بها مطلقا والحديث يأمر بالتوقف .

وفى ذلك يقول أستاذنا الشيخ « أحمد شاكر » إن إباحة التحدث عنهم — أى عن أهل الكتاب — فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شىء وذكر ذلك فى تفسير القرآن وجعله قولا أو رواية فى معنى الآيات أو فى تعيين ما لم يعين فيها أو فى تفصيل ما أجمل فيها شىء آخر ، لأن فى إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذى لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لقول الله سبحانه ومفصل لما أجمل فيه وحاشا لله ولكتابه من ذلك .

وإن رسول الله ﷺ — إذ أذن بالتحدث عنهم — أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم ، فأى تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب

---

(١) انظر التفسير والمفسرون للشيخ محمد حسين الذهبى ج١ ص١٧٢ والحديث أخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ج ٧ ص٣٠٩ .
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير باب قولوا آمنا بالله ج٩ ص٢٣٧ .

الله ونضمها منه موضع التفسير والبيان اللهم غفراً »[١] .

(١) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص١٦٦ نقلا عن عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ح ١ ص١٥ وانظر وجهة نظر بعض المدافعين عن المفسرين فى رسالة «الإسرائيليات» للدكتور رمزى نعناعة ص ٣٦١ والحديث والمحدثون لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة .

وانظر فى معنى الإسرائيليات . كيف تسربت إلى الثقافة الإسلامية وأقسامها وحكم روايتها ومدى خطورتها . مقدمة ابن خلدون ح ١ ص ٤٨١ وما بعدها . ورسالة الإسرائيليات للدكتور رمزى نعناعة ص٥٣ ونشأة التفسير فى الكتب المقدسة والقرآن للدكتور أحمد خليل ص٣٧ والاسرائيليات فى التفسير والحديث للشيخ محمد حسين الذهبى ص ١٩ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٦٨ والتفسير والمفسرون ح ١ ص ١٦٥ ، ١٧٩ وما بعدها .

الفصل الحادي عشر

القيمة العلمية لتفسير القرطبي وتأثير المفسرين به

لقد أثنى المؤرخون والعلماء على تفسير القرطبي وأبرزوا قيمته العلمية. فقال « الذهبي » فى تاريخ الاسلام « وقد سارت بتفسيره — أى بتفسير القرطبي — العظيم الشأن الركبان، وهو كامل فى معناه » وقال ابن فرحون وهو يتحدث عن مؤلفاته « جمع القرطبي فى تفسير القرآن كتاباً كبيراً . . . وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا » وكذلك قال « الداودى » فى طبقاته. وبين « ابن العماد » فى شذراته : إن تفسير القرطبي يحكى مذاهب السلف كلها وأن فوائده كثيرة . وأوضح « ابن خلدون » فى مقدمته أن تفسير القرطبي له شهرة عريضة بالمشرق[1] وإذا كان تفسير القرطبي له تلك المكانة والشهرة . فلا عجب أن يتأثر المفسرون الذين جاءوا بعده بكتابه فينتفعوا به ويفيدوا منه . ومن أشهر هؤلاء : الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ فلقد تأثر ابن كثير فى تفسيره بالقرطبي ونقل عنه . وكان ابن كثير ينقل عن القرطبي أقواله غالباً . بالمعنى لا بالنص. ومن الأمثلة التى توضح تأثر ابن كثير بالقرطبي ما ذكره فى فضل سورة الفاتحة فإنه بعد أن ذكر مجموعة من الأحاديث تدل على ذلك قال : وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد حدثنا هاشم يعنى ابن البريد . حدثنا عبد الله بن محمد ابن عقيل عن جابر قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهراق الماء فقلت

---

(١) انظر تاريخ الاسلام للذهبى ج٢٧ ص١٦٦ والديباج ص٣١٧ وطبقات الداودى ص٢١٣ ، ومقدمة ابن خلدون طبع التقدم ص٤٨٢ .

السلام عليك يا رسول الله فلم يرد عليّ قال : فانطلق رسول الله ﷺ يمشى وأنا خلفه حتى دخل رحله ، ودخلت أنا المسجد كئيباً حزيناً فخرج عليّ رسول الله ﷺ وقد تطهر فقال : « عليك السلام ورحمة الله وعليك السلام ورحمة الله وعليك السلام ورحمة الله » ثم قال : « ألا أخبرك يا عبد الله ابن جابر بأخير سورة فى القرآن » قلت : بلى يارسول الله قال : اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها » هذا إسناد جيد وابن عقيل تحتج به الأئمة الكبار ، وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابى . ذكر ابن الجوزى أنه هو العبدى والله أعلم . ويقال : أنه عبد الله بن جابر الأنصارى البياضى فيما ذكره الحافظ بن عساكر . ثم قال ابن كثير : « واستدلوا بهذا الحديث على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض كما هو المحكى عن كثير من العلماء منهم إسحاق بن راهويه وأبو بكر بن العربى وابن الحصّار من المالكية . وذهبت طائفة أخرى : إلى أنه لا تفاضل فى ذلك . لأن الجميع كلام الله ، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضّل عليه وإن كان الجميع فاضلا . نقله القرطبى عن الأشعرى وأبى بكر الباقلانى وأبى حاتم بن حبان البستى ويحيى بن يحيى ورواية عن الإمام مالك (١) » . ولقد تصرف ابن كثير فى هذا النص ونقله عن القرطبى مختصراً .

وفى قوله تعالى « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » يقول ابن كثير : يقول تعالى : واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ورفعهما القواعد منه وهما يقولان « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » وحكى القرطبى وغيره عن أبيّ وابن مسعود أنهما كانا يقرآن

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص١٠ وانظر تفسير القرطبى ج١ ص١٠٩

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » قلت : — والقائل ابن كثير — ويدل على هذا قولهما بعده « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » الآية فهما فى عمل صالح وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما . كما روى ابن أبى حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكى عن وهيب بن الورد أنه قرأ « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا » ثم يبكى ويقول : يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك[1] .

وفى قوله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » يقول « يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل فى صحه الشىء بهذا . كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير « ابنك هذا ؟ » قال قال : نعم يا رسول الله أشهد به . قال « أما أنه لا تخفى عليه »[2] ثم قال ابن كثير قال القرطبي : ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وابنى لا أدرى ما كان من أمه[3] » .

ولقد ناقش ابن كثير القرطبى وتعقبه ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره فى قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » فقد قال : وليس المراد بالخليفة هنا آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص١٧٥ آية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ج٥ ص٨١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص١٩٤ آية ١٤٦ من سورة البقرة .

وعزا القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل . وفى ذلك نظر ، بل الخلاف فى ذلك كثير حكاه الرازى فى تفسيره وغيره »(١) .

وفى قوله تعالى « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » يقول : قوله ولا تسأل عن أصحاب الجحيم « قراءة أكثرهم » ولا تسأل بضم التاء على الخبر وفى قراءة أبى بن كعب « وما تسأل » وفى قراءة ابن مسعود « ولن تسأل » نقلها ابن جرير أى لا نسألك عن كفر من كفر بك كقوله « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب »(٢) وكقوله تعالى « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر (٣) » الآية . وكقوله تعالى « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »(٤) . وأشباه ذلك من الآيات ، وقرأ آخرون « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » بفتح التاء على النهى أى لا تسأل عن حالهم كما قال عبد الرزاق : أخبرنا الثورى عن موسى بن عبيدة عن محمد ابن كعب القرظى قال قال رسول الله ﷺ « ليت شعرى ما فعل أبواى ، ليت شعرى ما فعل أبواى ، ليت شعرى ما فعل أبواى ؟ » . فنزلت « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » فما ذكرهما حتى توفاه الله عز وجل ، ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن وكيع عن موسى بن عبيدة — وقد تكلموا فيه — عن محمد بن كعب بمثله ، وقد حكاه القرطبي عن ابن عباس ومحمد بن كعب . قال القرطبي ، وهذا كما يقال : لا تسأل عن فلان ، أى قد بلغ فوق ما تحسب . وقد ذكرنا فى «التذكرة» أن الله أحيا له أبويه حتى آمنا به وأجبنا

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٩ آية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) آية ٤٠ من سورة الرعد .

(٣) آية ٢١ من سورة الغاشية .

(٤) آية ٤٥ من سورة ق .

من قوله « إن أبى وأباك فى النار » وعلق ابن كثير بقوله قلت : « والحديث المروى فى حديث أبيه عليه السلام ليس فى شىء من الكتب الستة ولا غيرها وإسناده ضعيف والله أعلم[١] » . وفى هذا القدر كفاية ، وأحب أن أقول : إن الطبعة الأخيرة لتفسير ابن كثير والتى يقوم بتحقيقها الأساتذة عبد العزيز غنيم ، محمد أحمد عاشور ، محمد إبراهيم البنا . لم تثبت فى بعض النصوص السابقة أقوال القرطبى التى نقلها ابن كثير عنه ، ويعلل ذلك الأساتذة المحققون فيقولون « وقد كان مستمدنا الأول فى إخراج هذه الطبعة الجديدة على المخطوطة رقم ١٦٨ تفسير والمحفوظة بمكتبة الجامع الأزهر . وتمتاز هذه المخطوطة بأنها أقدم النسخ التى نعلمها لهذا الكتاب . فقد فرغ ناسخها وهو : محمد ابن على الصوفى . من كتابتها فى العاشر من جمادى الأول سنة ٨٢٥ هجرية أى بعد وفاة ابن كثير بخمسين سنة . كما تمتاز بأنها أصح وأدق ما رأيناه من النسخ وسوف يبدو — إن شاء الله — مدى صحتها بمقارنة هذه الطبعة بما سبقها من طبعات . وامتياز ثالث . وهى أنها تمثل النسخة الأولى للمؤلف . وأما ما عداها مما طبع من قبل فيمثل مرحلة متأخرة أضاف فيها ابن كثير زيادات أغلبها من الزمخشرى والقرطبى والفخر الرازى . ثم ينفى المحققون توهم أن ابن كثير لم يعتمد فى تصنيفه الأول على هذه التفاسير فيقولون : ولا يعنى هذا أن ابن كثير لم يكن قد اعتمد فى تصنيفه الأول على هذه التفاسير فسوف يبدو للدارس أنه قد رجع إلى بعضها[٢] » . وإنى أقول إن من هذا البعض ظهر لى « تفسير القرطبى » .

---

(١) تفسير ابن كثير ح ١ ص ٦٢ آية ١١٩ من سورة البقرة وانظر تفسير القرطبى ح ٢ ص ٩٢ والتذكرة بالقرطبى ح ١ ص ١٤ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ح ٢ ص ٧ كتاب الشعب .

كذلك من أشهر المفسرين الذين تأثروا بالقرطبي :

الشوكاني : وهو القاضي العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة ١٣٥٠ هـ . فلقد أفاد الشوكاني من القرطبي ونقل عنه ، ومن الأمثلة التي توضح ذلك : قوله تعالى في سورة الفاتحة « الرحمن الرحيم » فقد قال الشوكاني في كتابه « فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير » قال القرطبي : « وصف نفسه تعالى بعد « رب العالمين » بأنه « الرحمن الرحيم » لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب . ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه فيكون أعون على طاعته وأمنع كما قال « نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم[١] . وقال « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب »[٢] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد . ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد »[٣] انتهى[٤] وفي قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب » يقول الشوكاني : « قال القرطبي « اختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا فقالت فرقة : الغيب في هذه الآية هو الله سبحانه ، وضعفه ابن العربي . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهتدي إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها »[٥] .

---

(١) آية ٤٩ ، ٥٠ من سورة الحجر .
(٢) آية ٣ من سورة غافر .
(٣) رواه الشيخان والترمذي انظر التاج ج ٥ ص ١٦٥ .
(٤) فتح القدير ج ١ ص ١١ .
(٥) فتح القدير ج ١ ص ٢٣ .

وفى قوله تعالى . . « فإن لم تكونوا دخلتم بهن » يقول الشوكانى :
واختلف أهل العلم فى معنى الدخول الموجب لتحريم الربائب . فروى عن ابن عباس أنه قال : الدخول هو الجماع وهو قول طاوس وعمرو بن دينار وغيرهم . وقال مالك والثورى وأبو حنيفة والأوزاعى والليث والزيدية : أن الزوج إذا لمس الأم بشهوة حرمت عليه ابنتها ، وهو أحد قولى الشافعى . قال ابن جرير الطبرى . وفى إجماع الجميع أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها ، وقبل النظر إلى فرجها بشهوة . ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع . انتهى . وهكذا حكى الإجماع القرطبي فقال : وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حلّ له نكاح ابنتها . واختلفوا فى النظر ، فقال مالك : إذا نظر إلى شعرها أو صدرها أو شىء من محاسنها للذة حرمت عليه أمها وابنتها . وقال الكوفيون : إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة اللمس للشهوة وكذا قال الثورى ولم يذكر الشهوة . وقال ابن أبى ليلى لا تحرم بالنظر حتى يلمس . وهو قول الشافعى . والذى ينبغى التعويل عليه فى مثل هذا الخلاف هو النظر فى معنى الدخول شرعاً أو لغة فإن كان خاصاً بالجماع فلا وجه لإلحاق غيره به من لمس أو نظر أو غيرهما . وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث يصدق على ما حصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك »[1] .

وفى كثير من الآيات ألمح تشابهاً كبيراً بين تفسير الشوكانى وتفسير القرطبي فأحس بمدى تأثر الشوكانى بالقرطبي . ومن الأمثلة على ذلك : قوله تعالى « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه

---

(١) فتح القدير ج١ ص٤٠٩ وما بعدها .

فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده » فقد قال الشوكاني : والاغتراف الأخذ من الشيء باليدأو بآلة ، والغَرْف مثل الاغتراف والغرفة للمرة الواحدة ، وقد قرىء بفتح الغين وضمها . فالفتح للمرة ، والضم اسم الشيء المغترف . وقيل بالفتح : الغرف بالكف الواحدة وبالضم الغرفة بالكفين . وقيل : هما لغتان بمعنى واحد ومنه قول الشاعر :

لا يدلفون إلى ماء بآنية إلا اغترافا من الغدران بالراح(١)

وهذه عبارة القرطبي . يقول القرطبي : قوله تعالى « إلا من اغترف غرفة بيده » ، الاغتراف الأخذمن الشيء باليد وبآلة . ومنه المغرفة ، والغرف مثل الاغتراف وقرىء « غرفة » بفتح الغين وهي مصدر ، ولم يقل اغترافة . لأن معنى الغرف والاغتراف واحد . والغرفة للمرة الواحدة . وقرىء «غرفة» بضم الغين وهي الشيء المغترف . وقال بعض المفسرين : الغرفة بالكف الواحد ، والغُرفة بالكفين وقال بعضهم « كلاهما لغتان بمعنى واحد » وقال علي رضي الله عنه : الأكف أنظف الآنية . ومنه قول الحسن :

لا يدلفون إلى ماء بآنية إلا اغترافا من الغدران بالراح

الدليف : المشي الرويد(٢) .

وفي قوله تعالى « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه » الآية يقول الشوكاني : والحَسُّ : الاستئصال بالقتل ، قاله أبو عبيد . يقال جراد محسوس ، إذا قتله البرد وسَنَة حسوس . أي جَدْبة تأكل كل شيء . قيل :

---

(١) فتح القدير ج١ ص ٢٣٧ .

(٢) تفسير القرطبي ج٣ ص٢٥٣ .

وأصله من الحِسّ الذى هو الإدراك بالحاسة . فمعنى حَسَّهُ : اذهب حِسه بالقتل ، وتَحُسُّونهم تقتلونهم وتستأصلونهم . قال الشاعر :

حسسناهم بالسيف حسا فأصبحت   بقيتهم قد شردوا وتبددوا

ثم يقول الشوكانى « بإذنه » أى بعمله وقضائه « حتى إذا فشلتم » أى جبنتم وضعفتم . قيل جواب حتى محذوف تقديره : امتحنتم وقال الفراء : جواب حتى قوله « وتنازعتم » والواو مقحمة زائدة كقوله « فلما أسلما وتله للجبين [١] » . وقال أبو على : يجوز أن يكون الجواب « صرفكم عنهم » . وقيل : فيه تقديم وتأخير أى حتى إذا تنازعتم وعصيتم فشلتم . وقيل : إن الجواب « عصيتم » والواو مقحمة ، وقد جوز الأخفش مثله فى قوله تعالى « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم » [٢] وقيل : بمعنى إلى وحينئذ لا جواب لها . والتنازع المذكور هو ما وقع من الرماة حين قال بعضهم : نلحق الغنائم وقال بعضهم : نثبت فى مكاننا كما أمرنا رسول الله ﷺ [٣] . ولقد نقل الشوكانى ما ذكره فى هذه الآية عن القرطبى .

---

(١) سورة الصافات آية ١٠٣ .

(٢) سورة التوبة آية ١١٨

(٣) فتح القدير ج ١ ص ٣٥٦ ، وانظر تفسير القرطبى ج٤ ص ٢٣٥ وما بعدها

الباب الثالث

مدى تأثر القرطبي بابن عطية

ومناقشة ما أثير حول هذه القضية

مدى تأثر القرطبي بابن عطية

وهو القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية صاحب كتاب
« الوجيز في التفسير »

لقد أفاد القرطبي من ابن عطية وتأثر به ونقل عنه في مجالات كثيرة .. فنقل عنه في مجال التفسير المأثور . ومن الأمثلة على ذلك :

قوله تعالى « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » الآية . يقول القرطبي في المسألة التاسعة : واختلف أهل التأويل في تعيين هذه الشجرة التي نهى عنها فأكل منها فقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وجعدة بن هبيرة : هي الكرم . ولذلك حرمت علينا الخمر . وقال ابن عباس أيضاً وأبو مالك وقتادة : هي السنبلة ، والحبة منها ككلى البقر أحلى من العسل وألين من الزبد ، قاله وهب بن منبه . ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه . وقال ابن جريج عن بعض الصحابة : هي شجرة التين . وكذا روى سعيد عن قتادة ولذلك تعبر في الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها ، قاله السهيلي قال ابن عطية : وليس في شيء من هذا التعيين ما يعضده خبر وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها[1] .

وفي قوله تعالى « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى »

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٠٥ آية ٣٥ من سورة البقرة .

الآية يقول القرطبي فى المسألة السابعة : قوله تعالى « ويلعنهم اللاعنون » قال قتادة والربيع : المراد « باللاعنون » الملائكة والمؤمنون . وقال ابن عطية : وهذا واضح جار على مقتضى الكلام . وقال مجاهد وعكرمة : هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجدب بذنوب علماء السوء الكاتمين ، فيلعنونهم . قال الزجاج : والصواب قول من قال « اللاعنون » الملائكة والمؤمنون فأما أن يكون ذلك لدواب الأرض فلا يوقف على حقيقته إلا بنص أو خبر لازم ولم نجد من ذلك شيئاً(١) .

وفى قوله تعالى : أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » الآية . يقول فى المسألة الخامسة : قوله تعالى « وابتغوا ما كتب الله لكم » قال ابن عباس ومجاهد والحكم بن عيينة وعكرمة والحسن والسدى والربيع والضحاك : معناه وابتغوا الولد . يدل عليه أنه عقيب قوله « فالآن باشروهن » وقال ابن عباس ما كتب الله لنا هو القرآن . الزجاج : أى ابتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه وأمرتم به . وروى عن ابن عباس ومعاذ بن جبل : أن المعنى وابتغوا ليلة القدر . وقيل المعنى : اطلبوا الرخصة والتوسعة ، قاله قتادة . قال ابن عطية وهو قول حسن(٢) .

وأفاد القرطبي من ابن عطية فى مجال القراءات . ومن الأمثلة على ذلك :

قوله تعالى : « فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » . فقد قال القرطبي :

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٨٦ آية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٨ آية ١٨٧ من سورة البقرة .

هذه الآية حض من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب . وحسن القضاء على المؤدَّى ، وهل ذلك على الوجوب أو الندب . فقراءة الرفع تدل على الوجوب لأن المعنى فعليه اتباع بالمعروف . قال النحاس : « فمن عفى له » شرط والجواب « فاتباع » وهو رفع بالابتداء والتقدير فعليه اتباع بالمعروف، ويجوز فى غير القرآن « فاتباعا وأداء » بجعلهما مصدرين . قال ابن عطية : « فاتباعا » بالنصب ، والرفع سبيل الواجبات كقوله تعالى « فامساك بمعروف »(١) وأما المندوب إليه فيأتى منصوبا كقوله « فضرب(٢) الرقاب(٣) » .

وفى قوله تعالى « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة » يقول القرطبي : قرأ أبو على « وعدنا » بغير ألف واختاره أبو عبيدة ورجحه ، وأنكر « واعدنا » لأن المواعدة إنما تكون من البشر فأما الله عز وجل فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هذا وجدنا القرآن كقوله عز وجل « وعدكم وعد الحق (٤) » وقوله « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم »(٥) . . . قال النحاس : وقراءة « واعدنا بالألف أجود وأحسن وهى قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائى . وليس قوله عز وجل « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات »(٦) من هذا فى شىء . لأن واعدنا موسى إنما هو من باب الموافاة وليس هذا من الوعد والوعيد فى شىء ، وإنما

---

(١) آية ٢١٩ من سورة البقرة .
(٢) آية ٤ من سورة القتال .
(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٥٥ .
(٤) آية ٢٢ من سورة إبراهيم .
(٥) آية ٧ من سورة الأنفال .
(٦) آيه ٥٥ من سورة النور .

هو من قولك : موعدك يوم الجمعة وموعدك موضع كذا ، والفصيح فى هذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : « واعدنا » هاهنا بالألف جيد. لأن الطاعة فى القبول بمنزلة المواعدة فمن الله جل وعز وعـــد ، ومن موسى قبول واتباع يجرى مجرى المواعدة . ثم قال القرطبي قال ابن عطية : ورجح أبو عبيدة « وعدنا » وليس بصحيح . لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة(١) .

كذلك أفاد القرطبي من ابن عطية فى مجال اللغة والنحو . ومن الأمثلة على ذلك : قوله تعالى « كان الله على كل شيء مقيتا » فقد قال القرطبي « مقيتا » معناه مقتدر . ومنه قول الزبير بن عبد المطلب :

وذى ضِغنٍ كففت النفس عنه وكنت على مساءته مُقيتا

أى قديرا . فالمعنى أن الله تعالى يعطى كلّ إنسان قوته ومنه قوله عليه السلام « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقيت » على من رواه هكذا أى من هو تحت قدرته وفى قبضته من عيال وغيره . ذكره ابن عطية . يقول منه : قُتُّه أ قُوته قَوْتا وأَقَتُّه أُقِيته إقاتة فأنا قائت ومقيت(٢) .

وفى قوله تعالى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير » الآية . يقول القرطبي فى المسألة الخامسة .

قوله تعالى « وصد عن سبيل الله » ابتداء « وكفر به » عطف على

---

(١) تفسير القرطبي ج١ ص٣٩٤ آية ٥١ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج٥ ص٢٩٦ آية ٨٥ من سورة النساء .

« صد » و « المسجد الحرام » عطف على سبيل الله « وإخراج أهله منه » عطف على « صد » وخبر الابتداء « أكبر عند الله » أى أعظم إثماً من القتال فى الشهر الحرام قاله المبرد وغيره . وهو الصحيح ، لطول منع الناس عن الكعبة أن يطاف بها « وكفر به » أى بالله . وقيل : « وكفر به » أى بالحج والمسجد الحرام « وإخراج أهله منه أكبر » أى أعظم عقوبة عند الله من القتال فى الشهر الحرام . وقال الفراء : « صد » عطف على « كبير » « والمسجد » عطف على الهاء فى « به » فيكون الكلام نسقاً متصلا غير منقطع . قال ابن عطية : وذلك خطأ لأن المعنى يسوق إلى أن قوله « وكفر به » أى بالله عطف أيضاً على « كبير » ويجيء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر عند الله . وهذا بين فساده، ومعنى الآية على قول الجمهور : إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال فى الشهر الحرام . وما تفعلون أنتم من الصَّدّ عن سبيل الله لمن أراد الاسلام ومن كُفْركم بالله وإخراجكم أهل المسجد منه كما فعلتم برسول الله ﷺ وأصحابه أكثر جُرْماً عند الله[1] .

كذلك أفاد القرطبي من ابن عطية فى مجال البلاغة . بل إن أغلب نصوص القرطبي فى هذا المجال منقولة عنه كما تقدم[2] .

وأفاد القرطبي من ابن عطية فى مجال الفقه والأحكام . ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء » الآية فقد قال القرطبي فى المسألة الثانية :

---

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٤٥ وما بعدها آية ٢١٧ من سورة البقرة .

(٢) راجع فصل البلاغة فى هذه الرسالة .

قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص فى تزوجها وتنبيه عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت الأمة على أن الكلام معها بما هو رفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز ، وكذلك ما أشبهه وجوّز ماعدا ذلك . ومن أعظمه قرباً إلى التصريح قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس « كونى عند أم شريك ولا تسبقينى بنفسك »[1] ولا يجوز التعريض لخطبة الرجعية إجماعاً لأنها كالزوجة . وأما من كانت فى عدة البينونة ، فالصحيح جواز التعريض لخطبتها والله أعلم .

وروى فى تفسير التعريض ألفاظ كثيرة جماعها يرجع إلى قسمين : الأول أن يذكرها لوليها يقول له لا تسبقنى بها ، والثانى : أن يشير بذلك إليها دون واسطة فيقول لها : إنى أريد التزوج أو إنك لجميلة . إنك لصالحة . إن الله لسائق إليك خيراً . إنى فيك لراغب . ومن يرغب عنك ، إنك لنافقة . وإن حاجتى فى النساء . وإن يقدر الله أمراً يكن . هذا هو تمثيل مالك وابن شهاب. وقال ابن عباس : لا بأس أن يقول لا تسبقينى بنفسك ، ولا بأس أن يهدى إليها ، وأن يقوم بشغلها فى العدة ، إذا كانت من شأنه ، قاله إبراهيم : وجائز أن يمدح نفسه ويذكر مآثره على وجه التعريض بالزواج . وقد فعله أبو جعفر محمد بن على بن حسين . قالت سكينة بنت حنظلة : استأذن على محمد بن على . ولم تنقض عدتى من مهلك زوجى فقال : قد عرفت قرابتى من رسول الله ﷺ وقرابتى من على ، وموضعى فى العرب : قلت : غفر الله لك يا أبا جعفر ، إنك رجل يؤخذ عنك ، تخطبنى فى عدتى . قال : إنما أخبرتك بقرابتى من رسول الله ﷺ ومن على . وقد دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة وهى متأيمة من

(١) الحديث أخرجه أبو داود الطيالسى فى كتاب العدة عن أبى بكر بن أبى الجهم.

أبي سلمة فقال « لقد علمت أني رسول الله وخيرته وموضعي في قومي . . » كانت تلك خطبة . أخرجه الدارقطني .

والهدية إلى المعتدة جائزة ، وهي من التعريض : قال سحنون وكثير من العلماء وقاله ابراهيم . وكره مجاهد أن يقول لها لا تسبقيني بنفسك ورآه من المواعدة سراً . قال القاضي أبو محمد بن عطية : وهذا عندي على أن يتأول قول النبي ﷺ لفاطمة ، إنه على جهة الرأي لها فيمن يتزوجها، لا أنه أرادها لنفسه ، وإلا فهو خلاف لقول النبي صلى الله عليه وسلم[١] .

وكان القرطبي ينقل عن ابن عطية ولا يشير إليه . ومن أمثلة ذلك . قوله تعالى « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » فقد قال القرطبي : «واختلف الناس في تعيين هذا العهد فقيل : هو الذي أخـــذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من مَعْصِيَته في كتبه على ألسنة رسله ونقضهم « ذلك ترك العمل به » وقيل : بل نَصْبُ الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد . ونقضهم ، ترك النظر في ذلك . وقيل : هو ما عهده إلى من أوتي الكتاب أن يبينوا نبوة محمد ﷺ ولا يكتموا أمره .

ثم قال القرطبي : قلت : وظاهر ماقيل وما بعد يدل على أنها في الكفار[٢]

ويقول ابن عطية في نفس الآية :

---

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٨٨ آية ٢٣٥ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ح ١ ص ٢٤٦ آية ٢٧ من سورة البقرة .

واختلف في تعيين هذا العهد فقال بعض المتأولين : هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهر أبيهم آدم كالذر . وقال آخرون : بل هذا العهد هو الذي أخذه الله على عباده بواسطة رسله أن يوحدوه وألا يعبدوا غيره . وقال آخرون : بل هذا العهد هو الذي أخذه الله على أتباع الرسل والكتب المنزلة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وألا يكتموا أمره . قال القاضي عبد الحق رضي الله عنه . فالآية على هذا في أهل الكتاب . وظاهر ما قبل وما بعد أنه في جميع الكفار(١) .

وفي قوله تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » يقول القرطبي في المسألة الثامنة :

« وقرأ حمزة والكسائي « كثير » بالثاء المثلثة وحجتهما أن النبي صلى الله عليه وسلم » لعن الخمر ولعن معها عشرة : بائعها ومبتاعها والمشتراة له وعاصرها والمعصورة له وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة له وآكل ثمنها »(٢). وأيضاً فجمع المنافع يحسن معه جمع الآثام ، وكثير — بالثاء المثلثة — يعطي ذلك . وقرأ باقي القراء وجمهور الناس « كبير » بالباء الموحدة . وحجتهم : أن الذنب في القمار وشرب الخمر من الكبائر . فوصفه بالكبير أليق : وأيضاً فاتفاقهم على « أكبر » حجة لكبير بالباء الموحدة وأجمعوا على رفض أكثر — بالثاء المثلثة — إلا في مصحف عبد الله بن مسعود فإن فيه « قل فيهما إثم كبير » وإثمهما أكثر « بالثاء مثلثة في الحرفين(٣) » .

---

(١) تفسير ابن عطية ح ١ ص ٤٥ نسخة خطية بمكتبة الأزهر .

(٢) أخرجه الامام أحمد عن ابن عمر باختلاف يسير ح ٨ص ٩٠ وأخرجه أيضا عن ابن عمر بلفظ . لعنت الخمر على عشرة وجوه . لعنت الخمر بعينها ، وشاربها الخ ح٧ص١٦ .

(٣) تفسير القرطبي ح ٣ ص ٦٠ آية ٢١٩ من سورة البقرة .

ويقول ابن عطية : وقرأ حمزة والكسائي : « كثير » بالثاء المثلثة — وحجتهما أن النبي عليه السلام « لعن الخمر ولعن معها عشرة : بائعها ومبتاعها والمشتراة له وعاصرها والمعصورة له وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة له وآكل ثمنها » . فهذه آثام كثيرة ، وأيضاً فجمع المنافع يحسن معه جمع الآثام . وكثير — بالثاء المثلثة — يعطى ذلك ، وقرأ باقي القراء وجمهور الناس « كبير » بالباء بواحدة . وحجتهم أن الذنب في القمار وشرب الخمر من الكبائر . فوصفه بالكبير أليق . وأيضاً فاتفاقهم على « أكبر » حجة لكبير بالباء بواحدة ، وأجمعوا على رفض « أكثر » — بالثاء المثلثة — إلا في مصحف ابن مسعود فإن فيه قل فيهما إثم كثير وإثمهما أكثر « بالثاء مثلثة في الحرفين »[1] .

وكان القرطبي ينقل أيضاً عن ابن عطية بعض آرائه الخاصة وينسبها إلى نفسه ، والمثال الأول يكشف هذه الحقيقة ، وفي قوله « إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا » الآية يقول القرطبي : « ويشترون به » أي بالمكتوم « ثمناً قليلا » يعني أخذ الرشا وسماه قليلا . لانقطاع مدته وسوء عاقبته وقيل : لأن ما كانوا يأخذونه من الرشاء كان قليلا وعقب القرطبي بقوله : قلت : وهذه الآية وإن كانت في الأحبار فإنها تتناول من علماء المسلمين من كتم الحق مختاراً كذلك ، بسبب دنيا يصيبها[2] .

وهذه عبارة ابن عطية في نفس الآية يقول ابن عطية : « والثمن القليل :

---

(١) تفسير ابن عطية نقلا عن رسالة منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ص ٢٤٩ للدكتور عبدالوهاب فايد .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٤ آية ١٧٤ من سورة البقرة .

الدنيا والمكاسب . ووصف بالقلة لانقضائه ونفاده — قال الفقيه أبو محمد : وهذه الآية وإن كانت نزلت فى الأحبار فإنها تتناول من علماء المسلمين من كتم الحق مختاراً كذلك بسبب دنيا يصيبها(١) .

ولقد ناقش القرطبي ابن عطية وتعقبه فى أحيان كثيرة . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » الآية فقد قال القرطبي : قوله تعالى « ونقدس لك » أى نعظمك ونمجدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون . وقال الضحاك وغيره : المعنى نطهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك . وقال قوم منهم قتادة : « نقدس لك » معناه نصلى ، والتقديس الصلاة . قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، وتعقب القرطبي ابن عطية فقال « : قلت : بل معناه صحيح ، فإن الصلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح ، وكان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » (٢) روته عائشة أخرجه مسلم ، وبناء قدس كيفما تصرف فإن معناه التطهير ، ومنه قوله تعالى « ادخلوا الأرض المقدسة »(٣) أى المطهرة . وقال « الملك القدوس(٤) » يعنى الطاهر ومثله « بالواد المقدس طوى »(٥) وبيت المقدس سمى به . لأنه المكان الذى يتقدس فيه من الذنوب أى يتطهر . ومنه قيل للسطل : قدس لأنه يتوضأ فيه

---

(١) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن ص ٢٥١ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الصلاة باب ما يقال فى الركوع والسجود ح٢ ص ١٣١

(٣) آية ٢١ من سورة المائدة .

(٤) آية ٢٤ من سورة الحشر .

(٥) آية ١٢ من سورة طه .

ويتطهر . ثم قال القرطبى : فالصلاة طهرة للعبد من الذنوب ، والمصلى يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال والله أعلم »(١) .

وفى قوله تعالى « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً » الآية ، يقول فى المسألة التاسعة : قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » قال ابن عطية : وزكاتهم هى التى كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يتقبل ، ولا تنزل على ما لا يتقبل ، ولم تكن كزكاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم » وتعقب القرطبى هذا القول فقال : قلت : وهذا يحتاج إلى نقل كما ثبت ذلك فى الغنائم ، وقد روى ابن عباس أنه قال : الزكاة التى أمروا بها طاعة الله والإخلاص(٢) .

وفى قوله تعالى « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » . يقول القرطبى : المعنى أى من الشاكين والخطاب للنبى ﷺ والمراد أمته . يقال : امترى فلان فى كذا إذا اعترضه اليقين مرة والشك أخرى فدافع إحداهما بالأخرى . ومنه المراء لأن كل واحد منهما يشك فى قول صاحبه ، والامتراء فى الشىء : الشك فيه وكذا التمارى ، وأنشد الطبرى شاهدا على أن الممترين الشاكون قول الأعشى :

تُدِر على أسْوق الممترين ركضاً إذا ما السراب ارجحن

قال ابن عطية : ووهم فى هذا لأن أبا عبيدة وغيره قال : الممترون هم الذين يمرون الخيل بأرجلهم همزاً لتجرى كأنهم يحتلبون الجَرى منها ، وليس فى

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٧٧ آية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبى ج ٢ ص ١٧ آية ٨٣ من سورة البقرة .

البيت معنى الشك كما قال الطبرى . ولم يرتض القرطبي قول ابن عطية : فقال: « قلت : معنى الشك فيه موجود لأنه يحتمل أن يختبر الفرس صاحبُه هل هو على ما عهد منه من الجرى أم لا لئلا يكون أصابه شيء أو يكون هذا عند أول شرائه فيجريه ليعلم مقدار جريه . قال الجوهرى ومريت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجرى بسوط أو غيره ، والاسم المِرية بالكسر ، وقد تضم ومريت الناقة مَرْياً إذا مسحت ضِرعها لتَدِر وأمرت هى إذا در لبنها والاسم المرية بالكسر والضم غلط . والمرية الشك وقد تضم وقرىء بهما (١) .

وفى قوله تعالى « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » بين القرطبي أن قول الله « وتزودوا » أمر باتخاذ الزاد . ثم قال . . . وقال بعض الناس « وتزودوا الرفيق الصالح » وقال ابن عطية : وهذا تخصيص ضعيف . والأولى فى معنى الآية : وتزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة . ولم يرتض القرطبي هذا الرأى فقال : « قلت : القول الأول أصح فإن المراد : الزاد المتخذ فى سفر الحج المأكول حقيقة كما ذكرنا . وكما روى البخارى عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحُجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون . فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » وهذا نص فيما ذكرناه وعليه أكثر المفسرين » . وأخذ القرطبي يسرد من الأدلة ما يتفق مع ما ذكره ابن عطية(٢) .

وإلى جانب تأثر القرطبي بابن عطية فى هذه المجالات كلها ، فإننا نرى

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٦٣ آية ١٤٧ من سورة البقرة وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤١١ آية ١٦٧ من سورة البقرة .

القرطبي يتوسع فيذكر أكثر مما ذكره ابن عطية فى كثير من المجالات ، فى مجال القراءات وفى مجال اللغة والنحو ، وفى توجيه التفسير المأثور . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى « ومما رزقناهم ينفقون » فقد قال ابن عطيه : « قال ابن عباس : ينفقون. يؤتون الزكاة احتسابا لها . قال غيره: الآية فى النفقة فى الجهاد . وقال الضحاك : هى نفقات كانوا يتقربون بها إلى الله تعالى على قدر يسرهم . قال ابن مسعود وابن عباس أيضاً : هى نفقة الرجل على أهله . قال أبو محمد والآيه تعم الجميع »(١) .

ويقول القرطبي : « واختلف العلماء فى المراد بالنفقة ها هنا . فقيل : الزكاة المفروضة . روى عن ابن عباس : لمقارنتها الصلاة وقيل : نفقة الرجل على أهله . روى عن ابن مسعود لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « دينار أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك »(٢) وروى عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله »(٣) قال أبو قلابة . وبدأ بالعيال . ثم قال أبو قلابة : وأى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صدقة التطوع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتى إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة ، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة ، احتملت الفرض والتطوع . . وقيل

(١) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الأزهر آية ٣ من سورة البقرة .
(٢) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة ج ٧ ص٨٢ .
(٣) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة ج٧ ص٨١ .
(٤) تفسير القرطبى ج١ ص ١٧٩ .

إنه الحقوق الواجبة العارضة فى الأموال ما عدا الزكاة ، لأن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضا . ولما عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل : هو عام وهو الصحيح لأنه خرج مخرج المدح فى الإنفاق مما رزقوا وذلك لا يكون إلا من الحلال أى يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة وغيرها مما يَعِنُّ فى بعض الأحوال مع ما ندَبهم إليه .

فالقرطبي وإن لم يخرج عما قاله ابن عطية ، إلا أنه كان أكثر منه توجيها لهذه الآراء . وأحب أن أقول فى هذا المكان : إن العلماء والمؤرخين إذا كانو قد عدوا تفسير ابن عطية من جملة ما كُتب فى التفسير المأثور . فإن القرطبي كان يطيل فى هـذا اللون من التفسير ولم يكن يوجز فيه ، ولقد لاحظت أنه كان يطيل فى توجيه الآراء المأثورة أكثر من ابن عطية . وقد تقدم ما يشهد لذلك .

وفى قوله تعالى « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام » الآية تظهر أيضاً هذه الحقيقة . فقد قال ابن عطية :

« واختلف الناس فى سبب نزول هذه الآية . فقيل : إن كفار قريش قالوا اليهود : إنا نسقى الحجيج ونعمر البيت أفنحن أفضل أم محمد ودينه ؟ فقالت لهم أحبار اليهود : بل أنتم . فنزلت الآية فى ذلك . وقيل : إن الكفار افتخروا بهذه الأشياء فنزلت الآية فى ذلك . وأسند الطبرى إلى النعمان بن بشير أنه قال : كنت عند منبر النبي ﷺ فى نفر من أصحابه فقال أحدهم : ما أبالى بعد الاسلام إلا أن أكون ساقى الحاج . وقال الآخر : إلا أن أكون خادم البيت وعامره . وقال الثالث : إلا أن أكون مجاهداً فى سبيل الله ، فسمعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : اسكتوا حتى أدخل على النبي

ﷺ فاستفتيه . فدخل عليه فاستفتاه . فنزلت الآية فى ذلك . وقال ابن عباس والضحاك : إن المسلمين عيروا أسرى بدر . فقال العباس : بل نحن سقاة الحاج وعمار البيت فنزلت الآية فى ذلك . وقال مجاهد : أمروا بالهجرة فقال العباس : أنا أسقى الحاج وقال عثمان بن طلحة : أنا حاجب الكعبة فلا أهاجر : فنزلت « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام » إلى قوله « حتى يأتى الله بأمره » وذكر ابن عطية غير هـذا من الآراء التى لا تخرج عن مضمون ما تقدم [1] .

أما القرطبى فإنه بعد أن ذكر بعض سبب نزول الآية . قال : ويقال إن المشركين سألوا اليهود وقالوا : نحن سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام . فنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ . فقالت لهم اليهود عنادا لرسول الله ﷺ : أنتم أفضل . وقد اعترض هنا إشكال وهو ما جاء فى تصحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال . كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل ما أبالى ألا أعمل بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالى ألا أعمل بعد الاسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ — وهو يوم الجمعة — ولكن إذا صليت الجمعة دخلت واستفتيته فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله عز وجل « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر [1] » إلى آخر الآية . وهذا المساق يقتضى أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين فى الأفضل من هذه الأعمال . وحينئذ لا يليق أن يقال لهم

---

(١) تفسير ابن عطية ج ٥ ص ٨١ نسخة خطية بدار الكتب .

(٢) الحديث أخرجه مسلم « باب فضل الشهادة فى سبيل الله » ج ١٣ ص ٢٥ ، ٢٦ .

فى آخر الآية « والله لا يهدى القوم الظالمين » فتعين الإشكال ، وإزالته بأن يقال : إن بعض الرواة تسامح فى قوله ، فأنزل الله الآية . وإنما قرأ النبى ﷺ الآية على عمر حين سأله . فظن الراوى أنها نزلت حينئذ . واستدل بها النبى ﷺ ، على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر فاستفتى لهم ، فتلا عليه ما قد كان أنزل عليه لا أنها نزلت فى هؤلاء والله أعلم .

فإن قيل معنى هذا أنه يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل فى الكافرين . ومعلوم أن أحكامهم مختلفة . قيل له : لا يستبعد أن ينتزع مما أنزل الله فى المشركين أحكام تليق بالمسلمين . وقد قال عمر : إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق[1] وشواء ، وتوضع صحفة وترفع أخرى ولكننا سمعنا قول الله تعالى « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها[2] » . وهذه الآية نص فى الكفار ، ومع ذلك فقد فهم منها عمر الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة . ولم ينكر عليه أحد من الصحابة . فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع . وهذا نفيس وبه يزول الإشكال ويرتفع الإبهام والله أعلم[3] .

وفى قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » يتعرض ابن عطية للقراءات فيقول : وأجمع السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من « الحمد لله » وقال ابن عطية هذا أثناء تأييده لرأى من يقول « إن الحمد يخالف الشكر » ولم

---

(١) سلائق الحملان المشوية ويروى بالصاد .

(٢) سورة الأحقاف .

(٣) تفسير القرطبى ج ٨ ص ٩١ وما بعدها آية ١٩ من سورة التوبة . وانظر قول الله تعالى ، ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله . . الآية . فى تفسير ابن عطية ج ٥ ص ١٢٦ . وتفسير القرطبى ج ص٢٠٨ آية ٧٥ من سورة التوبة .

يتعرض ابن عطية للقراءات التى فى لفظة « الحمد » بأكثر من هذا[1] ولكن القرطبي يطيل فى ذكر ما ورد فى هذه اللفظة من قراءات ويطيل فى توجيهها فيقول « وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من « الحمد لله » وروى عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج « الحمد لله » بنصب الدال وهذا على إضمار فعل . ويقال « الحمد لله » بالرفع . مبتدأ وخبر ، وسبيل الخبر أن يفيد فما الفائدة فى هذا ؟ فالجواب أن سيبويه قال : إذا قال الرجل « الحمد لله » بالرفع ففيه من المعنى مثل ما فى قولك : حمدت الله حمداً . إلا أن الذى يرفع « الحمد » يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله . والذى ينصب « الحمد » يخبر أن الحمد منه وحده لله . وقال غير سيبويه . إنما يتكلم بهذا تعرضاً لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيداً ، فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . ثم قال القرطبي .. : « وروى عن ابن أبى عبلة » الحمد لله بضم الدال واللام على إتباع الثانى للأول ، وليتجانس اللفظ ، وطلب التجانس فى اللفظ كثير نحو : أجودك وهو منحدر من الجبل بضم الدال والجيم قال :

« اضرب الساقين أمك هابل »

بضم النون لأجل ضم الهمزة ، وفى قراءة لأهل مكة « مردفين » بضم الراء إتباعا للميم . وذكر القرطبي أيضا غير هذا من القراءات[2] .

وفى قوله تعالى « ومما رزقناهم ينفقون » يتوسع القرطبي عن ابن عطية فى مجال اللغة ، بل إن ابن عطية لا يكاد يذكر شيئاً . إذ يقول : « قوله ومما رزقناهم ينفقون » كتبت « مما متصلة » وما بمعنى الذى فحقها أن تكون منفصلة

---

(١) تفسير ابن عطية ح ١ نسخة خطية بمكتبة الازهر سورة الفاتحة .

(٢) تفسير القرطبي ح ١ ص ١٣٥ ومابعدها .

لأن الجار والمجرور كشيء واحد ، وأيضا فلما خفيت نون « من » في اللفظ حذفت في الخط . وبعد أن ذكر ابن عطية معنى الرزق عند أهل السنة والمعتزلة انتقل إلى بيان المراد من قوله « ينفقون » عند علماء السلف . وقد تقدم ذكر ذلك في المثال الأول .

أما القرطبي فإنه يقول : قوله تعالى « ومما رزقناهم » الرزق مصدر رزق يرزق رزقا ورزقا . فالرزق بالفتح : المصدر وبالكسر : الاسم . وجمعه أرزاق والرزق العطاء . والرازقية : ثياب كتان بيض . وارتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة . هكذا قال أهل اللغة . وقال ابن السكيت : الرزق بلغة أزد شنوءة : الشكر . وهو قوله عز وجل « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون[١] » أي شكركم التكذيب ويقول : « رزقني أي شكرني » ثم بين القرطبي أن معنى قوله « ينفقون » يخرجون . وقال : « والإنفاق : إخراج المال من اليد ، ومنه نفق البيع أي خرج من يد البائع إلى المشترى . ونفقت الدابة خرجت روحها . ومنه النافقاء لجحر اليربوع الذي يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى ، ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان . أو يخرج الإيمان من قلبه . ونفق السراويل معروفة . وهو مخرج الرجل منها . ونفق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم فنى زادهم . ومنه قوله تعالى « إذاً لأمسكتم[٢] خشية الإنفاق[٣] » ومنه قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » يقول ابن عطية : « والزكاة في هذه الآية هي المفروضة ، بقرينة إجماع الأمة على وجوب الأمر بها . والزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما

---

(١) سورة الواقعة .

(٢) سورة الاسراء .

(٣) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الازهر آية ٤٣ من سورة البقرة .

وزاد، وسمى الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه ، من حيث ينمو بالبركة وبالأجر الذى يثيب الله به المزكى . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال : زكى فلان أى طهر من دنس الجرحة أو الإغفال ، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين . ألا ترى أن النبي ﷺ سمى ما يخرج فى الزكاة أوساخ الناس (١) .

أما القرطبي فإنه يقول فى المسألة الثالثة من المسائل التى عقدها لشرح هذه الآية « الزكاة » مأخوذة من زكا الشىء إذا نما وزاد يقال : زكا الزرع والمال يزكو إذا كثر وزاد ، ورجل زكى : أى زائد الخير ، وسمى الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكى ويقال : زرع زاك بين الزكاة ، وزكأت الناقة بولدها تزكأ به : إذا رمت به من بين رجليها . وزكا الفرد إذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعا قال الشاعر :

كانوا خساً أو زكاً من دون أربعة ... لم يخلقوا وجدود الناس تعتلج

جمع جد ، وهو الحظ والبخت . تعتلج أى ترتفع . اعتلجت الأرض : طال نباتها . خسا : الفرد ، وزكا : الزوج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل ،ومنه : زكى القاضى الشاهد . فكأن من يخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال : زكا فلان أى طهر من دنس الجرحة والإغفال . فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين ، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمى ما يخرج من الزكاة أوساخ الناس ، وقد قال تعالى

---

(١) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الأزهر آية ٤٣ من سورة البقرة .

« خذ[1] من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[2] » .

وفى قوله تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » الآية . يقول ابن عطية « والبر يجمع وجوه الخير والطاعات ، ويقع على كل واحد منها اسم بر . « وتنسون » بمعنى تتركون كما قال الله تعالى « نسوا[3] الله فنسيهم » ثم انتقل ابن عطية إلى بيان المقصود بهذه الآية ثم قال : وقوله « وأنتم تتلون الكتاب » معناه تدرسون وتقرأون . ويحتمل أن يكون المعنى : تتبعون أى فى الاقتداء بها ، « والكتاب » التوراة ، وهى تنهاهم عما هم عليه من هذه الصفة الذميمة ، وقوله « أفلا تعقلون » معناه : أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المردية لكم . والعقل : الإدراك المانع من الخطأ مأخوذ منه عقال البعير لأنه يمنعه من التصرف ، ومنه المعقل أى موضع الامتناع »[4] .

أما القرطبي فيقول فى تفسير قوله تعالى « بالبر » البر هنا الطاعة والعمل الصالح . والبر : الصدق . والبر : ولد الثعلب . والبر سوق الغنم ومنه قولهم: لا يعرف هراً من بر أى لا يعرف دعاء الغنم من سوقها . فهو مشترك .

وقال الشاعر :

لا هم رب إن بكرا دونكا ... يبرك الناس ويفجرونكا

أراد بقوله « يبرك الناس » أى يطيعونك ويقال : إن البر الفؤاد فى قوله :

---

(١) آية ١٠٣ من سورة التوبة .
(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٤٣ .
(٣) آية ٦٧ من سورة التوبة .
(٤) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الازهر آية ٤٤ من سورة البقرة .

أكون مكان البر منه ودونه   وأجمل مالى دونه وأوامره

والبر بضم الباء معروف ، وبفتحها الإجلال والتعظيم ، ومنه ولد بر وبار أى يعظم والديه ويكرمهما . وفى قوله « وتنسون أنفسكم » . ذكر القرطبي كثيراً من المعانى اللغوية لكلمة « النفس » واستشهد بكثير من الأشعار : ثم قال فى قوله « وأنتم تتلون الكتاب » وأصل التلاوة الاتباع . ولذلك استعمل فى القراءة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نسقه يقال تلوته إذا تبعته تلواً . وتلوت القرآن تلاوة وتلوت الرجل تلوا إذا خذلته ، والتلية والتلاوة بضم التاء : البقية . يقال : تليت لى من حق تلاوة وتلية أى بقيت . وأتليت : أبقيت . وتتليت حق إذا تتبعته حتى تستوفيه قال أبو زيد : تلى الرجل إذا كان بآخر رمق . وفى قوله « أفلا تعقلون » يقول القرطبي والعقل : المنع ومنه عقال البعير لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العقل الدية لأنه يمنع ولى المقتول عن قتل الجانى . ومنه اعتقال البطن واللسان . ومنه يقال للحصن : معقل . والعقل : نقيض الجهل . والعقل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تغشى به الهوادج . قال علقمة :

عقلا ورقما تكاد الطير تخطفه   كأنه من دم الأجواف مدموم

المدموم بالدال المهملة : الأحمر وهو المراد هنا . والمدموم الممتلىء شحماً من البعير وغيره . ويقال : هما ضربان من البرود . قال ابن فارس : والعقل من شيات الثياب ما كان نقشه طولا . وما كان نقشه مستديرا فهو الرقم . وقال الزجاج العاقل من عمل بما أوجب الله عليه فمن لم يعمل فهو جاهل [1] .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٦٨ وما بعدها

وفى قوله تعالى « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم » تعرض ابن عطية القراءات فى قوله « كتاب الله عليكم » وبين أن قراءة الجمهور « كتاب الله » على المصدر المؤكد . ثم قال : وقرأ أبو حمزة ومحمد بن السميقع اليمانى : « كتب الله عليكم » على الفعل الماضى المسند إلى اسم الله تعالى[1] ، ولم يذكر ابن عطية ما قيل من أوجه الإعراب فى قوله تعالى « كتاب الله عليكم » أما القرطبي فذكر ما ذكره ابن عطية من القراءات ، وذكر ما قيل من أوجه الإعراب فى قوله تعالى « كتاب الله عليكم » وناقش بعضها . وقد تقدم لنا فى فصل « النحو والإعراب » ما قاله القرطبي فلا داعى لاعادته .

أما فى مجال الفقه فمما لا شك فيه أن القرطبي قد توسع فذكر أضعاف أضعاف ما ذكره ابن عطية فى هذا المجال . والناظر فى الكتابين يدرك من أول وهلة هذه الحقيقة . بل إن تسمية القرطبي لكتابه « بالجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان» يكشف هذه الحقيقة ويوضحها فالقرطبي قد بين بهذه التسمية أنه سيعنى بآى الأحكام وسيطيل فى شرحها . أما ابن عطية فإنه — كما يقول الدكتور « عبد الوهاب فايد » فى رسالة عنه ليس الغرض من تفسيره استنباط الأحكام الفقهية كما هو الشأن فى كتب أحكام القرآن — لهذا نجد ابن عطية لا يسرف فى ذكر الأحكام الفقهية ولا يشغل نفسه بها كثيراً[2] .

---

(١) تفسير ابن عطية ج ٥ ص ١٣٨ نسخة خطيه بدار الكتب آية ٢٤ من سورة النساء .

(٢) منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم ص ١٦١ بتصرف .

وفى مجال الحديث نرى القرطبي يعنى بتخريج الأحاديث التى يذكرها غالباً ، على عكس ابن عطية فإنه فى كثير من الأحيان كان يذكر الأحاديث دون تخريج لها . ومن الأدلة التى توضح هذه الحقيقة ما ذكره ابن عطية فى مسائل البسملة . فقد قال « وروى أن رجلا قال بحضرة النبى ﷺ : تعس الشيطان . فقال رسول الله ﷺ : لاتقل ذلك فإنه يتعاظم عنده ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يصغر حتى يصير أقل من ذباب »[1] .

أما القرطبي فيقول فى المسألة الثانية من مسائل البسملة :

وروى النسائى عن أبى المليح عن ردف رسول الله ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال « إذا عثرت بك الدابة فلاتقل تعس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت . ويقول بقوتى صنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم . فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب »[2] .

وعندما ذكر ابن عطية بعض الأحاديث التى تفيد أن البسملة آية من الفاتحة تعقبها بأن ذلك مردود بالحديث الصحيح الذى يقول الله فيه « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين[3] » .

أما القرطبي فيقول « والأخبار الصحاح التى لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا النمل وحدها . روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال الله عز وجل قسمت الصلاة

---

(١) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الأزهر .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٩١ وما بعدها .

(٣) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الأزهر .

بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد « الحمد لله رب العالمين » قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال العبد « الرحمن الرحيم » قال الله تعالى أثنى على عبدى ، وإذا قال العبد « مالك يوم الدين » قال مجدنى عبدى — وقال مرة فوض إلى عبدى — فإذا قال « إياك نعبد وإياك نستعين » قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل. فإذا قال « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال هـذا لعبدى ولعبدى ما سأل(١) .

والأمثلة على هذا كثيرة ونكتفى بهذا القدر .

كما كان للقرطبي فى نقد الأحاديث وقفات ،وقفة وقد مر بنا ما يؤيد هذه الحقيقة . صحيح أن القرطبي أورد فى تفسيره بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، لكن ذلك كان فى أحيان قليلة لاينقص كثيراً من دقة القرطبي وتفوقه فى هـذا الميدان . ويبدو أن ابن عطية لم تكن له دقة القرطبي فى هذا المجال .

ولقد أيد كل ما ذهبت إليه الدكتور « عبد الوهاب فايد » فى رسالته عن ابن عطية فقد قال وهو يتحدث عن منهجه فى الحديث : « وكان منهج ابن عطية فى ذكر الأحاديث النبوية أنه لا يلتزم دائماً تخريج هذه الأحاديث ونسبتها إلى مصادرها من مصنفات الحديث بل نجده — أحياناً — يُخَرِّج الأحاديث ويذكر رواتها ونجده كذلك — فى كثير من الأحيان — يذكر

---

(١) تفسير القرطبي ج١ ص٩٤ والحديث أخرجه مسلم والنسائى وأبوداود والترمذى انظر التاج ج ٤ ص ٣٦ .

الأحاديث دون تخريج لها ، أو ذكر لرواتها فيقول مثلا : وفى الحديث كذا أو روى عن رسول الله ﷺ أنه قال كذا .

ومن ناحية أخرى لاحظت أن ابن عطية ـ فى مجال الحديث من تفسيره ـ لا يلتزم كذلك ذكر الصحيح من الأحاديث ، بل كان إلى جانب ما أورده فى تفسيره من الأحاديث الصحيحة والكثيرة — يذكر فى بعض الأحيان أحاديث فى غاية الضعف ، ثم أخذ الباحث يذكر بعض الأمثلة على ذلك . وأحب أن أستعرض هذه الأمثلة وأبين موقف القرطبي منها حتى يظهر لنا الفرق بين الموقفين . . يقول الباحث :

فمثلا يذكر ابن عطية عند تفسير قوله تعالى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » هذا الحديث فيقول « روى أبو هريرة — قال سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى على المنبر قال : وقع فى نفس موسى هل ينام الله عز وجل فأرسل الله إليه ملكا ، فأرّقه ثلاثا . فأعطاه قارورتين فى كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما . قال فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى حتى نام نومة اصطفقت يداه فانكسرت القارورتان . قال : ضرب الله له مثلا أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » .

وإذا كان ابن عطية لم يعقب على هذا الحديث بكلمة نقد فإن القرطبي قد تعقبه وبين فساده وبطلانه وقد تقدم لنا ذلك .

ولقد استدل الباحث فى نقده لابن عطية هنا . بما قاله القرطبي فقال :

والحق أن هذا الحديث غير صحيح بل هو ضعيف أو منكر . ومن ثم يقول القرطبي عنه « ولا يصح هذا الحديث ، ضعفه غير واحد منهم البيهقي » .

ولم يخالف القرطبي فى نقده هذا علماء الحديث فقد قال ابن كثير عن هذا الحديث « هذا حديث غريب جداً والأظهر أنه إسرائيلى لا مرفوع والله أعلم » ووصف الحافظ الذهبي فى ميزان الاعتدال هذا الحديث بأنه منكر فقال « أمية بن شبل يمانى له حديث منكر رواه عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبى هريرة مرفوعا قال : وقع فى نفس موسى هل ينام الله »الحديث. ويقول الحافظ ابن حجر عن هذا الحديث « ذكره ابن الجوزى فى الملل المتناهية وقال : يشبه أن يكون عكرمة تلقاه عن كتب أهل الكتاب » ثم يقول الباحث : كما أنه عند تفسير قوله تعالى « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » .

يذكر ابن عطية هذا الحديث فيقول « وروى فى ذلك أن النبى ﷺ خرج من بيته وقد نزلت عليه الآية فوجد مسكينا فقال له : هل أعطاك أحد شيئاً ؟ قال له نعم . أعطانى ذلك الرجل الذى يصلى خاتما من فضة وهو راكع فنظر النبى ﷺ فإذا الرجل الذى أشار إليه هو على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال النبى ﷺ : الله أكبر وتلا الآية على الناس » .

وذكر القرطبى أن الآية نزلت فى على بن أبى طالب رضى الله عنه . ثم بين أن من قال هذا استدل بما ورد أن سائلا سأل فى مسجد رسول الله ﷺ فلم يعطه أحد شيئاً . وكان على فى الصلاة فى الركوع وفى يمينه خاتم فأشار إلى السائل بيده حتى أخذه .

ولم ينتقد القرطبى هذا الحديث وسكت عنه كما سكت عنه ابن عطية .

ولقد تعقب هـذا الحديث كثير من العلماء، فقال ابن تيمية عنه « أنه موضوع باتفاق أهل العلم » وقال ابن كثير : « هذا الحديث رواه ابن مردويه عن ابن عباس من طريق محمد بن السائب الكلبي وهو متروك ثم ذكر ابن كثير كذلك أن ابن مردويه رواه من حديث على ابن طالب نفسه وعمار ابن ياسر وأبى رافع . قال ابن كثير « وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها [1] » .

لـكن القرطبي لم يرفع هـذا الحديث إلى رسول الله ﷺ كما فعل ابن عطية بل أتى به موقوفاً على بعض الصحابة والتابعين .

وبعد أن اتضح أمامنا أن القرطبي تأثر بابن عطية فى مجالات كثيرة . وبعد أن اتضح أمامنا أن القرطبي توسع عن ابن عطية فى كثير من المجالات أيضاً ، بعد هذا نتساءل ما معنى قول ابن خلدون « فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها — أى تفاسير المنقول — وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ووضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى . وتبعه القرطبي فى تلك الطريقة على منهاج واحد فى كتاب آخر مشهور بالمشرق[2] »

نتساءل ماذا تعنى عبارة ابن خلدون ؟ .. قد تفيد عبارة بن خلدون أن القرطبي قد تأثر بابن عطية من حيث المنهج . ولقد استدل بعض الباحثين بكلام « ابن خلدون » على هذا . ثم قال الباحث : أستطيع أن أقول إن القرطبي فى تفسيره

(١) منهج ابن عطيه ص١١٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٢٤٨ .

تأثر تأثراً كبيراً — من حيث المنهج — بتفسير ابن عطية فى أمور كثيرة منها العناية بالمأثور والرأى . . إلا أن القرطبي قد تفوق على ابن عطية فى ناحية هامة ، وهى أنه كانت له جهود موفقة كبيرة فى تخريج الأحاديث النبوية التى أوردها فى تفسيره بخلاف ابن عطية فإنه كانت له جهود قليلة فى هذا الميدان .
وأيضاً يتضح لمن يطالع كتاب « الجامع لأحكام القرآن » أن القرطبي تأثر منهجياً بابن عطية فى أمور أخرى كجمع القراءات وتوجيهها والاكثار من اللغة والنحو والإقلال من القصص الاسرائيلى . وهذا هو القرطبي فى مجال القصص يقول « وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين » وهذا كلام يشبه إلى حد كبير ما يقوله ابن عطية فى مقدمة تفسيره فإنه يقول « لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به »[١] .

وتأثر القرطبي بابن عطية من حيث المنهج مسلَّم به . ولا عيب على القرطبي إذا تخير تفسيراً حسن المنحى . فاعتنى بمثل ما اعتنى صاحبه بالمأثور وأكثر مثل ما أكثر من القراءات واللغة والنحو . وأضرب كما أضرب عن كثير من القصص الاسرائيلى . ونتساءل أيضاً ماذا تعنى عبارة الدكتور « آرثر جفرى » التى يقول فيها « وقد صنف — أى ابن عطية — تفسيره المسمى « الجامع المحرر الصحيح الوجيز فى تفسير القرآن العزيز » فى الأندلس وصدره بمقدمة فى علوم القرآن وكان تفسيره هذا كما هو معلوم ، أصلا لكثير مما اشتهر به القرطبي فى كتابه « الجامع لأحكام القرآن » . الذى طبع فى مصر فى عشرين مجلدا سنة ١٩٣٣ — ١٩٥٠ . ثم استدل بذلك على القيمة العلمية

---

(١) المصدر السابق ص٢٤٦ . منهج ابن عطية ص٢٤٦ .

لتفسير ابن عطية ، وعلى ضرورة نشر مقدمته التي قام بتحقيقها فقال : « هذا نفسه دليل دامغ على الأهمية العظمى لهذا المؤلف وعلى ضرورة نشر رسالته هذه[1] » ماذا تعني هذه العبارة ؟ • إن كان الدكتور « آرثر جفري » يريد أن القرطبي تأثر بابن عطية في مجالات كثيرة فهذا ما نسلمه له ، وإن كان يريد أن القرطبي أخذ ما قاله ابن عطية فجعله أصلا يبني عليه كلامه في أغلب تفسيره ، فهذا ما نقف عنده لنرى مدى صحته .

لقد تقدم لنا أن القرطبي توسع عن ابن عطية في كثير من المجالات . . . وليس معنى هذا أن القرطبي أخذ ما قاله ابن عطية ثم توسع فيه وزاد عليه بل كما رأينا في كثير من النماذج السابقة أن ابن عطية لم يذكر ما قاله القرطبي ولم يتعرض له . وهل معنى هذا أن ما قاله « آرثر جفري » غير صحيح ؟ . . . قد يكون القرطبي أخذ ما قاله ابن عطية في بعض الأحيان فجعله أصلا ثم زاد عليه . . فني قوله تعالى « إياك نعبد » يقول ابن عطية : وقوله تعالى « إياك نعبد » نطق المؤمن به إقرار بالربوبية وتذلل وتحقيق لعبادة الله إذ سائر الناس يعبدون سواه من الأصنام وغير ذلك . وقدم المفعول على الفعل اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم ، ويذكر أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه فقال له الساب إياك أعني . فقال له الآخر : وعنك أعرض . فقدما الأهم . و « نعبد » نقيم الشرع والأوامر مع تذلل واستكانة ، والطريق المذلل يقال له معبد وكذلك البعير . . وتكررت إياك بحسب اختلاف الفعلين فاحتاج كل واحد منهما إلى تأكيد واهتمام[2] .

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن للدكتور « آرثر جفري » ، ص ٤

(٢) تفسير ابن عطية نسخة خطية بمكتبة الازهر سورة الفاتحة .

ويقول القرطبي : «قوله تعالى « إياك نعبد » رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين ، لأن من أول السورة إلى هاهنا ، خبراً عن الله تعالى وثناء عليه كقوله « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » ثم قال « إن هذا كان لكم جزاء » وعكسه « حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم » . « نعبد » معناه نطيع والعبادة الطاعة والتذلل . وطريق معبد إذا كان مذللا للسالكين قاله الهروى . ونطق المكلف به إقرار بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك » .

ثم قال في المسألة الرابعة والعشرين : إن قيل لم قدم المفعول على الفعل؟.. قيل له قدم اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم ، يذكر أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه فقال له الساب : إياك أعني فقال له الآخر : وعنك أعرض ، فقدما الأهم . وأيضاً لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ، فلا يجوز نعبدك ونستعينك ولا نعبد إياك ونستعين إياك ، فيقدم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن . قال العجاج :

إياك أدعو فتقبل ملقى واغفر خطاياى وكثر ورقى

ويروى « وثمر » وأما قول الشاعر :

إليك حتى بلغت إياكا

فشاذ لايقاس عليه ، والورق بكسر الراء من الدراهم وبفتحها المال . وكرر الاسم لئلا يتوهم « إياك نعبد ونستعين غيرك »[١] .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٥ وما بعدها .

وفى قوله تعالى« وأشربوا فى قلوبهم العجل» يقول ابن عطية « التقدير : حب العجل ، والمعنى جعلت قلوبهم تشربه وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكين أمر العجل فى قلوبهم »(١) .

ويقول القرطبي : قوله تعالى « وأشربوا فى قلوبهم العجل » أى حب العجل والمعنى جعلت قلوبهم تشربه وهو تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن أمر العجل فى قلوبهم « وفى الحديث تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء » الحديث خرجه مسلم ، يقال أشرب قلبه حب كذا . قال زهير :

فصحوت عنها بعد حب داخل والحب تشربه فؤادك داء

وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل ، لأن شرب الماء يتغلغل فى الأعضاء حتى يصل إلى باطنها والطعام مجاور لها غير متغلغل فيها ، وقد زاد على هذا المعنى أحد التابعين فقال فى زوجته عثمة وكان عتب عليها فى بعض الأمر فطلقها وكان محبا لها(٢) :

تغلغل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها أطير لو أن إنساناً يطير(٣)

وفى قوله تعالى « بلى من كسب سيئة » يقول ابن عطية « وبلى رد بعد

---

(١) تفسير ابن عطية ج١ نسخة مصورة ص١٢٧ آية ٩٤ من سورة البقرة .
(٢) الحديث أخرجه مسلم عن حذيفة ج٢ ص١٧١ .
(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١ وما بعدها .

النفى بمنزلة نعم بعد الإيجاب » وقال الكوفيون أصله : بل الق للاضراب عن الأول ، وزيدت عليها الياء ليحسن الوقف عليها وضمنت الياء . معنى الإيجاب والإنعام بما يأتى بعدها ..

وقال سيبويه : هى حرف مثل بل وغيره . وهى فى هذه الآية رد لقول بنى إسرائيل « لن تمسنا النار » فرد الله تعالى عليهم وبين الخلود فى النار والجنة بحسب الكفر والإيمان »(١) .

ويقول القرطبي : قوله تعالى « بلى » أى ليس الأمر كما ذكرتم . قال سيبويه: ليس « بلى » و « نعم » اسمين ، وإنما هما حرفان مثل بل وغيره . وهى رد لقولهم : لن تمسنا النار . وقال الكوفيون : أصلها . بل الق للاضراب عن الأول زيدت عليها الياء ليحسن الوقف، وضمنت الياء معنى الايجاب والأنعام. فبل تدل على رد الجحد والياء تدل على الإيجاب لما بعد قالوا : ولو قال قائل : ألم تأخذ دينارا ؟ فقلت : نعم لكان المعنى لا ، لم آخذ ، لانك حققت النفى وما بعده فإذا قلت : بلى ، صار المعنى قد أخذت . قال الفراء : إذا قال الرجل لصاحبه : مالك على شيء فقال الآخر : نعم كان ذلك تصديقاً ، لأن لا شيء له عليه ، ولو قال « بلى » كان رداً لقوله وتقديره : بلى لى عليك . وفى التنزيل « ألست بربكم قالوا بلى(١) » ولو قالوا نعم لكفروا (٢) .

وفى كثير من الأحيان بل وفى أغلبها كانت تظهر شخصية القرطبى قوية

---

(١) تفسير ابن عطية نسخة مصورة بدار الكتب ص١١٣ آية ٨٢ من سورة البقرة .

(١) آية ١٧٢ من سورة الاعراف .

(٢) تفسير القرطبي ج٢ ص ١١ .

مستقلة وقد تقدم لنا فى أول الفصل ما يؤيد ذلك . ونسوق هنا بعض الشواهد الأخرى التى توضح هذه الحقيقة ·

فى قوله تعالى « إياك نعبد » ذكر القرطبي كثيراً من القراءات وناقش بعضها ولم يذكرها ابن عطية ، بل لم يتعرض للقراءات فى قوله « إياك » أصلا(١) .

وفى قوله تعالى « إنما نحن مصلحون » يقول ابن عطية :

« ونحن اسم من ضمائر المرفوع مبنيا على الضم إذ كان اسما قويا يقع للواحد المعظم والاثنين والجماعة ، فأعطى أسنى الحركات وأيضاً فلما كان فى الأغلب ضمير جماعة وضمير الجماعة فى الأسماء الظاهرة الواو أعطى الضمة إذ هى أخت الواو (٢) .

ويقول القرطبي : قوله « نحن » أصل « نحن » نحن قلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء قاله هشام بن معاوية النحوى . وقال الزجاج « نحن لجماعة » ومن علامة الجماعة الواو . والضمة من جنس الواو . فلما اضطروا إلى حركة « نحن » لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة قال : لهذا ضموا واو الجماعة فى قوله عز وجل « أولئك الذين اشتروا الضلالة » وقال محمد بن يزيد : « نحن » مثل قبل وبعد لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر . فأنا للواحد . « ونحن » للتثنية والجمع . وقد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن قمنا . قال الله تعالى « نحن قسمنا بينهم معيشتهم(٣) »

---

(١) تفسير القرطبي ج١ ص ١٤٦ وقد تقدم ذلك فى فصل القراءات .
(٢) تفسير ابن عطية نسخة مصورة بدار الكتب ص ٢٥ .
(٣) آية ٣٢ من سورة الزخرف .

« والمؤنث في هـذا إذا كانت متـكلمة بمنزلة المذكر . تقول المرأة : قمت وذهبت وقمنا وذهبنا . وأنا فعلت ذلك ونحن فعلنا » هذا كلام العرب فاعلم (١) » .

فإذا كان الدكتور « آرثر جفرى » يريد بعبارته أن تفسير ابن عطية كان أصلا لأغلب تفسير القرطبي ففي هذه العبارة شيء من المبالغة .

على أن شخصية القرطبي تظهر قوية في أنه كان — أحيانا — يمزج أقوال المفسرين ويعرضها في صورة متماسكة لاخلل فيها ولا اضطراب . ففي قوله تعالى « يابني إسرائيل » يقول القرطبي « قوله تعالى « يابني إسرائيل » نداء مضاف علامة النصب فيه الياء وحذفت منه النون ، للاضافة . الواحد : ابن والأصل فيه بنى . وقيل : بنو : فمن قال المحذوف منه واو . احتج بقولهم البنوة وهذا لا حجة فيه لأنهم قالوا : الفتوة . وأصله الياء . وقال الزجاج : المحذوف منه عندي ياء كأنه من بنيت . الأخفش : أختار أن يكون المحذوف منه الواو لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال : ابن بين البنوة . والتصغير بنى » قال الفراء يقال: يابنى ويابنى لغتان مثل يا أبتَ ويا أبتِ وقرىء بهما . وهو مشتق من البناء وهو وضع الشيء على الشيء والابن فرع الأب وهو موضوع عليه(٢) .

وهذا النص قد نقله القرطبي عن النحاس والمهدوى .

يقول النحاس في إعراب القرآن :

« يابني » نداء مضاف علامة النصب فيه الياء . وحذفت منه النون للاضافة .

---

(١) تفسير القرطبي ج١ ص٢٠٣ .

(٢) إعراب القرآن ورقة ٦ .

الواحد : ابن والأصل منه بنى وقيل فيه : بنو ولو لم يحذف منه لقيل بناء، كما يقال عصا . فمن قال المحذوف منه واو احتج بقولهم البنوة وهذا لاحجة فيه، لأنهم قد قالوا : الفتوة، قال أبو جعفر : سمعت أبا إسحاق يقول : المحذوف منه عندى ياء . كأنه من بنيت [1] .

ويقول المهدوى : فى نفس الآية : « الابن مشتق من البناء وهو وضع الشىء على الشىء فالابن فرع الأب وهو موضوع عليه . وأصل ابن قيل : بنى وقيل : بَنَو : وقيل : بَنَيٌ . وقيل : بَنْو . واختيار الأخفش أن يكون المحذوف منه الواو لأن حذفها أكثر لثقلها [2] .

فلم لايقال إن القرطبى قد مزج أقوال ابن عطية — فى بعض الأحيان — بأقوال غيره من المفسرين . بدل أن يقال : القرطبى قد أخذ تفسير ابن عطية وارتكز عليه وجعله أصلا لأغلب تفسيره أو أكثره . فالقرطبى قد مزج قول ابن عطية فى قوله تعالى « وأشربوا فى قلوبهم العجل » يقول الماوردى [3] . وفى قوله تعالى « بلى من كسب سيئة » مزج ماقاله ابن عطية بما قاله النحاس . فى إعراب القرآن [4] .

وعلى كل ففى عبارة الدكتور « آرثر جفرى » مبالغة إن كان يريد بها ما ذكرنا . فإن كان يريد أن القرطبى تأثر بابن عطية فهذا ما نسلمه له .

---

(١) أعراب القرآن ورقة ٦ .

(٢) التحصيل ورقة ٥ نسخة خطية بدار الكتب رقم ٨٧ .

(٣) انظر تفسير الماوردى ورقة ١٣ .

(٤) انظر أعراب القرآن ورقة ٩ .

ويعجبني ما قاله أستاذنا الشيخ « محمد حسين الذهبي » فقد ختم حديثه عن القرطبي بقوله « وعلى الجملة فان القرطبي رحمه الله في تفسيره هـذا حر في بحثه ، نزيه في نقده ، عف في مناقشته وجدله . ملم بالتفسير من جميع نواحيه . بارع في كل فن استطرد إليه وتـكلم فيه (١) .

(١) التفسير والمفسرون ج ٢ ص ١٣٠ .

الخاتمــــة

لقد صاحبت « أبا عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرج القرطبى » أكثر من أربع سنوات حاولت خلالها أن أتعرف على حياته ، وعلى نشأته ، والبيئة التى أحاطت به . كما حاولت فى هذه المدة أن أكشف عن منهجه فى التفسير من خلال كتابه الكبير « الجامع لأحكام القرآن » وكان من نتيجة هذه المصاحبة وهذه الدراسة الطويلة كتابة هذا البحث المتواضع الذى جاء فى ثلاثة أبواب . . . . . . ولقد كان الباب الأول دراسة تاريخية للقرطبى ، وبيئته التى أحاطت به — ورغم أن المراجع التاريخية أهملت حياة القرطبى الأولى وأسرته التى عاش فيها ، كذلك أهملت هذه المراجع ، حياة القرطبى فى شبابه وموقفه من أحداث عصره ، وحياته عندما قدم إلى مصر واستقر بالصعيد . رغم كل هذا — فإننى حاولت أن أقدم للقارىء شيئاً عن حياة هذا الشيخ الجليل ، وعن أبيه — وعن نشأته الأولى ، وعن قدومه إلى مصر . وهـذا الشىء وإن لم يكن كثيراً فإنه قد يكشف بعض الغموض الذى أحاط بالقرطبى .

وعندما تحدثت عن أخلاقه وثقافته ، توصلت إلى أن زهد القرطبى الذى أجمع المؤرخون عليه لم يكن زهدا فى حلال الله ، وإنما كان بمعنى أنه لم يجعل الدنيا هدفاً له وغاية ، وناقشت ما يتصل بذلك من بعض القضايا .

أما التلمذة على القرطبى ، فهى سجل مطوى لم أستطع أن أفض غلافه . حتى التلميذ الوحيد الذى ذكره المؤرخون وهو « شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن فرح » لم أستطع أن أجزم هل هو « شهاب الدين أبو العباس أحمد

ابن فرح الأشبيلى » الذى ترجم له كثير من المؤرخين أم لا . ولكننى أثرت احتمالا مؤيدا ببعض القرائن قلت على ضوئها : قد يكون « ابن فرح » الذى ذكره المؤرخون تلميذاً للقرطبي ووالداً له هو « ابن فرح الاشبيلى المحدث » ولقد حاولت أن أكشف عن عدد مؤلفات القرطبي ، وأن أحدد أماكن وجودها فتوصلت إلى أغلب ذلك . ولما تناولت عقيدة القرطبي وبينت أنها كانت سنية أشعرية ناقشت بعض المؤرخين والباحثين الذين يزعمون أن الأندلس ، كانت قبل ظهور « ابن تومرت » سنية سلفية .

أما الباب الثانى : فقد كان دراسة لمصادر القرطبي ، وبيان منهجه الذى سار عليه فى تفسيره ، وابراز القيمة العلمية لهـذا التفسير ومن تأثر به من المفسرين . ولقد كانت مصادر القرطبي كثيرة ولكننى حاولت أن أبرز مدى تأثر القرطبي بأهم هذه المصادر . ولقد اقتضى ذلك منى أن أفتش طويلا فى بطون المخطوطات للمقارنة والمراجعة وأن أبحث عن كل مصدر أشار إليه لأعرف هل هو مطبوع أو مخطوط أو عدت عليه يد الزمن فافتقده الباحثون والدارسون . وخرجت من هذه الدراسة ، بأن القرطبي كانت له شخصية مستقلة ينتقد بها ما لا يرتضيه ، ويقر ما يراه الحق والصواب . غير أنى قد أخذت على القرطبي — إذا جاز لمثلى أن ينتقد مثله — أنه ينقل أحياناً عن العلماء ويأخذ أقوالهم التى قالوها من قبل أن يعرف القرطبي نفسه ، ولا يشير إلى ذلك ، وأنه لم يوف بما شرطه على نفسه فى مقدمة كتابه حيث قال « وشرطى فى هذا الكتاب إضافة القول إلى قائله . . . فإنه يقال من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله » .

أما عن منهجه : فإننى قد بينت موقف القرطبي من قضية التفسير المأثور والتفسير بالرأى وأنه سلك مسلكا محمودا حيث دعا إلى التفسير بالرأى ولم

يهمل التفسير المأثور بل بين أنه الأساس الذى يرتكز عليه المفسر . ثم بينت أنه التزم منهجا موفقا فى التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ . أما عن موقفه من التفسير المأثور عن الصحابة فبينت أنه كان لا ينتقل إليه بعد التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ ، بل كان يجمع بين أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم من المفسرين ، ويقارن بين هذه الأقوال جميعاً ويختار منها ما تؤيده الأدلة والقرائن . ثم ناقشت ما يمكن أن يوجه إلى القرطبى من نقد حول هذا المسلك . وعندما تناولت موقف القرطبى من القراءات الشاذة والمتواترة ، بينت أن القرطبى قد استخدم القراءات الشاذة فى كثير من الأغراض وأنه قد انتقد مسلك من يرد القراءات المتواترة ، لأنها لا توافق قواعد النحويين وآراءهم ، ولقد أجاد القرطبى فى دفاعه ووفى هذا النقد حقه .

وفى مجال اللغة بينت أن القرطبى استخدم كثيراً من المباحث اللغوية فى توضيح الآيات ، وكان من هذه المباحث : الاشتقاق ، والاشتراك والاطلاق والتقييد . وأنه قد احتكم إلى اللغة فى كثير من المجالات ، فاحتكم إليها فى مهاجمته للمعتزلة ، وفى مناصرته لبعض المذاهب الفقهية ، ولترجيح بعض القراءات . كما اتجه فى تفسيره إلى النحو ، فذكر مذاهب النحويين وآراءهم ، وحاول من خلال ذلك أن يكشف المعنى وأن يوضحه . ولقد توصلت إلى أنه قد رد بعض المذاهب والآراء النحوية ؛ لضعفها أو لإخلالها بالمعنى . وأنه استشهد بالشعر فى كثير من الأغراض ورغم هذا لم ينزل فى استشهاده إلى طبقة الشعراء المحدثين اللهم إلا فى مواضع قليلة . ثم بينت أن مسلك القرطبى فى ذلك مسلك لا ينتقد فيه ولا يلام عليه ، كذلك توصلت إلى موقف القرطبى من الشعر المصنوع والمجهول الذى لا يعرف قائله وبينت أن موقفه لا يختلف مع ما قاله علماء اللغة والنحو ، ولقد تبين لى أن القرطبى يجيز

الاستشهاد بالحديث فى مجال الغريب والنحو وإن كان الحديث مرويا بالمعنى .

وعندما تناولت البلاغة فى تفسير القرطبى . بينت أنه كان لا يتوسع فى الأسرار البلاغية ، لأن الأندلسيين لم يهتموا بهذه الدراسة ـ ورغم أن القرطبى قد انتقل إلى مصر ، وكانت مصر كغيرها من بلاد المشرق موطناً خصيباً لدراسة البلاغة ـ إلا أن القرطبى لم تستهوه هذه الدراسة ، بل ظل على طبيعته الأندلسية لا يميل إليها ولا يهتم بها .

أما منهج القرطبى فى التفسير الرمزى الذى استعملته الباطنية ، فقد كان يرفضه لأنه لا يوافق الشرع ولا اللغة . أما التفسير الرمزى الذى استعملته الصوفية فقد كان يقبله أحياناً ويرفضه أحياناً أخرى . كان يقبله إذا لم يتناقض مع الشرع واللغة . وكان يرفضه إذا تناقض معهما . ومن أشهر مصادره من التفسير الصوفى : تفسير القرآن العظيم لأبى محمد سهل بن عبد الله التسترى . حقائق التفسير لأبى عبد الرحمن السلمى .

ولقد توسع القرطبى فى الأحكام الفقهية وذكر كثيراً من الخلافات المذهبية . وبعد أن استعرضت منهجه فى ذلك ، توصلت إلى أنه كان لا يتعصب لمذهبه المالكى ، وأنه كان عف اللسان فى مناقشاته ، وأنه كثيراً ما رد هجوم ابن العربى وتطاوله على العلماء . ولقد تعرض القرطبى لأصول الفقه فى تفسيره ، فذكر كثيراً من أدلته وقواعده وبين أثناء عرضه للاحكام كيف تبنى الفروع عليها . ومن هذه الأدلة والقواعد : النص والظاهر ، العام والخاص ، تخصيص عام القرآن بالسنة المشهورة والمتواترة ، تخصيص عام القرآن بخبر الآحاد ، تخصيص عام القرآن بالعرف والعادة ، فتوى الصحابى ، الاستحسان والمصلحة ، سد الذرائع . ورغم أن القرطبى أكثر من ذكر

قواعد الأصول وأدلته ، إلا أنه لم يتوسع فيها توسع الأصوليين ، بل عرض لها في صورة تساعد على فهم الأحكام وتبين طريقة استنباطها :

ولقد ذكر القرطبي في تفسيره كثيراً من الأحاديث ، وكان يضيفها غالباً إلى من خرجها من المحدثين ، ولم يكن القرطبي حاطب ليل يجمع الأحاديث ويذكرها في تفسيره فقط ، بل كان ينتقدها نقداً علمياً فيذكر ما قاله أئمة الجرح والتعديل فيها من جهة سندها أو من جهة متنها . غير أني أخذت عليه أنه كان — رغم وقفاته الموفقة التي تشهد بطول باعه في علم الحديث رواية ودراية — يورد بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ويسكت عنها ولا يعقب عليها . كما كان يورد بعض الإسرائيليات والأخبار الخرافية التي لا يقبلها عقل ، ولا يليق بمثله أن يوردها في تفسيره . ولقد كان لتفسير القرطبي أثر فيمن جاء بعده من المفسرين الذين تأثروا بالقرطبي «ابن كثير ، والشوكاني» ولقد بينت ذلك وبينت القيمة العلمية لتفسيره .

وفي الباب الثالث : توصلت إلى أن القرطبي تأثر بابن عطية في كثير من المجالات ولكنه توسع عنه أيضاً في هذه المجالات التي تأثر فيها بابن عطية . ولقد اقتضى ذلك أن أقوم بمقارنة بين التفسيرين ، وأن أقول في النهاية: إن عبارة ابن خلدون التي يقول فيها « فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلخص تلك التفاسير كلها — يعني تفاسير المنقول — وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنحى ، وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر بالمشرق » وعبارة الدكتور آرثر جفري التي يقول فيها « وقد صنف — أي ابن عطية —

تفسيره المسمى « الجامع المحرر الصحيح الوجيز فى تفسير القرآن العزيز » فى الأندلس ، وصدره بمقدمة فى علوم القرآن . وكان تفسيره هذا كما هو معلوم ، أصلا لكثير ممن اشتهر به القرطبي فى كتابه « الجامع لأحكام القرآن » إن هاتين العبارتين لا يفهم منهما ، إلا أن القرطبي تأثر بابن عطية ، أما أن القرطبي نقل تفسير ابن عطية أو توسع فى أصوله التى نقلها عنه ولم يأت بأكثر من ذلك . فهذا مردود من أساسه .

وأخيراً فهذه رسالتى عن « القرطبي ومنهجه فى التفسير » أرجو من الله تبارك وتعالى أن تنال القبول وأن ينفع بها ، إنه سميع الدعاء . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف النبيين والمرسلين .

المراجع والمصادر

(١) القرآن الكريم .

(٢) ابن حزم : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .

(٣) ابن تيمية : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .

(٤) ابن تيمية : الدكتور محمد يوسف موسى — سلسلة أعلام العرب .

(٥) أبو حنيفة : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .

(٦) أبو علي الفارسي حياته ومكانته بين أئمة العربية وآثاره في النحو والقراءات : الدكتور عبد الفتاح شلبي — مطبعة نهضة مصر بالفجالة .

(٧) الاتقان في علوم القرآن : السيوطي — مطبعة الحلبي .

(٨) أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية : الدكتور عبد العال سالم طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٩) أحكام القرآن : ابن العربي تحقيق الأستاذ محمد البجاوي طبع عيسى الحلبي .

(١٠) الاحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب — تحقيق الأستاذ محمد عبدالله عنان — دار المعارف .

(١١) الأدب الأندلسي : الدكتور أحمد هيكل — دار المعارف .

(١٢) الادب في العصر الايوبي : الدكتور محمد زغلول سلام — دار المعارف .

(١٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة : ابن الأثير — جمعية المعارف سنة ١٢٨٦ .

(١٤) الاسرائيليات فى التفسير والحديث : الشيخ محمد حسين الذهبي . مجمع البحوث الإسلامية .

(١٥) الاستقصا فى أخبار دول المغرب الاقصى : أحمد بن خالد السلاوى — طبع المصرية .

(١٦) الإسلام والحضارة العربية : الأستاذ محمد كرد على — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(١٧) أصول الفقه : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربى .

(١٨) أصول الفقه : الشيخ محمد الخضرى — المكتبة التجارية الكبرى .

(١٩) أصول السرخسى : بتحقيق الأستاذ أبو الوفا الافغانى .

(٢٠) إعجاز القرآن : الأستاذ مصطفى صادق الرافعى — طبع الاستقامة .

(٢١) الإعلام : خير الدين الزركلى — طبع الخانجى .

(٢٢) أعلام الإسكندرية : الدكتور جمال الدين الشيال — دار المعارف .

(٢٣) الانصاف فى مسائل الخلاف : الكمال بن الانبارى — تحقيق الأستاذ محمد محى الدين عبد الحميد — طبع السعادة .

(٢٤) الانتصار بواسطة عقد الامصار : ابن دقاق — طبع بولاق .

(٢٥) الالماع : القاضى عياض اليحصبى تحقيق الأستاذ سيد صقر — دار التراث .

(٢٦) الأم : الإمام الشافعى — طبع الحلبى .

(٢٧) بين الدين والفلسفة : الدكتور محمد يوسف موسى — دار المعارف .

(٢٨) البداية والنهاية : الحافظ ابن كثير — طبع بيروت .

(٢٩) البلاغة والأدب : الشيخ إبراهيم الصباغ — دار التأليف .

(٣٠) التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول : الشيخ منصور على ناصف— طبع عيسى الحلبى .

(٣١) تاج اللغة وصحاح العربية : أبو نصر الجوهرى — طبع سنة ١٢٨٢ هـ .

(٣٢) تاريخ المرابطين والموحدين : المستشرق يوسف أشباخ — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٣٣) تاريخ مصر : ابن إياس — الاميرية .

(٣٤) تاريخ القرآن : الدكتور عبد الصبور شاهين — طبع دار القلم .

(٣٥) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية : الدكتور أحمد شلبى .

(٣٦) تاريخ علماء الأندلس : ابن الفرضى — دار التراث .

(٣٧) تاريخ آداب العرب : الرافعى — طبع سنة ١٩٤٠ م .

(٣٨) تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان ـ دار العلم للملايين ببيروت.

(٣٩) تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة تحقيق الأستاذ سيد صقر ـ طبع الحلبى.

(٤٠) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى : محمد بن عبد الرحمن المباركفورى ـ طبع العلمية بالمدينة المنورة .

(٤١) تدريب الراوى : السيوطى، تحقيق الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف — طبع العلمية بالمدينة المنورة .

تدريب الراوى : السيوطى — طبع الخيرية .

(٤٢) التذكرة فى أحـــوال الموتى وأمور الآخرة — القرطبى : مطابع مدكور وأولاده .

(٤٣) تذكرة الحفاظ : الحافظ شمس الدين محمد الذهبى — طبع الهند .

(٤٤) التذكار فى أفضل الاذكار : القرطبى — طبع الخانجى .

(٤٥) التفسير والمفسرون : الشيخ محمد حسين الذهبى — طبع دار الكتب الحديثة .

(٤٦) تفسير التحرير : العلامة الطاهر بن عاشور .

(٤٧) تفسير القرآن العظيم : الحافظ ابن كثير — طبع عيسى الحلبى .
» » » : » » » » — طبع الشعب

(٤٨) التكملة : ابن الابار القضاعى — طبع مجريط .

(٤٩) التعريب والاشتقاق : الأستاذ عبد القادر بن مصطفى المغربى — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٥٠) جامع البيان فى تفسير القرآن : ابن جرير الطبرى تحقيق الأستاذين محمود شاكر وأحمد شاكر — دار المعارف .

(٥١) الجامع لأحكام القرآن : القرطبى — دار الكتب الحديثة .

(٥٢) الحجة فى علل القراءات السبع : أبو على الفارسى تحقيق الدكتور عبد الحليم النجار وزملائه — نشر دار الكتاب العربى .

(٥٣) حسن المحاضرة : السيوطى — مطبعة إدارة الوطن .

(٥٤) الحركة الفكرية فى مصر فى العهدين الأيوبى والمملوكى : الدكتور عبد اللطيف حمزة .

(٥٥) خزانة الأدب : البغدادى تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون طبع السلفية .

(٥٦) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى : المستشرق آدم متز : تعريب محمد عبد الهادى أبو ريده — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٥٧) الحديث والمحدثون : الشيخ محمد أبو زهرة ـ مطبعة مصر .

(٥٨) الخصائص : ابن جنى ـ دار الكتب .

(٥٩) الخطط التوفيقية : على مبارك ـ الأميرية .

(٦٠) خطط الشام : الاستاذ محمد كرد على ـ المطبعة الحديثة بدمشق .

(٦١) الخطط : المقريزى ـ طبع بولاق .

(٦٢) دائرة المعارف الاسلامية : ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس وزملائه ـ طبع بيروت .

(٦٣) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة : ابن حجر العسقلانى ـ طبع الهند .

(٦٤) الدعوة الموحدية : الدكتور عبد الله علام .

(٦٥) دول الاسلام : الذهبى .

(٦٦) الديباج المذهب : ابن فرحون ـ طبع السعادة .

(٦٧) الروضتين فى أخبار الدولتين : أبو شامة المقدسى ـ وادى النيل .

(٦٨) زهر الربى على مجتبى النسائى : السيوطى .

(٦٩) سنن ابن ماجة بحاشية السندى ـ طبع العثمانية .

(٧٠) سيرة ابن هشام : تحقيق مصطفى السقا وزملائه ـ طبع مصطفى الحلبي .

(٧١) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب : ابن العماد ـ نشر القدسى .

(٧٢) الشعر والشعراء [illegible]ن قتيبة — طبع الخانجى .

(٧٣) شرح تنقيح الـ[illegible] : القرافى .

(٧٤) شجرة النور [illegible] فى طبقات المالكية : العلامة محمد بن محمد بن مخلوف طبع السلفية .

(٧٥) صحيح البخارى بحاشية السندى ـ طبع العثمانية .

(٧٦) صحيح مسلم بشرح النووى ـ طبع محمود توفيق .

(٧٧) صحيح الترمذى بشرح ابن العربى ـ المطبعة المصرية .

(٧٨) الصاحبى فى فقه اللغة : أحمد بن فارس ـ طبع السلفية .

(٧٩) طبقات الشافعية : السبكى — طبع الحسينية .

(٨٠) الطبقات الكبرى : ابن سعد — طبع ليدن .

(٨١) طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين : ابن سلام — نشر المكتبة المحمودية التجارية .

(٨٢) طبقات المفسرين : السيوطى طبع ليدن .

(٨٣) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد : كمال الدين الادفوى — طبع الجمالية .

(٨٤) ظهر الاسلام : الدكتور أ[illegible] ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٨٥) العصر المماليكى فى مصر والـ[illegible] كتور حسن ابراهيم حسن — دار النهضة المصرية .

(٨٦) عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس : الاستاذ محمد عبد الله عنان — لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٨٧) عصر سلاطين المماليك : الدكتور محمد رزق سليم — مكتبة الآداب بالجماميز .

(٨٨) العمدة : ابن رشيق القيروانى — تحقيق الاستاذ محمد محى الدين .

(٨٩) فى الأدب الأندلسى : الدكتور جودت الركابى ـ طبع دار المعارف .

(٩٠) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى : الاستاذ الساعاتى — مطابع الاخوان .

(٩١) فتح القدير : الشوكانى ـ طبع مصطفى الحلبى .

(٩٢) فحولة الشعراء : الاصمعى ـ تحقيق الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجى .

(٩٣) الفخر الرازى ومنهجه فى التفسير : الشيخ على العمارى — طبع المجلس الأعلى .

(٩٤) الفرق بين الفرق : عبد القاهر البغدادى ـ تحقيق الاستاذ محمد محى الدين عبد الحميد ـ طبع مصطفى الحلبى .

(٩٥) فى فلسفة ابن رشد : الدكتور عبد الرحمن بيصار — دار الكتاب العربى .

(٩٦) فقه اللغة — الدكتور على عبد الواحد وافى — لجنة البيان العربى .

(٩٧) فهرسة ابن خير : ابن خير الاشبيلى — طبع سرقسطة .

(٩٨) فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبي — الأميرية .

(٩٩) القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية : الدكتور عبد العال سالم طباعة دار المعارف .

(١٠٠) القراءات القرآنية : الدكتور عبد الصبور شاهين .

(١٠١) قرطبة فى التاريخ الإسلامى : الدكتور جودة هلال ـ المكتبة الثقافية.

(١٠٢) القاموس المحيط : الفيروزابادى — المكتبة التجارية الكبرى .

(١٠٣) الكامل : ابن الأثير .

(١٠٤) الكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف : ابن حجر العسقلانى . مطبوع على هامش الكشاف .

(١٠٥) الكشاف : الزمخشرى — طبع الاستقامة .

(١٠٦) كشف الظنون : حاجى خليفة — طبع أستنبول.

(١٠٧) اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة : السيوطى — طبع التجارية.

(١٠٨) لسان العرب : ابن منظور — طبع الأميرية .

(١٠٩) اللهجات العربية : الدكتور عبده الراجحى — طبع دار المعارف .

(١١٠) منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود : الأستاذ الساعاتى مطابع الأخوان .

(١١١) مجلة الرسالة عدد رقم ٨٥٨ لسنة ١٩٤٩ م .

(١١٢) مجلة المجتمع العلمى العربى — المجلد العشرون سنة ١٩٤٥ م .

(١١٣) مختار الصحاح : الرازى — طبع الأميرية .

(١١٤) مرآة الجنان : اليافعى .

(١١٥) مصر فى عصر الايوبيين : الدكتور السيد الباز العرينى .

(١١٦) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب : المراكشى ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان — طبع المجلس الأعلى .

(١١٧) معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة — طبع الترقى بدمشق .

(١١٨) معجم البلدان : ياقوت الحموى — مطبعة السعادة .

(١١٩) معرفة السنن والآثار : البيهقى تحقيق الأستاذ سيد صقر — طبع المجلس الأعلى .

(١٢٠) المغنى عن حمل الاسفار فى الاسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار الحافظ العراقى . مطبوع على هامش الإحياء للغزالى — طبع الاستقامة .

(١٢١) مفتاح السعادة : طاش كبرى زادة تحقيق كامل بكرى — طبع دار الكتب الحديثة .

(١٢٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب : ابن واصل — تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال — لجنة التراث .

(١٢٣) مقدمة فى أصول التفسير : ابن تيمية — طبع الترقى .

(١٢٤) المقدمة : ابن خلدون — طبع التقدم .

(١٢٥) مقدمتان فى علوم القرآن : الدكتور آرثر جفرى : نشر الخانجى .

(١٢٦) المزهر : السيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل وزملائه — طبع الحلبى .

(١٢٧) المدارس النحوية : الدكتور شوقى ضيف — طبع دار المعارف .

(١٢٨) مالك : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .

(١٢٩) مناهل العرفان : الشيخ عبد العظيم الزرقاني — طبع عيسى الحلبي .

(١٣٠) مقاييس اللغة — ابن فارس — تحقيق عبد السلام هارون — طبع عيسى الحلبي .

(١٣١) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه : الدكتور مصطفى الصادق الجويني — طبع دار المعارف .

(١٣٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال : الذهبي — طبع السعادة .

(١٣٣) نزهة الألباء في طبقات اللغويين والأدباء - أي النحويين - عبد الرحمن ابن محمد الانباري — طبع سنة ١٢٩٤ هـ .

(١٣٤) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : الشيخ محمد الطنطاوي - وادي الملوك .

(١٣٥) نيل الابتهاج بتطريز الديباج : لبابا التنبكتي « وهو مطبوع على هامش الديباج » .

(١٣٦) نشأة الفكر الفلسفي : الدكتور علي سامي النشار — طبع دار المعارف .

(١٣٧) نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن — نشر الوكالة الشرقية للثقافة بالاسكندرية .

(١٣٨) نفح الطيب : المقري — طبع الأزهرية .

(١٣٩) هدية العارفين : البغدادي .

(١٤٠) وفيات الأعيان : ابن خلكان ، تحقيق محمد محي الدين — نشر مكتبة النهضة المصرية .

المخطوطات

(١٤١) منهج ابن عطية المفسر : الدكتور عبد الوهاب فايد : نسخة خطية بمكتبة أصول الدين .

(١٤٢) ابن الجوزى المحدث : الدكتور أبو العلا على أبو العلا : نسخة خطية بمكتبة أصول الدين .

(١٤٣) الاسرائيليات فى كتب التفسير : الدكتور رمزى نعناع : نسخة خطية بمكتبة أصول الدين .

(١٤٤) المحرر الوجيز فى تفسير القرآن العزيز : ابن عطية : نسخة خطية غير كاملة بمكتبة الأزهر رقم ١٦٨ تفسير . ونسخة خطية غير كاملة بدار الكتب برقم ١٠ تفسير .

(١٤٥) أحكام القرآن : لكيا الطبرى — نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم ٩٨ تفسير .

(١٤٦) الاستذكار : ابن عبد البر — نسخة خطيه بدار الكتب رقم ٢٤حديث.

(١٤٧) التمهيد : ابن عبد البر — نسخة خطية بدار الكتب رقم ٣١٥ حديث.

(١٤٨) الأحكام الصغرى : ابن عبد الحق الاشبيلى — نسخة خطية بدار الكتب برقم ١٣١٤ حديث .

(١٤٩) حقائق التفسير : السلمى — نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٥٠ تفسير .

(١٥٠) سير أعلام النبلاء : الذهبى — نسخة مصورة بدار الكتب رقم ١٢١٩٥ تاريخ .

(١٥١) تاريخ الإسلام : الذهبي — نسخة خطية برقم ٤٢ تاريخ .

(١٥٢) إعراب القرآن : النحاس ـ نسخة خطية بدار الكتب رقم ٤٨ تفسير .

(١٥٣) التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل : المهدوي — نسخة خطية بدار الكتب رقم ٧٨ وأخرى برقم ٧٩ تفسير .

(١٥٤) تفسير الماوردي : نسخة خطية رقم ١٩٦٩٣ تفسير .

(١٥٥) طبقات المفسرين : الداودي — نسخة خطية برقم ١٦٨ تاريخ .

(١٥٦) فهرسة شيوخ ابن عطية ـ نسخة مصورة بدار الكتب رقم ٤٦٤٩١ .

مراجع أجنبية

(157) C· Brockeimauu,

Geschichte der arabischen Litteratur, Bd I.III, Leideu 1943 — 1946 und Suppl. I.III, Leideu 1937 — 1942

(158) Encyclopaedis Brittannica vd, 25, Atlas, map No. 47. (Andalusia)

(159) Grand dictionnaire de Geographie universelle ancienne et moderne. Paris, vol. 3.P. 890.

الفهرست

الموضوع	صفحة
مقدمة	١
الباب الأول — القرطبي وبيئته	٥
الفصل الأول — نشأة القرطبي	٦
الفصل الثانى — أخلاقه وثقافته	٣٣
الفصل الثالث — عقيدة القرطبي	٥١
الفصل الرابع — الحركة العلمية فى عصر القرطبي	٦٥
الفصل الخامس — الأصول السياسية فى عصر الموحدين والأيوبيين	١٠٥
الباب الثانى — المصادر التى اعتمد عليها القرطبي	١٢١
الفصل الأول — مصادر القرطبي	١٢٣
الفصل الثانى — موقف القرطبي من التفسير والتفسير بالرأى	١٨٥
الفصل الثالث — منهج القرطبي فى القراءات الشاذةوالمتواترة وموقفه منها	٢١٣
الفصل الرابع — اللغة فى تفسير القرطبي	٢٣٧
الفصل الخامس — البلاغة فى تفسير القرطبي	٢٩٣
الفصل السادس — موقف القرطبي من التفسير الرمزى	٣٠٥

الموضوع	صفحة
الفصل السابع — الأحكام فى تفسير القرطبى	٣١٩
— عدم تعصب القرطبي	٣٤٤
الفصل الثامن — أصول الفقه فى تفسير القرطبي	٣٥٨
— العام والخاص	٣٧٠
الفصل التاسع — موقف القرطبي من الأحاديث التى ذكرها فى تفسيره	٣٩٥
الفصل العاشر — الاسرائيليات فى تفسير القرطبي	٤١٠
الفصل الحادى عشر — القيمة العلمية لتفسير القرطبي	٤١٨
الباب الثالث — مدى تأثر القرطبي بابن عطية	٤٢٧
الخاتمة	٤٦٥
المراجع	٤٧١

ر ١٨ صـ